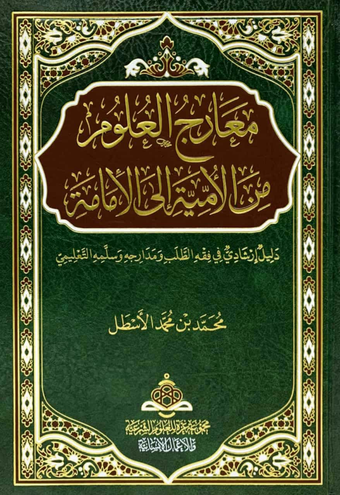
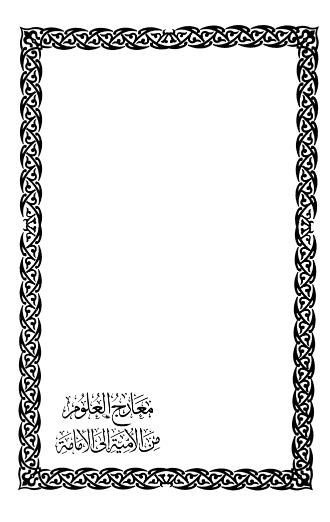
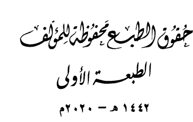
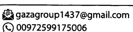

معارج العلوم
من الأمية إلى الإمامة
دليل إرشادي في فقه الطلب ومدارجه وسلمه التعليمي
محمد بن محمد الأسطل
مجموعة غزة للعلوم الشرعية
والأعمال الإنسانية


معارج العلوم
من الأُمية إلى الأَمامة


حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠م


مجموعة غزة للعلوم الشرعية
والأعمال الإنسانية

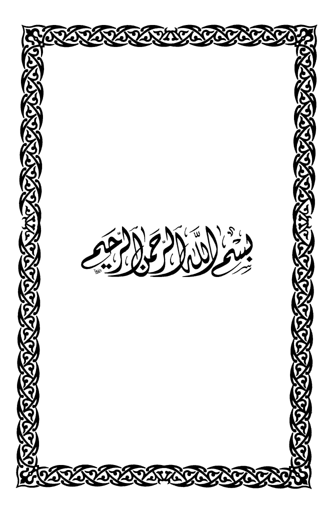

gazagroup1437@gmail.com
00972599175006



دليلٌ إرشاديٌّ في فقهِ الطّلب ومدارجه وسلّمه التّعليمي

محمّد بن محمّد الأسطل




بسم الله الرحمن الرحيم



السِّرَاجُ الوَهَّاج مِنْ مِشْكَاةِ (المِعْرَاج)

«الحمد لله الذي سَهَّل لعباده المتقين إلىٰ مرضاته سبيلًا، وأوضح لهم طُرُق الهداية وجَعل اتباعَ الرَّسول عليها دليلًا، واتخذهم عَبِيدًا له فأقَرُّوا له بالعُبُودِيَّة ولم يتخذوا من دونه وكيلًا، وكَتب في قلوبهم الإيمانَ وأيدهم برُوحٍ منه لَمَّا رَضُوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا، والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفتراتِ من يكون ببيانِ سُنَن المرسلين كفيلًا، واختصّ هذه الأمّة بأنه لا تزال فيها طائفة علىٰ الحقّ لا يضرُّهم مَن خَذَلهم ولا مَن خَالَفَهُم حتّىٰ يأتي أمره ولو اجتمع الثّقلان علىٰ حَرْبِهم قَبِيلًا»[1].

أمّا قَبْلُ:

فَمِن مُفْرِحَاتِ القَلْبِ في هَذِهِ الأيامِ، ومُبْهِجَاتِ الفُؤَادِ في هَذِهِ الأزْمانِ؛ رؤيةُ طَلَبَةِ العِلْمِ «يُعَايِشُونَ يَقَظَةً علميَّةً تَتَهَلَّلُ لها سُبُحَاتُ الوُجُوهِ، ولا تَزَالُ تَنْشَطُ -مُتَقَدِّمَةً إلىٰ التَّرَقِّي والنُّضُوجِ- في أفئدةِ شبابِ الأُمَّةِ مَجْدَها ودَمَها المُجَدِّدِ لِحَيَاتِها، إذ تَرَىٰ الكتائبَ الشَّبَابِيَّةَ تَتْرَىٰ، يَتَقَلَّبُونَ في أعْطَافِ العِلْمِ مُثْقَلِينَ بِحَمْلِهِ يَعُلُّونَ منه ويَنْهَلُونَ، فَلَدَيْهِم مِنَ الطُّمُوحِ، والجامعيَّةِ، والاطلاعِ المُذْهِشِ، والغَوْصِ علىٰ مَكْنُونَاتِ المَسَائِلِ، ما يَفْرَحُ به المسلمُونَ نَصْرًا، فَسُبْحَانَ مَن يُحْيِي وَيُمِيتُ قُلُوبًا»[2]، لكنّ هذه اليقظة بحاجةٍ إلىٰ (تدرج) يَضْبِطُ مَسِيرَ طَالِبِ العِلْمِ في رِحْلَتِهِ العِلْمِيَّةِ، و(سُلَّم منهجيّ) يَرْتَقِي به دَرَجَاتِ العُلُومِ بِكُلِّ سُهُولَةٍ، و(مِعْراج عِلْمِيّ) يَرْقَىٰ به نَحْوَ الرُّسُوخِ بِكُلِّ ثَبَاتٍ واطْمِئْنَانٍ، إذْ قَبْلَ الرِّماءِ تُملأُ الكَنَائِنُ، وقَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمُ، ورَحِمَ الله الذهبيّ لما قال: «كَيْفَ يَطِيرُ وَلَمَّا يَرِيش؟»[3].

علىٰ أنَّ السَّاحَةَ العِلْمِيَّةَ بَقِيَتْ رَدَحًا مِنَ الزَّمَنِ تَتَشَوَّفُ إلىٰ (مِعْرَاجٍ عِلْمِيٍّ مَتِينٍ)، ونُفُوسَ طَلَبَةِ العِلْمِ تَتَشَوَّقُ إلىٰ (سُلَّمِ ارْتِقَاءٍ مَكِينٍ)، وحَامَتِ الآمَالُ حَوْلَ (كِتَابٍ) يَكْفِي طَلَبَةَ العِلْمِ مؤُونَةَ مَنْهَجِيَّةِ تَحْصِيلِهِ، واشْرَأَبَّتِ الأطْمَاعُ إلىٰ (مَتْنٍ) يَرْوِي نَهْمَةَ المتعطِّشِينَ إلىٰ بُلُوغِ مَرَامِهِ، حتّىٰ أكْرَمَنَا

(١) من مقدمة ابن القيم لكتابه (مفتاح دار السعادة) ص (٢).
(٢) (حلية طالب العلم) لبكر أبو زيد -المطبوع ضمن: المجموعة العلمية- ص (١٣٧).
(٣) (سير أعلام النبلاء) للذهبي (١٨/١٩١).

المنّانُ بالاطِّلاعِ علىٰ كتابِ (مَعارِجِ العُلُومِ)؛ فَأَفْرَحَتْ (مَبَاحِثُهُ) القَلْبَ حتّىٰ ثَلِجَت له النَّفْسُ، وسَرَّتْ (فُصُولُهُ) الخاطِرَ حتّىٰ انفَسَحَ له الصَّدْرُ، فَوَرَدْتُ شِرْعَتَه، وتَصَفَّحْتُه تَصَفُّحَ مُتَعَطِّشٍ عَصَبَ الرِّيقُ بِفِيهِ حتّىٰ يَبِس، ومَازِلْتُ أَتَظَمَّأُ حتّىٰ فَرَغْتُ منهُ، واسْتَضَأْتُ بِمِشْكَاتِه، وتَنَسَّمْتُ منهُ عِلْمًا وفَهْمًا.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَد أَجادَ مؤلِّفُ (مَعارِجِ العُلُوم) في جَمْعِ مَادَّتِه، وأَحسَنَ في تَرْتِيبِه وتَبْوِيبِه، فَجاءَ حَسَنَ الدِّيبَاجَة، مُحْكَمَ الوَضْعِ، سَدِيدَ المنهَجِ، مُتَناسِقَ التَّبْوِيبِ، مُطَّرِدَ الفُصُول، مُسْهَبَ الشَّرْحِ، مُشْبَعَ المبَاحِث، سَهْلَ الأُسْلُوبِ، عَذْبَ المَوْرِدِ، مُشْرِقَ الدَّلالَة، نَاصِعَ البَيَانِ، وَاضِحَ التَّعْبِيرِ، قَرِيبَ المَنالِ، دَانِيَ القُطُوفِ، تُدْرَكُ فَوَائِدُه علىٰ غَيْرِ مؤُونةٍ ولا كَدِّ ذِهْنٍ، وتُسْتَقَىٰ عَوَائِدُهُ من غيرِ إعْنَاتِ تَحْلِيلٍ ولا إرْهَاقِ خَاطِرٍ.

وَقَد صَدَّرَ كِتَابَهُ بِـ(مُقَدِّمَةٍ) عِلْمِيَّةٍ أَبَانَ فِيهَا عن أَهَمِّيَّةِ مَا رَقَمَه ورَقَشَهُ في مَطَاوِي هذا (السِّفْرِ المُبَارَكِ)، ووَضَّحَ مَنْزِلَةَ (مَعارِجِ العُلُومِ) في بِنَاءِ طَالِبِ العِلْمِ الرَّاسِخِ، والانْتِقالِ بِهِ مِنَ الأُمِّيَّةِ إِلَىٰ الإمَامَةِ، وثَنَّىٰ بِـ(مَدْخَلٍ) يَحْكِي أَهَمِّيَّةَ العِلْمِ في بِنَاءِ الأُمَّةِ وتَحْقِيقِ رِسَالَةِ الاسْتِخْلافِ، مُشِيرًا إلىٰ أَنَّ مِدَادَ العُلَمَاءِ امْتِدَادٌ لِدِمَاءِ الشُّهَدَاءِ في تَبْلِيغِ دِينِ اللهِ في الأَرْضِ وَنَشْرِ رِسَالَةِ السَّمَاءِ في أَنْحَاءِ المعْمُورَةِ.

ثُمَّ كَسَرَ كِتَابَهُ عَلَىٰ (خمسة فصول) مرتّبة علىٰ النحو التالي:

الفصل الأول: خارطة العلوم ومنهج التلقّي.

الفصل الثاني: فقه القراءة والضبط والحفظ.

الفصل الثالث: الإنتاج العلمي وصناعة المعرفة.

الفصل الرابع: مراقي التزكية ومقوّمات النبوغ وآفات الطريق.

الفصل الخامس: معارج الطلب التفصيلية.

أتىٰ في الفصل الأخير منه علىٰ تفصيل (مَعَارِجِ عُلُومِ الآلَةِ) كعُلُومِ اللُّغة وأصول الفقه وغيرها، ثم (مَعَارِجِ عُلُومِ الغَايَةِ) المقصودة شَرْعًا كعُلُومِ التفسير والحديث والعقيدة والفقه.

ثم أَزَّرَ الكتابَ بـ(خاتِمَةٍ) عنْوَنَها بـ(مَسْرَدِ لَوامِعِ أفكارِ المعارِجِ)، ذكَــر فيها خُلاصاتٍ مهمَّةً لا يَسْتَغْنِي عنها طالِبُ عِلْمٍ أو رَاجِي فَهْمٍ.

ومِمَّا مَازَ (مَعَارِجِ العُلُومِ) أنَّ (مُدَبِّجَهُ) مَتِــينُ اليَراعِ، رَاسِخُ القَدَمِ، فَسِــيحُ الخُطْوَةِ، غَزِيرُ المادَّةِ، وَاسِعُ الاطِّلاعِ، تَوَجَّهَ إِلَىٰ تَحْصِيلِ مَادَّتِهِ، وانقَطَعَ لِتَرْتِيبِهَا وتَبْوِيبِهَا، وأَخْلَىٰ لها ذَرْعَهُ، وقَصَرَ عَلَيْهَا نَفْسَهُ، وَوَقَفَ عَلَيْهَا جُهْدَهُ، وَأَنْفَقَ أَوْقَاتَهُ عَلَىٰ تَحْبِيرِهَا، واسْتَنْزَفَ أَيَّامَهُ فِي تَحْرِيرِهَا، مُوغِلًا فِي البَحْثِ، مُمْعِنًا فِي التَّنْقِيبِ، مُتَقَصِّيًا فِي التَّدْقِيقِ، اسْتَبْطَنَ دَخَائِلَ العِلْمِ حَتَّىٰ اسْتَخْرَجَ دَقَائِقَهُ، واسْتَجْلَىٰ غَوَامِضَهُ حَتَّىٰ مَحَّصَ حَقَائِقَهُ، وخَاضَ عُبَابَهُ حَتَّىٰ جَمَعَ أَشْتَاتَهُ، وغَاصَ عَلَىٰ أَسْرَارِهِ حَتَّىٰ اسْتَقْصَىٰ أَطْرَافَهُ، وأَسْرَىٰ بَيْنَ كُتُبِ الأَسْلافِ تتبعًا وتَنْقِيبًا، وطَافَ حَوْلَ أَرْكَانِ بَيْتِ العِلْمِ العَتِيقِ، لِيَعْرُجَ بِمِعْرَاجِهِ هَذَا نَحْوَ الرُّسُوخِ بِإِذْنِ اللهِ، جَزَاهُ اللهُ عَنَّا وَعَنِ العِلْمِ خَيْرَ الجَزَاءِ وَأَوْفَاهُ.

فَدُونَكَ يَا طَالِبَ العِلْمِ (مِعْرَاجًا) تُعْقَدُ عَلَىٰ مِثْلِهِ الخَنَاصِر، واهْنَأْ يَا رَاجِي الفَهْمِ بـ(سُلَّمٍ) تُضْرَبُ لِمِثْلِهِ أَكْبَادُ الإِبِلِ، وَقَرَّ عَيْنًا بـ(كِتَابٍ) يُرْحَلُ إِلَيْهِ مِن أَطْرَافِ البُلْدَانِ.

ولمكانة المؤلَّفِ العَظِيمة، ومَنْزِلَةِ المؤلِّفِ الجَسِيمَة؛ ارْتَأَتْ (مجموعة غزة للعلوم الشرعية والأعمال الإنسانية) الاضطلاع بِرِعَايَةِ هَذَا السِّفرِ المبارك والعناية به، والنُّهُوض بِأَعْبَاءِ نَشْرِه؛ لتقديمه لطلَّاب العلم النُّجَباء، والاستفادة منه في رِحْلَةِ تحصيلهم العِلْمِيِّ، والانتفاع به من أجل وصولهم نحو الإمامة والرسوخ.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين

وكتبه



أستاذ الحديث المساعد بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الأقصىٰ - غزة
رئيس اللجنة العلمية بمجموعة غزة للعلوم الشرعية والأعمال الإنسانية
الأربعاء ٢٠ صفر الخير ١٤٤٢هـ، الموافق ٠٧/ ١٠/ ٢٠٢٠م

قال ابن الوردي في لاميته:

اطْلُبِ العِلْمَ وَلاَ تَكْسَلْ فَمَا
أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَىٰ أَهْلِ الكَسَلْ

لاَ تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ
كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَىٰ الدَّرْبِ وَصَلْ



الافتتاحية

إنَّ الحمدَ لله نحمدُهُ ونستعينه، من يَهدِهِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فإنَّ من نظرَ إلىٰ الأعدادِ الضخمة لطلبة العلم في الكليات الشرعية والحلقات العلمية في العالم الإسلامي، وقدَّر في ذهنه رقمًا، ثم أرجع البصرَ وتأمَّل عَددَ العلماء الراسخين الذين بلغوا الإمامةَ في الدِّين، فتمكنوا من العلوم الشرعية واللغوية، وما يحتاجون إليه من العلوم الإنسانية، وَعَقَدَ مقارنةً بين العددين.. كاد أن يُصابَ بالذهولِ والأسىٰ بمُجَرَّدِ مُلاحظةِ الفرق الهائل بين الرقمين، حتىٰ إنك قد لا تجد في مقابل كل بضعة آلاف من الطلبة عالمًا راسخًا واحدًا، مما يستحوذ علىٰ الذهن طلبُ معرفةِ سرِّ ذلك.

وعند العودة لأسباب البلوغ ومقومات النبوغ نجد جملةً من العوامل من أهمها: تنزل توفيق الله تعالىٰ علىٰ قلب الطالب، واستعداده النفسي لتلقي مسائل العلم، وحسن التصرف فيه، والهمة العالية، وتوفر الشيوخ، وتهيؤ الظروف المحيطة، واتباع المنهجية التي هي أقومُ في الطَّلَب[1].

وهذا يعني أنَّ الكلامَ في هذه المُقَوِّمَات ليس من نوافل الاهتمامات؛ وإنما هو إصلاحٌ لجزءٍ مهمٍّ في البنيان العلمي؛ ليبقىٰ في الأمة نصابٌ كافٍ للقيام بأمر الله، وتبليغ رسالته، وقد أحسن من قال: إنَّ الكلامَ في منهجيات طلب العلم هو في مرتبة العلم.

وعليه؛ فإنَّ هذا الكتابَ محاولةٌ اجتهاديةٌ للخوضِ في غمار رحلة الاطلاع

---

(١) السبل المرضية ص (٢٠).

علىٰ مدارج الطلب وفقهه، تلقيًا وقراءةً وضبطًا وحفظًا، وصفات الدرس العلمي وعلاج آفاته، مع العناية بالبناء العقلي والخُلُقي والتربوي والإيماني للمتفقه في الدين، بما يأخذ الطالب من مبتدأ أمره حيث الأميةُ وتلقي مبادي العلم، وصولًا إلىٰ تحصيل الرسوخ والإمامة العلمية وإنتاج العلم وصناعة المعرفة بإذن الله، بطرحٍ واقعيٍّ، وإرشادٍ تفصيلي، بعيدًا عن الضبابية في التنظير.

وقد قام لديَّ ما لا أُحْصِي من القرائن أنَّ اللهَ جعل سبيلَ العلم علىٰ هيئةٍ تَطْرُدُ كثيرًا ممن لا يصلح له ولو طلبه العمر كله، ولعل من أسرار ذلك أنَّ أثرَ العَالِم إذا بدَّلَ وغيَّر شديدٌ علىٰ المسلمين، فيحفظ الله عبادَه بعدم اهتداء كثيرٍ من الطلبة لسبيل الإمامة، ولو اهتدوا إليها فهي شاقة العمل، وذلك أنَّ قضية التفقه **ليست قضيةَ معرفةٍ وبيان؛ وإنما قضيةُ توفيقٍ وحرمان**[١]، ومن استطال الطريق ضعف سعيُهُ، وكأنَّ الفقهاء قد التقطوا ذلك فرتبوا مناهج العلم علىٰ طريقةٍ تطرد الدخيل عنه، سواءٌ قصدوا ذلك حقًّا أو لا.

وذلك أنَّ دينَ الله محفوظ، وقد سمعت من شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي كلمةً ما أشدَّها علىٰ القلب إذ قال ما مفاده: «**ما كل صدرٍ يأتمنه الله علىٰ وحيه، وإن الله لن يترك دينه بأرض ذلٍّ وهوان**».

وينبغي أن يُعلم أنَّ موقعَ الخطط العلمية من طلب العلم موقع تكبيرة الإحرام من الصلاة، رتبةً ومدَّةً؛ فإنها ركنٌ لا بد منه، لكنها لا تأخذ من وقت الصلاة أكثر من ١٪، ولهذا ينبغي العنايةُ بمباني الخطط لساعاتٍ فقط، أو لبضعةِ أيَّام علىٰ أبعد حد، ثم تطييب الحياة بمسائل العلم نفسه.

وكثيرٌ من الطلبة يحسن الحديث عن العلم وحَمَلَتِهِ دون مسائل العلم

(١) فقد يكون طالب العلم علىٰ علم ودراية بما يتطلبه الطلب من حفظٍ وتكرارٍ ومذاكرةٍ وطول تأملٍ والتزام بمجالس العلم، واحتكامٍ لمنهج التلقي من ضبط علم الآلة وغير ذلك مما يعلمه، لكنه لا يعمل به.

وأصوله، وهذا وإن شحن العاطفة إلا أنه لا يبني العقل، ومن ابتُلي بهذا رأيته ربما يتقاعس عن الطلب بحجة تنضيج الخطط، وطلب زيادة الهمة بمطالعة أخبار أهل العلم وسيرهم.

علىٰ أنَّ المتفقه متىٰ أنجز المرحلة الأولىٰ والثانية من المعراج العلمي.. فقد انفتحت له حوائجُ كلِّ مرحلةٍ يخوضها؛ إذ إنَّ هذا البابَ قابلٌ للتجدد كلما ارتقىٰ في سُلَّم التحصيل.

وفي هذا الكتابِ إجابةٌ واضحةٌ عن مهمات تفاصيل البرامج، وردمٌ لمظاهر الحيرة والتشتت؛ كالتنقل من خطةٍ إلىٰ أخرىٰ كلما لاحت لطالب العلم فكرةٌ، أو رأىٰ من يثني علىٰ كتابٍ أو خُطَّة، حتىٰ تمضي عليه السنوات دون أن يُحكِمَ علمًا، بل حتىٰ دون أن يحفظ متنًا أو يستظهر شرحًا، وإذا كان ابن خلدون قد عدَّ كثرة الكتب مشغلةً عن التحصيل وقد كان نَسْخُ الكتب يومئذٍ باليد.. فكيف باليوم وآلاف الكتب تُعرض ببهرجةٍ أمام الطالب، مما يحمله علىٰ كثرة التجول من مسارٍ إلىٰ آخر!.

ومن مقاصد الكتاب تبليغُ الطالبِ مرحلةَ المنتهي بأخصر سبيل، من غير قفزٍ أو إخلال، وإيلاجه بحور العلم، والتخصص الموسوعي فيه؛ ليرىٰ أنواره، ويطلع علىٰ الفقه العالي للشريعة، ويعلم أنَّ الرسوخ في العلم والإمامة فيه شيءٌ ممكن.

وقد وقفت علىٰ بعض التجارب العلمية المشهود لها بالخير في هذا الجانب، بالإضافة لما عايشته؛ فاطلعت علىٰ نتفٍ حسنةٍ من المنهجية الشامية واليمنية والحجازية والمصرية والشنقيطية والمغربية، واستفدت من كلِّ مدرسةٍ أحسن ما فيها.

وقبل أن أمسك قلم التوليف تجولت علىٰ طائفةٍ من الكتب التي اعتنت بفقه الطلب ومدارجه، والحقيقة أني وجدت فيها غيثًا منهمرًا من الشواهد والأفكار، إلا أني اقتصرت علىٰ لوامع المهمات من ذلك؛ لئلا يتضخم الكتاب

فيُنسي بعضه بعضًا، ولأنّي أردت أن يكون هذا الكتاب كتابَ تطبيقٍ وعملٍ أكثر من كونه كتابَ تنظيرٍ وقول، وأحيلُ المهتم على عيون تلك الكتب؛ ليتوسع فيها إن أحب أن يُبسط له من العلم في ذلك[1].

وقد أخذت بالحسبان أنَّ الطالبَ قد لا يتوفر له من أهل العلم من يتابعه، أو لا يقدر أن يلتحق بالكليات الشرعية، فأكثرت له من السلاسل الصوتية والمرئية المقترحة في عامة مراحل الطلب، وهذا ليس كافيًا، لكنه يشبه منزلة التيمم عند فقدِ الماء.

أما عن مادة الكتاب؛ فإنها تتكون من مدخلٍ وخمسة فصول، وجعلتها متسلسلةً من جهة الواقع.

فتكلم الفصلُ الأولُ عن خارطة العلوم وأنواعها وأهمية العلوم الإنسانية، وعن منهج التلقي.

وتحدث الثاني عن تحصيل العلم بالقراءة بشتى أنواعها، والكلام عن فقهها، والحفاظ على العلم بالضبط والحفظ، وما يتعلق بذلك من فقهٍ وطرائق وخطوات ونماذج.

وأسفر الثالث عن فقه الإنتاج العلمي تدريسًا وتأليفًا، وعن كيفية صناعة المعرفة واختراعها، وما يتطلبه ذلك من تحصيل الملكة العلمية، ومنح الفصلُ مساحةً للحديث عن فقه حضور مجالس الطالب، وآفات الدرس العلمي

---

(١) انظر مثلًا: **أليس الصبح بقريب** لابن عاشور، **والسبل المرضية لطلب العلوم الشرعية** لأحمد سالم، **وارتياض العلوم** لمشاري الشثري، **ومعالم إرشادية لصناعة طالب العلم** لمحمد عوامة، **ومسلكيات** لإبراهيم السكران، **والإبداع العلمي** لأحمد القرني، **وتكوين الذهنية العلمية** لمحمد الأنصاري، **ومفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية** لفريد الأنصاري، **والطريق إلى النبوغ العلمي** لصالح آل الشيخ، **والقراءة المثمرة** لعبد الكريم بكار، **والقانون** لليوسي، **ومدارج التعليم بين التأصيل واستكمال التكوين** للسعيد صبحي العيسوي، **والمرقاة** للشيخ سليمان العبودي، **وصناعة طالب علم ماهر** لأحمد بن ناصر الطيار.

وعلاجها، ودور المعلم في البناء والتحصيل.

واستعرض الرابع مراقي تزكية النفس ومقومات النبوغ وطائفةً من أبرز الآفات التي تعترض طريق الطلب.

وتناول الخامس المعارج العلمية مفصلة، وقد صدَّرتُها بخطةٍ تمهيديةٍ تصلح للعاميّ والمثقف فيما لو أراد الاقتصار على ذلك؛ ليكون هذا بمثابة المدخل التمهيدي لطالب العلم.

وإني لأحمد الله تعالىٰ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه علىٰ إنجاز هذا الكتاب باستراق التركيز فيه وسط زحمةٍ من الأعمال، ووابلٍ من الأشغال.

وأشكر كل من استفدت منه حرفًا، وأَكِلُ مكافأتهم إلىٰ الله تعالىٰ، راجيًا أن يكرمهم الله بأوفر ما يُكرِمُ به عباده الصالحين.

وأخص بالشكر الوافر والثناء العاطر من راجعوا الشق النظري من الكتاب وأثروه بكريم عباراتهم ولطيف إشاراتهم أصحاب الفضيلة: شيخنا الدكتور يونس بن محيي الدين الأسطل والشيخ أحمد خالد كلاب والشيخ الدكتور عبد الله يوسف أبو عليان والشيخ عماد الداية والشيخ حمزة عبد الكريم الأغا والشيخ محمد طلال خلف.

وكذلك المشايخ الكرماء أهل العلم الذين راجعوا المعارج العلمية التفصيلية كلٌّ بحسب تخصصه، وهم كثرةٌ كاثرة في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، فلا أطول بذكرهم، وأكثرهم من الشام ومصر واليمن والحجاز والأردن وشنقيط، حفظهم الله وسددهم وجزاهم خيرًا كثيرًا.

وفي ختام هذه التوطئة بقي أن يُقال:

إنَّ الكتابةَ في فقه الطلب ومدارجه وسلَّمِه تتطلب تجربةً متكاملة، واطلاعًا واسعًا، ولست بالشخص الذي تحقق فيه ذلك ولا عُشْرُه، غير أني لما كنت أكتب خُطَّتِي لنفسي، وكنت إذا تحدثت عن فقه الطلب ومباني الخطط وتفصيل

البرامج.. كان بعضُ الإخوة يطلبون مني أن أعطيهم ما قلت مكتوبًا، وكنت قد كتبته على هيئة مذكرةٍ شخصية، ولما انتشر بين طلبة العلم وكثر الاقتراح بإتمامه.. وجدت نفسي ملزمًا بتحريره وإكماله، وعسى أن يكون خيرًا، وأفتح لنفسي الباب بذلك في التهذيب والمراجعة وإعادة النظر في طبعاتٍ لاحقة إن شاء الله ومدَّ في العمر، وإني أُذنٌ صاغيةٌ لكلِّ ناصحٍ في ذلك.

والله أسأل أن يُشيِّعَ نفعَ هذا الكتاب بين العباد، ويكون حجةً لي لا عليَّ يوم المآب، إنه رحيمٌ تواب، كريمٌ وهَّاب.

وهذا ما أنجزت تأليفه وترتيبه، وجمعه وتبويبه، فإن أحسنت.. فهذا محض فضل الله عليَّ، وإن زللتُ.. فالزلل منسوبٌ إليَّ، وأعوذ بالله أن أذكركم به وأنا منه براءٌ براء، وأستنصحكم بقول العلامة الحريري في خاتمة المُلحَةِ:

فَـانظُرْ إليهـا نَظَـرَ المُستَحسِـنِ وأحسِـنِ الظَّـنَّ بهـا وحَسِّـنِ

وإنْ تَجِـدْ عَيبًـا فَسُـدَّ الخَلَـلا فَجَـلَّ مَـنْ لا عَيـبَ فيـهِ وَعَـلا[1]

والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل

مُحَمَّد بن مُحَمَّد الأَسطَل

فلسطين - قطاع غزة - خان يونس

للتواصل[2]: Mastal2010@hotmail.com



(١) ملحة الإعراب ص (٨٧).

(٢) ويمكن التواصل على الفيس بوك على حساب: «محمد بن محمد الأسطل».

مدخـــــل

لما أراد الله تعالىٰ أن يخلق آدم ﷺ قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وهذا يدل علىٰ أنَّ عمران الأرض منوطٌ بتدبير الإنسان؛ حيث جعله الله الخليفة فيها، وقد ركَّب فيه العقل الذي هو الآلةُ لذلك التدبير، كما وركب فيه الشهوة والغضب المُعبَّر بهما عن ميله عن منهج العقل بالهوىٰ..

ولما كانت الملائكة علىٰ علم بذلك إما بوحي أو بالقياس علىٰ ما شاهدوه من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل آدم ﷺ من الإفساد وسفك الدماء.. قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي نتزهك عن خلاف الحكمة، فهو تعجبٌ المراد منه استكشاف الحكمة التي خفيت عليهم في ذلك الوقت..

وهذا جرَّ إلىٰ إظهار فضل آدم ﷺ بالعلم، فقال تعالىٰ جوابًا عن تعجب الملائكة: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي: إنكم علمتم ما يمكن صدوره من الإنسان من المخالفات عندما يتغلب الهوىٰ علىٰ العقل، ولم تعلموا ما ينشأ عن ذلك العقل المرتبك مع الشهوة والغضب من العلوم التي هي الوسيلة لعمران أرضي، وبها ينجبر ما يقع من الفساد غير المرضي..

ثم فصَّل الحكمةَ المذكورةَ فقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] إلىٰ آخر الآيات المتضمنة إظهار فضل آدم ﷺ بالعلم والتعليم، وأنه بذلك استحق سجود الملائكة له، والقيام بأعباء خلافة الأرض وعمارتها دون الملائكة[1].

---

(١) أليس الصبح بقريب ص (٩١-٩٢).

ومن هنا بدأت القصة؛ فإنَّ الله تعالىٰ بعد أن خَلَقَ آدمَ بيده، ونفخ فيه من روحه آتاه من العلم حظًّا تَفَوَّقَ به علىٰ الملائكة، حتىٰ سجدت له، ولم يتعب في تحصيله، بل كان محض فضلٍ من الله تعالىٰ، لنعلم بذلك أنَّ العلم فتحٌ من الله تعالىٰ[(١)]، وقد يؤتاه الآدمي ولا تؤتاه الملائكة علىٰ ما هي عليه من القرب من الله تعالىٰ.

وبعد هذا الاحتفاء العظيم الذي حَظِي به آدم ﷺ أدخله الله الجنة هو وزوجُهُ حواء، وقال الله له: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: ١٩]، فوسوس إليه الشيطان، ونسي آدم العهد، فأكل من الشجرة، سواء كان النسيان نسيانَ سهوٍ أو نسيان ترك[(٢)]، وأُهبط من الجنة، وزُجَّ به من سماءٍ إلىٰ سماءٍ حتىٰ نزل إلىٰ الأرض.

وحاصلُ المشهدِ حينئذٍ: أنه مُستَخلَفٌ في الأرض، مُكلَّفٌ بعمارتها وإصلاحها، والقيام بأمر الله فيها، ومن نقاط القوة أنه هبط متسلحًا بأصل العلم، يعرف كيف يُسمِّي الأشياء؛ فقد علَّمَهُ الله الأسماء كلها، ومن نقاط الضعف أنه مخلوقٌ ينسىٰ، ويجري عليه قانون الموت، ومن جملة التكاليف التي عُهِدت إليه أن يستعمل العلمَ الدينيَّ في العودة إلىٰ الجنة التي أُخْرِجَ منها، والعلمَ الدنيويَّ في عمارة الأرض التي يسكنها، ويستعين علىٰ ذلك بالعزم والجَلَد.

قال شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو: لا بد أن يتفكر المسلم أننا كنا

---

(١) ولهذا كثر من أهل العلم من صدَّر اسم كتابه بالإشارة إلىٰ فتح الله عليه، ومن ذلك: كتاب فتح الباري لابن حجر، وفتح القدير للشوكاني، وفتح الوهاب لزكريا الأنصاري، وفتح المعين للمليباري، وفتح القريب المجيب في شرح ألفاظ التقريب لابن قاسم الغزي، وفتح العلي المالك في الفتوىٰ علىٰ مذهب مالك لمحمد عليش، وغير ذلك كثير.

(٢) والأقرب أنه نسيان ترك؛ لأن إبليس ذكَّره بالنهي عن الأكل من الشجرة في سياق إغرائه بالأكل منها، كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠] والله أعلم.

في الجنة وأهبطنا منها لمهمةٍ عظيمة، بتأشيرة لها مدة محددة، فلا يُعَدُّ رابحًا من انتهى أجله قبل أن يقوم بما أُمِر به، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقد أمرنا بأشياء ونهانا عن أشياء، وإنَّ التعلم شرطٌ لأداء ما أمرنا الله به من الفرائض والمستحبات، واجتناب ما نهىٰ عنه من المحرمات والمكروهات، ومن أقدم علىٰ شيءٍ من ذلك قبل معرفة حكمه.. فهو عاصٍ قطعًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦](١).

ومن هنا؛ فإنَّ الساعي في تحصيل العلم ممدوحٌ شرعًا، حتىٰ إنَّ الملائكةَ التي سجدت لآدم عليه السلام وعرفت فضله بالعلم لتضع «أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ»(٢)، «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ»(٣) التي أخرج منها.

والمتأمل في خبر أبينا آدم عليه السلام يجد فيه أرشيف خبرة، ومن ذلك أنَّ العلومَ قسمان: علوم دينية للقيام بأمر الله، وعلوم دنيوية لعمارة الأرض.

وأن العالِم قد يزل، وأنه متىٰ تاب واستغفر وأناب إلىٰ مولاه.. فإنَّ الله يغفر له، بل يصطفيه ويجتبيه كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

لكن الكبر يطرد صاحبه من الجنة ولو كان عالمًا؛ فإنَّ أول كلمةٍ من سخط الله نطق بها إبليس كانت «أنا»، وذلك لما قال الله له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ

(١) من محاضرة له بعنوان: المنهجية في طلب العلم، بتصرف.
(٢) انظر: سنن الترمذي، حديث رقم: (٣٥٣٥)، سنن النسائي، حديث رقم: (١٥٨). وقد حسنه الألباني.
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠٢٨).

إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢، ١٣].

وأنَّ الإنسان يمكنه أن يُوَلِّدَ العلمَ من مثله، ويصنع المعرفة التي تعينه في القيام بما أمره الله، من خلال العلم الذي بين يديه.

وأن الإنسان وإن كان عالمًا.. فإنَّ ثغرة الشيطان في السيطرة عليه طلبُ طول العمر، وتحصيل الجاه والمنصب والمُلك، ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠].

وأن الإنسان وإن ارتفع بالعلم.. فقد ينحط عن المقام الذي رفعه الله إليه متىٰ قلَّ عزمه، قال الله: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: ١١٥].

وأن الإنسان جُبِل علىٰ النسيان، وهذا من رحمة الله؛ فإنه ينسىٰ المآسي ليطيب عيشه، وينسىٰ الفضائل ليُضطر إلىٰ معاودتها فيتشبع بالفضيلة، ولهذا لولا النسيانُ لهُجر العلم والقرآن، فلو كان الذي يحفظ القرآن، أو يقرأ علمًا من العلوم لا ينساه.. فإنه لن ينظر فيه ثانيةً لسهولة استدعائه متىٰ احتاجه، لكن لما كان ينسىٰ.. فإنه يدمن النظر فيه آناء الليل وأطراف النهار، فيصبح بذلك تقيًّا عابدًا، فصار صلاح الإنسان في النسيان، ومن لم يصبر من المشتغلين بالعلم علىٰ إدمان النظر فيه.. فإنه يطرد عنه، وهذه محطة فلترة تميز الصالح لحمل العلم من الدخيل عليه.

وفي رحاب هذه المعالم وغيرها سار العلمُ في البشرية، يحمله من كل خلفٍ عدوله، ولقيمة العلم في نفسه قد يتلقاه الفاضلُ عن المفضول، كما رأينا موسىٰ ﷺ يقول للخضر ﷺ: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦٦]، ومن قبل أخذ قابيل طريقة الدفن عن غرابٍ لما قتل أخاه هابيل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ

﴿يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [المائدة: ٣١].

ولما وصلت الرايةُ إلىٰ أمتنا لتحمل أمانة الدين افتتح الله كتابها بقوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥] ليكون الأمر بالقراءة أول فرضٍ افترضه الله علىٰ هذه الأمة، وتكرر الحديث عن العلم وآلاته ست مرات في أول خمس آيات، وربطت الآية الثالثة بين كرم الله تعالىٰ وبين القراءة؛ لنعلم أنَّ فضلَ الله يتنزل علىٰ الأمة القارئة الآخذة بأسباب عمران الأرض ولو كانت كافرة أو عاصية.

ثم نزلت سورة القلم؛ إشعارًا بفضله وقدره، فالسورة الأولىٰ إذن مُصَدَّرَةٌ بطلب القراءة عبارةً، والسورة الثانية مُصَدَّرَةٌ بطلب الكتابة إشارةً.

ولهذا قال الطاهر ابن عاشور: ولولا القلمُ ما وصلت إلينا علوم سوالف الأمم، ولما عرفنا أطوار العمران وأسباب تقلبات الزمان، ولولا كتب التاريخ ما علمنا أنَّ نموَّ الاستعمار في الأرض إنما كان بتعارض الأنظار وتلاحق الأفكار، بحيث تُكمِلُ كلُّ أمةٍ من الغاية التي انتهت إليها الأمة التي قبلها[(١)].

ولما ذكر ربنا سبحانه التفقه في الدين ذكره بألفاظٍ عسكرية فقال جل شأنه: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التوبة: ١٢٢]، فإنَّ النفيرَ والفرقةَ والإنذارَ والحذرَ من مفردات قاموس المعارك.

وفي ذلك إشارةٌ إلىٰ أنَّ المتفقهَ بمنزلة المجاهد في سبيل الله، وأنَّ هذه الأمة يحميها رجلان: فارسٌ بسِنِه وعالمٌ بلسانه وقلمه، فإذا كان المجاهد حارس المسلمين بالسيف والسنان.. فإنَّ العالمَ حارسُ الدين بالدليل والبرهان[(٢)]، وثمة

(١) أليس الصبح بقريب ص (٩٣).

(٢) بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق ص (٣٦).

علاقةٌ بين حمل السلاح على الأمة وبين غشها في علمها وفكرها، وقد جمع النبي ﷺ بينهما فقال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»(١)(٢).

ومن هنا قال الشيخ العالم المجاهد عبد الله عزام عليه رحمة الله: **إنَّ خَيرَ رِجَالِ الأمةِ من يَخُطُّونَ تاريخها بِخَطَّيْنِ: خَطٌّ أسود؛ وهو مِدَادِ العَلَماء، وخط أحمر؛ وَهُوَ مِدَادِ الشهداء، وَمَا أَجْمَلَ أن يكونَ الدم والمِدادُ واحدًا، والرِّيشَةُ واحدة؛ لِتَكونَ يَدُ العالِمِ الَّتِي تَبْذِلُ المِدَادَ وتُحَرِّكُ القَلَمَ هي اليدَ نفسها التي تَبْذِلُ الدِّمَاءَ وتُحَرِّكُ الأمَم.**

ومما ينبغي أن يُعلَمَ أنَّ النفوسَ ليست على مرتبةٍ واحدةٍ في تلقي العلم وحمله وبثّه، وقد بيَّن النبي ﷺ تفاوت الناس في ذلك بتمثيل عجيبٍ يأخذ بالألباب؛ فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ عز وجل مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ.**

وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا.

وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلَأً.

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»(٣).

فقد شبَّه النبي ﷺ العلم الذي بعثه الله به بالغيث؛ لأنه يحيي القلب الميت كما يحيي المطرُ البلدَ اليابس، وقد كان الناس قبل بعثته متحيرين حتى أغاثهم الله بوابل علومه، ثم بين أنَّ الناسَ ثلاثةُ أنواعٍ كالأرض:

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٩٤).

(٢) سلسلة الثقافة لمحمد محمد أبو موسى، الحلقة (٣)، والسلسلة حوارية، وهي منشورةٌ على الانترنت.

(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٧٩)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٠٩٣).

فالنوع الأول من الأرض: أرضٌ طيبة، تنتفع بالماء فتُنبِتُ الكلأ، وتَحيىٰ بعد أن كانت ميتة، وينتفع الناس والدواب بالأكلِ منها، وكذلك النوع الأول من الناس، الذين بلغهم العلم فوعوه وفقهوه وحفظوه، وعملوا به، وأحيوا قلوبهم به، وعلَّموا فنفعوا بعد أن انتفعوا.

ويدخل في هذه الطائفة دخولًا أوليًّا المجتهدون الذين يستنبطون الأحكام، ويتصدون لنوازل الناس ومستجداتهم.

والنوع الثاني من الأرض: أرضٌ صلبةٌ تُمسِكُ الماءَ لكنها لا تنتفع به في نفسها، فهي أجادب لا تُنبت الكلأ، بينما ينتفع الناس والدواب بها، وكذلك النوع الثاني من الناس، لهم قلوبٌ حافظة، وذاكرةٌ قوية، يضنون علىٰ حرفٍ واحدٍ أن يضيع، لكن ليست لهم أفهامٌ ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، فهم يحفظونه حتىٰ يأتي طالبٌ محتاجٌ متعطشٌ لما عندهم من العلم، أهلٌ للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم فينتفع به وينفع به.

فهذا مثل من لم يرفع بالعلم رأسًا، وعدمُ رفع الرأس بالعلم كنايةٌ عن عدم الانتفاع به لعدم العمل به.

ويدخل في هذه الطائفة رواةُ العلمِ والحديثِ ممن ليس عندهم فقه، فمثلهم كمثل الأرض التي حفظت الماء، واستقىٰ الناس منها، لكنَّ الأرضَ نفسها لم تنبت، وهؤلاء يروون العلم والحديث وينقلونه لكن ليس عندهم فقهٌ فيه ولا فهم.

والنوع الثالث من الأرض: أرض قيعان تبتلع الماء ولا تُنبت الكلأ، فهي لا تنتفع بالماء في نفسها ولا تمسكه علىٰ السطح لينتفع به غيرها، وكذلك النوع الثالث من الناس، ليس لهم قلوبٌ حافظة، ولا أفهامٌ واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لينتفع به غيرهم، فهذا مثل من لم يقبل هدىٰ الله الذي جاء به رسوله ﷺ[1].

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (١٥/ ٤٧-٤٨)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان (٢/ ١٩-١١١)، =

وقد وردت الإشارة لتفاوت أهل العلم في أنفسهم أيضًا فيما أخرج أصحاب السنن إلا النسائي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»[1]. صححه الألباني.

قال ابن القيم: فإن قيل: كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهي أعظم نورًا؟ قيل: فيه فائدتان:

إحداهما: أنَّ نورَ القمرِ لما كان مستفادًا من الشمس كان تشبيه العالِم الذي نوره مستفادٌ من شمس الرسالة بالقمر أولىٰ من تشبيهه بالشمس.

والثانية: أنَّ الشمسَ لا يختلف حالها في نورها، ولا يلحقها مُحَاق، ولا تفاوتٌ في الإضاءة، وأما القمر فقد يقل نوره ويكثر ويمتلئ وينقص، كما أنَّ العلماءَ في العلم علىٰ مراتبهم من كثرته وقلته، فيفضل كُلٌّ منهم في علمه بحسب كثرته وقلته وظهوره وخفائه، كما يكون القمر كذلك، فعالمٌ كالبدر ليلة تمامه، وآخر دونه بليلة، وثانية، وثالثة، وما بعدها إلىٰ آخر مراتبه، وهم درجاتٌ عند الله[2].

وبُنِيت هذه المعارج علىٰ ذلك؛ فالتفقه مراحلُ ومنازل، فهناك مرحلةٌ للمبتدئ وثانية للمتوسط، وثالثة للمنتهي، ومن حصَّل الثلاث.. كان ذا أهليَّةٍ في العلم ويسمىٰ المتأهل، وعندئذٍ يتبحر في الفن الذي يرغب، ويسمىٰ المتخصص، فإن شارك في العلوم الأخرىٰ.. سُمِّي موسوعيًّا.

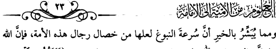
= شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/ ١٨٤)، سلسلة سؤال الثقافة لمحمد أبو موسىٰ.

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٣٦٤٣)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٦٨٢)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٢٣).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٦٥).

قلت: ومما يمكن أن يضاف أن استفادة الناس من القمر في متعلق المقام الذي نحن بصدده أكمل؛ فإنه مصدر إرشادٍ وهداية للسائر في الليل، ويعصم من التيه وهذا هو عمل العالم، وقد قال الله عن النجوم ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦].

وممَّا يُبَشِّرُ بالخير أنَّ سُرعة النبوغ لعلها من خصال رجال هذه الأمة، فإنَّ الله تعالىٰ لما زكَّىٰ الصحابة ﷺ في سياق تربية بني إسرائيل قال عنهم: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].



فضرب لهم مثلًا بالزرع يُخرج الشَّطء؛ وهو الفرع الذي يخرج منه يتولد عن الأصل، فقواه الأصل وآزره فصار غليظًا بعد أن كان رقيقًا، فاستقام وتكامل علىٰ سيقانه التي يعلو عليها، يعجب الخبراء بالزراعة لقوته وحسن هيئته.

وهذه هي صفة الشاب من هذه الأمة؛ فإنه يظهر ضعيفًا كالغصن الدقيق، ثم يغلظ ويتكامل حتىٰ يعجب الناس ويغيظ الكفار، وذلك في سنواتٍ قليلة، وهذه أمارة سرعة النبوغ العقلي.

ولهذا من كان ذا عزمٍ من طلبة العلم تيَسَّر له الترقي من رتبةٍ إلىٰ التي فوقها بسرعةٍ بالغة، فيتأهل بذلك ليكون ممن عمهم قولُ النبيِّ ﷺ: «لَا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ»[1]. أخرجه ابن ماجه وحسَّنَهُ الألباني.

فهلا تصديت لهذا الشرف!.

وبعد الذي تسطَّر فقد آن الآن أوانُ الشروع في المقصود؛ لنبدأ في خطِّ مدارج الطلب وفقهه، سواء فيما يتعلق بطلب العلم أو بدور المُعَلِّم أو بحال المتعلِّم، مستفيدين من أصول التجربة الآدمية المتقدمة، والله الموفق والهادي إلىٰ سواء السبيل.



(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨)، والحديث من رواية أبي عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيِّ ﷺ.

الفصل الأول
خارطة العلوم ومنهج التلقي

في هذا الفصل مبحثان:

الأول لخارطة العلوم، والثاني لمنهج التلقي، ودونك بسطَ ذلك:





المبحث الأول
خارطة العلوم

وظيفة هذا المبحث التقاطُ صورةٍ كليةٍ عن العلوم التي قد يحتاجها المتفقهُ في الدِّين، فهذا أرجى أن يعرف مسار رحلة الطلب من عتبةِ البداية إلى درجةِ الإمامة؛ لئلا يُذهل عن برنامج الرحلة في زحمةِ الاشتغال بالفنِّ الذي يدرسه ويُعاني مسائله، فيذهب العمر في جانبٍ من العلم لا يكفي لإنتاج العالم الشرعيِّ الذي تقصده النصوصُ عند إطلاق اسم العالم، والذي يكون أهلًا للكلام في دين الله تعالى؛ ليبني خطَّته على ذلك، فيصل بأخصر طريقٍ ممكن.

وذلك أنَّ الشريعةَ كصرحٍ، وكل علمٍ منها بمنزلةِ حُجرةٍ من الصَّرح، أو بابٍ منه أو نافذة، فمن قضى عمره في علمٍ.. استطاع أن يُبيِّن لك تفاصيله، لكنه لم يلتقط صورةً وافيةً عن الشريعة التي يحمل، فينقص تصوره عن الدين بقدر النقص الحاصل عنده.

ومطالب هذا المبحث ثلاثة:

يتناول الأول خارطةَ العلومِ عامة.

ويتولى الثاني بيان العلوم الشرعية خاصةً على وجه التفصيل.

ويُفصح الثالث عن أهمية العلوم الإنسانية للمتفقه في الدِّين.

وإليك البيان:



المطلب الأول

أنواع العلوم عامة

تقدَّم أنَّ الله تَعالَىٰ خَلَقَ نبيَّهُ آدمَ ﷺ لعبادته، وأنه هبط إلىٰ الأرض ليقوم بأمر الله، ويعمر الأرض ويصلحها، قيامًا بأعباء الخلافة فيها، وبناء عليه؛ فإنَّ العلومَ قسمان: علومٌ دينيةٌ تتعلق أصالةً بالقيامِ بأمرِ الله، وعلومٌ دنيويةٌ تتعلق أصالةً بعمارة الأرض وإصلاحها.

أما العلومُ الدينيَّةُ؛ فإما أن تكون علومًا مقصودةً للشارع بالذات، وهي المسماة بعلوم الغايات؛ لأنَّها غايةٌ مقصودةٌ في نفسها، وإما أن تكون علومًا مقصودةً للشارع بالتبع، وهي المسماة بعلوم الآلات؛ لأنها علومٌ آليةٌ يتوصل بها إلىٰ العلوم الشرعية، فهي وسيلةٌ إلىٰ فهم غيرها.

أما علوم الغايات؛ فهي ما طلب الشارع منا علمه من معاني الكتاب والسُّنَّةِ وما دلا عليه من الأحكام الشرعية مما يتعلق بأفعال المكلفين، وهي خمسة؛ لأنَّ العلومَ الباحثة في معاني الكتاب والسنة علمان: علم التفسير وعلم الحديث.

وأما العلوم الباحثة في الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين.. فثلاثة؛ لأنَّ الحكم الشرعي إما أن يتعلق بكيفية الاعتقاد، فالعلم الباحث عنه هو العقيدة، أو بكيفية العمل الظاهر، فالعلم الباحث عنه هو الفقه، أو بكيفية العمل الباطن، فالعلم الباحث عنه هو التزكية والسلوك.

والحاصل: أنَّ علومَ الغايات خمسة: التفسير والحديث والعقيدة والفقه والتزكية والسلوك.

وأما علوم الآلات؛ فأشهرها أربعة: علم العربية وأصول الفقه ومصطلح الحديث والمنطق.. فأما العربية.. فهي العلم الآلي الذي يضبط صحة الكلام وبلاغته، ويعين علىٰ فهم نصوص الكتاب والسُّنَّة، وأما أصول الفقه.. فهو العلم الذي يضبط صحة فهم الشريعة عمومًا، والأحكام العملية خصوصًا، وأما مصطلح الحديث.. فهو العلم الذي يضبط صحة نصوص السُّنَّة والآثار، وأما المنطق.. فهو العلم الذي يضبط صحة التفكير والنظر[١].

وأما العلوم الدنيوية؛ فهي العلوم التي تنفع في القيام بمصالح الإنسان في الحياة الدنيا فهي علىٰ مشارب شتىٰ، يتعلق بعضها بالأبدان؛ وهو علم الطب، أو بالبنيان؛ وهو علم الهندسة المعمارية، أو بتحصيل المعاش؛ وهو العلم بالزراعة وسائر الصناعات، وغير ذلك.

غير أنَّ العلومَ الدنيويَّةَ التي يحتاجها المتفقه في الدين هي العلوم الإنسانية[٢]، وهي العلوم التي تتناول المجتمع البشري بما يتضمنه من مظاهر، ومن أهمها التسعة الآتية: علم الإدارة وعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والإعلام والتاريخ والجغرافيا الطبيعية والجغرافيا السياسية.

وتزداد القيمة العلمية لأيٍّ منها بمقدار ارتباطه بالعلوم الشرعية، وتَوَقُّفِ كمال التصور فيها عليه، علىٰ أنَّ المقدارَ اللازمَ منها قد لا يتجاوز المرحلة الأولىٰ من كل علمٍ منها.



(١) الخطة المنهجية لدراسة العلوم الشرعية لخلف المقدسي.

(٢) وهذا علىٰ الغالب، فقد يحتاج إلىٰ الدراية ببعض مسائل الطب للمشتغل بالفقه، أو لفهم بعض نظريات الفيزياء للمشتغل برد الشبهات وأضراب ذلك.

المطلب الثاني
أنواع العلوم الشرعية على وجه التفصيل

أتناول هنا العلومَ المحوريَّةَ التي يتفرعُ عنها علومٌ مستقلةٌ تندرج تحتها(١)، وهي اللغة والتفسير والحديث والعقيدة والفقه وأصول الفقه، ودونك بسطَ ذلك:

أولًا: علوم اللغة:

علوم اللغة اثنا عشر وهي:

١- النحو.

٢- الصَّرف.

٣- البلاغة، ويضم البيان والبديع والمعاني.

٤- فقه اللغة، ويضم تاريخ اللغة وخصائص اللغة.

٥- المعاجم، وتسمىٰ متن اللغة.

---

(١) تنبيه مهم: المدار في التقسيم هنا أنَّ العلمَ المتفرعَ عن أصل، وله كتبٌ مستقلةٌ يمكن لطالب العلم أن يتدرج فيها. فإنه يُفرد، وليس مجرد مسائل متناثرة أو فصلٍ في كتاب، وإن كان من حيث الأصل قبل انفراده بالتصانيف يندرج في الأصل الذي تفرع عنه.
وقد نبَّهت علىٰ هذا؛ لأنَّ تقسيمات العلوم لا تكاد تتحد عند كثير من أهل العلم، ولم أتكلف في ردِّ العلوم إلىٰ بعضها إلا إذا كانت تُجمع مع بعضها في التصنيف كعلوم البلاغة؛ وذلك لأنَّ التيسير في التقسيم ينتج عنه التيسير في رسم تفاصيل برنامج المعراج العلمي لكل فنٍّ كما سيأتي في الفصل الخامس، وعلىٰ كل حال؛ فالخطب في ذلك سهل؛ لأنَّ الخلاف في العدِّ لا في المعدود، ولو كنت في غير مقام رسم البرامج لرددت العلوم إلىٰ بعضها ليكون عددها أقل، علىٰ العادة الأوجه في التقسيمات.



٦- الاشتقاق.

٧- الدلالة اللغوية.

٨- الأدب، ويضم أشعار العرب وأيامهم وأخبارهم ومن بعدهم والنقد الأدبي.

٩- العروض والقافية.

١٠- الخط والإملاء.

١١- الأصوات، وتضم مخارج الحروف وصفاتها وتفاعلها مع بعضها.

١٢- تاريخ النحو والمدخل إلىٰ دراسته.

وذلك أنَّ علومَ العربيةِ تبحث في الكلمة المفردة وفي الكلام المركب.

فإن كان البحث في الكلمة المفردة؛ فإما أن يكون من حيث بنيتها وصياغتها ووزنها، **فهذا علم الصرف**، أو من حيث أصلها الذي أُخِذت عنه، **فهذا علم الاشتقاق**، أو من حيث معناها، **فهذا علم المعاجم**، أو من حيث فلسفتها وخصائصها وأسرارها ونشأة أصلها ولهجاتها **فهذا فقه اللغة**، أو من حيث كيفيةُ رسمها وكتابتها، **فهذا علم الخط والإملاء**، أو من حيث مخارج الحروف وصفاتها وتفاعلها مع بعضها، **فهذا علم الأصوات**.

وإن كان البحث في الكلام المركب؛ فإما أن يكون من حيث أحوال أواخر الكلم، **فهذا علم النحو**، أو من حيث مطابقته لما يقتضيه حال المخاطب؛ للاحتراز من الخطأ في تأدية المعنىٰ، **فهذا علم المعاني**، أو من حيث تفاوت مراتبه في وضوح الدلالة أو خفائها بالنسبة للمعنىٰ الواحد؛ للاحتراز من التعقيد المعنوي بحيث يكون الكلام واضح الدلالة، **فهذا علم البيان**، أو من حيث تحسين الكلام وتزيينه في لفظه ومعناه بعد رعاية مطابقته لمقتضىٰ الحال ووضوح الدلالة أو خفائها، **فهذا علم البديع**، أو من حيث نقل ما ورد عن العرب

وأخبارهم، **فهذا علم الأدب.**

أو بالنظر إلىٰ خصوص الكلام المنظوم من حيث وزنه وتمييز شعره من نثره، **فهذا علم العروض**، أو من حيث أحوال آخر البيت، وما يجوز فيه وما لا يجوز، **فهذا علم القافية.**

ثانيًا: تفسير القرآن وعلومه:

العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم تسعة عشر وهي:

١- فضائل القرآن وآداب حملته.

٢- **التفسير**، وهو في ذاته أنواعٌ واتجاهاتٌ باعتباراتٍ شتىٰ.

فبالنظر إلىٰ منهج التفسير؛ فمنه **التفسير الإجمالي** الذي يفسر الآية كقطعةٍ واحدة، **والتفسير التحليلي** الذي يحلل ألفاظ الآية، **والتفسير الموضوعي** الذي ينظر إلىٰ السورة كقطعةٍ واحدة، أو يبحث موضوعًا معينًا في القرآن الكريم كله.

وبالنظر إلىٰ مصادره ومستنده؛ فمنه التفسير بالمأثور أو بالرأي أو بهما.

وبالنظر إلىٰ أوجه التأويل؛ فمن المفسرين من يذكر قولًا واحدًا في تأويل الآية أو قولين، ومنهم من يذكر كل ما قيل فيها.

وبالنظر إلىٰ أدوات المفسر؛ فهناك تفاسيرُ يغلب عليها فنٌّ معين؛ كالنحو أو البلاغة أو الفقه أو التزكية والرقائق وغير ذلك.

٣- غريب القرآن.

٤- معاني القرآن، وهذه مرحلةٌ وسطٌ بين تفسيرِ الغريبِ والتفسير التحليلي لكل آية.

٥- **علوم القرآن**، وقد سرد البُلقيني خمسين نوعًا منها، ومردها إلىٰ ستةِ أمور: مواطن النزول وأوقاته ووقائعه، والسند، والأداء، والألفاظ، والمعاني المتعلقة بالأحكام، والمعاني المتعلقة بالألفاظ[1].

٦- مشكل القرآن ومتشابهه.

٧- أصول التفسير وقواعده.

٨- أسباب النزول.

٩- مقاصد السور والوحدة الموضوعية فيها.

١٠- علم المناسبات.

١١- الوجوه والنظائر والكليات.

١٢- فقه التدبر.

١٣- طبقات المفسرين.

١٤- مناهج المفسرين.

١٥- أحكام التلاوة والتجويد.

١٦- علم القراءات.

١٧- الرسم والضبط.

١٨- إعراب القرآن الكريم.

١٩- تاريخ علم التفسير والمدخل إلىٰ دراسته.

---

(١) انظر بسطها وبسط غيرها في كتاب «علوم القرآن.. تاريخه وتصنيف أنواعه لمساعد الطيار».

ثالثًا: علوم السنة:

علوم السُّنَّة أربعة عشر وهي:

١- شروح كتب السنة.

٢- غريب الحديث.

٣- مختلف الحديث ومشكله.

٤- أسباب الورود والإيراد.

٥- دراسة الأسانيد.

٦- الجرح والتعديل.

٧- العلل.

٨- الطبقات والرجال.

٩- مصطلح الحديث.

١٠- التخريج.

١١- مناهج المحدثين.

١٢- السيرة النبوية.

١٣- الشمائل المحمدية.

١٤- مدخل إلىٰ علم السنة والتدوين ودفع الشبهات عنها.

رابعًا: علم العقيدة:

علوم العقيدة تسعة وهي:

١- أركان الإيمان، وما يتعلق به.

٢- ملحقات الاعتقاد؛ كالكلام في الإمامة والصحابة رضي الله عنهم والكرامات والأخلاق.

٣- علم الفرق، وهو العلم الذي يدرس مقالات الإسلاميين في العقائد.

٤- علم الأديان، ويدرس مقالات غير الإسلاميين في العقائد.

٥- المذاهب الفكرية المعاصرة: وهذا يدرس أهم المذاهب العقدية والفكرية المعاصرة سواء كانت داخل الدائرة الإسلامية أو خارجها.

٦- مناهج الاستدلال وتقرير المسائل.

٧- قواعد المناظرة وأصول التعامل مع المخالف.

٨- الفلسفة، وهذا العلم واللذان قبله علومٌ خادمةٌ لعلوم الشريعة عامة وعلم العقيدة خاصة، وليست من صلب مسائله.

٩- مدخل إلىٰ دراسة علم العقيدة.

خامسًا: علم الفقه:

علوم الفقه ثلاثة عشر وهي:

١- الفقه المذهبي، سواء كتب المذاهب الأربعة المتبوعة، أو المذاهب الشخصية للأئمة.

٢- آيات الأحكام.

٣- أحاديث الأحكام.

٤- القواعد الفقهية.

٥- الفروق الفقهية.

٦- الفقه المقارن.

٧- الفتاوىٰ وفقه الفتوىٰ.

٨- السياسة الشرعية.

٩- الاقتصاد الإسلامي.

١٠- القضاء[1].

١١- الفقه المعاصر، ويتضمن النوازل والمستجدات، وفقه الجماعة المسلمة الذي لم تفرده الكتب المذهبية بالتبويب؛ كالفقه الطبي والوظيفي والاجتماعي والتعليمي وغير ذلك كثير.

١٢- طبقات الفقهاء.

١٣- تاريخ الفقه والمدخل إلىٰ دراسته.

سادسًا: أصول الفقه:

علوم أصول الفقه ستة وهي:

١- مسائل أصول الفقه.

٢- القواعد الأصولية.

٣- مقاصد الشريعة.

٤- علم الجدل.

٥- التخريج الأصولي والفقهي، ومنه تخريج الفروع علىٰ الأصول، وتخريج الفروع علىٰ الفروع، وتخريج الأصول علىٰ الأصول، ويمكن عدُّ هذا العلم مع الفقه، والخطبُ سهل.

٦- تاريخ علم أصول الفقه والمدخل إلىٰ دراسته.

---

(١) وهذه الثلاثة الأخيرة كان حقها أن تندرج في الفقه المذهبي ونحوه، لكنَّ كلًّا منها قد بلغ نظامًا ضخمًا في ذاته استحقت معه أن تُفرد، لا سيما وأن ما ذُكر في كتب الفروع قاصرٌ جدًّا عما آلت عليه اليوم من الشمول والبسط، ولهذا باتت تُفرَدُ بدراسةٍ مستقلةٍ في كلياتٍ خاصة بها في المعاهد والجامعات.

وتجدر الإشارة إلىٰ أنَّ ما أُودِعَ من مسائل الأصول في كتب الفقه والتفسير وشروح السنة وغيرها كثيرٌ، ولا يُستغنىٰ عنه بما في الكتب المفردة به.

هذه خارطة العلوم؛ ثلاثة وسبعون علمًا ذُكرت هنا في هذا المطلب، وينضم إليها علم التزكية والسلوك، والمنطق، بالإضافة إلىٰ العلوم الإنسانية التسعة التي تقدمت، وأكثر هذه العلوم له كتبه ومدرجه العلمي الخاص به.

وعن هذه العلوم ينتج علم الفِكر، فهو جريان التفكير في مسائل كلِّ علمٍ لمواجهة النوائب وعلاج المشاكل والأزمات المتعلقة بساحته أو بأوسع من ذلك، فهو علمٌ ليس له موضوعٌ محدد، وعلىٰ قدر ما يملك المتفقه من علمٍ ينتج من فِكر.

ومجموع ما ذكر من عدة العلوم خمسة وثمانون علمًا.

ولا شك أنَّ من تأمل هذا العدد أُصِيب بالدَّهشةِ والذهول[1]، مع أنه يعلم ذلك من حيث الإجمال لكن لم يشتغل بالتفصيل والعد، وربما داهمته مشاعرُ اليأس من بلوغ رتبة العالم المؤهل، لكن وظيفة هذه المعارج أن ترسم السبيل ليبلغ طالب العلم درجة الرسوخ بأخصر طريقٍ وأجوده، فلا مجالَ لتضييع الوقت بكثرة الحديث عن العلم ومُلحِهِ إلا عند الكلال؛ بل ينبغي توفير غالب الجهد للدخول في مسائل العلم نفسه، والانكباب عليه.

ولست أبالغ إذا قلت: إنَّ سبعَ سنين من الجهد المنضبط بالمنهج الصحيح في الطلب كفيلةٌ بأن يصبح الطالب عالمًا راسخًا بإذن الله وفضله وعونه، لا سيما وأن الذي يتحتم معرفته نحوٌ من شطرها فقط، وبعض هذه العلوم محدود

(١) علمًا بأن هذا العدد إنما هو بحسب المشتهر والذي يظهر في التصنيف، وإلا فلو لاحقنا كل ما ذكره العلماء في تقسيمات العلوم.. لبلغ العدد أضعاف ذلك، ويكفيك أن تطلع في ذلك علىٰ كتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم» لأحمد بن مصطفىٰ الشهير بطاش كبرىٰ زاده، ط. صدر عن دار الكتب العلمية في ثلاثة أجزاء، وهو جديرٌ بالنظر.

المسائل يمكن إنجازه في وقتٍ يسيرٍ جدًّا، وبعضها لا يلزم الرجوع إليه إلا عند الحاجة، ولو قرأ الإنسان فيه كتابًا واحدًا.. لأجزأه.

ولهذا عِشْ بمشاعرك بما سيأتي في صفحات هذه المعارج، واستحضر الهمة والعزم، واعلم أنَّ الأمر جد، واستعن بالله، والله يتولاك ويرعاك، والله ذو الفضل العظيم.

فانهض بإقدام على الأقدام   إن كنت للعلياء ذا مرام

المطلب الثالث
أهمية العلوم الإنسانية

قد يقوم بالأذهان أنَّ دراستنا إنما هي في العلم الشرعي وآلاته، فما بالنا نذكر علومًا دنيوية، وقد يتضمن بعضها ما لا يصح شرعًا أصلًا، أو ما هو مستوردٌ من الغرب بدَخَنِه؟!.

فرأيت الإجابة عن ذلك في مطلبٍ مستقلٍّ، فأقول:

إنَّ هذه العلوم وإن كانت دنيويةً.. إلا أنَّها تتصل بعمارة الأرض التي هي من جملة التكليف الإلهي الذي كُلِّف به آدمُ ﷺ، وخوطبت به ذريته من بعده.

ثم إنَّ هذه العلوم تتعلق بأحوال المجتمع البشري الذي يتنزل فيه حكم الله تعالىٰ، مما يعني أنَّ دراسةَ هذه العلوم هو من الدراية بالواقع الذي يشترط العلم به عند الفتيا مثلًا؛ إذ لا بد فيها من العلم بحكم الله وبالواقع الذي يتنزل فيه، وإلا أسأنا لحكم الشريعة ولم نحسن تنزيله مواضعه.

ولهذا كثيرًا ما يحضر في كلام الفقهاء أنَّ العلمَ بالمسألة الفقهية التي يعالجونها يتوقف علىٰ إفادة أهل الخبرة من أصحاب هذه العلوم، ومن ذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: وكون المبيع معلومًا أو غير معلوم لا يؤخذ عن الفقهاء بخصوصهم؛ بل يؤخذ عن أهل الخبرة بذلك الشيء، وإنما المأخوذ عنهم ما انفردوا به من معرفة الأحكام بأدلتها، فإذا قال أهل الخبرة: إنهم يعلمون ذلك.. كان المرجع إليهم في ذلك دون من لم يشاركهم فيه، وإن كان أعلم بالدين منهم، كما قال النبي ﷺ لهم في تأبير النخل: «أنتم أعلم بدنياكم، فما كان من أمر دينكم

فإليّ»، ثم يترتب الحكم الشرعي علىٰ ما تعلمه أهل الخبرة[1].

أضف إلىٰ ذلك أنَّ الإسلامَ دعوةٌ ودولة، والعلوم الدنيوية خاصة الإنسانية منها ألصق بالدولة، والعلوم الشرعية ألصق بالدعوة مع التصاقها بالدولة، والدولة هي الجسرُ الذي نقيم عبره أحكام الشريعة أضعاف ما نقيمه بجهد الفرد، ولهذا اجتهد النبي ﷺ في تحصيله لمَّا كان مكة، وعرضه علىٰ زعماء الطائف، وبايع الأنصار عليه في بيعة العقبة الثانية، ودخل المدينة علىٰ إثر ذلك حاكمًا لا داعيًا فحسب.

ومن اليوم الأول في المدينة رأينا أصول هذه العلوم حاضرةً في سلوكه ﷺ، سواء ما يتعلق بالسياسة أو الاقتصاد أو الأمن أو القتال أو الإعلام أو علم النفس والاجتماع أو الإدارة وغير ذلك.

غير أنَّ كثيرًا من المسلمين في هذه الأزمنة جعل تكوينه العلمي متركزًا علىٰ مادة المرحلة المكية، التي تركز علىٰ الإيمان والتربية والأخلاق، أما مادة المرحلة المدنية فلم نركز منها إلا علىٰ التشريعات والأحكام، وتركنا العلوم الإنسانية التي نقيم بها دولةً للإسلام، حتىٰ رأينا معظم تجارب الأحزاب الإسلامية التي وصلت الحكم تفشل كليًّا أو جزئيًّا، والنتيجة المريرة أنَّ بعض حملة الإسلام أساءوا إليه بمقدار ما أساءوا تمثيله ولو حسنت قصودهم وصلحت نياتهم.

وما آنسه بصرُكَ الآن ينبيك أنَّ قيمةَ هذه العلوم بالنظر إلىٰ المآل أنها تتولىٰ جزءًا من إقامة علوم الشريعة نفسها غاياتٍ وآلات.

ولهذا لا عجب إذا تفوَّقَت في الفضل علىٰ دراسة العلوم الشرعية في بعض الأوقات عند الحاجة إليها في وقتٍ ما أو مكان معين، أو في حقِّ شخصٍ ما، وإن

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٤٩٣).

كانت مفضولةً في نفسها، ألا ترىٰ أنَّ ذكرَ الله تعالىٰ أفضلُ من تلاوة القرآن الكريم في الركوع والسجود وإن كان مفضولًا في نفسه والقرآن فاضلٌ!.

وتبقىٰ العلوم الشرعية تحتفظ بموقعها من الفضل ولو تفوقت عليها العلوم الإنسانية عند احتفاف بعض القرائن بها، وما أحسنَ ما جادت به قريحةُ شاعرِ الإسلام محمد إقبال إذ قال: إنَّ العلومَ الحديثةَ يَحسُنُ بها أن تُعَلِّمَ أبناءَنا المعارفَ والمعاني، لكن لا يحسن بها أن تُعَلِّمَ قلوبَهم الخشوع، أو عيونهم الدموع.

وأختم هذا المطلب بزمرةٍ من النقول للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعتب فيها بشدة علىٰ التقصير في العناية بهذه العلوم، فإنه يقول:

لقد قصرنا في ميدان العلوم المدنية تقصيرًا شائنًا، ولو أنَّ رجلًا أجنبيًّا قارن بين مرامي كتابنا وتصويره للأرض والسماء وما بينهما، وبين واقع حياتنا وتصورنا للأرض والسماء وما بينهما.. لوجد البون بين الأمدين هو بعد المسافة بين الحق والخرافة، من أجل ذلك يجب أن نُضاعِفَ السير لتعويض ما فاتنا، وإدراك من سبقنا؛ فإنَّ جهلَنا بالحياة كان معصيةً لله، وإساءةً لدينه، وكان إزراءً بنا، وشقاءً لَحِقَنَا بعده ما لحقنا من العنت والأذىٰ[1].

ويقول: إنَّ أُولِي النهىٰ أجمعوا علىٰ أنَّ الحضارةَ الحديثة تربط الإنسان بالأرض وتقطعه عن السماء، وتعلق قلبه بمآرب الدنيا، وتذهله عن مطالب الآخرة، وتعمل علىٰ سَوْقِ البشر بعيدًا عن الله، أي أنها تسير في اتجاهٍ معاكسٍ للدين كله، وربما أعانها علىٰ إدراك بعض النجاح فشلُ المتدينين في تقديم المنهج الإلهي مشبعًا للعقل والقلب، كافلًا للدنيا والآخرة، ملبيًا لحاجات الروح

(١) الإسلام والطاقات المعطلة للغزالي ص (٨٠).

والجسد والعاجلة والآجلة، ونحن المسلمين أغنىٰ الناس بمواد البناء في هذا المجال، وفي تراثنا ما يكفي ويشفي إذا أحسنَّا الإدراك والإفادة[١].

ويقول: وقد لاحظت أنَّ الثقافة الإسلامية حدث فيها شيءٌ من العوج، فمن ناحية التربية والتصور انسحب الناس من الحياة، رأوا أنَّ المجتمع فاسدٌ فانسحبوا وهربوا منه بدل أن يغيروه![٢].

ويقول: ولو أنَّ المسلمين هم الذين يسكنون الأرض وحدهم لوقع تقصيرهم علىٰ أمِّ رأسهم، وللعَقُوا المُرَّ من معاصيهم الفكرية والخلقية، لكن الأرض تعمرها أجناسٌ ومللٌ شتىٰ، فإذا سكنوا وتحرك غيرهم، وإذا تقوقعوا داخل أنفسهم علىٰ حين انطلق غيرهم وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها فالنتيجة أنَّهم سيتراجعون لا محالة وتلحقهم هزائم شائنة..

إنَّ المسلمين لم يقرؤوا كتاب الكون المفتوح، وأصموا آذانهم عن نداءات القرآن المتكررة بدراسة آيات الله في الكون، فوقفنا حيث وصل بنا الأسلاف الراشدون، ومضىٰ غيرنا يطوي المراحل، فسبق سبقًا بعيدًا..

إنَّ المسلمين قد ظلموا دينهم مرتين: مرة بسوء التطبيق حتىٰ قيل: إنه ضد الفطرة والحرية والعقل، ومرة بالعجز عن التبليغ حين بقي جماهير كثيفة في المشارق والمغارب لا تدري عن الإسلام شيئًا يذكر، لكن ما الحال إذا نشط الكافرون وكسل المؤمنون؟ ما الحال إذا كانت أيدي غيرنا لبقةً في الفلاحة والصناعة والتجارة والإدارة، وكنا نحن مكتوفي الأيدي في تلك الميادين كلها؟![٣].

---

(١) الجانب العاطفي من الإسلام للغزالي ص (١).

(٢) كيف نتعامل مع القرآن للغزالي ص (١٥٥).

(٣) المحاور الخمسة للقرآن الكريم للغزالي ص (٥١) بتصرفٍ يسير في عبارة فيه.

والمقصود أنَّ شمسَ العلوم الدنيوية لما أصبحت تأتي من الغرب، وتوهم بعض الناس أنَّ الدين لا يعتني بذلك.. تعين علينا توجيهُ عددٍ كافٍ من أبنائنا لدراسة هذه العلوم؛ لئلا ننفصل عن الواقع، ولئلا نكون سببًا في فشل التجارب الإسلامية التي تصل إلىٰ الحكم.

المبحث الثاني
منهـج التلقـي

العالمُ حارسُ الشَّريعةِ بعلمه كما أنَّ المجاهدَ حارسٌ لها وللعباد بعتاده، وإذا كان المجاهدُ قد يحتاج إلىٰ خطَّةٍ دفاعيَّةٍ تتضمن حفرَ الخنادق والأنفاقِ وقسوةَ التدريبِ والإعداد علىٰ ما في ذلك من كُلفةٍ وشقاء.. فإنَّ المشتغلَ بالعلم قد يحتاجُ إلىٰ خطةٍ دراسيَّةٍ تتضمن علومًا ليست من رغبته، لكنها لازمةٌ لتمام فهم النص الشرعي، علىٰ ما في ذلك من مؤنةٍ وعناء.

فالطالب إذن محتكمٌ لمنهج التلقي، وليست العلوم سِلَعًا ينتقي منها الطالبُ ما يشتهي ويدع ما لا يشتهي، وإن اشتُرِطَت الرَّغبةُ والشهوةُ في التحصيل، وفي هذا المبحث بيانٌ لثمانيةٍ من معالم منهج التلقي، أُفرِدُ مطلبًا لكل واحدٍ منها، وهذا سردها ثم بسطها:

المطلبُ الأول: تلقي ما يلزم من العلوم.

المطلب الثاني: اعتمادُ الخُطَّةِ الرأسيَّة في المعراج العلمي.

المطلب الثالث: الجمعُ بين العنايةِ بالمختصرات وبناءِ التصورات.

المطلب الرابع: تكاملُ أركانِ الطَّلَب.

المطلب الخامس: طريقة تناول العلوم.

المطلب السادس: التركيز.

المطلب السابع: جعل مقررات الجامعة من خُطَّتِه.

المطلب الثامن: الموازنة بين التخصص وسعة الاطلاع.

ودونك بسط ذلك:

المطلب الأول
تلقي ما يلزمُ من العلوم

لكل طالبِ علمٍ مقصدُهُ القريبُ من الطلب، والشكل الأخير له[١] يفرض عليه خطةَ المسير؛ فمن كان يريد التمكن من علوم العربية، ويسد حاجة المسلمين في هذا الباب.. فهذا له خطاب، ومن كان يريد دراسة التفسير أو الفقه.. فهذا له خطابٌ آخر، وهكذا.

وبشكلٍ عام؛ فإنَّ اللغةَ وأصولَ الفقه علمان لازمان لكل طالبِ علمٍ شرعي؛ لأنَّ نصوصَ الشريعة جاءت بلسانٍ عربيٍّ مبين، وأصول الفقه هو العلم الذي يبين فقه التعامل مع الأدلة من الكتاب والسنة، وكيفية استنباط الأحكام منهما، فهو العلم الذي يتوسل به طالب العلم إلىٰ تكوين منهج نظر في النصوص، وبعد ذلك يختص كلُّ علمٍ بمعارف زائدةٍ لتحصيل فهمه وإحكامه..

فمن درس التفسير أو السيرة النبوية.. لزمه معرفة طرفٍ من أحوال العرب قبل الإسلام، ومن درس الحديث.. لزمه معرفة مصطلح الحديث والنظر في علم الطبقات والرجال والعلل، ومن درس الفقه.. لزمه الاطلاع علىٰ تفسير آيات الأحكام وأحاديث الأحكام وفقه الفتوىٰ، والدراية بالواقع الذي تنتسب إليه المسألة؛ كما لو كان متعلقًا بالاقتصاد أو بمعرفة عوائد الناس وغير ذلك، ولهذا كان علم الفقه أكثر العلوم مؤنة ومشقة؛ لاجتماع علوم الشريعة غايةً وآلةً في خُطَّةِ ضبطه.

(١) كأن يرجو أن يصبح محدثًا أو عالمًا راسخًا في علم اللغة أو الفقه أو مؤلف كتب أو غير ذلك.

إذا عُلِم هذا أدرك طالب العلم أنه مُحتكمٌ لما يحتاج لا لما يُريد، فقد يجب عليه أن يتلقىٰ ما لا يحب، لكنه عبدٌ لله تعالىٰ يسير بخُطَّةِ العلم، فهو محكومٌ لمنهج التلقي لا حاكمٌ عليه.

ولهذا تجد من طلبة العلم من يشق عليه دراسة النحو أو الصرف مثلًا، ثم يتجاوزهما إلىٰ ما يجد فيه قلبه، وهذا عبث؛ لأنَّ ضبطَ علمِ اللغة لازمٌ لحسن الفهم، وإلا فقد أساء إلىٰ الشريعة من حيث أراد أن يُحسن، وقد يتجرأ علىٰ أهل العلم وأئمة الدين، ويظن أنه يقصد الدليل ويدور حول النص حيثما دار، وهو لا يملك أداة إدراك ذلك.

ولو أحكم الطالب النحوَ والصرفَ مثلًا.. فقد يقتصر بهما عما وراءهما من الإحاطة بنصابٍ كافٍ من كلام العرب، من خلال الاطلاع علىٰ الشعر الجاهلي والمعاجم اللغوية، ويظن أنه فهم اللغة من خلال القدر الذي حصَّل من مسائل النحو والصرف، ولم يدرك أن هذه العلوم بمثابة المداخل إلىٰ اللغة، وليست هي ذات اللغة، فيقع في القصور عندئذٍ.

وقد يشتهي الطالب علمًا ما، فيُوغِل فيه ويعتني بلطائفه وما دقَّ من مسائله، وينسىٰ متينَ العلم الشرعي في بقية العلوم، أو ما يحتاجه الناس من علمٍ معين في زمانٍ أو مكانٍ معين، فهذا يتبع الهوىٰ وإن ظن أنه يُحسِنُ صنعًا، فالعلم ليس حباتٍ من التمر ينتقي منها أطايبها، بل متىٰ كان العلم مما يلزم معرفته في تحصيل مقصده، وكان هذا الإنسان يتكلم في الدين أو يتصدر للناس.. فقد أصبح كل ما يقع في نطاقه من علومٍ ومعارف ومقتضياتٍ كقطعةٍ واحدةٍ لا تقبل القسمة، شأن الهاتف الذي تحمله، فإما أن تأخذه كله، أو تتركه كله، فإمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان، وإلا تركت مقصدك، واكتفيت بتحصيلِ ثقافةٍ تُخرِجُكَ من الأميَّةِ والجهل.

أما إذا عزمت أمرك، وارتضيت وعثاء السفر في رحلةِ الطَّلب.. فإنَّ تفكيرَ الطَّالبِ عندئذٍ يصبح في تدبير آلية فهم ما عسر عليه من العلم لا في تركه، وكل علمٍ له معراجٌ لدراسته، يستلم الطالب من الصفر أميًّا ويبلغه القمةَ إمامًا بعون الله وتوفيقه وفضله.

والتجارب تشهد أنَّ العلمَ الذي يراه الناس صعبًا إذا طرقتَهُ من بابه، وشرعتَ فيه من أول درجةٍ فيه.. انقلب سهلًا ماتعًا، وصرت تتعجب من تضخيم الناس لشأنه، واستبان لك أنَّ ما يردده الطلبة عنه إنما هو من قبيل التوهم النفسي، أو بسبب فقدِ المعلم الذي يمسك بيدك ويمضي بك، أو لغياب التدرج القويم في الطلب.

وبيان طريق الطلب من الصفر إلىٰ القمة هو أهمُّ وظيفةٍ لهذا المعراج، ويأتي تفصيلُه في الفصل الخامس من هذا الكتاب إن شاء الله، وما يتقدمه من فصولٍ ومباحث إنما هو بمثابة الدليل لحسن الاستعمال لمباني الخطط والبرامج.

وبعد الذي تسطر يظهر لك هشاشة ما يُسمَّىٰ اليوم بالتخصص الجامعي، وأنَّ الطالبَ المبتدئ متخصصٌ في الفقه أو الحديث أو اللغة وغير ذلك؛ وذلك أنه إذا أريد بالتخصص أنَّ الطالب قد أتقن العلوم الشرعية واللغوية بتجاوزه لمرحلة المبتدئ والمتوسط والمنتهي ثم تبحر في أحدِ العلوم وتخصص فيه.. فهذا حسنٌ، وهو الذي أدعو إليه، وأُنَظِّر له في هذا الكتاب، أما إذا أريد به أن يدرس المقررات العلمية المتعلقة بالفن الذي يرغب، ثم إنه جاهلٌ بغيره من العلوم فهذا قبيح، ومذمومٌ صاحبه.

وذلك أنَّ الشريعة جسمٌ حي، مترابطٌ في نفسه ولو تعددت أجزاؤه، فكل علم يتصل بغيره علىٰ أقوىٰ ما يكون من صلة الرحم، وهذا الأمر تراه ناضجًا في



دراسة الطب؛ فإنَّ طالب الطب يدرس عامة التخصصات بشكلٍ عام في ست سنين، ثم يتخصص في جانبٍ من الجسد في مرحلة الماجستير، ويعلل رجال الطب ذلك بأنَّ جسم الإنسان جسمٌ حي، فلا يصح دراسة جزءٍ فقط وترك ما بقي، وإذا صحَّ هذا في علم الأبدان.. فهو في علم الأديان أولىٰ وألزم.

ولو كان لي ولايةٌ علىٰ الكليات الشرعية.. لدمجت كلية الشريعة بكلية أصول الدين وزدت جُرعةَ اللغة، ولو تضاعفت المدة وقلَّ الطلاب.

وأذكر أني سمعت غيرَ مرةٍ بعض الطلبة يتفكهون ببعض الأساتذة الشرعيين في بعض الجامعات أنهم لا يحسنون بدهيات مسائل الطهارة، أو أبجديات مسائل النحو، ولو كان للواحد من هؤلاء أتباعٌ فربما انتصروا له، ودافعوا عنه، وصارت فتنة، وهذا من الجناية علىٰ العلم وأهله، وصدق أبو الطيب سهل الصعلوكي إذ قال: من تصدَّر قبل أوانه.. فقد تصدىٰ لهوانه[1].

من هنا وجب تصويب مصطلح التخصص، وبعد أن أكملت جل مادةِ الكتاب ألفيت الشيخ ضيف الله الشمراني ينبه علىٰ ذلك، وأثبت قوله لحسنه، فإنه قال: «لا بد لطالب العلم من التخصص لا بالطريقة الأكاديمية الحديثة التي تقطع صلة كل علمٍ بغيره قطيعةً كاملة؛ بل بطريقة العلماء الذين يبدؤون بطلب العلم علىٰ الجادة المتعارف عليها؛ التي تبدأ بالتفنن وتنتهي بالتخصص، فيدرس كل علمٍ بمنهجيته المعروفة، ثم يتجه الطالب بعد ذلك إلىٰ العلم الذي يأنس من نفسه الميل إليه، والرغبة في التبحر فيه.

وهذا طريق العلماء لو أردنا أن نسلك سبيلهم، لكنا -إلا من رحم الله- نميل إلىٰ الدعة والراحة والسرعة في طريقة طلب العلم، ثم نريد الخوض في كل

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٤/٣٩٨).



علمٍ بلا تحصيل يؤهل لذلك، ولا نكتفي بذلك، بل نتقدم بين أيدي الأئمة الذين أفنوا أعمارهم في دراسة العلم وتدريسه والتأليف فيه بآرائنا واختياراتنا التي لا قيمة لها في ميزان العلم، بل هي إلىٰ اللهو واللعب أقرب، ونستدرك عليهم في مسائل هي عندهم من بدهيات العلوم زعمًا منّا أنها خفيت عليهم وأنهم لم يفطنوا لها، فإلىٰ الله المشتكىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].



(١) من منشورات الشيخ وفقه الله عبر قناته في التليغرام، وكذلك ما يأتي بعدُ مثله مما ليس معزوًّا إلىٰ كتاب.

المطلب الثاني
اعتماد الخطة الرأسية في المعراج العلمي

من الآفات المتكررة في الطَّلب أنَّ المتفقهَ إما أن يبدأ بالمطولات من أول يوم، فيقرأ في المجموع للنووي والمغني لابن قدامة وفتح الباري لابن حجر وحاشية الصبان وفتاوىٰ شيخ الإسلام وأضراب ذلك، أو يتهيب ذلك، ويلتزم دراسة المختصرات في الفن؛ التزامًا بوصية مشايخه أن يتدرج في الطلب.

ويصير كلما أنجز كتابًا شرع في قراءةِ آخر مثله، وكلما سمع من يُثني علىٰ كتابٍ من الشرق أو الغرب سارع باقتنائه وقراءته، ويشتغل بتدوين الفوائد العلمية واللطائف المعرفية الزائدة، وعند النظر نجد أنَّ جملةَ ما قرأ ينتسب لكُتبِ المرحلة الأولىٰ، وأنه كان يكفيه أن يقرأ كتابًا منها أو اثنين أو ثلاثة، ويصعد للكتاب الذي فوقه دون ما قاربه مما هو في رتبته.

وربما مما أوقعه في هذا الفخ أنَّ شيخَهُ عند الشرح أخذ يفكك ألفاظ المتن كلمةً كلمة، فإذا أتىٰ علىٰ البسملة ذكر إعرابها، واختلاف النحاة في تصريف كلماتها، وقد يأتي ببيتٍ من الشعر، ويستطرد في شرحه، وإذا تضمَّن فائدةً ذكرها، أو قصةً تتعلق به أوردها، فهذا المنهج مضرٌّ بالطالب، وأساء صاحبه من حيث ظنَّ أنه أحسن؛ إذ صوَّر للطالب أنَّ فهم الكتاب يحتاج شهورًا وربما أعوامًا، وأنَّ ضبطَ العلمِ ليس بالأمر القريب، وأن كل ما سمعه في الشرح إنما هو من لوازم بيان المعنىٰ.

والصَّوابُ أن نرسم خطًّا مستقيمًا يربط أول كتابٍ من المرحلة الأولىٰ بآخر كتابٍ من المرحلة الثالثة، من أخصر المختصرات إلىٰ أوسع المبسوطات، ونحيط ببرنامج الرحلة في كل مرحلةٍ سواء تضمنت كتابًا أو كتابين، ثم لا نلتفت يمنةً أو يسرةً إلا لضرورة، وبعد أن تنجز السُّلَّم التعليميَّ لهذا الفن وتُحكمه يمكنك أن تقرأ ما تشاء.

وذلك أنَّ الوصولَ إلىٰ المطولات هو الهدف من الرِّحلة؛ فهناك العلم والتأصيل وتكوين الملكة والطريق إلىٰ الإنتاج العلمي وصناعة المعرفة، وتَطَّلِع منها علىٰ قواعد الدين وفلسفة الشريعة في الأحكام، فهي بمثابة البحر وما قبلها من كتبٍ مختصرةٍ بمثابة الجداول المؤدية إليه، والمقصد هو الوصول الآمن إلىٰ البحر من أخصر طريق، ولهذا فإنَّ كلَّ كتابٍ زائدٍ عن متطلبات الرحلة يُعدُّ عائقًا عما هو أنفع وأمتع، ويصير الطالب كمن اشتغل بصيد عصفورٍ وقد ضيَّع جملًا.

إذن؛ فالذي بَرَكَ في أول محطةٍ في الطلب ولم يتجاوزها بحُجَّةِ التأسيس وعدم التعجل.. فإنه كالذي بدأ بالمطولات من أول يوم، وتقمَّصَ شخصية العالِم، فكلاهما قد ضلَّ سبيل الطلب.

وهنا ثمانٍ من النقاط يلزم التنبيه عليها:

أولا: إنَّ أهم محطةٍ في رحلة الطلب هي حسن الفهم والتصور الدقيق للمسائل في المرحلة الأولىٰ؛ لأنَّ عامةَ مسائلِ العلم مما سيأتي سيتأسس عليها، ويستعين علىٰ تحصيل ذلك بالدراسة علىٰ شيخٍ متقنٍ، والمذاكرةِ مع طالبٍ متمكن.

يقول الشيخ فيصل المنصور وفقه الله: «التأصيل الراسخ في العلم يسهِّل عليك قراءة المطوّلات بعده ويُضاعف فهمك لها وبصرَك بانتزاع فوائدها، والقدرة علىٰ ربطها بنظائرها وعدم نسيانها»[1].

---

(١) من تغريدات الشيخ وفقه الله، وكذلك ما يأتي بعدُ مما ليس معزوًّا إلىٰ كتاب.

ثانيًا: لا طريق مختصر للوعي؛ فرحلة الطلب قد تكون طويلة كمن سافرَ إلىٰ دولةٍ بعيدة، لكنَّ وظيفة المعارج ألا نتجول في عددٍ من الدول في الطريق إليها، بل نرسم خطًّا واضحًا للرحلة، ولو وقع فيه بعضُ التعرُّجَات التي تفرضها طوارئ الرحلة، وكلما أطال السائق في المحطات الأولىٰ كلما تسرب اليأسُ إلىٰ الركاب أنَّ الوصول للهدف بات متعسرًا أو متعذرًا، وقد يضطرون إلىٰ تغيير الهدف أثناء الطريق!.

ثالثًا: المدار في اختيار الكتب إنما هو علىٰ الترقي أفقيًّا ورأسيًّا؛ فالكتاب الثاني يتميز علىٰ الأول بزيادةِ عددِ المسائل الملقبة بالأصول والأمهات، وهذا هو الترقي الأفقي، والتعمقِ في نفس المسائل التي دُرِست سابقًا علىٰ وجه الإيجاز، وهذا هو الترقي الرأسي، وينبغي أن تكون المسافة قريبةٍ بين كل كتابٍ والذي يليه، فتصبح المراحل بذلك لحمةً واحدة.

ومن أمثلة ذلك: أن يدرس في النحو الآجرومية أولًا، ثم قطر الندىٰ، ثم ألفية ابن مالك، لكن حيث وصل مباحث الصرف في الألفية.. فينبغي أن يتمهد لها بسلمٍ للصرفِ خاصة.

واعتماد هذا المنهج من الفقه، وقد أُثِرَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّرَ الربانيَّ بأنَّهُ الذي يُربِّي الناس بصغار العلم قبل كباره[1].

وقد سرني بعض المشايخ لما رأيته يُجيب الطالبَ بحسب مستواه، فإن كان مبتدئًا.. أجمل، وإن كان متقدمًا.. فصَّل.

رابعًا: لا ينبغي حلُّ كلِّ إشكالٍ يعرض له في القراءة الأولىٰ للمعراج العلمي، بحيث لا يتجاوز الكتاب إلا وقد حل مشكلاته؛ لأنَّ هذا سيؤخره، ويشتته في مظان الحل، ويصبح يلتقط القليل علىٰ حساب الكثير، والأغلب أنَّ

(١) ذكره البخاري تعليقًا بعد حديث رقم: (٦٧).

حلِّ ما أشكَلَ عليه سيجده أمامه، فينبغي أن ينتهي من السلم كله ثم يعود ثانيةً، ويكون حينئذٍ علىٰ فهمٍ أعمق وإدراكٍ أكمل، وما يبقىٰ مشكلًا يتوسع فيه عندئذٍ؛ لمعرفته بالذي أمامه.

وهذا الكلام مهمٌّ للمُدَرِّس، ولهذا لا ينبغي له أن يُدَرِّسَ في فنٍّ إلا وقد أتىٰ علىٰ سُلَّمِهِ التعليميِّ ولو بقراءةٍ جرديَّةٍ، ولو أن يُوقِفَ الدروسَ مدةً ينتهي بها من ذلك، وأقل شيء أن يكون قرأ الكتاب الذي فوقه، وهذا من إجلال العلم.

خامسًا: من تشعَّبَ في قراءةِ الكتب وأكثر منها في المرحلة الأولىٰ يصبح منشغل البال بتقييد الفوائد الزائدة، مع أنَّ جلَّها سيجده أمامه في موضعه من كتب المعراج العلمي فيما لو واصل المسير، وبطرحٍ أدق وأعمق، يناسب المرحلة المتقدمة.

والصواب أن ينتهي من كتب المعراج كلها، ويحفظ بذلك مواضع العلم، ثم لا تثريب لو أخذ بالقراءة الجردية لبقية كتب الفن، وما يجده من مسائل زائدة وفوائد ذات بال فإما أن يدونه في دفتر خاص، أو في موضعه من كتب السلم علىٰ حاشية الكتاب؛ لأنه بات مطلعًا علىٰ ما فيه.

علىٰ أنه متىٰ أحكم كتب معراج هذا الفن.. فإنه يتيسر له أن يقرأ ما يشتهي من كتبه الأخرىٰ في مُدَّةٍ يسيرة؛ لأنَّ مبنىٰ المسائل بات واضحًا محكمًا عنده، فتلتقط عينه الإثراء له، والزيادة عليه، ولهذا أُثَنِّي النصيحة ألا تشتغل بكتابٍ زائدٍ يشوش مسارك، بل أنجز برنامج الرحلة، واقرأ بعد ذلك ما تشاء.

سادسًا: الاجتهاد في تقدير مدة الرحلة في جولتها الأولىٰ مهمٌّ لضمان عدم الانحراف عن خط المسير، مع اعتبار التفاوت في مدة كل رحلة، والغالب أنها تدور حول سنة إذا كان الطالب متفرغًا كما في سلم النحو، وقد تقل كما في سلم المصطلح، وقد تزيد كما في سلم الفقه.

فمثلًا: يمكن أن يقرأ طالب المصطلح شرح نخبة الفكر للدكتور عمر المقبل في أسبوع، والمدخل إلىٰ علم الحديث للشيخ طارق عوض الله في أسبوع، ويقرأ مقدمة ابن الصلاح، ويستمع لشرح الشيخ حاتم العوني لها، ويقع في مائة وأربعين شريطًا، بواقع شريطين في كل يوم، فينتهي في مدة تدنو من ثلاثة أشهر، ثم يقرأ فتح المغيث في شهرين أو ثلاثة، وبهذا يكون قد انتهىٰ من سلم المصطلح في مدةٍ لا تزيد عن ستة أشهرٍ أو سبعة، وقرأ فيها ما لم يقرأه أكثر الطلبة، ثم يبدأ برحلة الضبط والقراءة الجردية لبعض كتب الفن إذا أراد.

أما طالب النحو.. فيدرس التحفة السنية شرح الآجرومية مستعينًا بالشرح الصوتي المفرغ لابن عثيمين علىٰ متن الآجرومية، وذلك في شهرين بحدٍّ أقصىٰ، ثم يقرأ شرح ابن هشام علىٰ قطر الندىٰ، ويستمع لأحد شروحه، ويمكن أن يستعين بشرح الشيخ عبد الله الفوزان عليه، وذلك في شهرين أو ثلاثة، ثم يقصد الألفية، فيقرأ شرح ابن عقيل، ويستمع لأحد شروح الألفية وليكن شرح الدكتور سليمان العيوني، وذلك في ثلاثة أشهر أو أربعة، ويشتغل بعد ذلك بضبط ما قرأ والتوسع في كتب الفن إذا أراد، وينتهي من شيءٍ اسمه النحو، وهو بعدُ ما أكمل السنة في دراسة هذا العلم.

ولا ينبغي أن تعيقه مجالس العلم التي يعقدها المشايخ؛ لأنها إذا كانت أسبوعية ستشوش عليه، وتؤخره، بل يمضي في برنامجه الشخصي، ويبقىٰ يتابع مع شيخه في الدرس، فإذا انتهىٰ من الكتاب في ورده الشخصي بقي منتظمًا مع شيخه للضبط والإحكام وحسن الفهم، فيَعظُمُ انتفاعُهُ بمجلس شيخه، بل من الفقه أن تقرأ الكتاب الذي يُشرح لك قراءةً جردية سريعة بغض النظر عن كمية التحصيل.

سابعًا: من اليواقيت النفيسة التي يفوز بها من أنجز المرحلة الثالثة ووقف علىٰ شاطئ بحر العلم عبر التدرج الصحيح أنه يرىٰ العلم في صورته النقية، دون

التعرض لغبار المؤثرات التي يعيشها أبناء الزمان، فقد يكون الطالبُ أو شيخه منتظمًا في جماعةٍ إسلامية، أو يعيش وسط بيئةٍ انتظمت علىٰ ثقافةٍ خاصة، ولا يملك المعيار الشرعي الدقيق لفحص الأفكار ونقدها، بل معياره هو معيار جماعته أو بيئته أو من يُدَرِّسُه، وعند ذلك يُبتلىٰ بالتهويل لمن يُحب، والتهوين لمن يكره.

لكن حين يبلغ شاطئ بحر العلم.. فهناك يرىٰ عقل الأئمة، وكيفية إيراد الأدلة ومناقشة المسائل، ويفهم مآخذهم في الاستدلال، وينجو من داء التشغيب علىٰ أهل العلم، وتعظيم النفس في صورة ارتداء ثوب تقديس النص، ويعرف حجم المسائل؛ فيرىٰ مسائل كانت تُطوىٰ أمامه في كلمات، أو كانت خارجةً عن اهتماماته أصلًا، ثم هي أبوابٌ متسعةٌ تستحق طول النظر والتأمل، وأخذت حيزًا كبيرًا من مادة الوحي كتابًا وسنة، ويرىٰ مسائل أعطاها أجود وقته، وأطال النفس في بحثها وأدلتها، ومجادلة مخالفيه فيها، ثم هي تعرضُ في أسطرٍ قليلة من الكتب المطولة فضلًا عن المختصرة، فعند ذلك يتربىٰ.

وقد يكتشف أنَّ بعض الأقوال التي صُدِّرت إليه كأنها إجماع أنها من موارد الخلاف السائغ، وأن مُخَالِفَهُ علىٰ حُجَّةٍ إن لم تكن أرجح من حجته فإنها قويةٌ راسخة، فيتسع صدره لأهل الإسلام، وغير ذلك مما يجعله يتحلل من كثيرٍ من الآفات التربوية والخلقية والنفسية، وتنقله من الارتباط بالأشخاص إلىٰ الارتباط بالشريعة والأفكار.

ثامنًا: عدد محطات العلم الواحد تختلف باختلاف المدارس والبلدان، والأغلب أنهم يجعلون مرحلةً للمبتدئ وثانية للمتوسط وثالثة للمنتهي، وعلىٰ هذا بُنِيَت هذه المعارج في الجملة، ولا مانع من اختصارها إلىٰ مرحلتين إذا حصل المقصود بذلك، أو زيادتها إلىٰ أربع إذا احتاجت إلىٰ ذلك.

ولعل مما يُسبب ذلك أنَّ بعض المدارس تعتمد دراسة عامة العلوم الشرعية، فيكتفون في كل علمٍ بمحطاتٍ ثلاث، وربما بمحطتين في بعض العلوم، في حين تُطوِّل بعض المدارس التي اعتمدت علمين أو ثلاثةً فقط، حتى رأيت من جعل سلم الفقه سبعَ محطاتٍ في أحد البلاد، وأنا أكثر ميلًا للأول، ثم إذا أنجز الطالب مقررات العلوم تخصص في فنٍّ وتبحر فيه، وعندئذٍ ينبغي أن يقرأ عامة كتبه، ولو قراءةً جردية أو استكشافية سريعة.

المطلب الثالث
الجمع بين العناية بالمختصرات وبناء التصورات

بعد أن يتقدم المتفقهُ في الطَّلبِ يُدرك أنَّ العلمَ مفاهيمُ وتصورات لا مجرد مسائل ومعلومات، وأنَّ المسائلَ الجزئيَّةَ ما هي إلا خرزاتٌ في عِقدِ المفاهيم الكلية، ومن لم يلتقط المفهوم وسياقه.. نسي المعلومة بسرعة؛ لأنها لم تنتظم في موضعها، ولو بقي مستحضرًا لها.. فإنه قد لا يستفيد منها، ومن هنا تَرَكَّبَ سلمُ الطَّلبِ على وجود مطولات تقرر المفاهيم، ومختصرات تحفظ أصول المسائل من التفلت، ورحم الله إمامنا الخليل بن أحمد إذ قال: الكلام يُبسط ليُفهم، ويُختصر ليُحفظ[1].

وقد بنيت المتون على الإيجاز لمصلحة الحفظ، لكن دلائل الألفاظ أعمق مما يعيه المبتدئ والمتوسط، ولهذا من أنجز سُلَّمَ علم ثم رجع يتأمل المتون المختصرة.. أدهشته دقة الألفاظ، وما آوته من مسائل منطوقًا ومفهومًا، وقد كان لا ينتبه من قبل لِطَاقَةِ الألفاظ وما تتحمله من المعاني.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإنَّ سُلَّمَ الطلبِ لا يقوم ساقه إلا على المختصرات والمطولات معًا، ومن اكتفى بالمختصرات.. وقع في القصور، ومن اكتفى بالمطولات.. سقط في الغرور.

والعاقل من الطلبة من بقيت عينُهُ تلاحظ المفاهيم والتصورات وهو يعتني بالمسائل والجزئيات؛ لأنَّ التكلفَ في الوقوف عند كل لفظةٍ دون ملاحظة ذلك قد ينسيك مقصد الرحلة كلها، كالذي يريد إدراك معالم مدينة، وبدأ بالتجول فيها، ثم وقف

(١) الإقناع (١/ ٧١).

عند معلم فيها ويقي يتأمله، ويسأل عن تفاصيله، ويحلل وظيفته، بحجة حسن الفهم لمعالم المدينة، وهو بذلك قد أُلهِيَ تمامًا عن تصورها، وربما كان التجول السريع أفضلَ من الزحفِ البطيء، ونبه على ذلك عالِمُ الرياضيات والفيزياء الفرنسي «باسكال» حين قال: حين نقرأ بسرعةٍ شديدةٍ أو ببطء شديد.. فإننا لا نفهم شيئًا.

والصواب أن يقف بالقدر الذي يفهم به المعالم وهو يلاحظ موقعها من المدينة، ولا يقف طويلًا عند ما لا كثير نفعٍ فيه، ولهذا من فقه الطالب أن يعتني بمتين العلم ويترك حشوه وما تقل فائدته، مما أودعه العلماء ليناسب زمنًا مضى، وقد انتهت مناسبته.

والمقصود أنَّ طالب العلم عليه أن يعلم أنَّ المتون هي أوعية المسائل، فيعتني بضبطها أيما اعتناء، ولا يشغله ذلك عن القراءة في مصنفات أهل العلم التي بسطت القول في المسائل؛ ليلمح فيها المفاهيم والأفكار، وتسلسل المسائل في سياقاتها.

وذلك أنَّ المتونَ كأعمدة بيتٍ، والمبسوطات كسقفه، فلا ينعم بالمأوىٰ فيه إلا بالسقف، ولا قيام للسقف إلا بالأعمدة، ومساحة السقف أضعاف مساحة الأعمدة، وهذا هو شأن مسائل المتون؛ فإنها قليلة، لكنها قواعدُ متينة، تحمل آلاف المسائل، من غير تعبٍ لعقلِ الطالب أو إرهاق لفكره.

ومن فقه المُدرِّس أن يُحسِنَ بناءَ الأعمدةِ في صَدرِ الطَّالِب، ويترك له مهمة إتمام البناء، ويكتفي بمتابعته في ذلك، أما الانشغال ببناء السقف للطالب فإنه تضييعٌ لوقت المدرس، ومصادرةٌ لعمل الطالب، وعدمُ ثقةٍ في عقله، وتفويتٌ لفرصة ترويضه علىٰ النظر في مسائل العلم بعد أن تأصل بغرس القواعد، ولهذا فالعالِمُ الحقُّ هو من يُوصلك ويُوصِلُك، لا من يُعَلِّمك ويلقنك.



المطلب الرابع
تكامل أركان الطلب

وأركان الطلب هي شيخٌ متقن ومنهجٌ مُحكمٌ وطالبٌ مستعد.

أما الشيخ المتقن؛ فنعمةٌ من الله على الطالب، ومتى توفر فقد أراد الله به خيرًا؛ فإنه يحسن الإرشاد، ويختصر السبيل، وإذا لم يتوفر أو توفر لكن بقدرٍ لا يكفي فيمكن أن يستعين الطالب بالشروح الصوتية، ويبقى يتابع مع شيخه، فإن لم يجد شيخًا في مدينته فيمكن أن يتواصل مع بعض أهل العلم من خلال الوسائل الحديثة، وهذا يُسعِفُ المغتربَ عن بلده، والفار بدينه ونفسه ممن لا يجد من يتفقه عليه.

لكن حيث اعتمد على الشروح الصوتية.. فعليه أن ينتبه أنه وإن تَيَسَّرَ له بها ما لم يجده في غيرها؛ لأنها معه بحسب وقته.. إلا أنها ضعيفةُ التأثير الروحي؛ لفقد الروح السارية بين المعلم والتلميذ في مجالس الطلب المباشرة.

وعلى الطالب حينئذٍ أن يزيد في أوراد التزكية، وأدب الطلب، والنظر في سير أهل العلم وطبقاتهم وأخلاقهم؛ ليزكي نفسه بالتأسي بهم، وليكثر من سؤال الله ذلك كثيرًا على كل حال؛ فإنه القائل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

أما المنهج المُحكَم؛ فهذا الكتاب محاولةٌ اجتهاديةٌ في خَطِّهِ بإذن الله.

وأما الطالب المستعد؛ فقد خصصت الفصل الرابع لبيان خصاله وما ينبغي في تكوينه إن شاء الله تعالى.

المطلب الخامس
طريقة تناول العلوم

يتأثر طالبُ العلم في ذلك بحسب البلد الذي هو فيه، أو المدرسة العلمية التي ينتسب إليها، والناس في ذلك علىٰ حالين: إما أن يركزوا علىٰ علمٍ واحدٍ حتىٰ ينهوه، وإما أن يتلقوا كتب المرحلة الأولىٰ من كل فن، ثم الثانية، وهكذا.

والذي أستحبه للطالب أن يجمع بينهما؛ وذلك بأن يدرس المرحلة الأولىٰ من كل فن، ويعتني بحسن التصور لمسائلها، وحفظ المتن المهم فيها، ثم يقصد إلىٰ كل فن، ينجزه إلىٰ تمام المرحلة الثالثة، ثم يبدأ في العلم الذي يليه، وهكذا.

وهو في أثناء ذلك يُثبِّت له وِردًا لضبط كتب المرحلة التأسيسية التي أنجزها، بحيث يبقىٰ قريبًا من المسائل الأمهات في عامة العلوم الشرعية واللغوية، وكلما ختمها مرة شرع في تاليةٍ بعدها.

والذي دعاني لاختيار هذا السبيل أربعةُ أسباب:

الأول: تعاون العلوم، فيحصل للطالب بضبط المرحلة التأسيسية من التصورات العلمية ما لا يجده بالانكباب علىٰ علمٍ واحدٍ بعينه، خاصة أنَّ بعض العلوم قد لا يصل إليها إلا بعد سنين، والبقاء علىٰ الجهل بأمهات المسائل فيها مما يقبح به، خاصة إذا كانت متعلقةً بالتعبد والعمل.

الثاني: الاستفادة من الجهد العلمي في بلده؛ فقد يُعقد في مدينته مجلسٌ في شرح الألفية أو في شرح المنهاج أو في شرح مقدمة ابن الصلاح، وإذا كان قد أحكم

المرحلة الأولىٰ من العلم.. سهل عليه الالتحاق به، ويعظم عندئذٍ انتفاعُهُ به.

الثالث: النجاة من الملل المتوقع عند التزامِ علمٍ واحدٍ لمدةٍ طويلة.

الرابع: عدم ضياع ما يسمعه من مسائل العلم الذي أنجز فيه مرحلته الأولىٰ؛ فإنَّ من ضبط طرفًا من العلم، ثم سمع فيه مسألةً جديدة، أو قيدًا أو تتمةً لمسألةٍ قديمة.. فإنَّ ما سمعه يثبت في ذهنه؛ لإحاطته بأصله، وعندئذٍ يضعه في موضعه فلا يفوت؛ لأنَّ العلمَ بنىً معرفيةٌ تتراكم يومًا بعد يوم، وإن لم يكن حصَّل في هذا العلم شيئًا.. عسر عليه الاحتفاظ به، ولو احتفظ به.. عسر عليه الانتفاع به.

وإذا كان طالبُ العلم قد حدد العلم الذي قصد التخصص فيه، ومضىٰ فيه.. فإنه يجعل الأوراد ثلاثة؛ وردٌ للتخصص الذي اختاره، ووردٌ للعلم الذي يدرسه علىٰ ما ذكرنا، ووردٌ يراجع فيه كتب المرحلة التأسيسية، كلما انتهىٰ بدأ من جديد؛ جمعًا بين شمول العلم وضبطه.



المطلب السادس
التركيز

وهذه كلمةُ السِّرِّ في حياةِ الأئمة، وسنحتاج إلىٰ تكرارها في عامة مراحل الطلب؛ وذلك أنَّ التركيزَ يأخذ صُوَرًا شتىٰ؛ التركيز في الطلب علىٰ فنٍّ بعينه، وفي هذا الفن علىٰ كتبٍ بعينها، وفي الكتاب الذي يدرسه علىٰ قطعةٍ يسيرة حتىٰ يُحكِمَهَا، وأثناء الدراسة يتجنب ما يشتت ذهنه؛ كالاتصالات الهاتفية، ومتابعة وسائل التواصل.

وذلك أنَّ العلمَ هو غذاء العقل، وتناول هذا الغذاء لا يتم في ضجيج، وإنما يكون برويَّةٍ وهدوء.

يقول الدكتور مشعل الفلاحي: لا أعلم عادةً بعد استثمار الوقت تعين صاحبها علىٰ بلوغ أمانيه مثل عادة التركيز؛ فإنَّ سنةً واحدة من التركيز تعدل عمر إنسانٍ في الفوضىٰ، وأعرف طالب علمٍ حصَّل في خمس سنواتٍ ما لم يحصله صاحبه في عشرين عامًا، والفارق بينهما عادةُ التركيز، ولهذا؛ فإن التزام كتابٍ واحدٍ وتكراره عشرات المرات في علمٍ من العلوم.. أثمن وأعظم وأبرك لطالب العلم من قراءة عشرات الكتب في ذات الفن، ولهذا تجد كثيرًا في تراجم الكبار: وقد ختم كتاب كذا خمسين مرة، أو سبعين مرةً، أو مائة مرة.

فعادة التركيز إذن هي أعظم العادات نهضةً في حياة الطالب، ولهذا تجد من ركَّزَ في مهارةٍ واحدةٍ في حياته أنتج ما لم ينتجه من قضىٰ عمره في تعلم أكثر من

مهارة، أحسن الله عزاء المشتتين في أرباح الدارين، وأعانهم علىٰ تدارك أعمارهم قبل الفوات.

ومن صور التركيز التي تقدم إجمال القول فيها:

أ- ألا يزيد الطالبُ علىٰ علمٍ واحدٍ أثناء التلقي، فيحفظ متنه، ويستظهر شرحه، ولو زاد فلا يزد عن ثانٍ، إلا إذا كان الثالث سهل المأخذ لا يحتاج إلىٰ كثير وقت، ويعتمد الشناقطة عدم الزيادة علىٰ علمٍ واحدٍ في الأغلب من أحوالهم، وفي هذا يقولون:

وإن تُـرد تحصـيل فـنٍّ تممـه ... وعـن سـواه قبـل الانتهـاء مَـه

وفي تـرادف الفنـون المنـع جـا ... إذ توأمـان اسـتبقا لـن يخرجـا

وإذا لم يجد شيخًا يتابعه أولًا بأول.. فيمكن أن يُقبِل علىٰ قراءة الكتاب، وسماع الشُّروحِ الصوتيَّةِ له، بحيث يختمه في مدةٍ يسيرة، ثم يشتغل بضبطه، ويتابع مع مشايخه بحسب تفرغهم.

أما أن يتبعثر جهد الطالب في عدة علوم، ثم لا يخرج بضبطٍ واحدٍ منها، بل ربما ولا بكتابٍ واحدٍ من أيِّ علمٍ منها.. فمثل هذا لا يصل، يتعب كثيرًا وينجز قليلًا.

ب- وفي العلم الذي يدرس لا يزيد عن كتب المعراج العلمي الذي اتبعه، ويركز عليها، وكلما ضبط واحدًا ترقىٰ للذي فوقه، ويُقبل عليه كأنه لا يعرف غيره، وإذا ختم عامة الكتب المحددة أخذ في إعادتها وضبطها، حتىٰ تختلط بلحمه ودمه.

ت- وفي الكتاب الذي يدرس إذا أخذ في ضبط مسائله فلا يزد عن ثلاث مسائل، يأخذ في تكرارها، والتعبير عنها بلسانه، حتىٰ ترسخ في ذهنه، وهكذا يفعل حتىٰ يختم الكتاب، لا يتحول عنه إلا إذا هضمه وأحكمه.

ومن منافع هذا المنهج الاستدراكُ السريع لما فات، خاصة إذا تعثر الطالب في طريقه أو بدأ طلب العلم متأخرًا.

ومن الأخبار في ذلك ما صنعه محمود الطناحي حين كان يعمل مع المستشرق الألماني «هانس روبرت رويمر»؛ إذ مر بهم هذا البيت أثناء العمل في تحقيق كتاب «الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر»:

مَلِــكٌ مُنْشِــدُ القَــرِيضِ لَدَيْــهِ   يَضَــعُ الثَّــوْبَ فِي يَــدَيْ بَــزَّازِ

فسأله ذلك المستشرق: من أي بحرٍ هذا البيت؟ فأطرق الطناحي إطراقةً بلهاء، فقال له المستشرق مُنكرًا متعجبًا: طالبٌ بدار العلوم متخرجٌ من الأزهر لا يعرف علم العروض؟!.

يقول الطناحي: فقمت من مجلسي والأرض لا تكاد تقلني، والهموم تكتظ في قلبي، وكلمة هذا المستشرق تلاحقني، واتجهت إلىٰ بيتي، وحين دخلت ذهبت للمكتبة واستخرجت منها كتاب «المذكرات الوافية في علمي العروض والقافية» للشيخ عبد الفتاح شراقي، وهو ما كان مقررًا علينا في الأزهر، فانكببت عليه لا أكاد أدير وجهي عنه صباح مساء، وما هي إلا أسابيع قليلة حتىٰ لانت لي البحور، واستقرت أنغامها في أذني، وامتلأ بها سمعي، ثم كان ما كان من رحلتي الطويلة مع تحقيق النصوص، ومن أدواته معرفة علم العروض، وهكذا من انقطع إلىٰ شيءٍ.. أتقنه[1].

هذه هي فلسفة التركيز التي نتحدث عنها باختصار[2].

وهذا النهج يجعل هدف الإنسان كصرحٍ يبني كل يومٍ منه قطعةً حسنة، ولا يغمد السيف حتىٰ ينتهي، وسعيًا في تحصيل هذه الثقافة أقدم لك رزمةً من

---

(١) في اللغة والأدب.. دراسات وبحوث للدكتور محمود الطناحي (١/ ١٨١-١٨٢).

(٢) التركيز ص (٢٢).

الوصايا بقلم الدكتور مشعل الفلاحي فإنه قال:

▪ إذا أُغلق عليك بابٌ من العلم أو مهارةٌ أو تخصصٌ فأقنع نفسك أن في إمكانك بلوغه، وركز عليه، وامنحه وقتك وقلبك ومشاعرك، وأعدك أن تكون رمزًا فيه مع الأيام(١).

▪ في علم الإدارة ثمة قاعدة [٨٠ / ٢٠] أي: ركز ٨٠٪ من جهدك ووقتك على ٢٠٪ من أهدافك، وستحقق في النهاية ٨٠٪ من النتائج(٢).

▪ اجعل ثلثي يومك لمشروعك، وثلثه لعامة شأنك، وبهذا يتهادى إليك الإبداع والتوازن معًا(٣).

▪ تعود أن تقول: «لا»، فلا تكن جزءًا من برامج الآخرين، وحيث طلب منك شيء فقل: سأنظر جدولي أولًا، وعود الذي أمامك الانتظار، ويكون لك مزيدُ رويةٍ في الأمر، وعندئذٍ تضع «نعم» في موضعها اللائق بها، على أنَّ الشيء الذي يطلب منك قد يكون مهمًّا لكنك الشخص غير المناسب، فأنت لست موظف طوارئ، أو موظف كابينة الاتصال أو الاستقبال تستقبل كل سؤالٍ وطارئ(٤).

▪ إذا وجدت حافظًا للقرآن يُرَدِّدُهُ من غير تلعثمٍ ولو كان مرهقًا، أو رأيت من يكتب على الحاسوب بمهارةٍ فائقةٍ دون أن ينظر في لوحة المفاتيح، أو شاهدت لاعب كرة يتصرف فيها كما يشاء ويمضي وقتًا طويلًا في ذلك لا تنزل عن قدمه، ثم يصوبها في النقطة التي يريد، أو رأيته يأخذ كرتين، يضرب الأولى في الهواء ثم يضرب الأخرى فتصطدم بالأولى دون أن تختل واحدةٌ من تلك

---

(١) التركيز ص (٢٣).

(٢) التركيز ص (٥٥).

(٣) التركيز ص (١٥٢).

(٤) التركيز ص (٦٥-٦٧).

المحاولات.. فاعلم أنَّ هذا من نتائج التركيز، وإذا كان نظر العامة إلىٰ المشهد الأخير الذي وصل إليه هؤلاء.. فإنَّ نظرَ الخاصةِ إلىٰ الطريق التي خاضوها حتىٰ حصل لهم الارتياض علىٰ ذلك(١).

أما المشوشات علىٰ قيمة التركيز؛ فمن أكثرها اليوم متابعة وسائل التواصل الاجتماعي، وهي في نفس الوقت تتضمن كثيرًا من المفيد النافع في العلوم الشرعية وغيرها، لا سيما متابعة صفحات بعض المشايخ والمفكرين وطلبة العلم المتقدمين، والعلاج إزاء ذلك أن يحددَ نصف ساعةٍ في اليوم، أو بضع ساعات في يوم محددٍ من الأسبوع، ويتابع فيه حاجته، أو بتقديم بعض الصفحات لتظهر إليه أولًا، وبهذا يجمع بين متابعة الواقع والتركيز في الطَّلب.

أما عن متابعة الأخبار؛ فالناس في ذلك طرفان ووسط؛ فمنهم من يتابع كل خبر، ويتفاعل معه، ومنهم من يهجر كل هذا، والصواب أن يتابع أمر المسلمين، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ولكن بحيث لا يضيع وقته.

وأنصح في هذا بمتابعة قنوات التليغرام؛ فإنَّ متابعةَ عشرات الأخبار قد لا يحتاج من الإنسان أكثر من عشر دقائق، يكون فيها ملمًّا بمهمات ما يجري؛ لأنَّ عددًا من القنوات تجمع الأخبار في منشورٍ واحد، وبعض القنوات يهتم بالأخبار المحلية، وبعضها بالأخبار الإقليمية والدولية، وبعضها بالأخبار العلمية، وهذا ييسر الأمر علىٰ من يضن بوقته أن يضيع(٢).

---

(١) التركيز ص (١٢٧-١٢٨) بتصرف وزيادة.

(٢) وأنصح بقراءة كتاب «الماجريات» للشيخ إبراهيم السكران فرج الله عنه؛ فإنه نافعٌ في تنظيم هذا الباب، ومما قاله بهذا الخصوص في مقالٍ منشورٍ له باسم «أخبار قراء الجرد»: العمر قصير ومطولات الإسلام كبيرة، وفيها أمتع ما في الدنيا، وأخشىٰ أن تكون أوقات شباب الإسلام الذين عليهم الرهان تلتهمها مواقع التواصل الاجتماعي، والعلم والثقافة سواعد الدعوات.

وأختم هذا المطلب بزمرة من الأقوال المُحَرِّضَةِ على التركيز مما خطَّهُ أخونا الشيخ فيصل المنصور وفقه الله:

- لا ينال الإنسان العلمَ حتىٰ يكون هو شغلَه وهمَّه، قال أبو حاتم للأصمعي: إنك تحفظ من الرجز ما لم يحفظه أحدا! قال: إنه كان همَّنا وسدمَنا![1].

- لم تعمَل كلمةٌ في نفسي عملَها كقول إمامنا الخليل رَحِمَهُ اللهُ: إني لأغلقُ عليَّ بابي فما يجاوزه همِّي![2].

- لا يكون الرجل طالبَ علم حتىٰ يكون حِلْس بيته؛ أي: لا يبرحه.

- لن تستطيع أن تشعب همّك علىٰ العلم، وتوفّره علىٰ حسن النظر حتىٰ تطويَه عن كثير من اللّغو، وترغب به عن مّا يتهافت عليه غوغاء الناس.

- نحن إلىٰ إقامة دورات في كيفية القراءة البطيئة أحوجُ منا إلىٰ دورات في كيفية القراءة السريعة.

- كيف تريد أن تكون عالمًا وأنت تلقي إلىٰ العلم بفُتات وقتك، وتضنّ عليه بالحظ الأجزل من ساعاتك، وتزحَمه بكل تافهٍ من شغولك وأعمالك؟.

- العلم صاحبٌ لا يفارق، ومنهاجُ حياة لا يتخلَّف، ومتىٰ ظننت أنه بوسعك أن تدرك العلم بأن تخلِّل به أيام لهوك فقد ظننت عجزًا ورُمت محالًا!.

- ينبغي للمفكّر وصاحب العلم أن يوازن بين الخلطة والعزلة؛ فإن أكثر الأفكار تنقدح في الخلطة وتختمر في العزلة.



(١) السدم: هو الولوع بالشيء. انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٥٥).

(٢) قلت: هذا إشارة إلىٰ شدة التركيز، وأنه إن جلس يقرأ لا يفكر إلا فيما هو فيه.

المطلب السابع
جعل مقررات الجامعة من خُطَّته

إذا كان الطالب ملتحقًا بالجامعة، ويدرس العلم الشرعي.. فينبغي له العنايةُ الفائقةُ بالمحاضرات، وجعلها من وِرده، ولا يلتفت لمن يُزَهِّدُهُ في الجامعة بإطلاق، لا سيما إذا كان المُدَرِّسُ متقنًا أو مقبولًا.

وذلك أنَّ الخللَ الذي يغلب علىٰ مقررات الجامعات والكليات الشرعية هو في عشوائية الطرح، وعدم التدرج في معراج العلم، وعلاج هذا أن تَدْرُسَ وحدك كتب المرحلة التأسيسية في العلم الذي تتلقاه في الجامعة، وبهذا يصبح المساق الذي تدرسه واقعًا في خطة مسيرك، فلا يفوت عليك.

فإذا كان المقررُ دراسةَ الألفية مثلًا.. فاتعب في دراسة الآجرومية علىٰ الأقل، ولو أضفت إليها دراسة قطر الندىٰ لكان خيرًا.

وهذا النهج في التعامل يحتاج إلىٰ تعبٍ شديد؛ لأنَّ عدد المساقات قد يكون كبيرًا، وقد لا يتمكن الطالب من دراسة المرحلة التأسيسية في كل مساقٍ يتلقاه، وعندئذٍ يختار مساقين أو ثلاثة مما تشتد الحاجة إليه.

فإن كان الطالب ملتحقًا بكلية الدراسات العليا، وأنجز المواد، أو كانت الدراسةُ مقتصرةً علىٰ كتابة الرسالة.. فإنه يجتهد فيها ما لا يجتهد في غيرها، ويخلص لله فيها؛ فإنَّ الكتابة في الدين دينٌ، والفوائد التي يحصلها الطالب من المساقات مجتمعة في كفة، والفوائد التي يستفيدها من كتابة الرسالة في كفةٍ مكافئة أو تزيد.

وهي فرصةٌ للنظر في المطولات، وتحرير المسائل، والتحقيق العلمي، والموازنة بين أقوال الأئمة، والتمرن على التأليف، ومعرفة قواعد البحث العلمي.

وليجتهد في اختيار موضوع الرسالة أن يجعله من الموضوعات التي يرغب في إحكامها، فيتوسع في الاطلاع على مادتها، ومن ثم يكتب عن أهليةٍ ورسوخ، وبهذا يعتمد طريقة الإمام النووي في التأليف؛ فإنه كان يجعل تحصيله تصنيفًا، وتصنيفه تحصيلًا كما سيأتي في موضعه.

أما إذا كان الطالب يدرس علمًا حياتيًّا؛ كالطب أو الهندسة أو التاريخ مثلًا، ويريد أن يأخذ بحظه من علوم الشريعة، ووقته يضيق.. فهذا يجعل ثلثي وقته لدراسته الجامعية حتى ينتهي منها، وثلث الوقت لدراسة العلم الشرعي، ويمشي بنفس الخطوات التي نذكر، ولا بأس بالسير البطيء؛ فإنَّ القليل المنتظم بمنزلة الكثير، وهل السيل المنهمر إلا اجتماع النقط!.

لكن هذا الطالب مطالبٌ بثلاثةِ أشياء:

١- أن يعتني بالضبط أكثر من اعتنائه بالجمع.

٢- وأن يُحكِمَ المرحلةَ التأسيسية في كل علم.

٣- وأن يتورع عن الكلام في الدين قبل أن يتأهل؛ إذ إنَّ تخصصه الدنيوي لا يُسَوِّغُ له التصدرَ في الدِّين، وإن كان ينتفع به في سرعة الفهم للمسائل الشرعية، خاصة إذا كان يدرس علمًا من العلوم الدقيقة؛ كالطب والهندسة، فيكون عقله قد تمرن جيدًا على دقيق العلم، وعندئذٍ يكون إدراكه للمسائل أعمق من غيره من كثيرٍ من طلبة الكليات الشرعية، وهذا واقعٌ مشاهد.

ومما يمكن أن يستعين به هؤلاء التفرغ لعدة أيام من كل شهر، ويتم الانكباب فيها على كتابٍ حتى إنهائه، فلو أراد الطالبُ مثلًا أن يضبط أول كتابٍ

في سُلَّم العقيدة.. فإنه يقرأ كتاب «العقيدة الميسرة» للدكتور أحمد القاضي، ويستمع إلىٰ شرحه المرئي المنشور علىٰ الشبكة، في حدود ست ساعات، ثم يشتغل بمراجعته وضبطه خلال الشهر، فإذا جاء الشهرُ الذي يليه شرع في كتابٍ آخر بنفس الطريقة وهكذا، وبهذا النهج ينجز الكثير في الوقت اليسير، خاصة إذا كان الشرح الصوتي الذي يسمعه مُفَرَّغًا.

المطلب الثامن
الموازنة بين التخصص والتوسع

من العقباتِ المنهجيَّةِ عند جمهرةٍ من طلبةِ العلم سبيلُ الموازنة بين التخصص والتبحر فيه والبحث في دقيقه، وبين سعةِ الاطلاع الذي يشمل العلوم الشرعية واللغوية والإنسانية وما يحتاج إليه من الثقافة العصرية.

وذلك أنَّهُ لا ضبطَ للعلم ولا نماءَ فيه ولا إبداعَ ولا إنتاجَ إلا بالتخصص، ولا دقةَ في الفهم ولا اكتمال في التصورات والمفاهيم إلا بسعة الاطلاع، ومن المقطوع به استحالةُ الإحاطةِ بعامة العلوم، فما العمل إذن؟!.

الحقيقةُ أني أرىٰ الجواب سهلًا متىٰ نظَّم الطالبُ وقته، وكان ذا همةٍ وانزوىٰ عن الناس متفرغًا للطلب خمس سنين علىٰ الأقل، وسلك معراجًا علميًّا واضح البرامج من أول خطوةٍ إلىٰ آخر خطوةٍ من غير انحرافٍ عنه..

وذلك بأن يُقَسِّمَ الوقتَ شطرين، لا يتغول أحدهما علىٰ الآخر بحالٍ، الأول: لدراسة التخصص والتبحر فيه، والثاني: لدراسة العلوم علمًا بعد آخر، وكلما أنجز علمًا إلىٰ مرحلته الثالثة في العلم الشرعي، والثانية في العلم الدنيوي انتقل إلىٰ ما بعده.

فلو كان ورده ثماني ساعات.. فيجعل أربعًا للتخصص، وأربعًا للعلم الآخر الذي يشتغل به، ويجتهد أن يُرَكِّزَ غايةَ التركيز بحسب الذي مرَّ من التنظير لذلك، فلا يزد عن كتابٍ في كلٍّ منهما إلا لحاجةٍ.

هذا هو مجمل الذي يظهر في الموازنة بينهما، أما التفصيلُ فإليك بسطَهُ في خمسةِ أفرع: الأول: لأهمية التخصص، والثاني: لأهمية سعة الاطلاع، والثالث: لحد الموازنة بينهما، ويتناول الرابع عوامل تيسير الجمع بينهما، ويتكلم الخامس عن أفضل التخصصات العلمية، ودونك تبيانَ ذلك:

الفرع الأول: أهمية التخصص:

إن الإحاطةَ التامة بعلمٍ واحدٍ أمرٌ إما متعذرٌ أو متعسر، فكيف باستيعاب شتىٰ المعارف والعلوم، والإنسان مهما طال عمره وكثرت مواهبه ورزق مع ذلك الفهم الحاد والحافظة الواعية.. فإنه لا يبلغ الإمامة في فنٍّ إلا إذا تفرغ له، واستفرغ فيه غاية جهده[1]، وما أصدق قول الشاعر:

ما حوىٰ العلم جميعًا أحدٌ ... لا ولو مارسه ألف سنة

إنما العلم كبحرٍ زاخرٍ ... فاتخذ من كل شيءٍ أحسنه

وقد ورثنا الشافعي -الذي اتصف بالجمع بين العلوم وقطعه شوطًا حسنًا في الإمامة فيها- ذلك لما قال لأبي عليٍّ بن مقلاص أحد تلامذته: أتريد أن تحفظ الحديث وتكون فقيهًا، ما أبعدك عن ذلك![2].

وتناول الدكتور عبد الكريم بكار هذه المسألة بشيءٍ من التفصيل والتعليل فقال: إنَّ التخصصَ هو أن يبني الإنسانُ معرفةً مدققةً في موضوعٍ ما، مكتفيًا بالمعرفةِ العامَّةِ في باقي الموضوعات، فهو يتعاملُ بصورةٍ مستمرةٍ مع حقائق فرعية؛ لأنه ينحو منحىٰ الدقة لا التعميم.

---

(١) الإبداع العلمي لأحمد القرني ص (٣٦-٣٧).
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ١٣٩).

أما نمط العالم الموسوعي الذي يُلِمُّ بعلومِ عصرِهِ.. فمن المتعذر أن يستمر اليوم، وأنموذج الفقيه المفسر الطبيب الفلكي الذي قدَّمه بعض علمائنا في التاريخ يبدو أنه انتهىٰ إلىٰ غير رجعة، ولك أن تستحضر أنَّ فروعَ العلوم الطبيعية في الولايات المتحدة كانت قبل نصف قرنٍ نحوًا من ثلاثين فرعًا، وهي الآن تزيدُ عن ألف فرع.

ولهذا فإنَّ العالم الذي يصر أن يفعل ذلك سيُكوِّنُ ثقافةً يصعب الوثوق بها؛ حيث سيضطر إلىٰ الرضوخ إلىٰ اختيارات علماء كثيرين، مع العجز عن اختبار الحد الأدنىٰ من مصداقيتهم وفروضهم العلمية والبحثية، ونظرًا لاتساع دوائر التخصصات علىٰ نحوٍ مستمر.. فسيجد نفسه صاحب معرفةٍ سطحية.

أما من أراد الوصول إلىٰ شيءٍ جديدٍ ذي قيمة؛ فإنَّ سبيله أن يتقدم رأسيًّا في العلم، مع التدقيق فيه، وتركيز الفكر والبحث والخبرة في بؤرة معرفيةٍ ضيقة؛ حتىٰ يتمكن من الوصول إلىٰ بغيته[1].

وهذه النتيجة التي يقررها الدكتور بكّار أشار إليها الإمام الذهبي وهو يُقَيِّمُ تجربةَ ابنِ الجوزي في ذلك، فإنه قال: ومع تبحرِ ابنِ الجوزي في العلوم، وكثرة اطلاعه وسعة دائرته.. فإنه لم يكن مبرزًا في علم من العلوم، وذلك شأن كل من فرَّقَ نفسَهُ في بُحورِ العلم[2].

ولك أن تقرأ هذه النتيجة في كلام أبي عبيد القاسم بن سلام إذ قال: «ما ناظرني رجل قط وكان مفننًا في العلوم إلا غلبته، ولا ناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني في علمه ذلك»[3].

---

(١) القراءة المثمرة لعبد الكريم بكار ص (٨٥-٨٦) بتصرف.
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٤٢/ ٣٠).
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٢٥٧).

الفرع الثاني: أهمية سعة الاطلاع:

تقدم أن الشريعةَ كصرحٍ شامخ، وكل علمٍ منها بمنزلةِ جناحٍ من الصرح أو حجرة، فمن قضىٰ عمره في علمٍ واحدٍ.. فإنه يقدر أن يبيِّنَ لك تفاصيله، لكنه لا يستطيع أن يلتقطَ صورةً وافيةً عن الشريعة التي يحمل، وعندئذٍ ينقص تصوره عنها بقدر النقص الحاصل عنده، فيسيء لها من حيث أراد أن يُحسن.

ولهذا يتعين علىٰ من يتكلم في العلم أن يُحيطَ بصورةِ الشَّريعةِ ولو علىٰ سبيل الإجمال، ثم يقف بثغرٍ منها ويحسن حراسته، ويسد كل ثلمةٍ تتجدد فيه، مع معرفته بجهد إخوانه في بقية الثغور، فلا يعادي بهذا شيئًا من العلم، بل إنه وهو يعتني بتفاصيل ما هو فيه.. فإنَّه يجعل عينَهُ علىٰ عامَّةِ الصرح، يعين الواقفين بمفاصله ويستعين بهم.

وهذه السياسةُ المركبة من التخصص وسعة الاطلاع وردت عن عددٍ من الأئمة ممن سجل خلاصة تجربته وسلمها إلينا واضحةً لئلا نعاني استنباطها.

ومن هؤلاء أبو محمد ابن عطية صاحب المحرر الوجيز، فإنه قال: فإني لما رأيت العلوم فنونًا، وحديث المعارف شجونًا، وسلكت فإذا هي أودية، وفي كلٍّ للسلف مقاماتٌ حسانٌ وأندية، رأيت أن الوجه لمن عزم علىٰ الوصول أن يأخذ من كل علم طرفًا خيارًا، ولن يذوق النوم مع ذلك إلا غرارًا، فجريت في هذا المضمار صدر العمر طلقًا، وأدمنت حتىٰ تصببت عرقًا، إلىٰ أن انتهج بفضل الله عملي، وحزت من ذلك ما قسم لي..

ثم رأيت أنَّ من الواجب أن يعتمد علىٰ علمٍ من علوم الشرع، يستفيد فيه غاية الوسع، يجوب آفاقه، ويتتبع أعماقه، ويضبط أصوله، ويحكم فصوله، ويعنىٰ بدفع الاعتراضات عليه، حتىٰ يكون لأهل ذلك العلم كالحصن المشيد، والذخر

العتيد، يستندون فيه إلىٰ أقواله، ويحتذون علىٰ مثاله[١].

وقال أبو محمد ابن حزم: ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيط بالعلوم كلها.. فإنه يُنصح بأن يأخذَ من كلِّ علمٍ بنصيب، ومقدار ذلك معرفته بأعراض ذلك العلم، ثم يعتمد العلم الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه فيستكثر منه ما أمكنه، فربما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر، علىٰ قدر زكاء فهمه، وقوة طبعه، وحضور خاطره، وإكبابه علىٰ الطلب[٢].

وابن حزم بذلك يُبَشِّرُ بإمكانِ النبوغ في أكثر من علم بالشروط التي ذكرها، غير أن الأعدلَ أن يُفرق بين الاستكثار من العلم والنبوغ فيه وبين الإمامة فيه، فيمكن للإنسان أن ينبغ في جملةٍ من العلوم، بأن ينتهي من مراحلها الثلاث مثلًا، ويتوسع فيها بحسب الحاجة.

لكن الذي نُنَظِّرُ له هنا أن يعمد المتفقه إلىٰ علمٍ ليبلغ فيه حدَّ الإمامة، حتىٰ يكون لأهله كالحصن المشيد، والذخر العتيد كما حرَّض عليه ابن عطية، ثم إذا فتح الله عليه وبلغ الإمامة في فنٍّ واشتهىٰ الإمامة في غيره أخذ في ممارسته، وليس بمستكثرٍ أن يفتح الله علىٰ بعض المتأخرين كما فتح علىٰ بعض المتقدمين، وقليلٌ ما هم.

الفرع الثالث: حد الموازنة بين التخصص والتوسع:

فإن قيل: ما الحد الذي يتحصل به الجمع بين التخصص والتفنن؟.

قلت: أما التخصص فلا يغني فيه كتابٌ عن كتاب، ولكن ينبغي أن تُقَسَّمَ كتبُ الفنِّ إلىٰ ثلاثة أقسام:

---

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٣٣-٣٤).

(٢) رسائل ابن حزم (٤/ ٢٤).

الأول: الكتب المحورية التي عليها مدار دراسته، فهذه يضبطها ويحكمها، وكلما انتهىٰ من قراءتها شرع فيها من جديد وهكذا حتىٰ يلقىٰ الله.

والثاني: الكتب التي تقاربها، وهي في تخصصه من الأهمية بمكان، فهذه يتم قراءتها قراءةً جردية، ويبقىٰ يعاود النظر فيها عند الحاجة.

والثالث: الكتب التي تقل الحاجة إليها؛ لحصول الكفاية بما تقدم، فهذه يقرؤها قراءةً تصويريةً أو استكشافيةً أو انتقائية بحسب الموضوع الذي يحتاج التوسع في بحثه، وسيأتي بعد قليل في صدر الفصل الآتي الحديث عن أنواع القراءة مفصلًا.

وأما العلوم الأخرىٰ فينظر:

إن كانت علومًا شرعية أو لغوية.. فينبغي أن يُحَصِّلَ فيها ما يعينه علىٰ الاجتهاد الجزئي فيها، ويؤهله لأن ينظر في أقوال أهلها نظر الناقد البصير، والوصول إلىٰ هذه الرتبة يحتاج إلىٰ أن يتقن جمهرة مسائل هذه العلوم، وتصور ما وقع فيها من الوفاق والنزاع، والفقه التام بتاريخ كل علمٍ منها وتطوره ونقلاته المحورية، وإتقان التعامل مع كتبه، وإدمان الاتصال بالمتخصصين فيه، ومشاورتهم ومحاورتهم[1].

وإن كانت علومًا إنسانيةً أو عصريةً.. فيكتفي بمقدار الحاجة منها، وهذا قد يتحقق بقراءةِ المرحلة الأولىٰ منها فقط، وهذا يمكنه من معرفة مظان المسائل ليرجع إليها عند الحاجة، ويتأكد في حقه التواصل مع أهل الاختصاص فيها؛ ليختصروا له السبيل، ويأخذ عنهم المفاهيم المركزة التي تحصَّلت عندهم مع طول النظر، وبهذا لا يتيه في أوديةِ كلِّ علم.

(١) السبل المرضية لأحمد سالم ص (٨٧-٨٨).

وبما تقرَّر تدرك أنَّ الحدَّ الذي يلزم طالب العلمِ معرفتُهُ في كلِّ علمٍ ليس هو الحد الذي يلزم العامي؛ فالقدر الذي يلزم العامي هو ما تصح به عبادته، أما المشتغل بالعلم فيلزمه أن يعلم ما يصح به فهمه للشريعة.

ومن الملاحظات التي سجلها الأئمة قديمًا وحديثًا:

أنَّ بعضَ المشتغلين بالعلم يُقبل علىٰ علمٍ بعينه إلىٰ حد التفاصيل التي تخلو من كثير نفع، ويتركُ عُمَد المسائل من العلوم الأخرىٰ مما يلزمه في دينه، وهذه قرينة التفقه بالتشهي، وإلا.. فإنَّ لسانَ الشريعة لا ينطق بهذا ولا يقره.

وقد عاب ابن الجوزي علىٰ هؤلاء فقال: وقد أوغل خلقٌ من المتأخرين في كتابةِ طرق المنقولات، فشغلهم عن معرفة الواجبات، حتىٰ إنَّ أحدهم يُسأَل عن أركان الصلاة فلا يدري!.

ثم روىٰ بإسناده أَنَّ امْرَأَةً وَقَفَتْ عَلَىٰ مَجْلِسٍ فِيهِ يَحْيَىٰ بْنُ مَعِينٍ وَأَبُو خَيْثَمَةَ وَخَلَفُ بْنُ سَالِمٍ فِي جَمَاعَةٍ يَتَذَاكَرُونَ الْحَدِيثَ، فَسَأَلَتْهُمْ عَنِ الْحَائِضِ تُغَسِّلُ الْمَوْتَىٰ وَكَانَتْ غَاسِلَةً، فَلَمْ يُجِبْهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَعْضٍ، فَأَقْبَلَ أَبُو ثَوْرٍ فَقَالُوا لَهَا: عَلَيْكِ بِالْمُقْبِلِ.

فَسَأَلَتْهُ فَقَالَ: نَعَمْ تُغَسِّلُ الْمَيِّتَ؛ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَمَا إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ»، وَلِقَوْلِهَا: «كُنْتُ أَفْرُقُ رَأْسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَاءِ وَأَنَا حَائِضٌ»، قَالَ أَبُو ثَوْرٍ: فَإِذَا فَرَقَتْ رَأْسَ الْحَيِّ فَالْمَيِّتُ بِهِ أَوْلَىٰ.

قَالُوا: نَعَمْ رَوَاهُ فُلَانٌ، وَحَدَّثَنَا بِهِ فُلَانٌ، وَنَعْرِفُهُ مِنْ طَرِيقِ كَذَا، وَخَاضُوا فِي الطُّرُقِ وَالرِّوَايَاتِ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: فَأَيْنَ كُنْتُمْ إِلَى الْآنَ![1].

وإذا كان هذا العتب مع أنهم مشتغلون بطرق الأحاديث.. فكيف لو كان الانشغال بما قل نفعه من مثل مجالس اللهو والجدل، والمبالغة في متابعة وسائل التواصل!.

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٠٦).

علىٰ أنَّ العتبَ ليس مرده الانشغال بالطرق؛ بل ما أُهمِل من العناية بالمهمات، وذلك أنَّ جمعَ الطرق ليس مذمومًا في نفسه؛ للحاجة إليه في تمام فهم الحديث وتخريجه، ولهذا قال يحيىٰ بن معين: لو لم نكتب الحديثَ من ثلاثين وجهًا ما عقلناه، وقال إبراهيم الحربي: سمعت أحمد بن حنبلٍ يقول: الحديث إذا لم تُجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يُفسِّر بعضه بعضًا، وقال ابن المديني: الباب إذا لم تُجمع طرقه لم يتبين خطؤه[1].

الفرع الرَّابع: عوامل تيسير الجمع بين العلوم:

ومما يعين علىٰ الجمع بين العلوم غير ما ورد منثورًا الأمور الأربعة الآتية:

أولًا: أن يركز علىٰ الكتب المحورية في كل فن، ولا يتجاوزها ولا يتوسع، ويدمن النظر فيها.

ثانيًا: كل علم له خطوطٌ عامةٌ تنظم مسائله، تشبه القواعد والأصول، من وعاها امتلك ناصية هذا العلم، وسهل عليه إدراك الفروع عندئذٍ، ولو سمعتَ من يتكلم فيها ويُحسن.. فإنك تعرف أنه معتنٍ بهذا الباب إن لم يكن متخصصًا فيه.

وأذكر أني لما كنتُ بالسودان ركبتُ مرَّةً مع سائقٍ من أهل البلد، فسألني عن سبب إقامتي في البلد، فقلت له: الدراسة، فقال: ماذا تدرس؟ قلت: الفقه المقارن، وإذا به يأخذ في الكلام عن ثقافة الخلاف بين المذاهب الأربعة، وكيفية دراسة مسائل الخلاف، فوقع في صدري أنه دارسٌ لهذا العلم لصحة ما تكلم به.

فسألته: هل أنت دارسٌ للفقه؟ قال: لا، قلت: إذن أنت مهتمٌّ به؟، قال: لا! ولكني أعرف المسائل التي عليها المدار في كل علم، فأعيها، وبهذا أفهم كل ما يدور حولي من نقاشاتٍ من المختصين، سواء في العلوم الشرعية أو الدنيوية

(١) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (٢/ ٢١٢).

كالهندسة والطب، وأخذ يُمثِّل لي من بعض العلوم، ثم قال: كل من أتكلم معه يظنني متخصصًا فيما هو فيه!.

أما عن سبيل التحصل على تلك الخطوط العامة الناظمة للمسائل في كل فن؛ فيمكن أن يُستعانَ عليه بكثرة مجالسة أهل الفن، والعناية بكتب المداخل إلىٰ كلِّ علم، والدورات العلمية التي تُعقَدُ في ذلك، والشبكةُ مليئةٌ بهذه الدَّورات وتلك الكتب، وإلا.. فإنه يجتهد أن يستخرجَهَا بنفسه وهو يقرأ ويسمع، وليس الأمر عسيرًا.

ثالثًا: أن يربط بين علمه وبقية العلوم، ويجعلها خادمةً لمشروعه العلمي في تخصصه، فإذا كان الطالب مشتغلًا بعلم الفقه مثلًا.. فإنه عند دراسةِ اللغةِ يأخذ في دراستها وعينه علىٰ كلِّ أثرٍ لها علىٰ الأحكام الفقهية، وعند دراسته للحديث تعظم عنايته بمختلف الحديث؛ فإنه علمٌ وإن صُنِّف في علوم الحديث إلا أنه قريبٌ من الفقه، وكذلك الكلام في المصطلح وتخريج الأسانيد؛ لأنَّ الكلام علىٰ الأحاديث التي عليها المدار عند الفقهاء إنما محله كتب التخريج عند المحدثين؛ كالتلخيص الحبير لابن حجر وأصله البدر المنير لابن الملقن.

ومن قرأ في ترجمة الشافعي وجد نفسه أمامَ إمامٍ موسوعي، لكنه جعل مشروع عمره الفقهَ والأصول، واستطاع أن يُجيِّشَ عامة العلوم في خدمة مشروعه الأصولي الإصلاحي، الذي قام عبره بتنضيج المذاهب الفقهية، والتقريب بين مدرستي الرأي والحديث، والخروج بطرحٍ أصولي متكاملٍ حمىٰ به النصوص من اعتداءات اللصوص.

وأنبه علىٰ أنَّ من بدأ بعلم الآلة قبل علم الغاية.. فقد أصاب، لكنه ينبغي أثناء ذلك أن يتجولَ في كتب علوم الغاية ولو في جولةٍ استكشافية سريعة؛ ليرىٰ مسائل علوم الآلة التي يكثر دورانها علىٰ ألسنة الأئمة، فيعظم اعتناؤه بها.

فمثلًا: لو أخذت تطالع تفسير البيضاوي أو تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور.. فسيظهر لك عظيم الحاجة إلىٰ عددٍ يتكرر من مسائل النحو، وهذا يجعلك تعتني بها أثناء دراسة النحو؛ لأنَّ عين المتفقه إن لم تكن تربط بين العلوم.. فإنه قد يُبالغ في العناية بما لا يحتاج إليه غدًا، ويهمل ما تشتد حاجته إليه، وما جُعل علم الآلة إلا ليحمل صاحبه في علوم الغاية، وإبداع العلماء وإنتاجهم العلمي إنما يظهر في علوم الغاية أكثر من علوم الآلة.

رابعًا: ضبط التخصص يُيَسِّرُ فهمَ العلوم الأخرىٰ وإن لم يُمكن صاحبه من الكلام فيها؛ لأنَّ العلومَ متعاونة، والمنطق العقلي الذي يجمع خطوطها الكبرىٰ متقارب؛ لتوافقه مع الفطرة والعقل والأصول الكبرىٰ للنقل.

ومن الأخبار اللطيفةِ في ذلك أنَّ الفراءَ الإمام النحوي المعروف كان يومًا عند محمد بن الحسن الشيباني الفقيه الحنفي، فتذاكرا في الفقه والنحو، ففضَّل الفراءُ النحوَ علىٰ الفقه، وفضَّل محمد بن الحسن الفقهَ علىٰ النحو، حتىٰ قال الفراء: قَلَّ رجلٌ أنعم النظر في العربية، وأراد علمًا غيره إلا سهل عليه!.

فقال محمد بن الحسن: يا أبا زكريا، قد أنعمتَ النظرَ في العربية، وأسألك عن بابٍ من الفقه. فقال: هاتِ علىٰ بركة الله تعالىٰ.

فقال له: ما تقول في رجلٍ صلَّىٰ فسها في صلاته، وسجد سجدتي السهو، فسها فيهما، فتفكر الفراء ثم قال: لا شيء عليه.

فقال له محمد: لِمَ؟ قال: لأنَّ التصغيرَ عندنا ليس له تصغير، وإنما سجدتا السهو تمام الصلاة، وليس للتمام تمام!. فقال محمد بن الحسن: ما ظننت أنَّ آدميًّا يلد مثلك!![1].

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١/١).

ومن هذا ما حُكِي عن أبي عمر الجرمي أنه قال: لي كذا وكذا سنة أفتي في الفقه من كتاب سيبويه! يعني في النحو.

قال الإمام الطوفي: وما ذاك إلا لأنَّ مأخذ سيبويه في كتابه في غاية اللطافة، ونظره في غاية الدقة، والجري على قواعد الحكمة، والأحكام الشرعية لمن اعتبرها من الحكمة بمكان، وهذا رجلٌ قد كان ذكيًّا، وله نظرٌ يسير في الفقه، فعاد يتنبه بلطافةِ حكمةَ سيبويه، ومأخَذُهُ في العربية على حكم الشرع، ومأخذه في الأحكام الشرعية[1].

الفرع الخامس: أفضل التخصصات العلمية:

مع بزوغ هلال كل عام دراسيٍّ تنهمرُ الأسئلةُ عن المفاضلة بين التخصصات، وقبل بيان رأيي أبيِّنُ أنَّ هذه المسألةَ لا كبيرَ طائلٍ تحتها؛ وذلك لثلاثة أسباب:

الأول: إنَّ اختيارَ التخصص يتم ابتداءً بحسب طبيعة كل نفس وإقبالها على ما ترغب من العلم؛ وذلك أنَّ الله تعالى جعل بين كلِّ إنسانٍ وبين نوعٍ من العلوم والمعارف صلةَ رحمٍ ومؤاخاة، كما ركّب في النفس بعض الخصال والطبائع وحب أنواعٍ معينةٍ من الطعام والشراب.

ولهذا فإنَّ من يسرد ما لا يُحصىٰ من أقوال الأئمة في فضلِ العلم الذي يطلب.. تجد أنه ما اختار هذا العلم بناءً عليها غالبًا؛ وإنما عزز اختياره السابق بهذه النقول دون أن تكون باعثًا على ذلك الاختيار أصلًا.

بل قد تجد صورًا من اتباع الهوىٰ في ذلك؛ كأن تراه يشتغل بدقيق المسائل في هذا العلم مما لا ينبني عليه عمل، ثم هو جاهلٌ بأمهات المسائل مما يجب

(١) شرح مختصر الروضة للطوفي (٣/ ٣٩-٤٠).

عليه العلم به في دينه في بقية العلوم، فهل قصد العلماء الذين أثنوا على علمٍ ما التورط في هذا!.

ثم قد تراه ينغمس في تفاصيل العلم الذي اختاره، ثم هو مقصرٌ في تلاوة كتاب ربه عَزَّوَجَلَّ وحفظ ما تيسر منه، مع أنَّ القرآنَ هو أصل العلم، والمواضع التي أمرت بالإكثار من الوحي أكثر من أن تُحصىٰ، فهل كانت تلك النقول أقوىٰ تأثيرًا في نفسه من خطاب الله وخطاب نبيه ﷺ له!.

الثاني: إنَّ المتفقه مُلزمٌ بأن يدرس من كلِّ علم سوىٰ تخصصه ما يجعله ينتسب إلىٰ طلبته المتقدمين، بأن يُنهِي فيه مراحله التأسيسية الثلاث، أو اثنتين منها علىٰ الأقل، أمّا أن يُقبِلَ علىٰ علمٍ غاية الإقبال ويدبر عن آخر غاية الإدبار.. فهذا عبثٌ في التلقي كما مرَّ.

وذلك لما تقدَّم من أنَّ الشريعةَ جسمٌ حيٌّ مترابط نظير البدن، فلن تحيط علمًا بجزءٍ منه إلا وأنت تعلم من بقية الأجزاء ما يُعِينُك علىٰ تمام فهم ذلك الجزء كما يقول أهل الطب، أو هي كصرحٍ، وكل علمٍ منها بمثابة جدارٍ فيه أو قاعدةٍ، وهل يُحسِنُ وَصفَهُ من وقف أمام جهةٍ منه إن لم يكن تجول فيه وحوله مرارًا عديدة!.

ومن الإجراءات التي يعتمدها المجاهدون في بلادنا أنَّ المجاهدَ يفتتح التحاقه بالعمل العسكري بتلقي زمرةٍ من الدورات العسكرية، التي تتكاثف علىٰ مدار عام أو عامين، وبعضها عبارةٌ عن معسكراتٍ مغلقةٍ، يمتد المعسكر منها إلىٰ ثلاثة أسابيع، يعتكف فيها المجاهدون في ميدان التدريب علىٰ تلقي عامة التخصصات العسكرية اللازمة في المعركة؛ ليكون المجاهد جنديًّا ماهرًا أينما وقع في المعركة نفع، ثم يعيش متخصصًا بعد ذلك في تخصصٍ منها، يتلقىٰ فيه مستوىٰ تدريبيًّا واحدًا بعد آخر، ولهذا فإنَّ نظر المجاهدين والأطباء أنضجُ من

نظرِ الأكاديميين الشرعيين في الكليات والجامعات، وهذا مما تتفوق به المراكز الشرعية والحلقات العلمية التي لا تحتكمُ لقيود الأنظمة الأكاديمية.

إذا أدركت هذا؛ علمت هشاشة الفائدة من استدعاء كميةٍ من النقول في أفضلية كلِّ علمٍ بعينه، وأنت تعلم أنَّ الانتفاع التام لا يتم إلا باجتماع العلوم إلى بعضها.

ولو أخذنا نستعرض العلوم الشرعية واللغوية مع التأمل في موضوعها.. لوجدنا أنَّ العقيدةَ تتكلم عن الله، والفقه يتناول أمرَ الله، والتفسير يبين معاني كلام الله، والحديث يشرح كلام رسول الله الذي أمر الله به في كتابه، واللغة هي آلة الفهم لذلك كله، وأصول الفقه بمثابة منهج النظر الذي تفهم به نصوصُ الكتاب والسنة، ومسائلُ العلوم الشرعية، فهل المفاضلة بالطرح الذي يأخذ به الطالبُ علمًا ويدع غيره منطقية عندئذٍ؟!.

ثم إنَّ الحاجة ماسة في كلِّ علمٍ لإخوانه، ولو جئت تفتي في مسألة فقهية.. فإنَّ جمهرة علوم الشريعة تدخل فيها، ولهذا أقول: لا يؤتمن على دين الله من لا يفقه أصولَ العلومِ الشرعيَّةِ ولغةَ العرب، وخذ هذه القطعة من كلام الشاطبي عن دور اللغة وحدها في فهم الشريعة، ثم نلتقي في التعقيب عليها، فإنه يقول:

«الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطًا فهو متوسطٌ في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة؛ فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة..

فمن لم يبلغ شأوهم فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة، ولا كان قوله فيها مقبولًا، فلا بد من أن يبلغ في العربية

مبلغ الأئمة فيها؛ كالخليل وسيبويه والأخفش والجرمي والمازني ومن سواهم، وقد قال الجرمي: «أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه»[(١)].

فإذا كان هذا كلامه في علمٍ من علوم الآلة.. فكيف يقول في علمٍ من علوم الغاية نفسها! مع أنَّ جمهرة المعاصرين لا يعملون بالذي ختم به كلامه، سواء اتفقوا معه كبعض المتقدمين أو لا.

ولهذا رأينا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: فإنَّ نفسَ اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[(٢)].

بل قال ابن حزم عن علم النحو وهو جزءٌ يسيرٌ جدًّا من علوم اللغة: لو سقط علم النحو لسقط فهم القرآن وفهم حديث النبي ﷺ، ولو سقط لسقط الإسلام!..

وأما من وسم اسمه باسم العلم والفقه وهو جاهل للنحو واللغة فحرامٌ عليه أن يفتي في دين الله بكلمة، وحرامٌ على المسلمين أن يستفتوه![(٣)].

وبعد الذي عاينت؛ ما الفائدة إذن من الإغراق في المفاضلة بين العلوم إذا كان الطالب ملزمًا بدراستها إلى الدرجة التي تؤهله لفهم الكتاب والسنة وكتبِ أهل العلم التي يحتاج إليها، حتى لو كانت في أصلها وسيلة لا غاية!.

الثالث: إنَّ المتفقهَ بعد أن يشتدَّ عودُه في العلم، ويتمكن في كل علمٍ بما يؤهله للتخصص فيه لو أراد.. فإنَّ الذي يفرض عليه نوعَ التخصصِ عندئذٍ هو حاجةُ الناس لا اختياره الشخصي.

---

(١) الموافقات (٥/ ٣٥)، وسيأتي التعقيب على كلام الجرمي في الفصل الآتي إن شاء الله.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ص (٢٠٧).

(٣) رسائل ابن حزم (٣/ ١٦٢).

فإذا رأى حاجة الناس إلى اللغة مع قلة الواقفين بهذا الثغر.. أقبل على هذا الباب، وأتقنه، وسد الخلل، ولو كان علمُ الفقه مثلًا أحبَّ إليه من علم اللغة، وإذا وجد الناس يحتاجون الفقه، ومن يقف ببابه نُدرة.. تصدىٰ له، وتعنَّىٰ في ضبطه، وكفىٰ المؤمنين فيه.

فالمشتغل بالعلم كالمشتغل بالجهاد، قد يُغير موضعه بحسب حاجة المعركة، وإن لم يكن المكان الذي تحول إليه محبوبًا عنده، فهو سهمٌ من سهام الإسلام، يتوجه إلىٰ حيث أراد الإسلام، ولو كان ما توجه إليه أشدَّ المواقع مؤنةً وخطرًا.

ولك في صحابيِّ رسولِ الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه أسوة؛ فإنَّ الصديق رضي الله عنه لما قصد فتح الشام شرع في جمع الأمراء من أماكن متفرقة من جزيرة العرب، فأرسل إلىٰ عمرو رضي الله عنه يستنفره إلىٰ الجهاد بالشام، ولكن النبيَّ ﷺ كان قد ولَّىٰ عَمرًا رضي الله عنه علىٰ عُمان، فلم يحب الصديق رضي الله عنه أن يشق عليه في طلب التحول عنه، فكتب إليه يقول: قد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خيرٌ لك في حياتك ومعادك، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك، فكتب إليه عمرو رضي الله عنه يقول: **«إنني سهمٌ من سهام الإسلام، وإنك بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئًا إن جاءكَ من ناحيةٍ من النواحي»**![1].

وكثيرًا ما رأيت بعض طلبة العلم يورد قول شيخ الإسلام ابن تيمية: **«قد فتح الله علي في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء، كان كثيرٌ من العلماء يتمنونها، وندمت علىٰ تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»**[2].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/ ٧٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٥).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ص (٣٤٤).

والحقيقة أنَّ شيخَ الإسلام لم يكن بعيدًا في تقريراته العلمية في عامة الفنون عن القرآن، بل كلامه متشبع بالوحي كتابًا وسُنَّة، لكن عنايته بالعقيدة والرد علىٰ المخالفين فرضتها حالة زمانه التي استدعت منه ذلك، فلم يكن الأمر محض اختيارٍ عنده، نظير استنفاره لقتال التتار وتحريضه للمسلمين عليه، فهو رجلٌ يفقه أن الحركة تتبع واجب الوقت، ولهذا عظم انتفاع المسلمين به، وما زال الناس اليوم يرجعون إلىٰ تقريراته العقدية والفقهية وينتفعون بها غاية الانتفاع أكثر مما يرجعون إلىٰ تفسيره لآياتٍ أُشكِلَت علىٰ المفسرين، مع دقة كلامه فيها وتحريره لها، لكن الذي يظهر أنَّ الحالةَ الإيمانيَّةَ للمعتكف علىٰ كلام الله، والحلاوة التي يجدها في معانيه التي تتفتق له تستنطقه بالذي تكلم به؛ لأنَّ عددًا من الأئمة نطق قريبًا بالذي تكلم به في آخر عمره.

علىٰ أنَّ شيخ الإسلام نفسه قد تمكن من ناصيةِ عامة العلوم الشرعية واللغوية والعقلية ثم تبحر في بابٍ بعينه، وهذا هو المطلوب، فلا تثريبَ أن يتمكن المتفقه من ناصية العلوم ثم يختار ما تهواه نفسه، وتحصل حاجة الناس به.

والمقصود من هذا المطلب أنَّ المشتغلَ في علمٍ لا ينبغي أن يعيش فتنةَ الإعجاب المطلق بتخصصه، وأنه أحسن التخصصات وأجلها وأنفعها، ثم يعتمد نصيحة كل طالبٍ به، مع إغراقه بسيلٍ من النقول الواردة عن الأئمة في فضل علمه، بل علينا أن نفكر بمسئولية، ونسعىٰ لأن نغرسَ في المجتمع رجالًا في كل تخصص نافع.

ويتأكد هذا الكلام في حق القدوات؛ إذ شأنُ الواحد منهم كقائد جيش، يُوزع جنده علىٰ التخصصات العسكرية؛ كالمشاة والمدفعية والدروع والدفاع الجوي والضفادع البشرية، وإن كانت متفاوتةً في نفسها من حيث الأهمية، ولو راح القائد ينصح الجند بالتزام تخصصٍ منها لزيادة شرفه.. لهُزِمنا هزيمةً منكرة،

وما أبهجَ شكلَ المجتمع الذي يوجد فيه راسخٌ في كل فنٍّ نحتاجه من شؤون الدين أو الدنيا!.

وفي ختام هذا المطلب بقي أن أُنبِّهُ علىٰ أنَّ المتخصصَ إذا ضبط تخصصه فإنه يعرف حجمَهُ جيدًا في غير تخصصه، وإن درس طرفًا من مراحله؛ لأنَّه يعلم دقَّةَ التخصُّص، ووعورة تحقيق مسائله، فيكون مُقَدِّرًا لأهل كل فن، لا يُشغِّب عليهم، ولا يتعالىٰ علىٰ تحقيقاتهم ولو اختلف معهم؛ بحكم أنه قطع شوطًا في كل علم.

فمثل هذا لو أخذ يتكلم في كل فن بهذا المنطق.. فإنه سيمثل جنايةً علىٰ الدين، وفتنةً علىٰ أهله، وسقوطه مسألةُ وقتٍ؛ لأنَّ ارتفاعَهُ لم يكن بحق؛ وإنما استثمر رفعته في تخصصه ليضع لنفسه مثلَها في غير تخصصه.

ولا مانع من النقد العلمي والفحص الدوري للأفكار، فهذا محمودٌ، ومجالس المذاكرة تستوعبه بل وتستحبه.



الفصل الثاني
فقه القراءة والضَّبط والحفظ

تولىٰ هذا الفصلُ بيانَ مسألةِ تحصيل العلم بالقراءة بأنواعها، والضبط بأشكاله خاصة الحفظ، وهي مسألةٌ من عُمَد مُهِمَّاتِ فقه الطَّلب، وهذه التوطئة تحملنا لعرض مادة هذا الفصل في ثلاثةِ مباحث: **الأول**: لفقه القراءة المثمرة، **والثاني**: لفقه الضبط، **والثالث**: لفقه الحفظ، ودونك البيان بعون المنَّان:



المبحث الأول
فقه القراءة المثمرة

في هذا المبحث مطلبان يتحقق بهما المقصد منه: الأول: لفنِّ القراءةِ المثمرة، والآخر: لأنواع القراءة، ودونك تدوينَ القولِ فيهما.

المطلب الأول
فن القراءة المثمرة

القراءةُ إحدىٰ أهم وسائل تلقي المعرفة وبناء العقول، وقد يتحد طلبةُ العلمِ في عدد ساعات القراءة ويتباعدون في نتيجة التحصيل تباعدَ المشرقِ والمغرب، وأسجل هنا اثني عشر معلمًا من معالم القراءة المثمرة، هذا بيانها:

أولا: تحديد نوع القراءة بناء علىٰ الغايةِ منها، كما سيأتي تفصيلُه في المطلب الآتي إن شاء الله.

ثانيًا: أن تلتقط مقصد الكتاب إجمالًا، وتفهم المسائل تفصيلًا، بحيث يحسن تصورك لها علىٰ وجهها، فلو كنت تقرأ في شرحِ متنٍ.. فلا ينبغي أن تعتني بالتفريعات قبل فهم أصل المسألة، بل الطالب الفقيه يستطيع أن يردَّ كل فرعٍ إلىٰ موضعه من المتن، وسرِّ إثبات الشارح له.

وعند التوسع في شروح الكتاب الأخرىٰ، أو الكتب التي في رتبته.. فإنَّ

المقصدَ الأهمَّ من ذلك هو طلبُ حسنِ التصور للمسائل، وكمال الإحاطة بها، ثم يأتي طلب المزيد من الفوائد واللطائف، أما قصدُ هذا قبل ذاك فإنه ينعش العاطفة ولا يبني العقل، بل هو وقوعٌ في فخ وهج جديد العلم علىٰ النفس.

ثالثًا: قراءة الكتاب الجيد ثلاث مراتٍ علىٰ الأقل:

الأولىٰ: لإدراك الخطوط العامة للكتاب، وتلقي ما فيه من معلومات.

والثانية: القراءة بعقل المؤلف ونية العمل، فلو تخيَّلت نفسك أنك من يؤلف ويُثبت هذه المعلومة لغرضٍ ويستبعد تلك، وأنك تحيي في برنامجك ما قرأت عملًا.. لوجدت الفرق الهائل في إدراك مقاصد الكتاب ومراميه، ويتيسر لك عندئذٍ الربط بين مكونات الكتاب، والتقاط أهم المفاهيم التي عمل علىٰ تقريرها، والأعمال التي ينبغي الاجتهاد فيها.

والثالثة: القراءة بقصد الإنتاج المعرفي، بحيث تنتزع من الفكرةِ فكرةً، ومن الكتابِ كتابًا، بعد أن هضمت ما بين السطور، وسيأتي تقرير هذا النوع في الفصل الآتي عند الحديث عن صناعةِ المعرفة إن شاء الله.

واختلاف الشعور في كل مرة يجعل الكتاب الذي تقرؤه كذلك كأنه كتابٌ جديد، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن اغترف احترف.

رابعًا: أن تقرأ الكتاب وفي ذهنك قضيةٌ علميةٌ ترسم خريطة مفاهيمها، وتتطلب الشواهد لها، فتتسع دلائل المادة عندئذٍ، ويبدأ غيث العلم ينهمر بغير كثيرِ جهدٍ.

فلو أخذت تقرأ كتابَ الرحيق المختوم في السيرة النبوية، وكان الذي يسيطر علىٰ ذهنك هو التقاط صفات جيل التأسيس التي غرسها النبي ﷺ في صحابته الأولين، حتىٰ جعل منهم أئمةً للعالمين، أو القواعد الإدارية التي أدار بها دولة الإسلام في المدينة، حتىٰ استطاع أن يهدد الامبراطوريات الكبرىٰ في العالم بعد سبع سنين فقط من الهجرة، وسنتين فقط من تهديد الوجود يوم الأحزاب، أو



حنكته في قراءة عقل أعدائه، وترتيب السياسة المناسبة بناءً علىٰ ذلك.. فإنه سينفتح لك من أبواب الفهم وإنتاج الأفكار ما لا تحصيه كثرةً، وتصبح الأحداث تنطق بذلك بما لا يخطر لك ببالٍ بدونه.

وسيأتي بسط القول في هذه المسألة في الفصل الآتي عند الحديث عن خطوات صناعةِ المعرفة إن شاء الله.

خامسًا: الاشتغال الذهني بالتقاط التصورات العلمية والمفاهيم الفكرية؛ لجعلها أصولًا ومفاتيح لاستفادةِ المزيد من العلم.

سادسًا: تقييد النافع من العلم، وتدوينه في موضعٍ واحد، ومحاولة تصنيفه بحسب العلوم، ومن استطاع أن يصورها أو يكتبها عبر الحاسوب ثم يرفعها في بريده الخاص علىٰ الشبكة فليفعل، وكم ضاعت منا فوائد ذاتُ قيمةٍ لما تشتتت في الأوراق وتناثرت في الدفاتر!.

ويدخل في ذلك تدوين الأفكار والخواطر؛ فإنَّ الفهمَ عَرَضٌ يطرأ ويزول، والكتابةُ قيده، وقد قيل:

العلــم صــيدٌ والكتابــة قيــده	قيــد صــيودك بالحبــال الواثقــة
فمــن الحماقــة أن تصــيد غزالــة	وتتركهــا بــين الخلائــق طالقــة

وهذا ما نبه عليه الإمام النووي وهو يرشد طالب العلم لعزائم الطلب فقال: ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أي فنٍّ كانت، بل يبادر إلىٰ كتابتها، ثم يواظب علىٰ مطالعة ما كتبه»[1].

سابعًا: اعتادت الآذان أن تسمع أخبار بداية قراءة الكتب وتدريسها دون أخبار إنجازها والانتهاء منها، وعليه؛ فإذا بدأت في كتابٍ.. فأَتِمَّهُ، ولا تكن بطل

(١) المجموع للنووي (١/ ٣٩).

بداية فقط، وإذا عرض لك ما يزهدك في الكتاب.. فأكمله بالقراءة الجردية أو التصويرية كما سيأتي بيانه.

ثامنًا: تلخيص الكتب؛ لما يستأثر به هذا النوع من التلقي من فضلٍ لا يحصل بغيره، وهو على نوعين:

الأول: اختصار الكتاب المهم في نحو خُمُسِه أو سدسِه، بأن يهضم الطالبُ المسألةَ ثم يعيدها بقلمه، ويستفيد بذلك التوثق من دقة الفهم، وحسن العبارة عن العلم.

والثاني: تلخيص الكتاب كله في نحو خمس صفحات فقط؛ بأن يتم رد الكتاب إلى أربعة محاور أو خمسة، ثم كتابة لوامع الأفكار والنتائج والخلاصات تحتها، بحيث تدمن النظر في هذا التلخيص بعد ذلك، ومن مغانم هذه الطريقة سرعة استظهار مهمات مادة الكتاب، والاستعانة بهذا المُلَخَّصِ في التدريس والمراجعة.

تاسعًا: معرفة موقع الكتاب المقروء من خارطة العلوم المتقدمة، ثم موقعه من خارطة العلم نفسه؛ فهذا أعون على فهمه، ومعرفة وظيفته.

فلو أخذت تقرأ كتب العقيدة للشيخ محمد بن عبد الوهاب مثلًا.. فلا بد أن تستحضر أنَّ هذه الكتب تتبع أركان الإيمان، التي هي العِلمُ الأولُ من العلوم التسعة للعقيدة، ثم إنها تتعلق بالإيمان بالله، خاصة توحيد الألوهية، أما بقية أركان الإيمان.. فليست من مادة هذه الكتب إلا قليلًا، وبالتالي لا يصح أن يعتبر الطالب أنه قرأ المرحلة الأولى من العقيدة بقراءاته لهذه الكتب؛ لانحصار المادة في جزءٍ يسيرٍ جدًّا من المرحلة الأولى من العلم الأول من علوم العقيدة.

بل إنك تجد فيها الحديث عن نواقض الإسلام وكثرة الأفعال المصنفة في الشرك والبدع ولا تجد الحديث عن موانع التكفير، مما لا تأمن معه اختلال

الفهم أو عدم اكتمال المفاهيم الشرعية عند القارئ، وعلاج ذلك أن يدرك الطالب هذا فيحسن التعامل مع الكتاب الذي يقرأ، أو يضيف إليه ما يحصل به المقصود ويتممه.

وستأتي تتمةٌ لهذا المعلم عند الحديث عن الشرط الأول من شروط الضبط في صدر المبحث الآتي إن شاء الله.

عاشرًا: السلامة من آفات القراءة، والتي أوجزها الأخ الشيخ فيصل المنصور فقال: «آفات القراءة خمس: ضعفُ التأمُّل، وإغفالُ الحفظ للمهمِّ، وتركُ التقييد للنَّادر، وعدمُ المراجعة للمحفوظ والمقيَّد، وقلَّةُ تَكرار الكتاب الجيد».

حادي عشر: لا ترهق عقلك في المرحلةِ الأولىٰ والثانية بكتب الحواشي والمبالغة في فكِّ الألفاظ؛ بل اشتغل بتصور المسائل، وافهمها غاية الفهم والتصور، ثم اقصد الحواشي بعد ذلك؛ لعظيم ما تتضمنه من تحريرٍ وتدقيقٍ وتحقيق وبناء عقل، علىٰ أنَّ لها دورًا حسنًا في تصور كثيرٍ من المسائل، لكن الأصل في التصور أن يكون علىٰ يد أستاذٍ متقن.

ثاني عشر: انتق أجود الطبعاتِ تحقيقًا وإخراجًا؛ فإنَّ ذوقَ أهل العصر في ذلك، واستشر في ذلك؛ فإني رأيت تحقيقَ بعضٍ من يُشار إليهم بالبنان بعيدًا عن جادةِ التحقيق، وكأني ببعضهم لا يدري عن غرض الكتاب شيئًا؛ فهو في وادٍ والكتابُ في وادٍ آخر.

المطلب الثاني

أنواع القراءة

القراءةُ علىٰ أشكالٍ ومراتب، ويتحدد شكلُها بحسب القصد منها، كالذي يتجولُ في مدينةٍ؛ فإن كان يدخلها أولَ مرةٍ ويريد الإحاطةَ بمعالمها وطرقاتها.. فإنه يتحركُ بطيئًا، وربما ماشيًا علىٰ قدميه، وإذا احتاج إلىٰ معرفتها من غير إحاطةٍ.. سار بسيارةٍ وإن لم يُسرع، وربما اكتفىٰ بالتقاط أهم المعالم فأسرع، أو جعل جولته استكشافيةً فحسب، فسار في بعض طرقاتها مكتفيًا بالنظر إلىٰ بقيتها، أو مستدلًّا بما رأىٰ عما لم ير، وقد يهمه موضعٌ محدد؛ كمسجدٍ أو متجرٍ أو مشفىٰ، فإذا أنجز حاجته غادر المدينة وإن لم ير شيئًا غير ذلك.

والقراءة كذلك؛ فإذا أراد قراءة الكتاب والتدقيق فيه وتحليل ألفاظه والاستنباط منه.. فهي القراءة التحليلية.

وإذا أراد فهم الكتاب بقراءته كله من غير بطءٍ أو تعجل.. فهي القراءة الجردية.

وإذا حصلت كفايته بجولةٍ سريعةٍ علىٰ الكتاب، وقد يتجاوز بعض الفقرات، ويرضىٰ ببقاء المُشكلات.. فهي القراءة التصويرية.

وإذا أراد معرفةَ مادةِ الكتاب من حيث الإجمال، والخطوط العامة له، وقد ينظر في صفحةٍ منه ويترك عشرًا، وقد لا يزيد عن المقدمة والفهرس ومواضع يسيرة منه.. فهي القراءة الاستكشافية.

وإذا قصد الكتاب للبحث عن مسألةٍ أو موضوع محدد.. **فهي القراءة الانتقائية**.

ولعلك لاحظت بعد هذا العرض أنَّ كلَّ قراءةٍ لها مقصدٌ خاص، فلا يجزئ نوعٌ في ذلك عن نوع، وبهذا تعلم غُبن الطالب الذي يقتصر على نوعٍ واحدٍ كما سيأتي بيانه.

وعقب هذا الإجمال أتكلمُ الآن على هذه الأنواع بشيءٍ من التفصيل[(١)]:

أولًا: القراءة التحليلية:

إنَّ القارئ هنا يتأمل نصَّ الكتابِ، ويدقق فيه، ويدرك مراميه، ويحل مشكلاته، وربما علّق على حواشيه، وتوسع في دراسة مسائله ومبانيه، ونقد بعضَ ما فيه.

والكتاب الذي يُنجَزُ بهذا النهج هو الذي يبني الطالب علميًّا، ولهذا فإنَّ الكتب المحورية في كل فن، والتي يقوم عليها عصبُ المعراجِ العلمي.. هي التي تحتاج لهذا النوعِ من القراءة، على أنَّ الكتابَ الواحدَ قد يمكث في قراءته أسابيع أو شهورًا أو أكثر من ذلك بحسب عدد أجزائه.

وقد سجّل ابن بدران الحنبلي تفاصيلَ زائدة في كيفية قراءة شروح المتون، وهي من أحسن ما وقفت عليه في ذلك، فإنه قال:

«اعلم أنَّ للمطالعة وللتعليم طرقًا ذكرها العلماء، وإننا نثبت هنا ما أخذناه بالتجربة، إذا تمهد هذا فاعلم أننا اهتدينا بفضله تعالى أثناء الطلب إلى قاعدة؛ وهي أننا كنا نأتي إلى المتن أولًا فنأخذ منه جملةً كافيةً للدّرس، ثم نشتغل بحلِّ

---

(١) هذه أهم الأنواع التي يحتاجها المتفقه، على أن التقسيم في أنواع القراءة اجتهادي، ولمن أحب التوسع فينظر مقالة للشيخ إبراهيم السكران بعنوان: «خاطرة في أنماط القراءة ومسالك القراء» طرح فيها أنواعًا إضافية، يمكن الاستفادة منها، وتوسع الدكتور علي العمران في ذكر أنواع القراءة في كتابه «اقرأ وارتق» ص (٢٥) فما بعدها، فذكر تسعة عشر نوعًا للقراءة، تضمنت أمورًا نافعة.

تلك الجملة من غير نظرٍ إلىٰ شرحها، ونزاولها حتىٰ نظن أننا فهمنا.

ثم نقبل علىٰ الشرح فنطالعه المطالعة الأولىٰ؛ امتحانًا لفهمنا، فإن وجدنا فيما فهمناه غلطًا صححناه.

ثم أقبلنا علىٰ تَفَهُّمِ الشَّرحِ علىٰ نمط ما فعلناه في المتن.

ثم إذا ظننا أننا فهمناه راجعنا حاشيته إن كان له حاشية مراجعةَ امتحانٍ لفكرنا.

فإذا علمنا أننا فهمنا الدرس تركنا الكتاب، واشتغلنا بتصوير المسألة في ذهننا فحفظناها حفظ فهمٍ وتصورٍ لا حفظَ تراكيب وألفاظ.

ثم نجتهد علىٰ أداء معناه بعباراتٍ من عندنا، غير ملتزمين تراكيب المؤلف.

ثم نذهب إلىٰ الأستاذ للقراءة، وهنالك نمتحن فكرَنَا في حلِّ الدرس ونُقَوِّمُ ما عساه أن يكون به من اعوجاج، ونوفر الهمة علىٰ ما يورده الأستاذ مما هو زائدٌ علىٰ المتن والشرح.

وكنا نرىٰ أنَّ من قرأ كتابًا واحدًا من فنٍّ علىٰ هذه الطريقة.. سهل عليه جميع كتب هذا الفن مختصراتها ومطولاتها، وثبتت قواعده في ذهنه، وكان الأمر علىٰ ذلك[1].

وإذا كان هذا منهج المتلقي.. فإنَّه في حق المُلقي ألزم وأهم، ويمتحن فكره بالرجوع إلىٰ علماء الفن وأمهات الكتب فيه.

ثانيًا: القراءة الجردية:

القارئ هنا يقرأ عامَّةَ الكتاب، لكنه لا يُطِيلُ التأمل، ولو وجد إشكالًا ربما مضىٰ دون أن يشتغل بِحَلِّهِ، مكتفيًا بالإشارة إليه.

---

(١) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران ص (٢٦٧-٢٦٨).

ومن منافع هذه القراءة الاطلاع علىٰ أكبر قدرٍ من كتب الإسلام في عامة الفنون، فتكتمل عنده التصورات، وتختمر عنده المفاهيم، ويعرف مظان العلم ليقصده عند الحاجة، ويطلع علىٰ نَفَسِ أهلِ العلم في تقرير المسائل، والتعامل مع النصوص، وعرض الأقوال ومناقشتها، ويلتقط الشواهد لما عنده من علمٍ، ويربط بين العلوم، فتنضج عنده الأشباه والنظائر، وإنك لن تجد عبقريًّا إلا وهو يكتشف الشَّبَه بين المختلفات، ويعرف الفرق بين المتشابهات، وهذه المنافع هي وقودُ تكوينِ الملكةِ العلميَّةِ والذهنيَّةِ التخصصية.

وهذه المنافع أكثر ما تظهر في القراءةِ الجرديَّةِ لمطولات الإسلام، ولهذا يُبشَّر من أحكم المختصرات وترقىٰ إلىٰ المطولات بغيثٍ منهمرٍ لا ينقطع من متين العلم، وفهم الوحي ومقاصده وأسراره ومراميه.

ولهذا يخسر طلبةُ العلم كثيرًا بالبعد عن المطولات، لكنَّ رخصةَ السباحةِ فيها منوطةٌ بالتخرُّجِ من الكتب المبتدئة؛ فالرضيعُ لا يُعطىٰ إناءَ اللبنِ مباشرةً، وإلا قضىٰ عليه، ولكن يُقَطَّر له بالمصَّاصة إلىٰ أن يشتدَّ عوده.

وسيكتشف الناظر في المطولات أنَّ كثيرًا من المسائل التي يظنها من المستجدات، وتتطلب اجتهادًا أنها من المنصوص عليه، وربما كانت مأخوذةً من منطوق الوحي كتابًا وسُنَّة، لكن الجهل بالنصوص هو الذي وسَّع دائرة الرأي وأوجد كثرة القيل والقال.

يقول الشيخ إبراهيم السكران:

إنَّ الكتب البديعة كثيرة، والعمر قصير، والصوارف تتزايد، ومن تأمل هذه المعادلة أدرك أنه لا يمكن الفرار من التفكير في استثمار الوقت المخصص للقراءة إلىٰ أقصىٰ ما يمكن تحقيقه من الأرباح المعرفية..

وتخيل معي لو أنَّ طالبَ العلم قرر جردَ مطولات الإسلام في فترةٍ وجيزةٍ مثل: الكتب الستة، وتفسير الطبري، وتفسير القرطبي، والتمهيد لابن عبد البر، وفتح الباري لابن حجر، ونهاية المطلب للجويني، والمغني لابن قدامة، ومجموع فتاوىٰ ابن تيمية، وتاريخ الإسلام للذهبي، فماذا سيحصِّل من التصورات الشرعية الكلية، ومظان المسائل، وهياكل الفنون، ومواطن الاتفاق والاختلاف، بل هل يسمح العمر بقراءةِ مثل هذه المطولات إلا بنمطِ القراءة الجردية التي طبقَّها السلف؟![1].

وقد سجل الشيخ ضيف الله الشمراني عشرًا من ثمرات القراءة في الكتب المطولة، وهذا عدُّها:

أولًا: توضيح كثيرٍ من المسائل التي درسها طالب العلم باختصار، فيجدها مبسوطةً في المطولات.

ثانيًا: تنوع الفنون التي توجد في هذه الموسوعات، فيتنقل قارئها بين علومٍ مختلفةٍ تخفف من الملل الذي يعتري الإنسان أثناء القراءة في علمٍ واحد.

ثالثًا: تعرف طالب العلم علىٰ مواطن الضعف العلمي في تحصيله، فيجتهد في تكميل بنائه العلمي، وسد مواضع الخلل فيه، ووجه ذلك أنها جامعةٌ لعلومٍ شتىٰ، فمن كان مقصرًا في علمٍ منها ظهر أثر تقصيره علىٰ فهمه لكلام المؤلف واستيعابه لما يقرأ.

رابعًا: تعريف طالب العلم بقدره وحجمه الحقيقي في العلم؛ إذ يدرك من خلال جرده لهذه الموسوعات أنه ليس بشيءٍ إذا ذُكِر أئمة العلم، وأنه لو فهم كتبهم علىٰ ما أرادوا وأحسن تبليغ ذلك لمن بعده كان ذلك منقبةً عظيمةً له لا يصل إليها كثيرٌ من أبناء زمانه.

---

(١) مسلكيات للشيخ إبراهيم السكران ص (٥١،٧٠).

خامسًا: إدراك طالب العلم أنَّ مختصرات العلوم من المتون ونحوها هي المدرجة الحقيقية إلىٰ هذه الموسوعات، وأنه علىٰ قدر التحصيل والفهم لتلك الأصول والمختصرات يحصل الانتفاع بالمطولات.

سادسًا: تنمية الملكة لطالب العلم من خلال ما يجده من تطبيقاتٍ كثيرةٍ علىٰ القواعد النظرية التي درسها في علوم الآلة.

سابعًا: وقوف الباحث علىٰ جمهرةٍ من المسائل التي يمكن أن تكون نواةً لبحوثٍ في علومٍ مختلفة.

ثامنًا: رفع همة طالب العلم وتقوية عزمه؛ حيث يرىٰ أنَّ بعض ما نعده في عصرنا من الموسوعات كان عند السابقين من المختصرات، وربما نص بعضهم في مقدمة كتابه الموسوعي أنه اختصره بقصد تيسير حفظه!.

تاسعًا: التقاط فرائد الفوائد المخبأة في أسطر هذه الموسوعات، مما لا يمكن العثور عليه إلا بقراءة الكتاب من أوله إلىٰ آخره.

عاشرًا: اللذة الروحية والسعادة القلبية التي يذوق طعمها الإنسان بسبب إنجازه لقراءة كتابٍ موسوعيٍّ غزيرٍ بالفوائد. ا. هـ.

واعلم أنَّ شواهد هذا النوع من القراءة عند أئمة السلف والخلف تستعصي علىٰ الحصر، ومن ذلك:

أنَّ الإمام القسطلاني قرأ صحيح البخاري في خمسة مجالس، وقرأ الفيروزآبادي صحيح مسلم في ثلاثة مجالس، وقرأ القاضي عياض رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي الواقعة في مجلدٍ علىٰ شيخه أبي القاسم ابن النخاس في مجلسٍ واحد، وقرأ الإمام السمعاني الشمائل المحمدية للإمام الترمذي علىٰ شيخه أبي الفتح في مجلسٍ واحد، وتقع في مجلدٍ، وأقرأ الشيخ العلامة جمال الدين القاسمي المفسر المعروف المتوفي عام [١٣٣٢ هـ] صحيح

مسلم في مجالس من أربعين يومًا، وسنن أبي داود في مجالس من واحدٍ وعشرين يومًا، وموطأ مالك في مجالس من تسعة عشر يومًا، وتقريب التهذيب لابن حجر في مجالس من عشرة أيام[١].

ومن أعجب ما ورد من ذلك مما لا يُقدر علىٰ مثله ما ذكره الخطيب البغدادي أنَّ الإمام المحدث إسماعيلَ الحيري ورد بغداد حاجًّا عام [٤٢٣ هـ]، وكان يتمتع بميزةٍ إسنادية؛ وهي علو إسناده في رواية صحيح البخاري؛ حيث يرويه عن أبي الهيثم الكُشْمِيْهَني عن الفِرَبْري عن البخاري، ثم لم يقض لقافلة الحجيج الذهاب إلىٰ مكة في تلك السنة لفساد الطريق، ورجع الناس، قال: فلما كان قبل خروجه بأيامٍ خاطبته في قراءة كتاب الصحيح فأجابني إلىٰ ذلك، فقرأت جميعه عليه في ثلاثة مجالس؛ اثنان منها في ليلتين، كنت أبتدئ بالقراءة وقت صلاة المغرب وأقطعها عند صلاة الفجر.

وقبل أن أقرأ المجلس الثالث عَبَرَ الشَّيْخُ إلىٰ الجانب الشرقي مع القافلة، ونزل الجزيرة بسوق يحيىٰ، فمضيت إليه مع طائفةٍ من أصحابنا كانوا حضروا قراءتي عليه في الليلتين الماضيتين، وقرأت عليه في الجزيرة من ضحوة النهار إلىٰ المغرب، ثم من المغرب إلىٰ وقت طلوع الفجر، ففرغت من الكتاب، ورحل الشيخُ في صبيحة تلك الليلة مع القافلة![٢].

قال الذهبي: هذه -والله- القراءة التي لم يُسمع قط بأسرع منها[٣].

وتجدر الإشارةُ هنا أنَّ مجالسَ السَّماع والإجازة المنتشرة اليوم هي من هذا القبيل؛ فإنَّها قراءةٌ جردية، ينتفع بها من حصَّل المرحلة التأسيسية في العلم،

---

(١) انظر كتاب مسلكيات لإبراهيم السكران ص (٥١-٧٠) فقد هذه الأخبار مفصَّلةً معزوةً.
(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/ ٣١٣).
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٢٨٠).

ولو بالحدِّ المقتصد، وإلا قل انتفاعه، وكان عرضةً للاغترار بها.

ثالثًا: القراءة التصويرية:

القارئُ هنا يمرُّ علىٰ أسطرِ الكتاب مرورًا سريعًا، يلتقط صورةَ الصفحةِ دون أن يتوقف عند كلِّ كلمة، وربما تجاوز بعض الفقرات، وقد ينهي المجلد الضخم في جلسة سريعة!.

ومن منافعِ هذا النَّوعِ معرفةُ المحاورِ الأساسيَّةِ للكتاب، وطبيعة مادته العلمية، ومنهج مؤلفه، ومظان المسائل وإن لم يستحضرها علىٰ وجهها؛ كالذي ركب سيارةً وقصد مدينةً لم يدخلها من قبل، وأخذ يتجول فيها بسرعةٍ فائقة، فالتقطت عينه فيها مكتبةً ومركزًا علميًّا ومشفًىٰ ومخبزًا، ثم غادرها دون أن يحفظ مواضع ذلك، فهذا وإن لم يحسن وصفها لك، أو دلالتك.. إلا أنه يجزم بوجود هذه المعالم، فيستطيع أن يرجع إليها عند الحاجة، وإن تعنىٰ في الوصول إلىٰ مواقعها بدقة.

ولك أن تتصور طالبًا يدرس الفقه علىٰ المذهب الشافعي، وفي نيته قراءةُ كتابٍ واحدٍ من كلِّ مذهبٍ من المذاهب الأخرىٰ، وليس في جدول قراءته كتاب الأصل لمحمد بن الحسن الشيباني الحنفي، أو الذخيرة للقرافي المالكي، أو الإقناع للحجاوي الحنبلي، أو المحلىٰ لابن حزمٍ الظاهري، وهذه الكتب محوريةٌ في مذاهبها، وتحتل جزءًا من مكتبته دون أن يستحضر نية قراءتها ولو مرةً واحدةً في حياته، وربما ما مدَّ يده إليها في السنة إلا مرات قليلة بحثًا عن مسألةٍ لصالح بحثٍ علميٍّ يكتبه.

فتأتي القراءة التصويرية تميطُ اللثام وترفعُ الإبهام عن هذه الكتب، من خلال المرور السريع الذي يُمكن أن تنجز فيه مجلدًا كاملًا في ساعتين أو ثلاثة،

فما يمضي أسبوعٌ أو أدنىٰ من ذلك أو أكثر بقليلٍ إلا وقد مررت علىٰ الكتاب كله.

وعندئذٍ لك أن تتخيلَ الأفواج المتلاحقة من الأفكار والتصورات التي تتزاحم أمام عينك بعد هذه الجولة، فضلًا عما تلتقطه من طريقة الترتيب والتبويب للمسائل.

بل لو لم يكن فيها إلا تقهقر الهيبة من الولوج في هذه الكتب لكفىٰ؛ كالمجاهد لا يزال يشعر بالخوف وهو ينتظر العدو، فإن جاء وعاينه.. زال عنه الخوف، وثبت وسكن، وتصدىٰ له؛ إذ المعاينة تُضَيِّقُ احتمالات الخطر.

وأذكر أني التحقت بمعهدٍ علميٍّ عبر الشبكة، ولم يكن في نيتي المتابعةُ الجادَّةُ فيه؛ وإنما الاطلاع العام علىٰ المقررات الدراسية، ثم العناية بها إذا وجدتها ذات بالٍ، وبعد مدةٍ وصلتني رسالةٌ تفيد بموعد الامتحان وإلا فَقَدَ الطالبُ حقَّهُ في المواصلة، فقلت: قبيل الامتحان أتجول علىٰ المقررات سريعًا.

وفعلًا.. أخذت في ذلك، واعتمدت القراءة التصويرية، وهالني ما وجدت؛ لقد وجدت نفسي أمام غابةٍ من المعارف المنظَّمة ما كنت ألقي لها بالًا، ولو بقيت بعيدًا عنها فإني قد أتورط ببث طرحٍ باهتٍ لا يُشجِّع من استشارني في الالتحاق به، ومن هنا ندرك نفاسة ما وصىٰ به يحيىٰ بن خالد بن برمك ابنه قائلًا: **«يا بني خذ من كل علم بحظٍّ وافر؛ فإنك إن لم تفعل.. جهلت، وإن جهلت شيئًا من العلم.. عاديته، وعزيزٌ علي أن تُعَادِيَ شيئًا من العلم»**(١).

علىٰ أنَّ التصفحَ في القراءة التصويرية ليس عشوائيًّا؛ وإنما هو تصفحٌ منظَّمٌ وإن لم يستوعب، وكثيرٌ من الطلبة يحرمون بركاته بحجة عدم الفهم الدقيق لآحاد المسائل، وقد أحسن الشيخ إبراهيم السكران إذ قال: **لقد أثبتت التجربة أنَّ التصورات العامة للكتاب ليست موجودةً في المفردات؛ بل في الروابط بينها، وهذه**

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٢٥٧).

الروابط لا تتضح للذهن إلا إذا تم وصلها بسرعةٍ، فأما مع الانفصال الزمني بينها فإنَّ الذهن يشرد[١].

ومن شواهد القراءة التصويرية عند السلف ما ورد عن العز بن عبد السلام أنه كان يخرج إلىٰ مسجدٍ بالقرافة يوم الأربعاء ومعه نهاية المطلب للجويني، فيمكث بالمسجد يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة إلىٰ قبيل الصلاة، فينظر في هذا الوقت النهاية، والكتاب مطبوعٌ اليوم في عشرين مجلدًا[٢].

ولا تفسيرَ لذلك إلا بالقراءة التصويرية، أو أنَّ قراءته له كانت جردية، وإنما قدر علىٰ ذلك لتمكنه من ناصية الكتاب؛ بقرينة اختصاره له في نحو ثلث حجمه، وهو مطبوع[٣]، وهذا يدل علىٰ شدة عنايته به.

وأنبه أخيرًا إلىٰ أنَّ التنقل من نوعٍ إلىٰ آخر من القراءة يحتاجُ لقدرةٍ نفسية وتحكمٍ بالمشاعر؛ فقد يكون وردُ الطالب في القراءة التحليلية بعد ورده في القراءة التصويرية مباشرة، وعندئذٍ فإنه في الوقت الذي ينجز فيه مجلدًا كاملًا في الوِرد التصويري لم يُجاوز في مثله ثلاثةَ أسطرٍ من الوِرد التحليلي، فكان يركض في الأول ركض الغزال، ثم إذا به في الثاني يمشي مشيَ السلحفاة، لكن لا عجب؛ فإنه يجمع أكبر قدرٍ من المفاهيم والتصورات من قراءة التصوير ليدخلها إلىٰ مختبر التحليل.

رابعًا: القراءة الاستكشافية:

القارئ هنا يمسك الكتابَ ويأخذ يقلب أوراقه بسرعةٍ وركضٍ كأنه في سباق، والذي يتركه أكثر من الذي ينظره، وربما ما زاد عن قراءة المقدمةِ والخاتمة والفهرس ومواضع يسيرةٍ منه، وربما صوَّبَ النظرَ في بعض الصفحات،

---

(١) مسلكيات لإبراهيم السكران ص (٦٩).

(٢) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ لابن فهد المكي ص (١٣١).

(٣) واسم الكتاب «الغاية في اختصار النهاية» طبعته وزارة الأوقاف القطرية في ثمانية مجلدات.

وقرأها قراءةً جرديَّةً مركزة.

ومن منافع هذه القراءة معرفة مادة الكتاب من حيث الإجمال، وأهم خطوطه العامة، ومعرفة نوع القراءة الذي يلزم له، هل هي القراءة التحليلية أم الجردية أم التصويرية؟ وقد يجزئه تجوله الاستكشافي.

وهذا المنهج ينبغي اتباعه مع كل كتابٍ يدخل مكتبته؛ لأنَّ إهمالَهُ غيرُ محمود، ولأنَّ الهجومَ عليه بنية القراءة التحليلية أو الجردية قبل معرفة خارطته قد يضيع به وقته إذا اكتشف في أثناء الطريق أنَّ الكتاب لا يحتاج إلىٰ ذلك.

ومن المنافع أيضًا علاج بعض التصورات المشوهة عن الكتب، ولا أنسىٰ حجم الصدمة التي تلقيتها لما اطلعت يومًا علىٰ كتاب معرفة السنن والآثار للبيهقي، والبدر المنير لابن الملقن، واكتشفت فرط الحاجة لهما لمن تفقَّه علىٰ المذهب الشافعي، وكان التصور الذي يملأ الذهن أنها كتبُ حديثٍ فحسب، والنظر فيها موضعه عند التوسع في علم الحديث أو الحاجة!.

ولهذا لا أرىٰ بأسًا بأن يستكثر طالبُ العلم من الكتب، وإن لم يقرأها قراءةً جردية، علىٰ أن تتوزع علىٰ العلوم التي يحتاج إليها، وألا يخلو كتابٌ من قراءةٍ سواءً كانت جرديةً أو تصويريةً أو استكشافية، وأن يتصدق بالكتاب لمن يحتاج إليه يوم أن يجزم بعدم الإفادة منه له أو لأهله.

وهذا النوع من القراءة يمكن أن يستثمر به الطالب الوقت الضائع في المواصلات وأماكن الانتظار ونحو ذلك.

وقد تتكرر قراءة الكتاب نفسه بهذه القراءة؛! وذلك أنَّ الكتاب كاللباس، يمكن أن يكون أوسع منك فلا تنتفع به إلا إذا كبرت شيئًا، والكتاب قد تنظره مرةً فلا تنتفع به، ثم تعاود النظر فيه بعد التقدم قليلًا في الطلب، فترىٰ أنه راحلةُ الكتب، والرزق الذي ساقه الله إليك، ولهذا اجعل من وِردك إعادة النظر في

الكتب كرَّةً بعد كرَّةٍ، ولن تندم!.

أما نوعية الكتب التي تُقرأ بهذا النَّفَس فلا تنحصر في كتب التخصص وما قاربه؛ بل اقرأ ما كان من فنِّك وما لم يكن، وما كان من اهتمامك وما لم يكن، والنتيجة عندئذٍ كالرحلة التي لا تدري بماذا تعود منها، لكن الذي يأتي يكون عظيمًا جدًّا.

خامسًا: القراءة الانتقائية:

القارئ هنا لا يقرأ الكتاب، ولا يتجول فيه؛ وإنما يقصد موضوعًا بعينه؛ كما لو أراد عقدَ المضاربةِ مع شخص، وفتح كتابًا من كُتب الفقه وقرأ أحكام المضاربة وشروطها، أو سمع بأنَّ خسوفًا سيحصل الليلة، فقرأ أحكام الخسوف، أو أراد أن يعرف تفسيرَ آيةٍ بعينها، ففتح تفسيرًا وقرأها، أو كان يكتب في بحثٍ أو رسالةٍ علمية، ويبحث عن معلوماتٍ متجانسةٍ في موضوعٍ محدد، فيبحث عن مادته لا غير.

وعندئذٍ قد يقرأ مادته التي يقصد قراءةً تحليليةً أو جرديةً أو تصويرية بحسب حاجته.

هذه هي الأنواع الخمسة للقراءة، ويمكن أن يَتَشَقَّقَ المزيدُ من ذلك بحسب حاجة القارئ.

والذي ينبغي لطالب العلم أن يُعِدَّ خطةَ قراءته في ظلالها؛ فإنه لا يغني نوعٌ منها عن آخر، وليجتهد ألا يهجر كتابًا دون أن يقرأه بأيِّ نوعٍ منها بحسبه؛ وذلك أنَّ الكتبَ علىٰ مراتب، وفي هذا يقول الأخ الشيخ فيصل المنصور وفقه الله:

«من الكتب ما حقه الحفظ، ومنها ما حقه أن تجعل لك فيه وردًا، ومنها ما يقرأ مرة، ومنها ما يقرأ مرات، ومنها ما يتصفح تصفحًا، فأعط كل ذي حقٍّ حقه».



المبحث الثاني
ضبط العلم

تقدم أنَّ الإنسانَ جُبِل علىٰ النسيان، وبهذا ينسىٰ الأحزان فيطيب عيشه، وينسىٰ الفضائل فيضطر إلىٰ معاودتها فيتشبع بالفضيلة، وأنه لولا النسيان **لهُجِر العلم والقرآن**؛ إذ لو كان لا ينسىٰ فلن ينظر في العلم أو يتلو القرآن إلا عند الحاجة، فكان النسيان جسرًا إلىٰ تكوين شخصية العابد المتبتل.

ثمَّ إنَّ الله تعالىٰ جَعَلَ صَلاحَ هذه الأمة بالعلم، ولهذا كثر الحديث عن العلم وأدواته في القرآن المكي، وشاء الله بحكمته أنَّ العلمَ لا يثبُتُ عندك إلا إذا أمددت به غيرك، وبهذا يدوم العلم في الناس جيلًا بعد جيل، ويتفق المشتغلون بالعلم أنَّ نشرَ العلمِ بالتدريس أو التأليف أو المذاكرة من أقوىٰ عوامل حفظ العلم في الصدور.

وبناءً علىٰ هذه التقدمة؛ فإنَّ الكلامَ في هذا المبحث قد تناول ضبطَ العلمِ ووسائلَهُ، لكني أرجأت عمودَ الضبط وهو الحفظ إلىٰ مبحثٍ يخصه؛ لتشعب الكلام عليه، أما مادة هذا المبحث فإنها تنتظم في المطالب السبعة الآتية:

المطلب الأول: مفهوم ضبط العلم وحفظه.

المطلب الثاني: أهمية الحفظ والجمع بينه وبين الفهم.

المطلب الثالث: شروط ضبط العلم.

المطلب الرابع: إدمان النظر في عمدة الكتب.

المطلب الخامس: تأمل العلم.

المطلب السادس: مذاكرة العلم.

المطلب السابع: تدريس العلم.

والآن لنأخذ في بيان ما تحتها.



المطلب الأول
مفهوم ضبط العلم وحفظه

إنَّ الباعث علىٰ تدوين هذا المطلب هو معالجةُ ما قد يتبادر إلىٰ الذهن عند إطلاق مصطلح الضبط أنَّ المرادَ به خصوصُ الحفظ، والحق أنَّ الحفظَ أحدُ وجوهِ الضَّبط، ولا ينحصر الكلامُ هنا عليه؛ وإنما يعمُّ وسائلَ الضَّبط.

وذلك أنَّ الضبطَ يشمل حسن التصور للمسائل، وإحكام الأبواب من جهة الفهم، تقول: فلان ضبطَ الباب.. بمعنىٰ أحكم فهمه، وإن لم يستظهر مسائله عن ظهر قلب، ويشمل كذلك وسائله من نحو المذاكرةِ والتلخيص والتدريس والتأليف.

وقد نبَّه علىٰ هذا المعنىٰ الشيخ إبراهيم السكران فقال: من أسباب سوء الفهم في مسألة حفظ العلم ظنُّ الكثيرين أنَّ حفظ العلم يكون بتكرار لفظه فقط، وهذا صحيح جزئيًّا؛ فتكرار اللفظ المعيَّن طريقٌ عمليٌّ فعالٌ لحفظ العلم، لكنه ليس الوحيد؛ بل الصحيح أنَّ كلَّ وسائل معاناة العلم بإدمان النظر فيه، وتقليبه وتأمله وتدبره بالشرح والتلخيص والتعليم والتحقيق والمدارسة والمباحثة والفتيا، كلها من وسائل حفظ العلم ورسوخه في الذهن[1].

والحفظ نفسه لا ينحصرُ في التخزين الحرفيِّ للمتون ونحوها؛ بل يدخل فيه حفظ الخارطة العامة للعلم، ومهمات المسائل في كل باب، والأدلة، وأقوال أهل العلم، وأسماء الرجال، وطبقاتهم وتاريخ وفياتهم وغير ذلك مما ينبغي أن يُحفظ.

---

(١) مسلكيات لإبراهيم السكران ص (٤٢).



وقد نبه الشيخ إبراهيم السكران على هذا المعنىٰ أيضًا فقال: حفظ العلم أوسع من حفظ المتون؛ فيدخل فيه حفظ ألفاظ القرآن والحديث وأسماء الأعلام ووفياتهم، ومعاني اللغة والتعريفات وأشهر الأقوال في المسألة، والتسلسل التاريخي للمذاهب والبدع، ومواطن المسائل ومظانها وحفظ الموضوعات التي تَعَرَّضَ لها كلُّ كتابٍ مهمٍّ في بابه[١].



(١) مسلكيات لإبراهيم السكران ص (٤١).

المطلب الثاني
أهمية الحفظ والجمع بينه وبين الفهم

الحفظ والفهم رُكنا العلم، ولهذا قال الشيخ عبد العزيز الطريفي فرّج الله عنه: «**العلم حفظٌ وفهم، فالحفظ بلا فهم جهلٌ وغرور، والفهم بلا حفظٍ ضعفٌ وقصور**»(١)، ومن جمع بينهما فقد ملك ناصيةَ العلم.

وسُئل شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي: هل تُقيِّمُ العلماءَ بالحفظِ أم بالفهم؟ فقال: بكليهما معًا.

ويرى شيخنا د. لبيب نجيب أنَّ الشخصَ لا يُوصف بكونه عالمًا إلا إذا حازهما، أو كان متفوقًا في أحدهما متوسطًا في الآخر، فإن فقدهما أو قاربَ.. فلن يكونَ عالمًا، وتواردت نصوصُ المتقدمين على الحثِّ على الحفظ، بينما ينبه المعاصرون إلى أنَّ الفهمَ هو حجرُ الزَّاوية، وعند التعارض يُراعى السن والبيئة ونوعُ العلم(٢).

ولا أظنُّ العلماءَ يختلفون أنَّ الفهمَ أشرفُ من الحفظ؛ لأنه المقصودُ من العلم، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وامتدح الله نبيه سليمان ﷺ به فقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

---

(١) من تغريدات الشيخ حفظه الله وفرج كربه، وكذلك ما يأتي بعدُ مما ليس معزوًا إلى كتاب.

(٢) معالم في حفظ المتون للبيب نجيب، نشرها عبر قناة التليغرام.



لكن العلم الذي فُهِم لمَّا كان لا يُستدعىٰ إلا بالحفظ.. علت مرتبته؛ إذ الألفاظُ أوعيةُ المعاني، ولهذا امتدح الله الحفظة فقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ومن هنا قال الماوردي: «فإذا عَقَلَ الكلام بسمعه.. فهم معانيه بقلبه، وإذا فهم المعاني.. سقط عنه كلفة استخراجها، وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها؛ لأنَّ المعاني شوارد تضل بالإغفال، والعلوم وحشيةٌ تنفر بالإرسال، فإذا حفظها بعد الفهم.. أنست، وإذا ذكرها بعد الأنس.. رَسَت»[1].

ولو لم يكن في فضل حفظ العلم إلا بركة دعاء النبيِّ ﷺ لكفىٰ؛ فقد روىٰ أصحاب السنن عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ؛ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»[2] صححه الألباني.

والحاصل أنَّ الحفظَ والفهمَ ركنانِ لازمانِ لتحصيلِ العلمِ والرُّسُوخ فيه، ويحصل الاختلال إذا انفك أحدهما عن الآخر، فالفهم كالهاتف، والحفظ كالرَّصيد، فعلىٰ قدر الرَّصيدِ يُهاتِف، فإن انتهىٰ سكت ولو عند شيءٍ مهم.

والطالب الموفق الذي أراد الله به خيرًا لا يطيل الوقوف عند هذه المحطة؛ بحثًا عن الرُّخص؛ بل يعتني بالحفظ كما يعتني بالفهم، فيعطي ثلثي وقته للفهم وثلثه للحفظ، ولا يضيع الشهور والسنوات وهو يتنقل بين المنهجيات والطرق.

وزيادةً في التحريض علىٰ الحفظ فإني سأذكر طائفةً من فوائده ومنافعه، أما فوائد الفهم فلا أتوسع بذكرها؛ فيكفيه شرفًا أنَّ فضلَه مستقرٌّ في النفوس، وأنه

---

(١) آداب الدين والدنيا للماوردي ص (٥٢).

(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٣٦٦٢)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٦٥٦)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٣٠)، واللفظ لأبي داود والترمذي.

المقصود من التفقه، وأنَّ به إدراكَ مقاصدِ الشَّريعَة، ومعرفةَ مرادِ الله تعالىٰ، والتيقظَ لتوقيت استعمال العلم؛ لأنَّ العلم كالدَّواء، فقد يُعطىٰ لغير محتاجٍ له فيضره وربما قتله، أو يُمنع عن المحتاج إليه فيقع في المشقة.

أما فوائد الحفظ فهذا بسطها في البنود الثلاثة الآتية:

أولًا: ترتيب مسائل العلم: فإذا كان المحفوظ متنًا.. فإنَّ ضبطَه يمكنك من معاينة خارطة مسائل هذا العلم علىٰ الدَّوام، وهذا أعون علىٰ ضبط أمهات المسائل والأصول الكلية، فيتيسر لك التوسعُ في المطولات والفروع الجزئية.

أما من تجول في غابةِ الجزئيات قبل ضبط الكليات.. فإنه يُحصِّل معلوماتٍ جزئية لكنه يُحرم قدرةَ جعلِها في مواضعها من التصورات الكلية، فيقل انتفاعه بها، وقد ينسىٰ الخارطة أثناء تجوله فيضل، وعندئذٍ يهمه كيف يعود لا كيف يصل.

وقد رأيت ابن عثيمين يُشير إلىٰ هذه الفائدة وهو يستشعر نعمة الله إذ وفقه لها، ونجَّاهُ ممن أشار عليه بضدها فإنه قال: كثيرٌ من طلبة العلم يحفظ مسائل كثيرة من غير أن يكون عنده أصل، ومن الأصول حفظ المختصرات، ومن عرف الأصول استطاع أن يحكم علىٰ كل مسألةٍ جزئية، وقد أراد بعضُ الناس أن يمكروا بنا فقالوا لنا: إنَّ الحفظَ لا فائدةَ فيه، وإنَّ المعنىٰ هو الأصل، ولكن الحمدُ لله أنه أنقذنا من هذه الفكرة، وحفظنا ما شاء الله أن نحفظ من متون النحو وأصول الفقه والتوحيد[1].

ثانيًا: الانتفاع بالعلم وقت الحاجةِ إليه: وإلا تاهت عنه العبارة، فيقع في القصور والكلام بالظن والرأي؛ لأنَّ المتكلمَ في العلم لا بد وأن يحتاج إلىٰ ذكر آياتٍ وأحاديث وقواعد وشواهد وأنظام، وهل العلم إلا ذلك!.

---

(١) العلم لابن عثيمين ص (١٩٨).

ومن هنا ندرك زلل القائل: بأن المتخصص في علم يستغني عن حفظ متنٍ فيه، وقد عالج الشيخ مشاري الشثري هذه المسألة فقال: هذا ليس بسديد؛ بل لو قيل: إنه أحوج إلىٰ الحفظ من غيره لكان هو الظاهر؛ وذلك أنَّ المتخصص بحاجةٍ إلىٰ ترتيب معلومات فنه، وأفكاره المتصلة بمسائله، كما أنه بحاجةٍ إلىٰ أن يكون حاضر القول والفكر في تفاصيل مجال بحثه ونظره، ولا يحقق له ذلك شيءٌ كالحفظ.

وأنت إذا تصفحت كتب التراجم ستجد أنَّ حفظ المتخصص لمتنٍ في علمه يعد طقسًا عامًّا شائعًا، بل ستجد أنَّ كثيرين يحفظون في علومهم أكثر من متن؛ لأن ذلك أدعىٰ للضبط وأقوىٰ للاستحضار وأعون علىٰ الفهم.

وإن قيل إن التخصص سيجعل المرء معايشًا لعلمه دارسًا له علىٰ الدوام.. فيقال: إنَّ الدراسة لا تكون دفعة واحدة؛ بل لا بد وأن يتطاول عهد المتخصص ببعض أبواب الفن للاشتغال بأبواب أخر، أما المتن المحفوظ فيجعل جمهور الأبواب والمسائل ثابتة في الذهن راسخة فيه. ا. هـ.

إذا تقرر هذا شق اليقين شغاف قلبك أنَّ العلمَ القليلَ مع الحفظ أفضلُ من العلم الكثير مع النسيان، فقليلٌ من الذخيرة في المعركة مع توفرها خيرٌ من أطنانٍ منها مع غيابها.

ولهذا قال أبو هلال العسكري: «**إذا كان ما جمعته من العلم قليلًا وكان حفظًا.. كثرت المنفعة به، وإذا كان كثيرًا غير محفوظٍ.. قلت منفعته**».

وكشف لنا أبو العباس النفاط سرًّا ذا خطر إذ قال: «**كان علم الأصمعي في قمطر إلا أنه كان حفظًا**»![1]، والقِمَطر هو الوعاء الذي تُصان فيه الكتب.

---

(١) الحث علىٰ طلب العلم للعسكري ص (٧٤).

ومن هنا لم يغفل علماء التراجم أخبارَ مدحِ حَفظةِ العلم وذمِّ المُعتمِدِ علىٰ كتبه.

ومن شواهد المدح: ما ذكروه عن بكر بن محمد الزَّرَنْجَرِي[1] أنه برع في علم الفقه، وكان يُضرب به المثل، وحفظ مذهب أبي حنيفة، حتىٰ قالوا: هو أبو حنيفة الصغير، **وذلك أنه متىٰ طلب المتفقه منه الدرسَ أخذ يُلقي عليه من أي موضعٍ أراد من غير مطالعةٍ، ولا مراجعةٍ لكتاب**، وكان الفقهاء إذا أشكلَ عليهم شيءٌ رجعوا إليه، وحكموا بقوله ونقله.

لكن هذا الرسوخ له ثمنٌ وقد دفعه كله؛ فإنه سئل يومًا عن مسألةٍ فقال: كررتُ هذه المسألةَ ليلةَ أربعمائة مرة![2].

ومن شواهد الذم: ما قاله أبو عيسىٰ عبد الرحمن بن إسماعيل: قال لي أبي -وهو يَحُضُّنِي علىٰ النظر في علمي-: استبَّ رجلان فقال أحدهما للآخر: يا رَفِّي، فانخذل ذلك الرجل وظنَّ أنه قد قابله بشيءٍ عظيم، ثم اصطلحا فيما بعد، فلما كان في بعض الأيام تمازحا، فقال له: كنا استببنا يوم كذا وكذا، فقلت لي فيما قلت لي: يا رَفِّي، ما الرَّفِّي؟ قال: رأيتك تكتب العلم وتضعه علىٰ الرَّف![3].

فكانوا يعيِّرون بذلك!.

وأنشد بعض البصريين في ذلك:

رب إنســـان مــــلأ أسفاطـــه	كتـب العلـم وهـو بعـد يَخُـط
فـــإذا فتشـتَـــه عــن علمـــه	قـال علمـي يـا خليلـي في السَّـفَط
بكـــراريس جيـــاد أُحـــرزت	وبخــــطٍّ أيَّ خـــطٍّ أيَّ خــــط

---

(١) من قرية زرنجر من قرىٰ بخارىٰ.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٩/ ٢٠٠-٢٠١).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥٢).

فـإذا قلـتَ لــه هــات أرنــا   حـكَ لَحيَيـه جميعًـا وامتخـط

ثالثًا: تحصيل إحدىٰ أهم أدوات تثوير العقل: فالذي ينظر في العلم يزيد عقله يومًا بعد يوم، ومن حفظ القرآن الكريم وما تيسر من كتب السُّنَّة ومهمات المتون في عامَّة الفنون وهو في مقتبل عمره، فإنه وإن لم ينتفع بها علىٰ الوجه الذي ينبغي يومئذٍ؛ لأنَّ الإنسانَ ابنُ وقته.. إلا أنه يوم أن ينضج بناؤه العلمي، ويترعرع رشاده العقلي، ويأخذ في حيازة الملكة العلمية، والتفكير في إنتاج العلم والمعرفة، سيجد بين يديه كنزًا من الأدلة وأصول المسائل التي يتشقق عنها ما لا يحصىٰ من العلم، وعندئذٍ يكون ما حصَّله من محفوظات بمنزلة مناجم الذهب التي يُنتِجُ منها ما طاب له من الحُلِي.

ومن الأخبار الشاهدة لهذا ما خطَّه ابنُ سينا عن نفسه يوم أن كان شابًّا صغيرًا، وتكلم فيه بما يُشعرك أنك أمام تجربةٍ ثريةٍ متكاملة، فإنه قال:

قرأتُ كتاب «ما بعد الطبيعة» فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرضُ واضعه، **حتىٰ أعدت قراءته أربعين مرةً، وصار لي محفوظًا، وأنا مع ذلك لا أفهمه، ولا أعلم ما المقصود به،** وأيستُ من نفسي وقلت: هذا لا سبيلَ إلىٰ فهمه.

وإذا أنا في يومٍ من الأيام قد حضرتُ الورَّاقين، وبيد دلَّالٍ مجلدٌ ينادي عليه، فعرضه عليَّ فرددته ردَّ متبرمٍ به معتقدٍ أن لا فائدة في هذا العلم!.

فقال لي: اشترِ مني هذا؛ فإنَّه رخيص، فاشتريته بثلاثة دراهم، فإذا به كتابٌ لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب «ما بعد الطبيعة».

فرجعت إلىٰ بيتي، وقرأته، **فانفتح عليَّ به في ذلك الوقت أغراضُ ذلك الكتاب؛ بسبب أنه قد كان لي عن ظهرِ قلبٍ،** وفرحت بذلك وتصدقت ثاني يوم بشيءٍ كثيرٍ علىٰ الفقراء شكرًا لله تعالىٰ.

وكان سلطان بُخارىٰ في ذلك الوقت نوحًا بن منصور الساماني، فاتفق أنه مرض مرضًا تعنىٰ الأطباء في مداواته، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر علىٰ العلم والقراءة، فأجروا ذِكْري بين يديه، فأمر بإحضاري، وشاركتهم في مداواته، وتوسَّمت بخدمته، فسألته يومًا أن أدخل دار الكتب لمطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذِن لي، فدخلت دارًا ذات بيوت، في كل بيتٍ صناديقُ كتب منضدة بعضها علىٰ بعض؛ في بيتٍ العربيةُ والشعر، وفي بيتٍ الفقه، وهكذا في كل بيت كتبُ علمٍ مفرد.

فطالعت فهرست كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه من الكتب، فقرأتها وظفرت بفوائدها، فلما بلغت ثمانية عشر من عمري فرغت من هذه العلوم، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج، وإلا فالعلم واحدٌ لم يتجدد لي بعده شيء.. إلخ[(١)].

وهذا الاستنتاج الدقيق الذي ينبه عليه ابن سينا صرَّح به ابن عثيمين؛ فإنه أجاب عن سؤالٍ توجه إليه: أيهما أفضل: الحفظ أم الفهم؟ فقال: يحرص المبتدئ علىٰ حفظ المتون، فإن الصغير لا ينسىٰ، وحفظ المتون هو العلم، ولا تعتبروا بقول من قال: العلم هو الفهم؛ هذا غلط، ونحن لم ينفعنا الله عَزَّوَجَلَّ إلا بما حفظناه من قبل في حال الصِّغَر، نستحضر العبارات التي كنا نحفظها من قديم ونأخذ منها، ولذلك تجد الذين يعتمدون علىٰ مجرد الفهم ليس عندهم علم؛ لأنَّهم لا يرتكزون علىٰ شيء[(٢)].

هذه ثلاث فوائد، وهي غيضٌ من فيض.

وإنا لنلمح غزارة منافع الحفظ في فرط عناية العلماء المتقدمين به، وهم أئمة الدنيا يومئذٍ في الفهم أيضًا، فهذا هو الطريق.

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي (١٢/ ٢٤٤).

(٢) لقاء الباب المفتوح (٢١٠/ ٢٩).

ولهذا أوصىٰ ابنُ الجوزي ولده بالحفظ في رسالةٍ خطَّها إليه جاء فيها: وقد علمتَ يا بني أنني قد صنفت مائة كتاب، فمنها التفسير الكبير عشرون مجلدًا، والتاريخ عشرون مجلدًا، وتهذيب المسند عشرون مجلدًا، وباقي الكتب بين كبارٍ وصغارٍ، وكفيتك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع الهم في التأليف، **فعليك بالحفظ؛ فإنَّ الحفظَ رأسُ المال، والتصرفَ ربح**، واصدق في الحالين في الالتجاء إلىٰ الله سبحانه، فراعِ حدوده، قال الله تعالىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠][1].

ودوَّن الشيخ فيصل المنصور خلاصةَ تجربته في نقاطٍ فقال والصراحة تملأ كلامه:

▪ يا طالبَ العلم، الحِفظ هو عِزُّك وسُؤددك، فخذ منه أو دَعْ؛ فكم من متظاهرٍ بالعلم متنحلٍ رسمَه كشَّفته المَحاضرُ وجلَت عنه المبادهات!.

▪ لن يبقىٰ لك من قراءتك إلا ما كرَّرته فحفظته، أو كتبته فراجعته، أو لخَّصته فدرَّسته أو درَّسته.

▪ نظرتُ في الكتب التي لا يزال أثرها ممتدًّا في نفسي، فإذا هي الكتب التي حفظتها أو كرَّرتها أو لخَّصتها، أما الكتب التي قرأتُها مرَّةً واحدةً فما أتبيَّنُ أثرها.

▪ خذوا هذه الوصيَّة من أبي عثمان الجاحظ: «وإذا مرَّ بك الشِّعر الذي يصلح للمثَل وللحفظ.. فلا تنس حظَّك من حفظه»[2].

---

(١) لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي ص (١١).

(٢) ذكرها الجاحظ في كتابه «الحيوان» (٣٨٣/١).

نصيحةٌ أخوية:

وعلىٰ سَنَنِ الكرماءِ في الوصية بالحفظ فإني أخط لك نُصحًا أخويًّا أرجو به الخير لك، فأهتف بك:

إن مضىٰ بعضُ عمرك من غيرِ حفظٍ وضبط.. فاستدرك علىٰ نفسك، واعتبر بغيرك؛ فإنَّ الذاكرةَ بعد سنِّ العشرين تأخذُ في الضَّعفِ.

أما إن قاربتها أو جاوزت.. فأعلن الاستنفار، وغيِّر جدول الأعمال، وحدد أهمَّ المتون، واشتغل بحفظها مع شرحٍ ميسرٍ مختصر، ولو بأن تعطيَها شطرَ وقتك إن لم يكن أكثر؛ فإنَّ الأمرَ ينقص، والذاكرةَ غالبةٌ لا مغلوبة، ولا تأس علىٰ ما فات إلا لتستدرك وتجتهد فيما هو آت.

ولا تعجل؛ فإنَّ السيرَ بتؤدةٍ مع الضبط خيرٌ ولو تأخر وصولك، بل ولا عليك لو متَّ قبل أن تصل، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وذلك أنَّ الضبط دين، والاشتغال به من التعبد، وقد مدح الله حفظة كتابه، ودعا النبي ﷺ للحافظ بنضارة الوجه، وإنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه، وإني لأخشىٰ بعد اتضاح ذلك من المعاتبة الإلهية علىٰ من يستكثر من القراءةِ دون الضبط؛ إذ كيف ينصر الإنسان دينه بعلمٍ طواه النسيان!.

ثم إنَّ العلمَ له شهوة، فإذا سمع الإنسان علمًا لم يسمعه من قبل ابتهج به غاية البهجة، أما الضبط فإنه تثبيتٌ لما حصلت البهجة به، فيثقل علىٰ النفس، ولهذا **تظهر العبودية في الضبطِ والمراجعةِ ما لا تظهر في أصل الحفظ والمطالعة**، وإذا كان أصل الحفظ والقراءة حظَّ العبد.. فإنَّ الضبطَ حقُّ الرب، فلا ينبغي للمتفقه أن يُغَلِّبَ مُرادَهُ من الشريعة بما يُغَذِّي به شهوته علىٰ مراد الشريعة منه بما يُعِدُّهُ ويُؤَصِّلُه ويؤهله.

أما من يدعو لترك الحفظ والعناية بالفهم فالظنُّ الغالبُ أنَّه لم يُجرِّب الحفظ ليرىٰ ثمرته، أو كان يشق عليه فتركه، وهو يعلم في نفسه فضيلتَه، ولهذا لو أخذ يثني علىٰ عالمٍ راسخٍ لذكر قوة حفظه وكثرته، فوقع في التناقض.

وفي ظني أنَّ المتهاون في الحفظ أو المتكاسل فيه لو تتلمذ علىٰ حفظةِ العلم وعايشهم عن قرب لغيَّر رأيه؛ فليس الخبر كالمعاينة، وقد كنت أنظر للحفظ نظرًا باهتًا مع الإقرار بركنيته في الطلب، حتىٰ قدَّر الله لي السفر، وحضرت دروسًا لمن ضبط العلم جيدًا وحمله في صدره، وعندها تغير النظر.

نماذج من المعاصرين:

لما يسَّر الله السفر إلىٰ السودان أخذت أتابع في بعض مجالس العلم، وهالني أني لم أجد أحدًا ممن حضرت له يضع ورقةً أمامه يستعين بها مع أنَّ بعض الدروس كانت في دقائق الأحكام الفقهية والعقدية.

ولا أنسىٰ أنَّ أحدَ أهل العلم استُضيف مرةً ليعطي محاضرةً في مقدمات التفسير وأصوله، وكان قد ألف كتابًا في ذلك، فكان يتكلم والورق أمامه، ولما انتهىٰ أخذ مُقَدِّمُ اللقاء يلتمس العذر للشيخ بأنه تكلم مستعينًا بتلخيصاتٍ أمامه؛ لأنه يريد المبالغة في تحقيق الكلام، وإلا.. فإنه أهلٌ لأن يتكلم عن ظهرِ قلبٍ!

فظهر لي أنَّ العادة التي ألفناها هي مما استقر عندهم أنه مما لا يليق ولا ينبغي.

ولما زرت بلاد شنقيط كانت الهزَّةُ التي ما زلت أجد أثرها في نفسي، وأبكي علىٰ العمر الذي فات من غير ضبطٍ بحجة التركيز علىٰ الفهم، وأخطُّ هنا



ما أنقذ به إخواني، فلئن فاتني ما أحببته لنفسي فلا أضنُّ به نصحًا لغيري.

وقبل أن أسرد طرفًا من أخبارهم أحب أن أبين أنَّ طريقة الشناقطة في منهج التلقي تختلف عن طريقة المشارقة رأسًا على عقب، فتكاد لا تلتقي معها إلا في الخطوط المركزية في الطَّلب، ولعلي أُبيِّنُ هذا في مناسبةٍ كتابيَّةٍ أخرىٰ.

ومن هذا أنَّ عنايتهم بالحفظ أكثر، وعنايتنا بالفهم أكمل، ولا يعني هذا أنهم يغفلون الفهم؛ فلئن كنا نشرح المتن مرةً فإنَّ الطالبَ يتلقاه في مركز تكوين العلماء مثلًا مرتين، مرةً في الصباح، وأخرىٰ للمراجعة في المساء.

أما ما يتعلق بالأخبار؛ فإني درست جملةً من الكتب علىٰ عددٍ من المشايخ، فما رأيت واحدًا منهم يُمسِكُ ورقةً أو كتابًا في يده.

ومن ذلك أني درست علىٰ شيخنا محمد بِسْلِم الطرة علىٰ اللامية في الصرف، وأبواب الصرف من الألفية، وأكثر الجوهر المكنون في البلاغة، والسلم المنورق في المنطق، وغير ذلك، وما استعان يومًا بمذكرةٍ أو كتاب، بل وما كان يعلم أحيانًا الفنَّ الذي سنشرع فيه إلا في صدر الدرس، وذلك أنَّ العادةَ أنه كان يستفتح الدرس بحمد الله تعالىٰ، والصلاة علىٰ رسوله ﷺ، ثم يسكت، فأقول أنا: وصلنا إلىٰ موضع كذا من متن كذا، فيبدأ بالكلام.

قلت له مرة: لو جعلنا الدرس القادم موزعًا علىٰ مَتنَين؛ وذلك لحاجةٍ اقتضت ذلك، فقال: إذا كان الدرس القادم ذكرت لي ما تريد في أوله، فعجبت أنه لا يحتاج حتىٰ إلىٰ تهيؤٍ نفسيٍّ للدرسِ الذي يلقيه!.

وأما فهمه للمادة وإحكامه لها فشيءٌ فوق حاله في الحفظ، وكنت أرىٰ أنَّ الله ادَّخر له حظًّا في صناعة المعرفة والابتكار العلمي خاصةً في علم الصَّرف، وأنه لو وجد عناية لكان ينتظم في الشخصيات المحورية فيه؛ لأنَّ هذا العلم لم يقف

عنده؛ بل زاد عليه، وحقق ما بقي من مواضع إشكالٍ في بعض المسائل عند المتقدمين، وكنت أوصي بعض إخواني من الطلبة أن يهضموا المادة قبل حضورهم عنده؛ لأنهم إذا ذهبوا وهم يحتاجون أصل الشرح فسينشغل الشيخ بذلك عن التوغل في المعاني العميقة، والمسائل الدقيقة، فيفوتهم الانتفاع الحقيقي بالشيخ.

ودرست الألفية علىٰ شيخنا «التاه بن يحيىٰ القناني الشنقيطي»، وهو من عائلةٍ ورثت النحوَ كابرًا عن كابر، وكان قد كتب علىٰ الألفية شرحًا مزدحمًا بالأنظام والشروط والتقييدات، فكان يشرح وأنا أتابع معه في الكتاب، فكأنه يقرأ منه!.

وأخذت المعلقات وبعضَ متونِ اللغة علىٰ الشيخ «سيدي أحمد ويس»، وهو مكثرٌ من الحفظ، ويقال إنه يحفظ خمسة وعشرين ألف بيتٍ من الشعر، وكنت أسأله عن مشكلاتٍ في النحو والصرف فيجيب بأهليَّةٍ فائقةٍ لم أجدها عند بعض من حضرت له ممن محَّض حياته في هذه العلوم للفهم وترك الحفظ!.

ونصحني بعض الكرماء بالتتلمذ علىٰ الشيخ «خيار الناس»، فضاق وقتي عن ذلك، لكني قلت: أكتفي بالزيارة وحضور بعض مجالس العلم عنده، فزرته في محظرته العلمية، فاجتمع الطلاب، كلٌّ جاء لمتابعةِ دراستِهِ في كتابٍ معين، فلما جاء الشيخُ في نحو الساعةِ العاشرةِ صباحًا تقدم أحد الطلاب وكان يأخذ عن الشيخ علم التفسير، وبدأ الشيخ يُفَسِّرُ له في سورة الزمر، فمكث نحوًا من نصف ساعة، ثم جلس الثاني، فشرح له بابَ الوقفِ من كتاب المعاملات، ثم جاء الثالث فشرح له فصلًا من باب النكاح، ثم جلس الرابع فأخذ يتكلم في النحو، ويطرح المسائل الخلافية وحجة كل فريق، وهكذا، والشيخ لا يغير جلسته،

ويتكلم عن ظهر قلب، وبحكم أنَّ الدرسَ في محظرته وليس عامًّا لم يكن يختم كل درس، بل أنت تراه يتنقل من فنٍّ إلىٰ آخر من غير فاصلٍ بينهما، إلا أنَّ الطالبَ يقوم ويجلس آخر، ويبقىٰ هكذا إلىٰ قريبٍ من الساعة العاشرة ليلًا.

فلما هممت بالانصراف بعد ساعتين قام معتنيًا بي لمَّا علم أنِّي من غزة، واستوصيته فقال: **أوصيك أن تلزم كتابًا في كلِّ علم، وتستظهره؛ فإنك تبلغ بذلك!.**

وحدثني أحدُ علماء شنقيط أنه تتلمذ في بداية طلبه علىٰ يديه، وأنَّه سأله يومًا عن موضعٍ من كتابِ الذخيرة للقرافي، فأنكر الشيخ أن يكون القرافي تكلم بذلك، فقال الطالب: إنَّ الكتابَ بيدي، فأعاد الشيخ إنكاره وقال له: استوثق يا بنيَّ من الموضع، قال: فنظرت وإذ بي أخلطُ بين موضعين، وعجبت لدقةِ حفظِ الشيخ وفرط ضبطه، مع أنَّ كتابَ الذخيرة ثلاثة عشر مجلدًا!.

وزرتُ مرَّةً شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي ببيته، وبحكم أنَّه من حدَّد موعد الزيارة فقد تخللها تناول طعام الغداء، وسألت الشيخَ زيادةً عن عشرة أسئلة، فكان يجيب علىٰ سجيته، حتىٰ وهو يأكل، ويذكر في الإجابات الشواهد والأدلة والأنظام العلمية من ألفية البلاغة وغيرها، وأشياء لا يتيسر استحضارها إلا بالحفظ المكين الراسخ، فاستقرَّ عندي يقينًا أنَّ وهمَ ترك **الحفظ لصالح الفهم لا مكانَ له في حياة الراسخين من أهلِ العلم.**

والمقصود أنَّ الحفظ ركنٌ لا يقوم بنيان العلم إلا عليه، ومن جمع بينه وبين حسن التصور للمسائل فقد أتىٰ علىٰ التأسيس من طرفيه، وليس الحافظ بنسخةٍ زائدةٍ كما يحلو لبعض الناس أن يصفه؛ فالذين ذكرتهم لك هم من أهل العلم والفهم والحفظ، ولو توفر لهم الفضاءُ الإعلاميُّ ومهارات الإلقاء لكان لهم شأنٌ عجيب!.

ولا أبالغ إن قلت أخيرًا: **إذا أردت أن تضلَّ طالبًا عن جادَّةِ الطلب.. فانصحه بمقاطعة الحفظ تحت مبرر العناية بالفهم.**

ولكن لعل من أسباب النظرة السلْبية للحفظ أن بعض من حفظوا لم يواصلوا البناء فنسبت الجناية للحفظ لا لهم، والصواب مدح حفظهم وتحريضهم علىٰ ترويض العقول بالتركيز علىٰ الفهم.

المطلب الثالث

شروط ضبط العلم

حفظُ العلم فرعٌ عن ضبطِهِ وإحكامِ فهمه، وقد يحفظ الطالبُ متنًا من غير إحاطةِ فهمٍ ثم يعود لضبطه بعد ذلك؛ وذلك أنَّ بيتَ القصيدِ إنما هو في ضبط العلم وفهمه وإحكامه؛ لأنَّ هذه الغاية هي التي ينبني عليها التوسع والتفريع والتدريس والتصنيف والحفظُ ومعالجة النوازل وغير ذلك.

وحتىٰ لا تبقىٰ صفةُ الضابط للعلم ضبابيَّةً فقد تولىٰ الإمامُ الشاطبيُّ إزاحةَ اللثام عنها حتىٰ أشرقت جلاءً واتضاحًا فقال:

«من شروطهم في العالم بأيِّ علمٍ اتفق:

١- أن يكون عارفًا بأصوله وما ينبني عليه ذلك العلم.

٢- قادرًا علىٰ التعبير عن مقصوده فيه.

٣- عارفًا بما يلزم عنه.

٤- قائمًا علىٰ دفع الشُّبَهِ الواردةِ عليه فيه.

فإذا نظرنا إلىٰ ما اشترطوه، وعرضنا أئمة السلف الصالح في العلوم الشرعية.. وجدناهم قد اتصفوا بها علىٰ الكمال.

غير أنه لا يشترط السلامةُ عن الخطإِ البتة؛ لأنَّ فروعَ كلِّ علمٍ إذا انتشرت وانبنىٰ بعضها علىٰ بعض اشتبهت، وربما تصور تفريعها علىٰ أصولٍ مختلفةٍ في العلم الواحد فأشكلت، أو خفي فيها الرجوعُ إلىٰ بعضِ الأصولِ فأهملها العالم من حيث خفيت عليه، وهي في نفس الأمر علىٰ غير ذلك، أو تعارضت وجوهُ

الشَّبَهِ فتشابه الأمر، فيذهب على العالم الأرجح من وجوه الترجيح، وأشباه ذلك، فلا يقدح في كونه عالمًا، ولا يضر في كونه إمامًا مقتدىً به، فإن قصَّر عن استيفاء الشروط نقص عن رتبة الكمال بمقدار ذلك النقصان، فلا يستحقُّ الرتبةَ الكماليَّةَ ما لم يكمل ما نقص»[1].

وهذا تعقيبٌ على الشروط التي ذكرها:

الشرط الأول: أن يكون عارفًا بأصول هذا العلم وما ينبني عليه:

والذي يظهر أنَّ أصولَ العلمِ في هذا السِّياقِ يدخل فيها الأمورُ الخمسةُ الآتية:

١- رؤوس المسائل التي تجري مجرى الأصول في كلِّ باب، وتصبح أصلًا لما يندرج تحتها من فروعٍ تنبني عليها.

٢- الدليل الذي عليه الاعتماد في الباب، ومن هذا قولُ الفقهاء: الأصلُ في باب طهارة الماء ونجاسته حديثُ القلَّتين.

٣- القواعد الكلية، فإن القاعدةَ تصبح أصلًا لما ينتظم تحتها من الأحكام، كقول الفقهاء: اليقين لا يزول بالشَّك، وقول أهل اللغة والتفسير ما حاصله: إذا حُذِف المعمولُ اتَّسع المدلول.

٤- الأصل المقيس عليه، وهو ما قيس عليه الفرعُ بعلَّةٍ مستنبطةٍ منه.

٥- وعند التوسع في كلمة الأصول فإنها تشمل علمَ الآلةِ المتعلق بعلم الغاية؛ كأصول التفسير وقواعده بالنسبة للتفسير، ومصطلح الحديث بالنسبة للحديث، وأصول الفقه بالنسبة للفقه، بما يشمل القواعد الأصولية، وتشقق عن ذلك علمُ تخريج الفروع على الأصول.

---

(١) الموافقات للشاطبي (١/ ١٤٠-١٤١).

والفائدة الأعظم لمعرفة هذه الأصول أنَّها قليلةٌ في نفسها، وعامةُ الفروعِ تنزع إليها، فالباب كله قد لا يزيد عن دليلِ عُمدةٍ أو اثنين، وقاعدةٍ كليةٍ أو اثنتين، وخمس مسائل من المسائل الأصول، ومتىٰ ضبط طالبُ العلم ذلك وأحكمه تيَسَّرَ له السباحة بمهارةٍ فيما لا يُحصىٰ من الفروع والجزئيات؛ لأنه يتقن ردَّها إلىٰ الكليات، فينشأ بذلك نشأةَ تقعيدٍ وتأصيل، فضلًا عن أنه متىٰ اهتدىٰ للقواعد والأصول صارت تتهادىٰ إليه الفروع كالخرز المنظوم في خيطٍ لا يشذ عنه شيء، إلا ما خرج من هذا الخيط ليدخل في حباتِ خيطٍ آخر.

ومن هنا قال ابن عبد البر: «وخير العلوم ما ضبط أصله واستذكر فرعه، وقاد إلىٰ الله تعالىٰ ودل علىٰ ما يرضاه»[(١)].

وقال الغزالي: «فكل علم لا يستولي الطالب في ابتداء نظره علىٰ مجامعه ولا مبانيه.. فلا مطمع له في الظفر بأسراره ومباغيه»[(٢)].

وقال الشيخ سليمان بن ناصر العبودي: «إنَّ الأرض العلمية هي أصول المسائل في بابٍ ما من أبواب العلم، وهي تلك التي ينفق عليها طالب العلم لأجلها وجه النهار وآخره، ثم إذا ما من الله تعالىٰ عليه باستقرارها في صدره، وثباتها في عقله أصبحت مغناطيسًا جاذبًا لمعادن المعلومات العابرة لا يكاد ينسىٰ منها شيئًا؛ فالعلم كلما استقرت أصوله حول بابٍ ما لانت فروعه»[(٣)].

وأخذ ابن عثيمين ينصحك بنظم رائقٍ قائلًا:

وبعـدُ فـالعلمُ بحـورٌ زاخـرة	لـن يبلـغَ الكـادحُ فيـه آخـرَه
لكـنَّ في أصـوله تسهيـلا	لنَيْلِـهِ فـاحرصْ تجـدْ سبيـلا

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٤/ ١٣٤).

(٢) المستصفىٰ للغزالي ص (٤).

(٣) البرقاة لسليمان العُبُودي ص (١٧).

اغتــنمِ القواعــدَ الأُصُــولا   فَمَــنْ تَفُتْــهُ يُحــرَمِ الوُصُــولا[1]

الشرط الثاني: أن يكون قادرًا على التعبير عن مقصوده فيه:

وذلك بأن يكون حسنَ العبارةِ عن مسائل هذا العلم، وهذا يقتضي أن يتلقىٰ الطالبُ هذا العلم، ويحسن فهمه له، ثم يعيد إنتاجه بلسانه مرةً أخرىٰ، فينصبغ بعقله هو، كأنه جاء من أفكاره؛ لأنَّه التقىٰ بأرضٍ خصبةٍ من العلم والمعرفة، فينبت فيها نباتًا جديدًا، فيخرج كأنه علمٌ جديد، وهذا أحد عوامل إنتاج المعرفة الذي نبَّه عليه الشيخ محمد محمَّد أبو موسىٰ كما سيأتي بسطه في الفصل القادم إن شاء الله.

وقد مرَّ بنا في كلام ابن بدران الحنبلي في كيفية المطالعة أنهم كانوا إذا فهموا الدرس تركوا الكتاب، واشتغلوا بتصوير المسألة في الأذهان، فحفظوها حفظَ فهمٍ وتصورٍ لا حفظ تراكيب وألفاظ، ثم اجتهدوا علىٰ أداء المعنىٰ بعباراتٍ من عندهم، غير ملتزمين تراكيب المؤلف[2].

والحق أنَّ ضبطَ العلمِ شيءٌ وحسنَ التعبير عنه شيءٌ آخر، فالعلم واحد لكن حسن العبارة هو الذي يتمايز به طلبة العلم وأهل التدريس والتصنيف فيما بينهم؛ إذ لكل أهل زمانٍ لغتهم وذوقهم، ولهذا قال الشيخ فيصل المنصور:

توليد المعاني الدقيقة وتشقيقها صعبٌ، ولكن أصعبَ منه الإبانةُ عنها وَجَودةُ إبرازها للمخاطب حتىٰ يتصوَّرها في نفسه ويعقلَها كتصوُّر كاتبها لها وعقلِه إياها.

---

(١) العلم للعثيمين ص (٧٣)، وهذه الأبيات ضمن منظومة أصول الفقه وقواعده له رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران ص (٢٦٧-٢٦٨).

وروىٰ الحاكم في تاريخه بإسناده عن أبي قدامة عن النضر بن شُميلٍ قال: سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي عن مسألةٍ يومًا فأبطأ بالجواب فيها فقلت: ما في هذه المسألة كل هذا النظر! قال: فرغت من المسألة وجوابها، ولكني أريد أن أجيبك جوابًا يكون أسرع إلىٰ فهمك. قال أبو قدامة: فحدثت به أبا عبيدٍ فسُرَّ به[1].

الشرط الثالث: أن يكون عارفًا بما يلزم عنه:

المسألةُ من العلم قد يكونُ لها لازمٌ، وربما عاد علىٰ الأصل بالتناقض أو البطلان، وعندئذٍ إذا لم ينتبه المتفقهُ لذلك فسيقع في الاضطراب، ومن هنا لزم التأمل والتدقيق سعيًا لضبط المسائل علىٰ أصولٍ واحدةٍ؛ للسلامةِ من التناقض والاضطراب.

الشرط الرابع: أن يدفع الشُّبَهَ الواردةَ عليه فيه:

وهذه الشُّبَهُ علىٰ ثلاثة أنحاء:

١- إما أن تستهدف العلم كله، سواء كان ذلك سائغًا؛ كالاعتراض علىٰ دراسة علم المنطق بأنَّ هذا العلم لا كبير فائدة منه أو أنه لا يجوز، أو غير سائغ؛ كإنكار السُّنَّةِ والإجماع.

٢- وإما أن تُصَوَّبَ نحو شيءٍ فيه؛ كالاعتراض علىٰ سياسةِ الإعرابِ عند النحاة؛ كإعراب «زيد» من قولهم: «مات زيد» فاعلًا مع أنَّ الموتَ وقع عليه، فهو مفعولٌ به من جهة المعنىٰ لا فاعلٌ له.

٣- وإما أن تتوجه إلىٰ آحاد المسائل؛ كالاعتراض الشائع علىٰ معتمدات كلِّ مذهب، فإذا أفتىٰ مذهبٌ بقولٍ في مسألةٍ فلا بد أن يكون عنده جوابٌ عن

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٤٤).

الاعتراضات التي توجه إليه من المذاهب الأخرى.

وهذه الاعتراضات قد تكثر حتىٰ تُشَكِّل توجهًا متميزًا داخل جدار العلم الكلي؛ فمثلًا كثرت كتب الشبهات والردود في العلوم المتفرعة عن علم العقيدة؛ لكثرة الشبه التي يبثها المبطلون، وقد يحصل هذا في الدائرة السائغة؛ كإفراد المناقشات في المسائل الفقهية الاجتهادية بين أهل العلم بعلم الخلاف الملقب بالفقه المقارن.

وأشار الشيخ فيصل المنصور لهذا الشرط والذي قبله فقال: «ليس العالمُ هو الغزير الحفظ أو التصنيف؛ ولكن العالم هو الذي يعلم ما يخرج من رأسه، فيعرف دليله وعلَّته ولوازمه والاعتراضات عليه والجواب عنها، قال سعدون: قلت للكسائي: الفراء أعلم أم الأحمر؟ فقال: الأحمر أكثر حفظًا، والفراء أحسن عقلًا، وأنفذ فكرًا، وأعلم بما يخرج من رأسه».

والإدراك الحسن من المتفقه لهذه الشُّروطِ قد يغير مسار رحلته في الطلب؛ لكنه يأخذ به إلىٰ سبيل الإحاطة بالعلم والرسوخ فيه.

علىٰ أنَّ سلوكَ هذا المسلك شاقٌ في البدايات ماتعٌ في النهايات، وإذا يسَّره الله للعبد دقَّ نظره في العلم، وصار يقرأ قليلًا ويُحصِّل كثيرًا، وصدق من قال: «**الفضائل مرة الأوائل حلوة العواقب، والرذائل حلوة الأوائل مرة العواقب**»[1].

إذا عرفت هذه الشروط والكلام عليها؛ فاعلم أنَّ مما يعين علىٰ ضبط العلم معرفةَ الخارطة العلمية لكل علم، إجمالًا وتفصيلًا.

أما إجمالًا فيعرف خارطةَ كلِّ علمٍ وما تفرع عنه؛ كأن يعرف أنَّ عِدَّةَ علوم الفقه ثلاثة عشر علمًا، وربما زادت عن ذلك، وأن يعرف خارطة دراسة كل باب؛ فلو جاء يدرس كتابَ الحجِّ فينبغي أن يتنبه أنَّ الخارطة العامة له ينتظم فيها ثلاثة

(١) أدب الطلب للشوكاني ص (١٣٣).

أشياء: الكيفية، والأحكام الفقهية والمقاصد والأسرار الشرعية، ومعرفة هذا يعصم الطالب من سلوك مسلكٍ من العلم ثم الذهول عما سواه، لا سيما إذا توزعت العناية بأجزاء العلم الواحد بين عدة علوم.

وأما تفصيلًا فيعرف خارطةَ رؤوسِ المسائل في كل علم، بحيث ينظر إليها جملةً واحدةً في ورقةٍ واحدةٍ كما ينظر إلىٰ خريطةِ مدينة ما، فيحيط بهيكليتها ومداخلها، فلو قصد هذه المدينة ونزل في إحدىٰ طرقاتها لعرف موضعه منها لإحاطته بأصلها، فلا يضل.

وهذا المنهج من أهم الإجراءات التي يُضبطُ بها أيُّ علمٍ، ومتىٰ غاب تشوشت الرؤية، وربما ظنَّ الطالب العلم صعبًا وهو يسيرٌ سهل.

فمثلًا يستصعب الطلابُ عادةً علم النحو، ولو أنَّ الطالب عاين خريطة رؤوس مسائله وتأملها ودرسها علىٰ شيخ لاكتشف أنَّ ظنَّ العسرِ إنما كان من قبيل التوهم النفسي، وأنَّ النحو علمٌ قريبٌ لو أحسن الإنسان دراسته.

ودونك شجرةَ النحو إعانةً علىٰ إدراك هذه الفكرة.

يتركب علم النحو علىٰ الاسم والفعل والحرف، ولا تخرج مباحثه عن ذلك، فصار عندنا ثلاثة محاور لدراسة النحو، بالإضافة للمقدمات المتعلقة بذلك؛ كدراسة معنىٰ الكلام وأقسامه وعلاماته، ودونك معالمَ الخريطةِ كما رسم جلَّها الدكتور محمد العَمري وفقه الله:

أولًا: الحرف:

الحروف قسمان: حروف معانٍ عاملة، وحروف معانٍ غير عاملة.

فأما العاملة فإما أن تعمل في الأسماء أو في الأفعال، وعملها في الأسماء إما أن يكون عملًا واحدًا؛ وهو الجر، أو اثنين؛ وهو عمل الحروف الناسخة، وعملها

في الأفعال إما أن يكون النصبَ أو الجزم.

وأما غير العاملة فهي الحروف التي لها وظيفةٌ في أداء المعاني من غير أن يكون لها عملٌ إعرابيٌّ خاصٌّ بها؛ كحروف العطف والتوكيد والنداء.

وإعراب الحروف عامَّةً واحدٌ، فمتىٰ رأيت حرفًا منها قلت: حرف كذا مبني، لا محل له من الإعراب، وبهذا تنتهي من عائلة الحروف في النحو كله، ولا حاجة لتقسيم دراستها علىٰ ثمانية مستوياتٍ مدرسية.

ثانيًا: الفعل:

الفعل قسمان: مبني ومعرب، والأفعال ثلاثة: ماضٍ ومضارعٌ وأمر.

أما إعرابها فإنَّ الفعلَ الماضي مبنيٌّ كله، والأمر مبنيٌّ عند أهل البصرة، والمضارع مبني إذا اتصل به نون التوكيد أو نون النسوة، وما سوىٰ ذلك فإنه معرب إما بالرفع أو النصب أو الجزم، ولكلٍّ من النصب والجزم أدواته الخاصة به، ومتىٰ تجرد الفعل عنها فإنَّه مرفوع، وبهذا ننتهي من عائلة الأفعال كلها.

ثالثًا: الاسم:

الاسم قسمان: مبنيٌّ ومعرب، والمبني يلزم حالةً واحدةً بحسبه، والمعرب إما بالرفع أو النصب أو الجر.

فأما المرفوعات فإن مردها في النحو كله إلىٰ ستة: الفاعل ونائبه في الجملة الفعلية، والمبتدأ وخبره في الجملة الاسمية، واسم كان وخبر إنَّ في الجملة المنسوخة، وما عمل عملهما مثل اسم الحروف العاملة عمل ليس وخبر لا النافية للجنس.

وأما المجرورات فاثنان: الاسم المجرور بأحد حروف الجر، والمضاف إليه.

وأما المنصوبات فهي قسمان:

الأول: عائلة المفاعيل، ويجمعها قولك: «قرأ محمدٌ والمصباحَ الكتاب الليلة فوق سطح البيت قراءةً عميقةً استعدادًا للامتحان»، فـ «المصباح» مفعولٌ معه، و«الكتاب» مفعول به، والليلة ظرف زمان، وفوق ظرف مكان، وكلاهما مفعولٌ فيه، و «قراءةً» مفعول مطلق، و «استعدادًا» مفعول لأجله.

ولو تأملت المفاعيل لوجدت أنها تدور حول الحدث، كلٌّ منها يتولىٰ النظر إلىٰ جانبٍ منه، وعندئذٍ فإن من فهم ذلك فلن يعرب المفعول به صفةً، أو المفعول لأجله ظرفًا؛ لتصادمه مع فكرة المفاعيل.

والآخر: بقية المنصوبات، وهي الحال والتمييز والمستثنىٰ والمنادىٰ، واسم إنَّ وخبر كان وما يعمل عملهما مثل اسم لا النافية للجنس وخبر الحروف العاملة عمل ليس.

علىٰ أنَّ المستثنىٰ والمنادىٰ مفعولان من جهة المعنىٰ؛ فإنَّ المستثنىٰ مفعولٌ دونه، فإذا قلت: جاء القوم إلا زيدًا.. فكأنك قلت: جاء القوم أستثني زيدًا.

وإذا قلت: يا عبدَ الله.. فإن المنادىٰ مفعولٌ به من جهة المعنىٰ، كأنك تقول: أنادي عبدَ الله.

واعلم أنَّ لهذه المرفوعات والمنصوبات والمجرورات توابع لها في الإعراب، وهي أربعة أشياء: النعت والعطف والتوكيد والبدل، وهي تابعةٌ في الإعراب وليست مستقلة.

إذن.. هذا هو النحو كله، وقبل أن يشرع الطالب في دراسة مباحثه التفصيلية فمن الفقه أن يدرس هذا المخطط في ساعةٍ أو اثنتين أو ثلاث، فإذا التقط الأبواب جملةً، وفهم سياسة الإعراب عامةً تيسر له الدخول في التفصيل، وعندئذٍ يُفتح له في وقتٍ يسير.

وإذا جاء يدرس علم أصول الفقه وجد أن عامة مباحثه تعود إلىٰ أربعة أركان: الحكم الشرعي والأدلة والدلالات والاجتهاد، فيقوم بدراسة تمام الخارطة[1] ويحكمها، ومن ثم يدخل في تفاصيل العلم، وإن لم يفعل ذلك فقد يتيه إذا انطلق يمشي فيه من غير بصيرة، وقد لا يدرك وظيفة العلم نفسه.

وهذه المنهجية في ضبط العلم يمكن ضمُّها لمادة الشرط الأول؛ لأنها ترتيبٌ لرؤوسِ المسائل، وهي مندرجةٌ في معرفة أصول العلم التي أشار إليها الإمام الشاطبي، ويمكن عدُّها من مقتضيات الشرط الثاني؛ لأنَّ حسن الترتيب والتبويب والتلخيص ينتظم في حسن العبارة عن العلم، وتقديمه في أجلىٰ صورةٍ في أذن السَّامع.

ومن فوائد ضبط خارطة أيِّ علمٍ قبل البدء فيه أنك متىٰ سمعت مسألةً منه جعلتها في موضعها الخاص بها فلا تضيع؛ لأنَّ المسائلَ الأصولَ كالأوعية، وكل وعاء يؤوي مادته الخاصة به.

وهذه المنهجية التي يمكن تلقيبها بـ «الأوعية العلمية» يمكن الاستفادة منها في تنمية مادة الأفكار والمفاهيم، وحفظها من آفات الضياع والنسيان.

ولك أن تتصور ذلك ببيتٍ من خمسةِ طوابق، وكل طابقٍ فيه أربع غُرَف، ولم يُبْنَ منه إلا الأعمدة والأسقف، فيراه الناظر كأنه هيكلٌ عظمي، لكنك تقدر أن تتمم بناء الطابق الذي تريد، بل لو أردت العنايةَ بغرفةٍ معينةٍ من طابقٍ معين.. لسهل عليك ذلك.

وكذلك الحال هنا؛ فإنك تتعامل مع كلِّ فكرةٍ أو مفهومٍ كغرفة، ومن ثَمَّ فأي معلومة تتلقاها فإنَّ عقلك يصنِّفُها تلقائيًّا في وعائها المناسب.

---

(١) المقام لا يتسع لبسطها، فقد حصل التمثيل بعلم النحو بإيجاز، ولعلي أعرض خارطة الأصول مبسوطةً وافية في محاضرةٍ تُنشر، والله الموفق لكل خير.

فلو اتخذت مفهومًا يدور حول بناء النبي ﷺ للنظام السياسي بالمدينة، أو قراءته ﷺ لعقول أعدائه وفعل التصرف المناسب لذلك، أو مراعاته لمشاعر أصحابه.. لكان كلما سمعت درسًا أو قرأت كتابًا فإنك ترسل متعلقات ذلك المفهوم إلىٰ وعائه المختص به.

ومن أَلِفَ عقلُه هذا المنهج فلا يكاد ينسىٰ معلومةً؛ لأنها تنتظم في عِقدها الخاص بها، ويتم توظيفها لتؤدي رسالتها بانضمامها إلىٰ أخواتها، فقد تكون شرطًا لمسألةٍ أو قيدًا لها، أو مثالًا عليها، أو شاهدًا لها، وما أشبه ذلك.

ومن مكاسب إعمال هذه الأوعية أنَّ العقلَ لا يُرهق من طول الأوراد العلمية؛ لأنَّ ما تتلقاه مقروءًا أو مسموعًا أو مرئيًّا يدخل فورًا في خزانة الأفكار الخاصة به.

ومتىٰ احتاج المتفقه إلىٰ رزمةِ معلوماتٍ في موضوعٍ محددٍ لمصلحة إلقاء محاضرةٍ أو خطبةٍ أو تأليف.. فإنه يفتح الوعاء المطلوب، ويأخذ الكنوز المدخرة فيه، وحتىٰ لو فاته شاهدٌ منه أو أكثر فإنه يغتني بغيره؛ لأنَّ العلمَ نشأ في عقله مفاهيمَ وتصوراتٍ لا فروعًا وجزئيات.

وهذه المنهجية تعين المتفقه علىٰ التأصيل والتقعيد، فتصبح كل معلومةٍ خاضعةً لوعائها، وعندئذٍ ينتفع من العلم ولو كان قليلًا لحسن ترتيبه وتبويبه ما لا ينتفع كثير العلم منه إذا خلا عن ذلك، شأنَ من شرع يبني بيتًا وعنده ألف لَبِنَةٍ وضعها في مواضعها، فإنه ينتفع بها أكثر من رجلٍ يمتلك أضعافها لكنها ملقاة أمام البيت كومةً واحدة.





المطلب الرابع
إدمان النظر في عُمدةِ الكتب

تقدم أنَّ المنهجَ الأعدل في الطلب أن يتخذ المتفقه كتبًا محوريةً في كلِّ علم، تُمَثِّلُ عمدةَ المعراج العلمي فيه، ويدمن فيها النظر كرةً بعد كرة لتحصيل الضبط، ويتعامل مع كتب الفن الأخرىٰ بما تحتاجه من قراءةٍ جرديةٍ أو تصويريةٍ أو استكشافية أو انتقائية.

ونبه الشيخ فيصل المنصور وفقه الله علىٰ ذلك فقال: «أسهل طريقة تستطيع أن تضبط بها علمًا من العلوم هي أن تختار كتابًا مناسبًا من كتبه، وتختمه مرارًا علىٰ أوقات متفرِّقة حتىٰ تستظهر أكثره».

وهنا تنظيرٌ لإدمان النظر في الكتب المحورية في كل علم، والتي سينبت عليها لحمه العلمي، ولهذا لا ينبغي أن تزيد عن ثلاثة كتب: كتابٍ مبتدئ وثانٍ متوسط وثالث مبسوط، ولو حصلت الغنية بواحدٍ مختصر وآخر مُطَوَّل لكان أحسن.

ومعيار الكتاب الذي يُتَّخذُ أصلًا مرجعيًّا لضبط مسائل العلم ودلائله أن يحتويَ علىٰ مجامع ذلك العلم ومبانيه، ومن ثم يجعله مدار عنايته ودراسته، ويقيد علىٰ حواشيه ما ظفر به من الفوائد من كتابٍ أو درسٍ أو مذاكرةٍ أو غيرها من نوافذ التحصيل[1].

(١) ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (١٣٤).



وقبل الكشف عن ثمرات هذا المنهج الفذ فإني أتجول بأخي القارئ في زوايا القرون السالفة لنعاين عن قرب شيوع هذا المنهج في أوساط الأئمة المتقدمين؛ ليكون ذلك أوثق في صدرك من مطلق التنظير، مع أنَّ الشواهد علىٰ هذا المنهج بلغت حدًّا يتمرد علىٰ الحصر، إلا أن إثبات طرفٍ منها نافعٌ مفيد.

صفحاتٌ من حياةِ الأئمة:

ذكر أهل التراجم أنَّ سليمانَ بن إبراهيم التعزي مرَّ علىٰ صحيح البخاري مائة وخمسين مرةً ما بين قراءةٍ وسماعٍ وإسماعٍ ومقابلة، وحصَّل من شروحه كثيرًا، وكان محدث أهل بلده[١].

وجاء في ترجمة أبي بكر الأبهري المالكي أنه كان يحفظ أقوالَ الفقهاءِ حفظًا مشبعًا، وأنه قال: قرأت مختصر ابن الحكم خمسمائة مرة، والأسدية خمسًا وسبعين مرة، ومختصر البرني سبعين مرة، والموطأ خمسًا وأربعين مرة!.

وثمرة ذلك ظاهرةٌ في إجماع أهل العلم علىٰ إمامته؛ فإنه كان المُعَظَّمَ عند علماء سائر وقته، لا يشهد محضرًا إلا كان هو المقدَّم فيه، حتىٰ كان أصحابُ أبي حنيفة والشافعيّ إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم يأتون إليه يسألونه، ويرجعون إلىٰ قوله..

وقد شاع في الناس أنه لم يعط أحدٌ من أهل العلم والرئاسة فيه ما أعطي الأبهريُّ في عصره من الموافقين والمخالفين[٢].

وعلىٰ سعة اطلاع الإمام النووي علىٰ مصنفات المذهب الشافعي إلا أنَّ عنايتَهُ بمتن التنبيه للشيرازي وكتاب الوسيط للغزالي كانت أكمل؛ فالذي يظهر

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ لابن حجر (٧/ ٤٧٤).

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/ ٤٢٧).

أنه جعلهما أَصْلَي الضبط المرجعي عنده؛ فإنه حفظ التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وصنَّف كتابًا في تصحيحه، وآخر في لغاته، وكتب عليه نكتًا، وشرع في شرحه كما شرع في اختصاره[١].

وأما الوسيط للغزالي فإنه نوزع مرةً في نقلٍ عنه فقال: تنازعوني في الوسيط وقد طالعته أربعمائة مرة![٢].

وأغلب جهود الإمام الرافعي كانت على وجيز الغزالي.

وألقىٰ ابن العجمي الشافعي كتاب المهذب للشيرازي دروسًا خمسًا وعشرين مرة[٣]، مع أنَّ الكتابَ ليس متنًا صغيرًا؛ فقد طبعته دار القلم بتحقيق شيخنا الدكتور محمد الزحيلي وتعليقه في ستة مجلدات.

ولما تكلم ابن السبكي عن أبيه أفاض في ترجمته ومما قال: وأما استحضار نصوص الشافعي وأقواله فكان يكاد يحفظ الأم ومختصر المزني، وأما استحضاره لكتاب سيبويه وكتاب المقرب لابن عصفور فكان عجيبًا، وكنت أقرأ عليه المحصول للإمام فخر الدين والأربعين في الكلام له والمحصل، فكنت أرىٰ أنه يحفظ الثلاثة عن ظهر قلب، وأما المهذب والوسيط فكان في الغالب ينقل عبارتهما بالفاء والواو، وأما شرح الرافعي الذي هو كتابنا ونحن ندأب فيه ليلًا ونهارًا فلو قلت كيف كان يستحضره لاتهمني من يسمعني، وكان يقال: إنه يستحضر الكتب الستة.. إلخ[٤].

وظاهرٌ من حروف هذه الترجمة الساطعة أنَّ الإمامَ السبكي كان يتخذ كتبًا

---

(١) ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (١٠٤).

(٢) المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي للسخاوي ص (٢٧).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٣/ ١١٥).

(٤) طبقات الشافعية الكبرىٰ لتاج الدين السبكي (١٠/ ١٩٨-٢٠٠) بتصرف.



في كل فنٍّ يدمن فيها النظر، حتىٰ علا في سماء الضبط ما رأيت في وصفه.

وابن السبكي نفسه يقول أثناء ذلك عن شرح الرَّافعي: هو كتابنا، ونحن ندأب فيه ليلًا ونهارًا، مما تجزم معه أن ثقافة إدمان النظر في كتبٍ بعينها هي المستفيضة من حال سلفنا الصالح من أئمة الفهم والضبط والتحقيق، ولهذا كان ينبغ الرجل فيهم سريعًا.

وورد في ترجمة عبد الله بن محمد الزريراتي البغدادي فقيه العراق ومفتي الآفاق أنه طالع المغني للموفق ابن قدامة ثلاثًا وعشرين مرة، وكان يستحضر أكثره، وعلّق عليه حواشيَ وفوائد[1].

وكان أبو الفداء إسماعيل بن محمد الحراني شيخ المذهب الحنبلي في زمانه علىٰ خبرةٍ تامةٍ بالمذهب، وكان يكتب بخطه المغني والكافي، ويقال: إنه أقرأ المقنع مائة مرة!.

لكنَّ هذا الجهد المدهش لم تأت به جهود متفرقة مبعثرة في فضول الأوقات لديه؛ بل دفع ثمنها من عرقه ووقته؛ فقد ذكروا في ترجمته أنَّ أوقاته كانت محفوظة، وليس له كلامٌ في غير العلم[2].

وذكر ابن كثير في ترجمة الشيخة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح البغدادية أنها كانت من العالمات الفاضلات، وكانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وكان يثني عليها ويصفها بالفضيلة والعلم، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيرًا من المغني لابن قدامة أو أكثره، وأنَّه كان يستعدُّ لها من كثرة مسائلها، وحسن سؤالاتها، وسرعة فهمها[3].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ص (٣٤٧).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ص (٣٤٦-٣٤٧).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٨٢).

بل بلغ الحال ببعض العلماء أن يُنسب إلىٰ كتابٍ بعينه لفرط عنايته به، كما نُسِب أبو عبد الله محمد بن سليمان الرومي الحنفي لكتاب الكافية في النحو لابن الحاجب، فصار يُعرف بالكافيجي[(١)].

وجعل الشيخ أحمد الحملاوي صاحب «شذا العرف في فن الصرف» أساس دراساته النحوية والصرفية علىٰ كتاب «أوضح المسالك» لابن هشام، وكان معجبًا به، ومنه التقط أغلىٰ درره التي ألف منها كتابه «شذا العرف»، مع ما أضاف إليه من مفصل الزمخشري وشافية ابن الحاجب وغير ذلك.

وقرأ الشيخ حماد الأنصاري فتح الباري عشرين مرة، وقرأ ابن باز شرح صحيح الإمام مسلم ثلاثين مرة، وقرأ الشيخ أحمد حطيبة كتاب المغني ثماني مرات.

وهذه والله أكثر العادات نهضة في حياة أصحابها.

ثمرات إدمان النظر في عمدة الكتب:

لا تحسبن تَكرار القراءة للكتاب الجيد يهدف إلىٰ استظهار مسائله ودلائله فحسب؛ بل هذه حسنةٌ قريبةُ المنال، ويمكن أن تتحقق بتكرار الكتاب بضع مرات؛ وإنما الغاية الكبيرة الفوزُ بإحكامِ العلم، وعمقِ الفهم، ودقة النظر، وجودة الاستنباط، وتكوين الملكة، وبناء العقل، وتحصيل المفاهيم، واكتشاف آلية صناعة المعرفة ليتيسر صناعةُ مثلها عند الحاجة.

وذلك أنَّ القارئَ للكتاب أول مرة يُرَكِّزُ علىٰ أصلِ المعنىٰ، فإذا أعاده أدرك المعنىٰ ومعنىٰ المعنىٰ، ويبقىٰ هكذا كلما أعاده أدرك شيئًا جديدًا من نحو معرفةِ لوازمِ المسائل، والأصل الذي بُنِيَت عليه، وتحقيق القول فيها، والوقوف علىٰ

(١) معجم المؤلفين لعمر كحالة (١٠/ ٥١).

أسرار هذا القول وحكمته ومقصده، والجواب عن الاعتراضات عليه، ويستديم ذلك حتىٰ يبلغ الغاية في الضَّبطِ والتحقيق.

واعلم أنَّك كلما زدت علمًا وعقلًا كلما زادك الكتاب فوائدَ وثمرًا؛ فغيثه ينهمر عليك بحسب الموضع الذي أنت فيه من العلم، وهذا يحمل علىٰ قراءة الكتاب مرةً بعد مرة؛ لأنَّ فارقَ العلم والفهم الذي تلقيته بين القراءتين كفيلٌ بأن يُثوِّرَ نصوص الكتاب الذي تقرؤه؛ لتتسع طاقة كلماته بحسب السعة التي صرت عليها.

والمقصود أنَّ إدمان النظر في الكتاب عبارةٌ عن عملية بناء عقلي ما ينبغي أن تفوت، ويا ليت شعري كم يضيع طلبة العلم فرصة بناء عقولهم سعيًا في حظوظ أنفسهم التي تشتهي عدَّ أكبر قدرٍ من الكتب التي تُنجز خلال العام، مع أنَّ هذا الحظ يحتفظ بموقعه في خطتنا في القراءتين الجردية والتصويرية.

ومن المآثر الفاخرة التي تنصر المفهوم الذي نُنَظِّر إليه:

ما أُثِرَ عن يونس بن عبد الأعلىٰ أنه قال: سمعت الشافعي يقول: ما نظرتُ في موطأ مالك إلا ازددت فهمًا[(١)].

وقال المزني: أنا أنظر في كتاب الرِّسالةِ منذ خمسين سنة، ما أعلم أني نظرتُ فيه مرةً إلا وأنا أستفيد شيئًا لم أكن عرفته[(٢)].

وقال المازني: ما أخلو في كلِّ زمنٍ من أعجوبةٍ في كتاب سيبويه، ولهذا سماه الناس قرآن النحو، ومن أراد أن يعمل كتابًا كبيرًا في النحو بعده فليستحِ مما أقدم عليه![(٣)].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩/ ٧٠).
(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ لتاج الدين السبكي (٢/ ٩٩).
(٣) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي (١/ ٣٥٨).

ويقول الشيخ أحمد سالم: قابلت طالبًا أزهريًّا يدرس في الصف الثالث في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، ودار بيننا حديثٌ حول النحو، فوجدته متقنًا جدًّا يسيل النحو منه تنظيرًا وتطبيقًا.

وسألته نفس الأسئلة التي تنهال علينا عن الكتب والمنهج المقترح إلىٰ آخره، وأريته مكتبتي في النحو، وكانت كبيرة، فقال: إنه منذ عرف شرح ابن عقيل في الثانوية الأزهرية وهو لا يعرف غيره، ولا يملك في بيته من كتب النحو إلا نسخة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد من هذا الكتاب، لكنه قرأه كاملًا أكثر من مائة مرة!.

فالناس أحوج إلىٰ الصبر علىٰ القليل وإتقانه من حاجتهم إلىٰ تفريق الهم والعزم، ولست أحب لوم من يستكثر من الكتب؛ فإنَّ جمعها خيرٌ لا يعدم فائدته، ولكني أتكلم عن خطر هذا الجمع؛ إذ يتحول إلىٰ بديلٍ لتحصيل المعرفة الحقيقي، ويتحول إلىٰ نوعٍ من جمع الضرائر بلا عدلٍ بينها، ولا قيام بحقها، والسبيل في هذا ليس النهي عن الإسراف في الخير؛ وإنما النهي عن الجور علىٰ حقوق الغير. ا. هـ.

أخي طالب العلم:

هذا هو الطريق، فلا تنحرف عنه أو تتشتت، وإنَّه بقدر اتصال الطالب بالعلم وارتباطه بمصادره تدنو منه مسائله، وتتهادىٰ إليه حقائقه، ويكون حضورها في ذهنه أبقىٰ؛ لمواظبته عليها، وارتياضه بها، والشأن كما قال الجاحظ: إنما فرق بين أصحاب الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها والمواظبة عليها[1].

---

(١) ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (٥٢)، رسائل الجاحظ (٢/ ١٧٧).

وثمرة هذا المطلب بما قيده الشيخ زياد بن أسامة خياط: أن يتخذ المتفقه له كتابًا في كل فنٍّ أو مرحلةٍ منه يكون رفيقه الملازم، وسميره الدائم، تبصرًا وتفكرًا وتدبرًا، حتىٰ يستظهر معانيه، ويحيط بمقاصده ومراميه، وكلما اختتمه افتتحه، فهو معه كالحال المرتحل، ويضم إليه ما يلفيه من الزيادات المستجادات في بطون الأمهات؛ فإنَّ مقارنة المصادر ينبوع التحقيق[1].

وبلغني عن الشيخ العلامة فتحي الدريني رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان كلما انتهىٰ من قراءة كتاب الموافقات للإمام الشاطبي يشرع فيه من جديد.

وهذه هي وصية الشيخ خيار الناس الشنقيطي لي لمَّا استوصيته كما مرَّ.

وهي الوصية التي سمعتها من وفدٍ كريم من أهل العلم من لبنان زارنا في غزة في حدود عام ٢٠١٢، فقد عُقِد مجلسٌ علميٌّ بخان يونس وكان لكلٍّ واحدٍ منهم كلمة، وممن تكلَّم يومها الشيخ مالك جُديدَة وفقه الله، فإنه وصىٰ بذلك، وبالغ في الحثِّ عليه، حتىٰ قال: لا بأس أن يُعرف طالبُ العلم بكتابٍ يُدمِنُ النَّظَرَ فيه، وأحسبه ذكر أنه شرح كتاب الهداية في المذهب الحنفي خمس عشرة مرة، وشرع الآن في مرةٍ جديدة، والكتاب يقع في ست مجلدات!.

ولئن استجاب المتفقهُ لوصية علمائنا الكرماء.. ليجدن الكتاب الذي أقبل عليه استحال كبئر، كلما تعمق فيها.. زاد ماؤها، وعمَّت بركاتها، لا يُنزف غَمرُها، ولا ينقطع خيرها، والله ذو الفضل العظيم.



---

(١) من خاطرة كتبها ونشرها.

المطلب الخامس

مذاكرة العلم

ما رأيت شيئًا من معارج الطَّلبِ محلَّ عنايةِ المتقدمين وإهمال المتأخرين مثل المذاكرة؛ فإنك تجد قُرَّاءً وحفظةً، لكن عزيزٌ أن تجد مجالس مذاكرة.

ويتولىٰ هذا المطلب التنظيرَ لهذا اللون من التفقه، وذلك في ثلاثةِ أفرع: الأول لحقيقة المذاكرة وما يلزم لها، والثاني لمنافعها، والثالث لعناية السلف بها، ودونك بيانَ ذلك:

الفرع الأول: حقيقة المذاكرة وما يلزم لها:

تحصل المذاكرة بصورٍ شتىٰ منها: أن يجلس اثنان أو أكثر من المشتغلين بالعلم يذكر بعضهم لبعضٍ ما وعوه من مسائل العلم، ويتناقشون فيه.

أو بأن يلقي الأولُ مسألةً ثم يجيب الآخر، وقد يكون هذا علىٰ سبيل الاختبار، أو علىٰ سبيل تقليب النظر فيها لمعرفة القول فيها، ويتبادلون الاعتراضات والجواب عنها حتىٰ تنضج تحريرًا وتحقيقًا.

أو بأن تكون دراسةً لكتاب؛ بأن يُقرأ نصًّا أو تُلخص معانيه، ويوقف علىٰ ما يحتاج إلىٰ بحثٍ ومناقشة وحلٍّ لمُشكِل.

والشَّرط الوحيد في الجليس المواطأةُ في أصل الملكة لا في كمية العلم.

وإنما تُثمر المذاكرةُ حق الثمرة إذا كان المتذاكرُ قد وعىٰ المسائل وصار يتكلم ويناقش عن ظهرِ قلب، فإن شق ذلك فلا أقلَّ من فهمها، ومعرفة مظان

البحث عنها، وكذلك إذا كانت المذاكرةُ تتمةً للجلوس على الأشياخ أو الاستماع لهم، وليست استقلالًا في التحصيل.

وهذا النوع من التفقه يلزم فيه حسن الخُلُق وسعة الصدر؛ لأنَّ الأفهامَ تتعدد، والإنسان جُبِل على حب الثناءِ والموافقة، ولهذا قد يتعامل مع القول المخالف أنه اتهامٌ لرأيه وما يقرره، وقد سمعت شيخنا عبد الهادي الخَضِر السوداني وفقه الله يقول: خلافنا خلاف حُجَّةٍ لا خلاف قلوب، واستحضار هذا يعين على تخفيف حِدَّةِ الطَّبع، وتحصيل العدل والإنصاف.

وأشار الإمام النووي في سياق تحريضه على المذاكرة إلى هذا المعنى فقال: وليكن في مذاكراته متحريًا الإنصاف، قاصدًا الاستفادة أو الإفادة، غير مترفع على صاحبه بقلبه ولا بكلامه ولا بغير ذلك من حاله، مخاطبًا له بالعبارة الجميلة اللينة، فبهذا ينمو علمه وتزكو محفوظاته والله أعلم[(١)].

ومن ثمرات حلية الأدب أن تُشعر من أفادك علمًا أنك استفدت منه، فهذا يُلَيِّنُ قلبه لقبول الحق، وإمدادك بمزيدٍ من العلم والهدى.

ولو شعرت أن صاحبك جانب الصواب فإياك أن يتدحرج النقاش بك حتى تصل إلى الاتهامات الفاسدة والنعوت الآثمة، وقد نبه الشيخ عبد الحميد بن باديس على ذلك فقال ناصحًا: وينبغي إذا دارت المباحثة أن تكون في دائرة الموضوع، وفي حدود الأدب، وبروح الإنصاف، فخير أن تقيم الدليل على ضلال خصمك أو على غلطه أو جهله من أن تقول له: يا ضال أو يا جاهل؛ إذ بالأول تحجه فيعترف لك أو يكفيك اعتراف من يشهد ذلك، وبالثاني: تهيجه فيعاند ويضيع ما قد يكون معك من حق بما فاتك معه من أدب»[(٢)].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١/ ٤٨).
(٢) مجلة الشهاب (٤/ ٢٤٤).



الفرع الثاني: منافع المذاكرة:

من ألمع ثمرات المذاكرة هذه الخمس:

أ- إنها تكشف لك عن الثغرات في جدار فهمك للمسائل.

ب- وتبعدك عن التناول الإجمالي للمسائل من خلال دقة النظر إلىٰ سبب الخلاف بعد تحرير محله.

ت- وتدربك علىٰ مباحثة الأقوال ومناقشتها واستنباط الدلائل الدقيقة عليها وتقبل تعدد الأفهام فيها، وما يفتح لك ذلك من نافذةٍ تَطَّلِعُ منها علىٰ قوة القول الآخر الذي كنت تظنه يتهاوىٰ ضعفًا، ثم إذا به قويٌّ فَتِيّ، وربما آل ذلك إلىٰ تغيير بعض القناعات التي تَحمل بعد مرورها علىٰ فحص المذاكرة، وقد كانت من قبل ثابتةً في ظنِّه لا تقبل الشك.

ث- وتبني عقلك وتُكوِّن الملكة والذهنية العلمية عندك؛ إذ قوة المتفقه في عمق نظره أكثر مما هي في سعة اطلاعه، وتتجلىٰ هذه الثمرة إذا كان الذي تذاكره حاذقًا في الفن؛ فإنَّ صحبةَ الفحول تُفَحِّل.

وهذا ما صرَّح به الإمام النووي إذ قال: ويذاكر بمحفوظاته من ذلك من يشتغل بهذا الفنِّ سواء كان مثله في المرتبة أو فوقه أو تحته؛ فإن بالمذاكرة يثبت المحفوظ ويتحرر ويتأكد ويتقرر ويزداد بحسب كثرة المذاكرة، **ومذاكرةُ حاذقٍ في الفنِّ ساعةً أنفعُ من المطالعةِ والحفظِ ساعاتٍ بل أيامًا!**[1].

ج- وتضبط العلم وتحفظه، وإلا نُسي، وتتابعت وصايا السلف الواعظة بذلك، بدءًا من الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم.

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٤٧-٤٨).

فقد جاء عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «تَزَاوَرُوا وَتَذَاكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ؛ فَإِنَّكُم إن لم تَفْعَلُوا يَدْرُسْ عِلمُكُم»[١].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «تَذَاكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ لاَ يَنْفَلِتْ مِنْكُمْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِثْلَ الْقُرْآنِ مَجْمُوعٌ مَحْفُوظٌ، وَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَذَاكَرُوا هَذَا الْحَدِيثَ يَنْفَلِتْ مِنْكُمْ، وَلاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ حَدَّثْتُ أَمْسِ فَلاَ أُحَدِّثُ الْيَوْمَ؛ بَلْ حَدِّثْ أَمْسِ وَلْتُحَدِّثِ الْيَوْمَ وَلْتُحَدِّثْ غَدًا».

وقال: «رُدُّوا الْحَدِيثَ وَاسْتَذْكِرُوهُ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ تَذْكُرُوهُ ذَهَبَ، وَلاَ يَقُولَنَّ رَجُلٌ لِحَدِيثٍ قَدْ حَدَّثْتُهُ قَدْ حَدَّثْتُهُ مَرَّةً؛ فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ سَمِعَهُ يَزْدَادُ بِهِ عِلْمًا، وَيَسْمَعُ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ»[٢].

وقال الإمام الزهري: «إنما يذهب العلم النسيان وقلة المذاكرة»[٣]، وقال علقمة: «أَطِيلُوا ذِكْرَ الْحَدِيثِ لَا يَدْرُسُ»[٤].

والحاصل بقلم عبد الله بن المعتز: مَنْ أَكْثَرَ الْمُذَاكَرَةَ بِالْعِلْمِ.. لَمْ يَنْسَ مَا عَلِمَ، وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا لَـمْ يُـذَاكِرْ ذُو الْعُلُـومِ بِعِلْمِـهِ ... وَلَـمْ يَسْـتَفِدْ عِلْمًـا نَسِـيَ مَـا تَعَلَّمَـا

فَكَمْ جَامِعٍ لِلْكُتُبِ مِن كُلِّ مَذْهَبٍ ... يَزِيدُ مَعَ الأَيَّامِ فِي جَمْعِهِ عَمَى[٥]

ومن شواهد أفول العلم مع غياب سياج المذاكرة ما حدث لأبي القاسم بهاء الدين القفطي الشافعي فإنه قال: أعرف عشرين علمًا أُنسيت بعضها لعدم المذاكرة[٦].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٢٠١).

(٢) سنن الدارمي، رقم الأثرين: (٦٢٤،٦٢٥).

(٣) الكامل لابن عدي (١/ ٥٩).

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٠٢).

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٧٦)، آداب الدين والدنيا للماوردي ص (٢٥).

(٦) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (٨/ ٣٩٢)، بغية الوعاة للسيوطي (٢/ ٣٢٥).

الفرع الثالث: عناية السلف بالمذاكرة:

إمامة السلف في منافع المذاكرة المسطورة تجزئ عن تسجيل شواهد عنايتهم بها؛ فإنَّ طلب ذلك ترف، ومع ذلك فإني أذكر طرفًا من ذلك؛ إمعانًا في تحريض إخواني طلبة العلم علىٰ سلوك سبيل من سلف، والذي استفاض في سيرهم، وهو ظاهرٌ في أقوالهم وأفعالهم، ومن ذلك الأمثلة الثمانية التالية:

ما روىٰ ابن سعد في الطبقات عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قعدوا يتحدثون كان حديثهم الفقه، إلا أن يأمروا رجلًا فيقرأ عليهم سورةً، أو يقرأ رجلٌ سورةً من القرآن[1].

وروىٰ الدارمي عن محمد بن فُضَيل قال: كان الحارث بن يزيد العُكْلِي وابن شُبرمة والقعقاع بن يزيد ومغيرة إذا صلوا العشاء الآخرة جلسوا في الفقه، فلم يفرق بينهم إلا أذان الصبح[2].

وروىٰ عن أبي سعيد الخدري ﵁ أنه قال: تَذَاكَرُوا؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ يُهَيِّجُ الْحَدِيثَ[3].

وروىٰ الخلَّال عن ابن سيرين أنه قال: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَجْلِسُونَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ حِلَقًا يَتَذَاكَرُونَ الْحَدِيثَ وَيَتَرَاجَزُونَ الشِّعْرَ»[4].

وعقد الإمام الدارمي في سننه بابًا سمَّاه «باب مذاكرة العلم» أورد فيه جملةً وافرةً من الآثار منها:

---

(١) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد (٢/ ٣٧٤).

(٢) سنن الدارمي، رقم الأثر: (٦٣٥).

(٣) سنن الدارمي، رقم الأثر: (٦١٧).

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٠٢).

ما رواه بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ قَالَ: إِحْيَاءُ الْحَدِيثِ مُذَاكَرَتُهُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ شَدَّادٍ: يَرْحَمُكَ اللهُ! كَمْ مِنْ حَدِيثٍ أَحْيَيْتَهُ فِي صَدْرِي كَانَ قَدْ مَاتَ.

وعَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: تَذَاكَرُوا الْحَدِيثَ؛ فَإِنَّ ذِكْرَهُ حَيَاتُهُ.

وكان ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يوصي من يأخذ عنه بذلك يقول: «إِذَا سَمِعْتُمْ مِنَّا حَدِيثًا فَتَذَاكَرُوهُ بَيْنَكُمْ».

وقال: تَدَارُسُ الْعِلْمِ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ خَيْرٌ مِنْ إِحْيَائِهَا[(١)].

وقال وهب بن منبه: مَجْلِسٌ يُتَنَازَعُ فِيهِ الْعِلْمُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَدْرِهِ صَلَاةً[(٢)]، فلعل أحدًا يسمع كلمةً بها صلاحه ينتفع بها سنة أو ما بقي من عمره.

بل كان المنذر بن عبد الرحمن الأموي الأندلسي يلقب بالمذاكرة؛ لأنه كان إذا لقي رجلًا من إخوانه قال له: هل لك في مذاكرة باب من النحو؟ فتكرر ذلك منه فلُقِّب به![(٣)].

ومن أعظم الشواهد علىٰ فضل المذاكرة أنَّ المذهبَ الحنفيَّ في أصل نشأته نشأ نشأة جماعية، عبر المذاكرة وتداول الإمام أبي حنيفة القول في المسائل مع كبار تلامذته أيامًا وربما أسابيع، ثم دُوِّنت خلاصات تلك المجالس وكان المذهب الحنفي!.

وكان الإمام أحمد بن حنبل يحفل بالمذاكرة ويجعلها في صدر اهتماماته، ومن ذلك أنَّ أبا زرعة الرازي لما قدم إلىٰ بغداد اشتغل الإمام أحمد بمذاكرته،

---

(١) سنن الدارمي، رقم الآثار: (٦٣٤،٦٣١،٦٢٧،٦٢٦).
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٠٢).
(٣) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزأبادي ص (٧٨).

قال ابنه عبد الله: سمعت أبي يقول: ما صلَّيتُ غيرَ الفرض؛ استأثرتُ بمذاكرةِ أبي زرعة علىٰ نوافلي[١].

وبعد هذا القدر من التحريض علىٰ المذاكرة أقول:

لو أنَّ طلبةَ العلم آثروا مذاكرةَ المسائل المهمة في مجالس النقاش علىٰ تداول الفوائد والملح والفروع التي قُتلت بحثًا، وما لا يسمن ولا يغني من الجدل الفكري والسياسي.. لرجوت لهم الانتفاع العظيم من ذخائر المذاكرة، التي تعين المتفقهة علىٰ ضبط العلم وحفظه وتثويره، وترشدهم إلىٰ سبيل الرسوخ في العلم والإمامة في الدِّين.

أما من لم يجد من يذاكره فينبغي أن يبحث عنه ولو تعنىٰ، ولو عبر الوسائل الحديثة، فإن لم يجد – والظن بعيد – فإنه يُجَرِّد من نفسه رجلًا يحادثه ويذاكره، ويشرح له، ويحاول أن يورد عليه الاعتراضات ويجيب عنها، وليعوض ما فاته من ذلك بكثرة الاستماع لأهل الفن، ولو عبر التسجيلات الصوتية والمرئية، والله المستعان وحده.



(١) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح (٢/ ٧٠).

المطلب السادس
تأملُ العلم

من الوسائل العظيمة في تثبيت العلم وضبطه وحفظه طولُ التأملِ فيه؛ فقد تبدو المسألة أو القطعة من المتن متناثرةً، وإذا أعمل المتفقه عقله فيها وجدها تجتمعُ علىٰ نظمٍ واحد، وأنه يمكن ردها إلىٰ أفكارٍ متسلسلةٍ، وربما أمكنه أن يُقَسِّمَهَا تقسيمًا حاصرًا، وعندئذٍ عزَّ أن تتفلت منه.

وإذا صحَّ هذا في المسألة المتناثرة أو القطعة.. فإنه في الفصل كله أو الباب أصح، فمن أطال النظر فيه، وتأمله، وتمكن من تقسيمه تقسيمًا منضبطًا أو حاصرًا، أو رَدِّهِ إلىٰ سياسةٍ واحدةٍ.. فقد ملك ناصيته، وإذا أدركه علىٰ وجه الإجمال سهل عليه أن يضبط التفاصيل.

ويظهر أنَّ الإمامَ ابن دقيق العيد كان من أعلام هذه الطريقة؛ فإنه قال: «ما خرجتُ من بابٍ من أبوابِ الفقهِ واحتجتُ أن أعود إليه».

يالله ما أنفع هذه الكلمات وما أحسن أثرها!.

وما ذلك إلا لأنه كان لا يُغادر البابَ حتىٰ يرهقه تأملًا، والتأمل خزانة العلم؛ لأنه يوطئ للعلم مكانًا راسخًا في عقل المُحصِّل، وقلما ينسىٰ المرء مسألةً تأملها، وبقدر تأمله لها يزداد رسوخها وتشتد أواصرها[1].

وقد يحتاج إلىٰ التأمل في ذات المسألةِ الواحدة؛ وذلك أنه إذا لم يَحْسُنْ تصورها، ويكتمل فهمها لديه.. لم تثبت في صدره، فإذا تأملها، وفهم مدركها،

---

(١) ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (١٣٤).

وأعاد صياغتها بلسانه وتراكيبه.. فقلما تتفلت عند ذلك.

وربما احتاج إلىٰ تصورها حيةً في الواقع، وكم من مسألة لم يكتمل إدراكها حتىٰ إذا تمثلها المتفقه في ساحة التطبيق، وتخيل تفاصيلها وعاش الدور جيدًا.. تبدَّت له بوجهٍ جديد، وظهرت له تفاصيلُ دقيقةٌ ما خطرت له ببالٍ، ثم إذا عاد إلىٰ نصِّ المؤلفِ وقرأه دهش من دقة الألفاظ المستعملة فيه بما تحمله من قيودٍ ومحترزات، وأدرك ساعتئذٍ أن كُتُبَ الأئمةِ بُنِيت علىٰ الضَّبطِ والتحقيقِ والتحرير، وذلك من شأنه أن يُثَبِّتَ المسألةَ في صدره بأوتادٍ لا تقتلعها عواصف النسيان.

علىٰ أنَّ هذا اللون من الضبط قد يفتح عليه بابًا من الأسئلة المُشكِلَة التي تحتاج إلىٰ بحث؛ لأنه كلما تأمَّل المسائل تَشَقَّقَت له جزئياتٌ يحتاج إلىٰ جوابٍ عنها، ولا ينبغي أن يضجر من ذلك؛ بل هي نعمةٌ معجلَّة؛ فإنَّ كثرةَ الاستشكالات تعني أنَّ ذهنه قد بدأ يحفر له أخاديد في أرض التحقيق.

ولهذا لم يبالغ الإمام البغوي الشافعي حين قال: «**ليس الفقه إلا حل الإشكال**»[(١)]، وكذلك القرافي المالكي حين قال: «**وما لا أعرفه وعجزت قدرتي عنه فحظي منه معرفة إشكاله؛ فإنَّ معرفةَ الإشكالِ علمٌ في نفسه وفتحٌ من الله تعالىٰ**»![(٢)].

وبقي التنبيه أخيرًا أنَّ ثمرة التأمل لا تأتي مع التعجل؛ فإنه يحتاج إلىٰ وقتٍ وطولِ نَظَر، لكنَّ الفضلَ الواردَ منه طويلُ العمر ولو غلا في السِّعر، أما النظر السريع ففقده سريع، وقد أشار سعدي الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ هذا المعنىٰ فقال:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي (٧/ ١٨٠).

(٢) الفروق مع هوامشه للقرافي (١/ ٢٢١).

والقـول لـم تعمـل بـه التأمـلا كـالثوب مـن غيـر قيـاس فُصِّـلا
قليلـه مـن بعـد إعمـال الفكـر أفضـل مـن طـول الكـلام في الهـذر
لا تـرم آلاف السـهام خائبـا وارم إذا تعقـل سـهما صائبـا[١]



(١) الإبداع العلمي لأحمد القرني ص (٥٠).

المطلب السابع

تدريس العلم

لمَّا كنَّا في مقاعد الطلب الجامعي ومن قبله المَدرَسِي كان الواحدُ منا معشرَ الطلبةِ يكاد يُفتن من شدة ضبط بعض المدرسين للمادة التي يُدرِّس، بحيث لا يحتاج فيها إلىٰ تحضيرٍ ومطالعةٍ ولا نظرٍ في كتاب، وإذا سألت بعضهم عن ذلك قال: هذا حصادُ التدريس!.

وهذا المطلب يتولىٰ مهمة التنظير لهذه الوسيلة المحورية ودورها في ضبط العلم وحفظه وتثبيته، بما لا يتصادم مع التحذير المتكرر من التصدر قبل التأهل.

وقد تطرق الشيخ فيصل المنصور إلىٰ موقعها من أشهر طرق الضبط فقال: **«أفضل الطُّرُق لإتقانِ علمٍ ما أو مسألةٍ ما هي علىٰ الترتيب: التأليف فيه، وتدريسه، وتلخيصه»**.

والتلخيص شأنه ظاهر، أما التأليف فسيأتي في موضعه من الفصل القادم إن شاء الله.

ومفاد هذه الوسيلة أنك **إذا أردت أن تضبط علمًا فَدَرِّسْهُ**؛ لأنَّ هذا يفرض عليك ضبطَ خارطةِ العلم، وحسن التصور للمسائل والأبواب، وجودة العبارة عن العلم، وبراعة التقسيم للمادة، وسد الثغرات المُشكِلة، وحفظ ما يلزم حفظه، والإلمام بمتعلقات المسائل في الواقع.

ومن حاز هذه المغانم قل أن تتفلت المسائل من صدره، ولهذا رُوي عن

الخليل بن أحمد أنه قال: إن لم تعلم الناس ثوابًا فعلمهم لتدرس بتعليمهم علمك، ولا تجزع من تفريع السؤال؛ فإنه ينبهك على علم ما لم تعلم[١].

ولهذا ما زلت أقول لمن أدرِّسهم من إخواني: أرتفع بكم وترتفعون بي، وسمعت شيخنا د. يونس الأسطل وفقه الله يقول مرةً: كلانا يستفيد من أخيه، والشيخ وإن قالها من باب التواضع إلا أننا نقولها بحسب الواقع.

ومن اللطائف أنَّ أحد الإخوة كان يتهيب التدريس تلبيةً للتحذيرات المتكررة من التصدر المبكر، فلما فُرِض عليه التدريس، ورأى بركاته عليه صار يبحث عمن يدرسه، ويقول: **لا أعدل بهذا السبيل في الضبط والفهم سبيلًا غيره.**

وأحسب أنَّ الله تعالى جعلَ صلاحَ هذه الأمة بالعلم، وأنَّ كلَّ جيلٍ لا بد وأن يُوَرِّث لمن بعده ما ورثه عمن قبله من العلم، وشاء الله بحكمته وعدله وفضله أن يُحَمِّلَ النَّاسُ على هذا بعقبة النسيان؛ إذ جعل سبحانه **العلم لا يثبت عندك إلا إذا أمددت به غيرك**، وبهذا يستمر الخير في الناس.

ولم تقف مغانم التدريس عند هذا الحد؛ بل ينتفع صاحبه بزيادة العلم، وسعة الأفق، والاهتداء للمفاهيم والأفكار، وتحصيل مهارات الإلقاء، وإيجاد روابط جديدة بين أجزاء العلم، وربطه بالواقع، وحسن التمثيل لمسائله، هذا فضلًا عما فيه من ثواب التعليم والدعوة.

وقد جادت قريحة ابن القيم بذكر طرفٍ حسنٍ من هذه المكاسب فقال: **العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه.. تفجرت ينابيعه فازداد كثرة وقوة وظهورًا، فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه، ويَحصُلُ له به علمُ ما لم يكن عنده، وربما تكون المسألةُ في نفسه غيرَ مكشوفةٍ ولا خارجةً من حيز الإشكال، فإذا تكلم بها وعلَّمَها اتَّضحت له، وأضاءت، وانفتح له منها علوم أخرى..**

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٨٠).

وأيضًا فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل؛ فكما علَّمَ الخلقَ من جهالتهم جزاه الله بأن علمه من جهالته، كما في صحيح مسلم أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إن الله قال لي: أَنْفِق أُنفق عليك»[(١)]، وهذا يتناول نفقة العلم إما بلفظه وإما بتنبيهه وإشارته وفحواه، ولزكاء العلم ونحوه طريقان: أحدهما تعليمه، والثاني العمل به؛ فإنَّ العملَ به أيضًا ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه[(٢)].

ومن فقه مجالس التدريس:

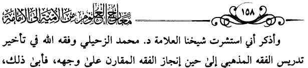
أنه لو حضرها بعض الأذكياء أو المتقدمين في الطلب فلا يجزع المُدرِّس أو يتهيب؛ بل يعدها فرصةً لتبادل المنفعة وفحص المعرفة، وحملًا علىٰ التحضير الجيد، وله في الإمام ابن عرفة أسوة حسنةٌ؛ فإنه كان يستعدُّ لدرسِ العلم ويبالغ في التحضير له، فلمَّا عوتب قال لهم: كيف يطيب لي النوم وأنا بين أسدين: الأُبِّيُّ بفَهْمه وعقله والبُرْزليُّ بحفظه ونَقْله»![(٣)].

وإذا لم يكن المُدرِّس ذا أهلية فلا يُعلن عن دروسه، ولا يأذن بتسجيلها؛ لأنه الآن في دور التلقي لا في دور البذل، فهو تصدرٌ جزئيٌّ يراد به التحصيل، وهو أعرف بنفسه، وإلا.. فإنه قد يسقط في وحل الغرور والتقول علىٰ الله بغير علم، وعندئذٍ لئن يشتغل بكنس الشوارع خيرٌ له من الاشتغال بالعلم، بل الأول والحال هذا أشرف.

ويمكن أن يأذن بذلك متىٰ ضبط العلم، وتجاوز المرحلة الثالثة في الطلب كما مضىٰ بيانه، وسيأتي تبيانه، وهو مع ذلك مقيمٌ علىٰ الطلب، مقبلٌ عليه، يستشعر أنَّ حاجتَهُ إلىٰ إخوانه أربىٰ من حاجتهم له.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٣٥٦)، والحديث عند البخاري بلفظ قريب، ورقمه: (٤٦٨٤).
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٢٨).
(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لابن قاسم مخلوف (١/ ٣٥١).



وأذكر أني استشرت شيخنا العلامة د. محمد الزحيلي وفقه الله في تأخير تدريس الفقه المذهبي إلىٰ حين إنجاز الفقه المقارن علىٰ وجهه، فأبىٰ ذلك، وقال: المنهجُ الإسلاميُّ أن يعيشَ الرَّجُلُ معلمًا ومتعلمًا في آنٍ واحد.



المبحث الثالث
حفظ العلم

يتولىٰ هذا المبحثُ الإجابةَ عن تفصيلاتِ الحفظ؛ فقد تقدَّم الحديثُ عن مفهوم الحفظ وركنيته في الطَّلب.

وإذا استحضرنا أنَّ الحفظَ هو عمودُ الضبط، وأنَّ المتون بمثابة الهيكل العظمي الذي سينبت لحم العلم عليه؛ لأنها جمعت رؤوس المسائل في كل علم.. كان من الفقه التركيز علىٰ الحفظ الحرفي أصالةً والحفظ المعنوي تبعًا.

وينتظم الحديث عن هذا المقصد في ستة مطالب:

المطلب الأول: ضابط الحفظ.

المطلب الثاني: طريقة الحفظ

المطلب الثالث: خطوات الحفظ.

المطلب الرابع: الوسائل المعينة علىٰ الحفظ.

المطلب الخامس: معالمُ إرشاديةٌ في حفظ المتون العلمية.

المطلب السادس: ثمرة الحفظ.

والآن لنأخذ في عرض المادة.

المطلب الأول
ضابط الحفظ

وفيه فرعان، وذلك أنَّ الحفظَ إما حرفيٌّ أو معنوي، ولكلٍّ حدُّهُ وضابطُهُ، وهذا بيان ذلك:

الفرع الأول: ضابط الحفظ الحرفي:

إنَّ ضابطَ الحفظِ الحرفيِّ أن تؤديَ النصَّ المحفوظَ بلفظه لا تخرم منه حرفًا، بحيث لو انقطعتَ عن الكتابِ لم تكترث، وهذا يكون في حفظ القرآن الكريم وأحاديث السُّنَّة النبوية وكذلك في المتون العلمية نظمًا ونثرًا والتعريفات المحرَّرَة وأضراب ذلك.

وهذا هو المراد بالحفظ عند الإطلاق، وهو الذي تناوله الأئمة بالتنويه بفضله، ويشمله ويشمل النوع الذي بعده ما قال يموت بن المزرِّع العبدي:

لـيس العلـم مـا حـواه القِمَطْـرُ إنمـا العلـمُ مـا حـواه الصَّـدْرُ

وقال عبد الرزاق: «كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فلا تعده علمًا».

واعتمد هذا المنهج الإمام الأصمعي فقال: «كل علم لا يدخل معي الحمام فليس بعلم»، وأنشد الإمام الشافعي:

عِلْمي مَعي حَيْثما يَمَّمْتُ فهو معي قلبـي وعَـاءٌ لَـهُ كبَطْـن صُنْـدُوقِ
إنْ كُنتُ في البَيْتِ كانَ العِلْمُ فِيهِ مَعي أَوْ كُنتُ في السُّوقِ كَانَ العِلْمُ في السُّوقِ[1]

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ص (٨٠).

وذكروا أنَّ كتبَ أبي عمرو بن العلاء كانت ملء بيت، فاحترق، فكان جميع ما يؤخذ منه إلىٰ آخر عمره من حفظه(١)!.

وهذا هو المنهج المتبع عند الشناقطة(٢)، وقد ذكرت طرفًا من أخبارهم في المبحث الفائت، ورأيت الشيخ محمد محيي الدين الأسطل شقيق شيخنا د. يونس الأسطل يتبعه؛ فقد بلغني قوة ضبطه للقرآن، فسألته عن منهجه في ذلك، فقال: ما لا تقدر أن تتلوَهُ في كل وقتٍ فلا تعده حفظًا، فسألته في كم يُراجع القرآن كله؟ قال: المتوسط في كل أسبوعٍ مرة!(٣).

واتبع الإمام الغزالي هذا المنهج الشاق، لكن تعلمه ليس في مجالس الطلب؛ بل علىٰ يد لصوص وقطّاع طرق!.

وذلك أنه قرأ في مبدأ طلبه للعلم طرفًا من الفقه ببلده ثم سافر إلىٰ جرجان إلىٰ الإمام أبي نصر الإسماعيلي وعلّق عنه التعليقة، ثم رجع إلىٰ طوس.

يقول: ونحن راجعون قُطعت علينا الطريق، وأخذ العيَّارون(٤) جميع ما معي، ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إليَّ مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت، فقلت: أسألك بالذي ترجو السَّلامةَ منه أن ترد عليَّ تعليقتي فقط؛ فما هي بشيءٍ تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتبٌ في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدَّعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم!.

---

(١) الحث علىٰ طلب العلم للعسكري ص (٧٤).

(٢) ألف الشنقيطي إبراهيم بن أُبَّ الحسني رسالةً لطيفةً بعنوان: «طريقة حفظ القرآن الكريم عند الشناقطة»، وهي متداولةٌ ومنتشرةٌ، وقد حَظِيَتْ بتقريظ لفيف من العلماء.

(٣) كنت كتبت هذا الكلام قبل وفاته، وقد مضىٰ من قريبٍ إلىٰ رحمة ربه، أسأل الله له الرحمة الواسعة والدرجات العالية.

(٤) أي اللصوص وقطاع الطرق.

ثم أمر بعض أصحابه فسلمها لي، فقلت: هذا مستنطقٌ أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميعَ ما علَّقته، وصرت بحيث لو قُطِع عليَّ الطريقُ لم أتجرد من علمي[(١)].

وهذه موعظةٌ بليغة، وإنها لحق؛ فما قيمة أن تمتلئ مكتبتك بالكتب وصدرك خالٍ من العلم، وقد أحسن ابن بشير الأزدي حين أنشد فقال:

إذا لم تكن واعيًا حافظًا فجمعُك للكتب لا ينفعُ
أُشَاهَدُ بالعِيِّ في مَجْلِسٍ وَعِلمي في البيت مستودع
ومن يك في علمه هكذا يَكُنْ دهرَهُ القهقرَىٰ يرجع[(٢)]

لكنَّ اتباعَ هذا المنهج بالمعيار المذكور من أنَّ العلمَ ما حواه الصَّدرُ، وما لا تستحضره فليس بعلم.. أمرٌ شاقٌّ، لكنه وإن كان شاقًّا في الأوائل والبدايات إلا أنه عذبٌ في الخواتيم والنهايات.

ولو أنَّ طالبَ العلم أخذ قرارًا حاسمًا باعتماده ولو اضطربت برامجه.. لتغيرت حياته العلمية رأسًا على عقب، ولاختصر على نفسه سبيل الإمامة؛ كالذي يقصد مدينة، والطريق إليها ملتفٌّ طويل، وثمة طريقٌ في الصحراء يُبَلِّغُهُ المدينةَ في ربع الوقت، إلا أنه محتفٌّ بالمشاق، فسلكه وتحمَّل عناءه، وبلغ به.

الفرع الثاني: ضابط الحفظ المعنوي:

إنَّ ضابطَ هذا الحفظ أن يؤدي المتفقهُ العلمَ بأيِّ لفظٍ اتَّفق، حتى لو كان من تراكيبه، بل هو أحسن؛ لأنَّ إعادةَ العلم بلسانك مع ما يشتمل عليه ذلك من إعادة عرضٍ وتقسيمٍ أعونُ على تحصيلِ الفهم وإدراك حقائق المسائل، ومع

(١) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (٦/ ١٩٥).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥١).

المراس وكثرة النظر في كلام الأئمة تزداد اللغةُ قوةً مع الاحتفاظِ باليُسرِ الذي يناسبه ويناسب الناس.

وساحة هذا النَّوعِ تشملُ حفظَ خارطةِ العلم والأبواب، ورؤوس المسائل، وعناصر دراسة المسألة الواحدة من تصويرها، وأقوال العلماء، وسبب الخلاف، وتحرير محل النزاع، بالإضافة إلىٰ حفظ أسماء الرجال وطبقاتهم وتاريخ وفياتهم، وكذلك مهمات الشروح بحيث يقدر أن يَفُكَّ ألفاظَ المتن أو يُلَخِّصَ الكتابَ من غير نظرٍ فيه.

ويستعمل هذا النوع من الحفظ أيضًا في حفظ محاور الدروس والمحاضرات وخطب الجمعة وأشباه ذلك.

ومن فضائل هذا النوع أنه يَحيلُ صاحبَهُ علىٰ حُسنِ التقسيم للمسائل، والرَّبْطِ بينها، والبحث عن جواب المُشْكِلِ منها، وتأكيد الفهم، ولهذا كان بعض المشايخ لا يشرحون للطالب درسه إلا إذا كرر قراءته قبله خمس مرات أو فوق ذلك أو دونه، وإنَّ خير العلم ما وعيته بقلبك وأدَّيته بلسانك.

ومن الفضائل النفيسة أيضًا أنه يُسعف من يشق عليه الحفظ الحرفي أو يعجز عنه؛ فالناس قدرات، وبعض الناس فُتح له في الفهم ما لم يفتح له في الحفظ، وهذه وإن كانت نقصًا إلا أنه يستعين بالحفظ المعنوي علىٰ تخفيف النقص، وذلك بأن يأتي إلىٰ المتن نثرًا كان أو نظمًا ويؤديه بعبارته، وقد يغير تقسيمه وترتيب مسائل أبوابه، ويحفظه علىٰ ذلك، ويكثر من سماع تسجيله الصوتي، وبهذا يبلغ إن شاء الله.

وهذا المنهج ثمة من يفضله علىٰ الحفظ الحرفي، استمع في بيان وجه ذلك إلىٰ الشيخ الدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ حين يقول: «إنَّ خيرَ الحفظ والاستظهار إنما هو ما كان حفظًا للقضايا والأفكار، لا ما كان حفظًا حرفيًّا للعبارات، وتنغيمًا

للكلمات، فإنما يحفظ بالحروف والألفاظ كتاب الله وحده، ثم سنة رسوله ﷺ، وكل جهد في غيرهما استظهارًا بالحروف إنما هو إضاعةٌ لفرصةٍ من حفظ كتابٍ جديدٍ بالفكر أولىٰ أن تُخزَّن في الذاكرة قضاياه وأحكامه..»[1].

وهذا الرأي وإن لم يُعتمد في حفظ مهمات المتون ونحوها؛ لما تقدَّم وجهه وبرهانه.. إلا أنَّه نافعٌ في تقرير فضيلة الحفظ المعنوي، وأنه المنهج المعتمد عند بعض الأكابر.

ومن الآفات المنهجية التي رُصِدت أنَّ الطَّالب إذا شق عليه الحفظُ الحرفيُّ للمتون ونحوها هَجَرَ الحفظ بالكلية، مع أنَّ الحفظ المعنوي علاجٌ فعال، بل إنَّ مجرد إدمانِ النظر في ألفاظ المتن نفسه نافعٌ جدًّا في هضم خارطة العلم ومهماته ورؤوس مسائله.

ولا مانع أن يكون للطالب تلخيصٌ موجزٌ في كل علم، يذكر فيه خارطته الأساسية، وتقسيماته المحورية، ورؤوس المسائل، وغير ذلك مما يحتاجه، ويطيل النظر فيه كرةً بعد أخرىٰ، فليس بلازم أن يُلاحق كلَّ شيءٍ في العلم بحفظٍ حرفيٍّ، إلا ما كان من ألفاظ الكتاب والسُّنَّة، وهذان فيهما تيسيرٌ إلهيٌّ خاص.

والحاصل: أن يلجأ إلىٰ المتن أو الباب الذي يريد حفظه، فيدمن النظر فيه، ويحسن تقسيم مسائله، ويؤديه بمعناه لا بمبناه، حتىٰ يستظهره ويضبطه.



---

(١) مفهوم العالمية من الكتاب إلىٰ الربانية ص (٤٩).

المطلب الثاني
طريقة الحفظ

هذه المسألة من أكثر المسائل التي تَعدَّدَ الاقتراحُ فيها، بل لا أعلم مساحةً هنا طرقتها الأقلام البحثية مثل الحديث عن طرائق الحفظ ومسالك الضبط.

ولو تجولتَ سريعًا في الكتب والمقالات التي تعتني بفقه الطلب ومدارجه.. لوجدتَ ركضًا ملاحظًا في البحث عن الطريقةِ السحريةِ لحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية والمتون العلمية، حتىٰ طالعتُ طرقًا لا أحصيها، بل رأيتُ من أَلَّف كتابًا كبيرًا في طرق الحفظ فقط!.

وما زال طلبة العلم والمشتغلون بالحفظ يتنقلون من مقترحٍ لآخر، وما ذلك إلا لعدم حصول النجاح المنشود لأيِّ طريقةٍ تُجرَّب.

وذلك أنَّ الطالبَ يعاني ضعف الضبط، وسرعة النسيان، وربما اتهم عقله، وأنه ضعيف الحفظ، وعندما يسمع بإتقان المتقدمين أو الشناقطة من المعاصرين ومن علىٰ شاكلتهم.. يكاد يُحبط، ويشعر أنَّ البابَ موصدٌ في وجهه، وأنه لا سبيلَ لبلوغ درجة هؤلاء.

والمحير أنَّ كثيرًا من طلبة العلم يبقىٰ يعاني من اختلال الضبط حتىٰ مع حصول المُراجعة بين فترةٍ وأخرىٰ، وإذا قُدِّم للإمامة فإنه يظل متهيبًا من القراءة إلا بتركيزٍ عالٍ علىٰ المقطع الذي يريد تلاوته في الصلاة.

وربما سُرَّ لسرعة حفظه لكنه يشعر بجيوش الهم تحاصره لسرعة نسيانه،

ويظن أنَّ النَّاس قد فُتح لهم دونه.

وإزاء ذلك أخذت أعتني بأخبار المتقدمين لأرىٰ هل المشكلة في عقولنا؟ أم أنَّ أهل الزمان انتقعوا في بحور الغفلات أو السيئات؟، وبالتالي هم معاقبون بتفلت المحفوظ من صدورهم، أم أنَّ الإشكالَ منهجيٌّ يعود لطرائق الحفظ نفسه؟.

والذي خلصت إليه من مجموع ما اطَّلعت عليه أننا وإن كنا في غفلةٍ ظاهرةٍ قياسًا مع من سلف.. إلا أنَّ الطريقةَ السائدةَ اليوم ليست حفظًا بالمعنىٰ الدقيق؛ وإنما هي تصويرٌ أوليٌّ ملتقطٌ للصفحةِ من القرآن أو للقطعة من المتن، فالطالب يكرر النظر والترداد، ثم يجمعها في صدره علىٰ عجل، وبعد أيام قليلةٍ تبدأ الصورةُ الملتقطةُ في التلاشي، وبينما هو يشتغل بالحفظ الجديد وإذ برأس المال **الذي حصَّله ينهار تحت قدميه.**

أما الفكرة المركزية التي يعتمدها الراسخون في الحفظ فإنها تكرار المحفوظ عند حفظه، ثم تكرار مراجعته بتثبيت قدر يوميٍّ لا يتخلف.

ودونك هذه القبضة من الشواهد:

قال عباس الدوري: سمعت يحيىٰ بن معين يقول: لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه[1].

وجاء في ترجمة أبي المفاخر الحسن بن ذي النون النيسابوري أنه كان يقول: الشيء إذا لم يُعد سبعين مرةً لا يستقر[2].

ومر بنا أنَّ بكر بن محمد الزَّرَنْجَرِي كان يكرر المسائل، ولما سئل عن مسألة قال: كررتُ هذه المسألةَ ليلةً أربعمائة مرة، وكان لهذا المنهج يلقي الدرس

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٨٤).
(٢) لسان الميزان لابن حجر (٢/ ٢٠٥).

من أي موضع متىٰ طُلِبَ منه ذلك من غير مطالعةٍ ولا مراجعةٍ لكتاب![1].

وورد في ترجمة أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي أنه كان يكرر كل حديث خمسمائة مرة[2]، وقال له رجلٌ مرة: إنا ننسىٰ الحديث، فقال: أيكم يرجع في حفظ حديثٍ واحدٍ خمسمائة مرة؟! قالوا: ومن يقوىٰ علىٰ هذا! فقال: لذلك لا تحفظون[3].

وهو القائل: «لم نزل نسمع شيوخنا يذكرون أشياء في الحفظ، فأجمعوا أنه ليس شيء أبلغ فيه من كثرة النظر».

بل جاء عن أبي إسحاق الشيرازي ما هو أغرب من ذلك؛ فإنه قال: كنت أُعيدُ كلَّ قياسٍ ألف مرة، فإذا فرغت أخذت قياسًا آخر علىٰ هذا، وكنت أعيد كل درسٍ ألف مرة![4]، وما جرت العادة بحفظ الأقيسة وتكرارها!.

وقال ابن الأثير: كنت جردت من الأخبار النبوية كتابًا يشتمل علىٰ ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال، وما زلت أواظب علىٰ مطالعته مدةً تزيد علىٰ عشر سنين، فكنت أُنهي مطالعته في كلِّ أسبوع مرة، حتىٰ دار علىٰ ناظري وخاطري ما يزيد علىٰ خمسمائة مرة، وصار محفوظًا لا يشذُّ عنِّي منه شيء[5].

وهذا المنهج هو ما عبَّر عنه من قبلُ الإمامُ البخاري صاحب الصحيح الذي حيَّر الدنيا بدقة حفظه لما سئل عن دواءٍ للحفظ فما زاد علىٰ أن قال: إدمان النظر في الكتب[6].

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٩/ ٢٠٠-٢٠١).
(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر (١/ ٥٨).
(٣) تهذيب الكمال للمزي (١/ ٤٢٤).
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٤٥٨).
(٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (١/ ١٣٨).
(٦) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ٣٩٣).

وهو المنهج الذي اتبعه الأئمة في ضبط الكتب الكبار، وسبق التنظير له في مطلب «إدمان النظر في عمدة الكتب» من المبحث الفائت.

ولهذا وصىٰ علقمة النخعي طلبة العلم قائلًا: أطيلوا ذكر الحديث لا يدرس[(١)].

وسمعت الشيخ ياسر الدوسري إمام الحرم المكي صاحب الصوت الخاشع في مقطعٍ له علىٰ اليوتيوب بعنوان: «أفضل طريقة لضبط حفظ القرآن» يتكلم عن المنهجية الأعدل في الضبط، فقال ما حاصله: سألنا عن ذلك مشايخنا الكبار وأئمة هذا الفن الذين بلغوا من الكِبَر عتيًّا، وعاش بعضهم أكثر من ستين سنةً في هذا المجال، من أمثال الشيخ إبراهيم الأخضر شيخ قراء المدينة، والشيخ بكر الطرابيشي والشيخ عبد الرافع رضوان والشيخ محمد تميم الزغبي، وكلهم أجابوا أنَّ التجربةَ الطويلة تتلخص في وصيةٍ نبويَّةٍ واحدة؛ يقول فيها رسولنا المصطفىٰ ﷺ: «**تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**»![(٢)].

قال: فنحن نسأل هنا وهناك ونلف وندور، وإذا جاء الواحد منا إلىٰ هؤلاء الكبار وسألهم قالوا: تعاهدِ القرآن، وانظر فيه علىٰ الدوام، وليكن لك قدرٌ يومي مثل الأكل والشرب لا يتخلف، ويزداد مع الزمن، مع ما يقارن ذلك من الإلحاح علىٰ الله أن يرزقك ضبط كتابه، فإذا رآك تنكسر له مرةً بعد أخرىٰ أكرمك. ا. هـ.

فهذا هو الحل، وهذا هو الطريق، أما ما نحن عليه من سرعة النسيان فهكذا خُلِقَ الإنسان، وقد تقدم طرفٌ من حكمة ذلك، وإنَّ الذي يصيبنا من ذلك قد أصابَ من قبلنا؛ بدليل كثرة سؤالهم للأئمة عن أدوية الحفظ وطرائقه، ودهشتهم

(١) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٨).

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٠٣٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٨٠)، واللفظ لمسلم.

من العدد الذي يُقترح لهم، فلسنا ننفرد بهذا عمن سلف.

وقد ذكر الإمام الذهبي في ترجمة الإمام الحافظ يحيىٰ بن يمان أنه كان سريع الحفظ حتىٰ كان يحفظ في المجلس الواحد خمسمائة حديث! لكنه نسي، وكان سريع الحفظ سريع النسيان[١].

ومن المآثر الواردة في ذلك أنَّ فقيهًا كان يعيد الدرس في بيته مرارًا كثيرة، فقالت له عجوزٌ في بيته: قد -والله- حفظته أنا! فقال: أعيديه، فأعادته، فلما كان بعد أيام قال: يا عجوز؛ أعيدي ذلك الدرس، فقالت: ما أحفظه، قال: إني أكررُ عند الحفظ؛ لئلا يصيبني ما أصابك!.

علىٰ أنَّ هذا الأمر مشاهدٌ في الناس؛ فالواحد منهم مهما ضعفت ذاكرته لا ينسىٰ الفاتحة وقصار السور ولا الأذكار، ولا طريقه إلىٰ المسجد ولو كان ضيقًا، وربما سلكه بدقة بالغةٍ مع انشغاله عن النظر فيه، بخلاف ما لو دخل حيًّا ولم يعد إليه حتىٰ طال عليه العهد، فلو قصده ربما اشتبه عليه.

وهذا ما أشار إليه الإمام الطوفي إذ قال: ولهذا كان غالب الناس عالمًا بأفعال الصلاة؛ لتكرر أفعالها عليهم في اليوم والليلة خمس مرات، بخلاف أفعال الحج؛ فإنَّ صبيانَ مكة -شرفها الله تعالىٰ- أعلم بها من كثيرٍ من فقهاء الآفاق المبرزين في العلم؛ لدربة أولئك الصبيان بها دونهم[٢].

والحاصل: إنَّ تحصيل الضبط بالتكرار الكثير هو المسلك الوحيد لمن رام الرسوخ في الحفظ، وأما دغدغة العواطف بالطرائق الوهمية فإنها تَهَرُّبٌ من الحقيقة، وإنَّ الحقائق المرة أحسن من الأوهام المريحة.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٣٥٦).

(٢) شرح مختصر الروضة للطوفي (٢/ ٦٨٤).



أما من يحفظ سريعًا وينسىٰ بطيئًا.. فهذا عزيزٌ، ولو وُجِد فلا يُقاس عليه، وهو بالكرامة أشبه، من مثل ما ذُكِر عن الشافعي أنه كان يحفظ الصفحة من نظرةٍ واحدة، فلا يستبعد حصوله، لكنه في النهاية أمرٌ خارقٌ للعادةِ يمنحه الله لبعض الناس كرامةً، ولا يصلح أن يعتمد منهجًا معتمَدًا لعامَّةِ الناس، وكثرة الاستشهاد به من شأنه أن يُحبِّط لا أن يُشَجِّع.

أما بالنسبة لحفظ الشناقطة، هذه الكتلةُ البشريَّةُ التي أدهشت الدنيا في الحفظ، حتىٰ بات أحدنا كلما أراد أن يُهيِّج الهمة في نفسه طالع الكتابات والمقاطع المرئية التي تتحدث عن رسوخ حفظهم..

فإني لما سافرت إلىٰ شنقيط كنت حريصًا علىٰ التوثق من قضية الحفظ التي اشتهروا بها، وأرىٰ بنفسي كم يحفظون؟ وكيف يحفظون؟ وهل لهؤلاء الناس طبيعةٌ خاصةٌ يسَّرت لهم التفوق علىٰ أهل عصرهم؟.

وفعلًا، عايشت طلبة مركز تكوين العلماء عدة أشهر، وسألت عددًا من المشايخ وطلبة العلم عن ذلك، حتىٰ استبان لي صدقُ ما يذكر عنهم، وعاينته بنفسي، وصرت أسأل عن المسالك التي بلَّغتهُم ذلك، واستضفت لهذا الغرض شيخي «سيدي أحمد وَيْس» في بيتي، وسجَّلت معه حوارًا مطولًا عن الحفظ وفقهه وتجربة أهل البلد فيه، ويمكن رد ما قال إلىٰ ثلاثة عوامل:

الأول: الطبيعة الصحراوية التي منحتهم صفاءً ذهنيًّا.

الثاني: كثرة التنقل الذي حملهم علىٰ اعتماد الحفظ أصلًا؛ لأنَّ عوارضَ ترك الكتب وفقدها كثيرة، وهذا الذي وجههم إلىٰ كتابة الطُّرَر، وهي أشبه بحواشٍ مركزةٍ جدًّا علىٰ المتون، وتبلغ من الدِّقَّةِ والإحكام أنَّ من حفظ ألفاظها وفهم معانيها وأدرك مراميها أمكنه الاستغناء نسبيًّا عن المطولات بعد الاطلاع عليها.

الثالث: طول النفس في التكرار، وهذا هو بيت القصيد؛ فإنَّ القوم لا يحبون العجلة، ولا صبرَ لهم على التعامل مع المتعجل.

فإذا حفظ أحدهم القطعةَ من القرآن أو المتن كرره مائة مرة، وقد يزيد على ذلك حتى يتجاوز المائتين، وقد ينزل عن ذلك حتى يكتفي بثمانين مرة أو ستين، خاصةً إذا كانت القطعةُ سهلةً.

وحدثني هذا الشيخ -وهو الذي يقال عنه إنه يحفظ خمسة وعشرين ألف بيتٍ من الشعر- أنه اعتمد التكرار مدةً أربعمائة مرة، لكن أصابته السآمة، فصار يكرر مائتي مرةً فقط!.

لكن المعتاد عندهم هو التكرار مائة مرة أو مائة وعشرين، وصار الواحد منهم بذلك مكتبةً متنقلةً تمشي على الأرض، لا يحتاج إلى النظر في المتن أو الكتاب، كما مرَّ من أخبارهم.

على أنَّ هذا العدد لا يشترط أن يكون مطَّردًا بين عامة الطلبة، وفي كافة المتون؛ بل قد يختلف ذلك بحسب نشاط الطالب وكسله، وتفرغه وشغله، وحال حفظه قوةً وضعفًا، وسهولة المتن وصعوبته، واختلافه بين منثورٍ ومنظوم.

وهذا يعني أنَّ إمامتهم في الحفظ معدودةٌ في التجارب البشرية العادية، فليس فيها أمرٌ خارق، لكنَّ الذي يأسر الألباب أنهم يعتمدون التَّكرارَ الكثيرَ أصلًا مع ما حباهم الله به من صفاء الذهن المستفاد من جو الصحراء، وقوة الحفظ لاعتيادهم عليه، فنحن أولى بالتكرار منهم؛ لكثرة الشواغل وموارد التشتت، وعدم الاعتياد على الحفظ.

إذن.. هذا هو الحل، وهذا هو الطريق.

أما من اتبع الطرق السريعة فإنَّ نتائج الأيام ستكسره، وسيجبر على الرجوع لجادَّةِ الطريق، ولست أضيق ذرعًا إن همَّش الطالبُ ما تقرر هنا من النصح؛ لأنه

إن كان حريصًا على الضبط فإنه سيعود إليه أو لما يشبهه بعد أن تطحنه تجارب الأيام والأعوام.

ولهذا؛ فإنَّ إدراكَ الطالب لهذا المسلك مع عدم انشغاله عنه بالاستكثار من العلم مثنةٌ من فقهه، أما إن بقي يستكثر دون أن يضبط فحتَّىٰ متىٰ؟!.

آهٍ علىٰ هذا لو عاد به الزمان، وجالس الإمام الأعمش وأنبأه بحاله واستنصحه لقال له ما قاله لأصحاب الحديث لما اجتمعوا إليه: تدرون ما مثلكم؟ مثل قوم أتوا بالطعام، فجعلوا يأخذون الثريد لقمًا، ويرمون به وراء ظهورهم، ويقولون: زيدونا طعامًا، فمتىٰ يشبع هؤلاء!.

ونصح جماعة آخرين بمثل هذا فقال: احفظوا ما جمعتم؛ فإنَّ الذي يجمع ولا يحفظ كالرجل كان جالسًا علىٰ خوان[1] يأخذ لقمةً لقمة، فينبذها وراء ظهره، فمتىٰ تراه يشبع![2].

وبعد تجلية الكلام عن طريقة الحفظ بقي أن يُقال: إذا وعىٰ المتفقه ما تقرر علم أنَّ أغلبَ حالات الشعور باختلال الحفظ وضعف الذاكرة مردُّهُ إلىٰ التوهم النفسي، وأنَّ الواحدَ من الطلبة يريد أن ينجز الصفحةَ من القرآن، أو القطعة من المتن في دقائق، ثم يلقي نظرةً عليها في كل شهرٍ مرة، وإن لم يحصل هذا فإنَّ هناك مشكلةً في حفظه إذن! هذا ليس من كمال العقل، ولا داعي لتشكيك الإنسان في القدرة التي آتاه الله إياها.

أما إن تعلل الطالبُ بأنَّ هذه الطريقة تحتاج إلىٰ وقتٍ كثير مع ما فيها من سآمة.. فأقول: صدقت، لكنك هنا لا تحفظ لأيامٍ أو أسابيع؛ وإنما لأعوامٍ عديدةٍ وحياةٍ مديدة، فلا بأس إذن من أن تنفق من نفائس وقتك، وإن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

---

(١) هو ما يوضع عليه الطعام عند الأكل. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ٨٩).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (٢/ ٢٤٨).

وماذا عليك أن تصبح عابدًا بكثرة النظر في الوحي وكتب العلم؛ إذ لولا النسيان **لهُجِر العلم والقرآن!** فهذا النسيان الذي تضجر منه بمثابة المصيدة التي تُستدرج من خلالها لتصبح كثير الحسنات واسع الخيرات عبر كثرة الأوراد آناء الليل وأطراف النهار.

ثم ماذا عليك لو طال بك العهد وأنت تضبط العلمَ دِيَانةً وتعبدًا! وقد مضىٰ أنَّ **الضبطَ دين**، وقد مدح الله حفظة كتابه في كتابه فقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ودعا النبيُّ ﷺ للحافظ بنضارة الوجه، وإنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه، وهذا هو عمل السلف، ومن هنا قال الشيخ عبد العزيز الطريفي: «كان الصحابة رضي الله عنهم يحفظون العلوم تدرجًا لا مسارعة ليرسخ المحفوظ، لما سمع ابن عباس من يسارع في حفظ القرآن قال: «ما أحب أن يسارعوا هذه المسارعة».

وقال: «زيادة العلم لا تأتي بالعجلة في طلبه؛ وإنما بالتأني مع ثباتٍ يزيد ويرسخ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وإذا كانت شهوة الإنسان في كثرة التحصيل وسعته.. فإنَّ مراد الشريعة في رسوخ العلم وضبطه، ولهذا تظهر العبوديةُ في الضبطِ والمراجعةِ ما لا تظهر في **أصل الحفظ والمطالعة**، فلا ينبغي للمتفقه إذن أن يُغَلِّبَ مُرادَهُ من الشريعة بما يُغَذِّي به شهوته علىٰ مراد الشريعة منه بما يُعِدُّهُ ويُؤَصِّلُه.

ثم ألا يخشىٰ المتعجلُ من اهتزاز نيته، وانعقادها علىٰ شهوة الشهرة وحبِّ **التَّصَدُّر!** لا سيما وأنَّ المحيط الاجتماعي يفرح إذا علم بكثرة الحفظ ولو ضعف الضبط أكثر من فرحه بقلة الحفظ ولو حسن الضبط، فقد يتأثر الحافظ بذلك.

ولذا؛ فإنَّ من علائم الإخلاص تجويدَ الحفظِ وإخفاءه، لا سيما وأنَّ ضبطَ العلم عبادة، والطالب محتكمٌ لفقه هذه العبادة، ولا عليك بعد ذلك لو قضيت نحبك قبل أن تصل، ولك في ذلك سلوىٰ بقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ

مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

ومع ذلك لا أبالغ إن قلت: إنَّ هذه الطريقة البطيئة هي أسرع الطرق؛ لأنك تحفظ مرة واحدةً متقنة، ثم تنشغل بالتثبيت من غير إعادة المراجعة التي هي أشبه بالحفظ الجديد إذا بعدت عنه.

وكم جالست من طالبٍ أنهىٰ حفظ القرآن من نحو عشر سنوات أو يزيد، ثم هو الآن لا يستظهر جلَّه ولو خمسة أجزاء منه، ولو أنه حفظ في كل عام ثلاثة أجزاء فقط، وبقي يرددها علىٰ مدار عامٍ كامل.. لكان يحفظ القرآن الآن كما يحفظ قصار السور.

علىٰ أنَّ الوقت الذي يحتاجه الطالب في التكرار ليس طويلًا إلىٰ درجة الجزع منه؛ فتكرار البيت الواحد من المتن مائة مرة لا يزيد عن سبع دقائق فقط، وتكرار الصفحة من القرآن خمسين مرةً لا يزيد عن ساعةٍ واحدةٍ.

ثم إنه يرتاض السبيل ولا يجد مشقةً فيه بعد أن يعتاده، سواء في الحفظ الحرفي أو المعنوي أو التلقي عمومًا، وهذا ما بشر به الزهري بقوله: «إنَّ الرجل ليطلب -أي الحفظ والعلم- وقلبه شِعبٌ من الشعاب، ثم لا يلبث أن يصير واديًا، ولا يوضع فيه شيء إلا التهمه»[1].

وزاد الدكتور يحيىٰ الغوثاني هذه الكلمةَ جلاءً فعقب عليها بقوله: أي: إن الرجل في بداية طلبه للعلم تكون ذاكرته ضيقةَ المدارك، لم تتمرس بعدُ علىٰ الحفظ، فإذا تدرب علىٰ الحفظ والقراءة والاطلاع والاجتهاد.. اتسعت مداركه، وأصبح الحفظ سجيةً له، فيصير قلبه يلتهم العلم التهامًا، كالوادي يلتهم كل شيء[2].



(١) الحث علىٰ طلب العلم ص (٧١).

(٢) كيف تحفظ القرآن الكريم؟ ليحيىٰ الغوثاني ص (٥٧).

المطلب الثالث
خطوات الحفظ

تمر عملية الحفظ بأربعة أطوار: السماع والحفظ والتكرار والمراجعة، إليك تناولَها بالبيان:

أولًا: السماع:

وذلك بأن يَسمَعَ الطالبُ تسجيلًا صوتيًّا للصفحة التي يريد حفظها من القرآن، أو يسمع الحديث أو القطعة من المتن؛ وذلك لتصحيح الألفاظ، وتهيئة الذهن للحفظ؛ لأنَّ التقاطَ الأذن لذلك أعلىٰ من التقاط العين، ولو كان السماع قبل النوم والحفظ بعد اليقظة.. لكان أحسن وأنفع.

وبالجملة فإنَّ التلقي حفظًا وقراءةً يُطلب له رفع الصوت؛ فإنه أمكن وأمتن، ولهذا قال أبو هلال العسكري: «وينبغي للدارس أن يرفع صوته في درسه حتىٰ يسمع نفسه؛ فإن ما سمعته الأذن رسخ في القلب، ولهذا كان الإنسان أوعىٰ لما يسمعه منه لما يقرؤه، وإذا كان المدروس مما يفسح طريق الفصاحة، ورفع به الدارس صوته.. زادت فصاحته»[1].

ثانيًا: الحفظ:

والطريقة المعتمدة فيه هي الطريقة التراكمية، وتفصيلها في البنود الثلاثة الآتية:

١-تحدد ثلاثة أسطر من الصفحة أو من المتن المنثور، أو ثلاثة أبيات من

(١) الحث علىٰ طلب العلم لأبي هلال العسكري ص (٧٢).

المتن المنظوم، ونحو ذلك من الحديث النبوي إن طال، ولا تزد عن ذلك لئلا يُرهِقَ الذهن، وتقرؤها ١١ مرة[١] بالعين ولو سهل عليك حفظها؛ لأنَّ الهدفَ هنا ليس الحفظ؛ وإنما رسمُ صورةٍ عن القطعة المحفوظة في الذهن؛ لمحورية دورها في الاستحضار فيما يستقبل من الزمان.

٢- تحفظ هذا القَدْر، وتعيده غيبًا ١١ مرة أيضًا، ولو أخطأ الحافظ في حرفٍ أو كلمةٍ فيُعيد الكلمة نفسها مع ما قبلها وما بعدها فقط ١١ مرة أيضًا؛ ترويضًا للّسان على إصلاح منطقة الضعف.

٣- ثم ينتقل إلى الخُمس الثاني من الصفحة، أو الجزء الثاني من المتن، ويحفظه بنفس الطريقة، وبعد حفظه يقرأ القطعتين ثلاث مراتٍ على الأقل؛ لربط المحفوظ بعضه ببعض، ويستمر هكذا حتى نهاية الصفحة أو الفصل من المتن.

ثالثًا: التَّكرار:

بعد الحفظ الحقيقي للقطعة المحفوظة بحسب ما تقدم يأتي طورُ غرسِها في الذّاكرة، فيكرر الحافظُ مائة مرة، وليجعل هذا العدد هو المعتمد في الحفظ، بحيث لا ينحط عنه إلا لباعثٍ يُقنع بالتخفيف، لكن لا ينزل عن الخمسين على أيِّ حال.

ولهذا قال شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو: كرر حتى يرسخ الشيء في صدرك، أما ما كررته عشرين مرة أو ثلاثين أو أربعين فإذا تقدم بك العمر فسوف تنساه.

ولا يشترط أن يكون التّكرار في مجلسٍ واحدٍ أو في يومٍ واحد، بل ولا يستحب؛ فعملية الحفظ كعملية البناء، تبني القطعةَ من الجدار بالاسمنت، ثم

---

(١) ليس هذا العدد بلازم، لكن لا ينبغي أن يقل عن عشر مرات، واخترت العدد ١١؛ لأنَّ الحافظَ أثناء الحفظ بدل أن يشتغل بالعد فيُذهل عن الحفظ يمكن أن يتابع العد من خلال سُبحة؛ لوجود فاصل تدركه اليد بعد كل ١١ حَبَّة منها.

تتركها تجف، ثم تواصل، ولهذا كرر عددًا مناسبًا، ثم اترك المادة تختمر في الذهن، ثم تكمل، وعندئذٍ تثبت، وقد أحسن الشيخ فيصل المنصور إذ قال: «تردادُ الحفظ خمسين مرَّة في خمسةِ أوقاتٍ متباعدة أفضل من ترداده مئة مرة في مجلسٍ واحد».

وهذه الخطوة والتي قبلها من لم يقم بهما بقي حفظه ضعيفًا مهما حفظ وكرر وراجع بعد ذلك، وهذه إشارةٌ مهمةٌ يصدقها الواقع، وقد نبه عليها الشيخ سعيد الكملي وفقه الله فقال ينصح الطالب: حين تحفظ احفظ حفظًا متينًا، ومن حفظ حفظًا متكسرًا بقي متكسرًا، والطالب الذي يكتفي بالحفظ الأول ويتحول عنه قبل أن يتمكن منه فهذا حفظٌ يعقبه النسيان لا محالة[(١)].

فإن قيل: إنَّ التكرارَ يورث مللًا وسآمة فكيف ندفعه؟ فالجواب: أن يُؤمِنَ طالبُ العلم بركنية التكرار في ترسيخ الحفظ، وأنه يحفظ للعمر، بحيث يستدعي المحفوظ متىٰ شاء، وأن ينوع طرق التكرار؛ فينظر إلىٰ المتن مرة، ويَسْمَعُهُ مرة، ويُسمِّعه مرة، وينوع الشخص الذي يُسمِّع له، ويُحَفِّظُ ما يحفظه لغيره، ويُسمِّع له، وأن يُغيِّر النغم المستعمل في الأداء، وأن يمارس عملًا لا يتطلب جهدًا ذهنيًّا أثناء التكرار؛ كالمشي[(٢)].

رابعًا: المراجعة:

إذا أتممت قطعةً حفظًا فينبغي ألا تعود لحفظها مرةً أخرىٰ، وذلك بأن تهملها حتىٰ تُنسىٰ فتحتاج إلىٰ حفظها من جديد، وإذا كان كلام الله أشد تفلتًا من الإبل في عقُلها فما بالك بكلام البشر!.

---

(١) مقطع علىٰ اليوتيوب بعنوان: نصيحة الشيخ سعيد الكملي لمن يريد حفظ شيء.

(٢) سمعت جل إرشادات دفع السآمة في مقطعٍ صوتي ليس فيه تسمية صاحبه، فجزىٰ الله صاحبه خيرًا.

ولهذا تعاهد المحفوظ بمراجعةٍ أسبوعية، لكنك لن تحتاج إلا إلىٰ الوقت الذي تقرأ فيه فقط؛ إذ الحفظ مستقرٌّ مكين، وهذه المراجعة ليست لتمكين الحفظ؛ وإنما لمنع تفلته، وقد سمعت الشيخ أحمد المعصراوي شيخ عموم المقارئ المصرية يقول: لي أكثر من خمسين سنة لم أُمسِكْ مصحفًا للمراجعة؛ وذلك أني أختم القرآن كل عشرة أيام مرة، وكل مرة برواية مختلفة!.

ويستحب للحافظ أن يُوزِّعَ المحفوظ علىٰ أيام الأسبوع، أو يخصص يومًا للمراجعة أو يومين يوقف فيهما الحفظ، وإذا كثرت المحفوظات فيمكن أن يعتزل الناس يومًا في الأسبوع أو عدة أيامٍ معلومةٍ من كل شهر، يراجع فيها ما حفظ، لكنَّ أفضلَ أنواع المراجعة ما بُني علىٰ أيام الأسبوع لمن استطاعه.

وهذا المنهج المسطور هنا ينبغي اتباعه في حلقات تحفيظ القرآن الكريم قدر الطاقة، مع الظن القوي بأن المؤسسات المشرفة علىٰ الحلقات تمنع ذلك لمشقة متابعة الطلبة فيه، وأعجبني أحد المحفظين إذ خصص حلقةً لأولي العزم من الطلبة يكررون فيها المحفوظ عددًا كبيرًا، والله الموفق، وهو الهادي إلىٰ سواء الصراط.

المطلب الرابع
الوسائلُ المعينةُ على الحفظ

هذا المطلبُ تحسينيٌ؛ لأنَّ الطالبَ متىٰ أخذ في الحفظ فقد عاين ما يصلحه، وعندئذٍ سيعتمد النظام الذي هو أقوم له، ومع ذلك فإني أذكر طائفةً من الأمور المعينة علىٰ الحفظ، فلو افترضنا ذهول الطالب عن شيءٍ منها فليكن منها علىٰ علم، وهذا بيانُها بإيجازٍ بالغ:

١- **التهيئة النفسية لتقَبُّلِ طريقةِ التكرار في الحفظ** وعدم الانقطاع عن المراجعة.

٢- **التفرغ من الشواغل**، فمتىٰ كان الذهن مشتتًا أو مكدَّرًا تعنىٰ كثيرًا وأنجز قليلًا.

٣- **اختيار المكان المناسب للحفظ**، وحبذا لو كان في مكان قليل المشتتات كالمسجد.

٤- **اختيار الوقت المناسب للحفظ**، وحبذا لو كان بعد الفجر، أو قبله لمن استطاع التبكير في اليقظة، بحيث يصلي حظَّه من التهجد، ويحفظ ورده من العلم.

وهذا هو المعتمد في مركز تكوين العلماء، وإنه لمشهدٌ مشرقٌ وأنت ترىٰ جموع الطلبة يستيقظون للتهجد ثم للحفظ، وتسمع لهم دويًّا كدوي النحل، وكنت إذا رأيتهم أستحضر قول نبينا ﷺ: «لَا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ»[1]. أخرجه ابن ماجه وحسنه الألباني.

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨).

ويمكن أن يحفظ بعد العصر، والمقصود أن يجتهد أن يجعل الحفظ بعد يقظةٍ من النوم؛ لأن فيه صفاءً ذهنيًّا لا يجده المنغمس في الأعمال الحياتية.

٥- **ألا يأكل قبل الحفظ**، ولو أكل فلا يكثر؛ إذ لا يجتمع بطنٌ وعقل، ولهذا قالت العرب: البطنة تذهب الفطنة.

ولعل سر ذلك أن الامتلاء يجعل المعدة تبعث بنداء استغاثة للقلب، فيضخ أكبر قدرٍ من الدم إليها، فيتناقص مقدار الدم الصاعد للدماغ، فيحدث ضعف التركيز.

ويمكن أن يحفظ بعد العصر، والمقصود أن يجتهد أن يجعل الحفظ بعد يقظةٍ من النوم؛ لأن فيه صفاءً ذهنيًّا لا يجده المنغمس في الأعمال الحياتية.

٦- **تناول السكريات لمن استطاع**؛ لأنَّ العقل هو المكلف بالحفظ، وهو يتغذىٰ علىٰ السكريات؛ كالتمر والزبيب، والحقيقة أني لم أجد لهذا أثرًا، لكن هذا من جملة ما يذكرونه، ولئن فعلتَ ووجدت أثرًا حسنًا له.. فاحتسب المال الذي تنفقه في ذلك في سبيل الله، وإن لم تجد فقد استفدت أكل التمر والزبيب؛ لأنهما قُوتَانِ نافعان!.

أما المشروبات المنبهة؛ كالشاي والقهوة.. فالناس في أثرها متفاوتون، لكن الأغلب من الأحوال أنَّ قليلها نافعٌ للعقل، وأنَّ كثيرها مُجهِدٌ له.

٧- **إذا كان الحفظ معنويًّا** فلا يقتصر علىٰ التكرار؛ بل يضيف معه بعض الوسائل المعينة؛ كرسم شجرة المسائل ووضع الجداول والتلخيص والكتابة علىٰ سبورةٍ يقتنيها، وأضراب ذلك.



المطلب الخامس
معالم إرشادية في حفظ المتون العلمية

لقد منَّ الله علىٰ المشتغلين بالعلم بالمتون العلمية؛ لأنَّها تجمع مادةَ الخارطةِ الذهنيَّةِ للعلم، وتؤوي أمهات المسائل في عامةِ الأبوابِ في مختصرٍ صغيرٍ سهلِ الحفظ، وتمثل كلُّ قطعةٍ منه عمودًا يمكن أن يقوم عليه ما لا يحصىٰ من الفروع، ولهذا قالوا: «من حفظ المتون حاز الفنون».

ومع تنوع الفنون وكثرة المتون، وتعدد أحوالها من نظمٍ ونثر ومبسوطٍ ومختصر وصعبٍ وسهل.. كثرت الأسئلة الواردة عنها، وهذا المطلب يتولىٰ تحصيل الثقافة اللازمة عنها؛ ليستعين الحافظ بها علىٰ حسن التعامل معها، وأبث مادة هذا المطلب في عشرة معالم هذا بسطها:

أولًا: الناس في الحفظ متفاوتون؛ فمنهم من فُتِح له فيه، ومنهم من يناله ولكن بمشقة، ومنهم من لا يقدر عليه لكن فُتِح له في الفهم، ومنهم من فُتِح له في الحفظ المعنوي دون الحفظ الحرفي، وبحسب حال الإنسان يحدد خطة مسيره.

ولسنا نقصد بمن فُتِح له في الحفظ أنه يحفظ سريعًا وينسىٰ بطيئًا؛ فهذا عزيزٌ في الناس؛ ولكن الذي يحفظ ويضبط مع تكرارٍ لا يقل عن خمسين مرة، والأغلب من الطلبة آتاه الله ذلك، لكن الخلل ليس في القُدُرات الشخصية؛ وإنما في النفسية والمنهجية.

ومن كان يحفظ ولكن بمشقة.. فليكتفِ بحفظ المتون الصغيرة إن لم يستطع الكبيرة، وما تشتد حاجته إليه من المتن؛ فليس بالضرورة أن يحفظ المتن

من أوله إلىٰ آخره، والحق أنَّ الاكتفاءَ بموضع الحاجة من المتون والكتب سبيلٌ فعَّالٌ لتحصيل أكبر قدرٍ من مهمات العلم.

ومن كان لا يقدر علىٰ الحفظ.. فليعتمد الحفظ المعنوي، وليطل النظر في المتون؛ قراءةً وسماعًا وتأملًا، بحيث يمر علىٰ المتن في كلِّ نحو أسبوعٍ مرة، وليستعن علىٰ استظهار معاني المتن برسم خارطة العلم ومسائله وفصوله، ونحو ذلك.

علىٰ أنَّ إطالة النظر في المتن وتأمله واستظهاره بتراكيب الطالب لا يستغني عنه من اعتمد الحفظ الحرفي، ولو بلغ غاية الضبط؛ لأن من يكتفي بالحفظ الحرفي يصعب عليه استحضار المسائل عند الحاجة إن لم يرهقها تأملًا.

وذكروا أن العز بن عبد السلام كان يمر بذهنه علىٰ أبواب الفقه كل يومٍ قبل النوم، وأن الجلال المحلي لم يؤت حظَّه من الحفظ؛ وإنما فُتِح له في الفهم، وكان طويل التأمل، حتىٰ صارت كتبه محل عناية العلماء، وكثرت عليها الحواشي، وكلٌّ ميسرٌ لما خُلِق له.

ثانيًا: السنُّ الجوهري للحفظ يبدأ من العاشرة وحتىٰ العشرين، ثم يأخذ في الضعف، مع نمو الفهم، وبعد الثلاثين يصبح ضعيف الحفظ لكنه سريع الفهم عميق النظر.

ولهذا لما لاحظ القائمون علىٰ المدارس العلمية أنَّ حافظةَ الصغيرِ قويةُ الوعي لما يُودع فيها، وأنَّ فهم الكبير يحول تدريجيًّا بينه وبين الاستكثار من الحفظ.. رأوا أن يُزَوِّدوا حوافظ الصغار من القرآن وأحاديث السنة وألفاظ متون العلوم بدون إفهام، ثم يَكِرُّون علىٰ ذلك بالتدريس للإفهام[1].

---

(١) أليس الصبح بقريب لابن عاشور ص (٤٥).

ثالثًا: أَوْلَى العلم بالحفظ كتابُ الله تعالىٰ؛ فإنَّه رأسُ العلم، كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، وهو الذي يصوغ عقل المتفقه، ويُقَوِّمُ لسانَهُ، ويُبَيِّنُ له أولويات العلم عند الله؛ لئلا يُهَوِّنَ ما كان عظيمًا، أو يُضَخِّمَ ما كان صغيرًا.

ولو قارنت بين عناية القرآن الهائلة بتزكية الأنفس وقصص القرآن وفقه السنن وآيات الله في الأنفس والآفاق، والمساحة التي أعطاها لذلك.. ثم نظرت إلىٰ مساحة هذه المحاور الضخمة من مادة العلوم الشرعية التي تستحوذ علىٰ جلِّ أوقات الطالب وبرامجه.. لأدركت تحتم العناية بكتاب الله من أول يوم، وطول النظر فيه وفي معانيه، مهما تشعب في غيره؛ لئلا يتيه في الأودية الفرعية ولو كانت بالغةَ الأهمية.

ولهذا كان من فقه جماعةٍ من السَّلف أنهم كانوا يمنعون الطالب من التفقه في شيء حتىٰ يحفظ القرآن، ومن ذلك ما قال محمد بن الفضل: سمعت جدي يقول: استأذنت أبي في الخروج إلىٰ قتيبة، فقال: اقرأ القرآن حتىٰ آذن لك، فاستظهرت القرآن، فأذن لي[1].

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية: أيهما أفضل: طلب العلم أو القرآن؟ فأجاب: أما العلم الذي يجب علىٰ الإنسان عينًا؛ كعلم ما أمر الله به، وما نهىٰ الله عنه.. فهو مقدمٌ علىٰ حفظ ما لا يجب من القرآن؛ فإنَّ طلبَ العلم الأول واجبٌ، وطلب الثاني مستحب، والواجب مقدمٌ علىٰ المستحب.

وأما طلب حفظ القرآن فهو مقدمٌ علىٰ كثيرٍ مما تسميه الناس علمًا، وهو إما باطلٌ أو قليل النفع، وهو أيضًا مقدمٌ في التعلم في حق من يريد أن يتعلم علمَ الدين من الأصول والفروع؛ فإنَّ المشروع في حق مثل هذا أن يبدأ بحفظ القرآن؛ فإنه أصل علوم الدين، والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه، والعمل بما فيه، فإن

(١) تذكرة الحفاظ وذيوله للذهبي (٢/ ٢٠٩).



لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين، والله سبحانه أعلم[(١)].

ونبه علىٰ هذا الملحظ الشيخ الدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: إنَّ القدرةَ علىٰ استحضار النصوص الشرعية من الكتاب والسنة في أمور الدين.. هي أولىٰ الخطوات في طريق العلم والعمل؛ **فإنما الأمةُ الإسلاميةُ حضارةُ نص**[(٢)].

ولهذا أعظ من كان صادقًا في الطلب والحفظ أن يشرع في حفظ القرآن، ولو بأن يحفظ في كل أسبوعٍ صفحةً واحدةً! سواء بأن يحفظها في يومٍ ثم يكررها نحوًا من مائة مرة بقية الأيام للتثبيت، أو بأن يوزعها علىٰ أيام الأسبوع، وبهذا ينتهي من حفظ القرآن الكريم في اثني عشر عامًا ونصف، وهو وقتٌ معقولٌ قياسًا مع ما فات من العمر، لا سيما وأنه يكثر من التكرار لمصلحة ترسيخ الحفظ، وبهذا يزداد أجره ويعظم ثوابه وقربه من ربه.

والحاصل: أنَّ المتفقه ينبغي أن يُعظِم العناية بحفظ القرآن، وكذلك مهمات متون السنة، وليس بشرطٍ أن ينتهي من ذلك إن مست الحاجة لحفظ بعض متون العلم؛ فإنما هي في أصلها مسائل مأخوذةٌ من الكتاب أو السنة، أو توصل إلىٰ حسن فهمهما، ولهذا يمكن أن يمشي في حفظ القرآن وحفظ العلم معًا، ولا ينبغي أن يُنكر علىٰ فاعل ذلك أو يُشَغَّب عليه.

رابعًا: اعلم أنَّ نظامَ المتونِ له إيجابياتٌ وسلبيات، وقد تولىٰ شيخنا د. لبيب نجيب بيانَ طرفٍ حسنٍ من هذا فقال:

من فوائد المتون: جمع مهمات المسائل في كتابٍ صغيرٍ يسهل حمله وضبطه، وتيسير حفظ المسائل، وتقصير المدة الزمنية في التحصيل، وتحقيق التدرج في طلب العلم بالبدء بصغار العلم قبل كباره، وتثبيت المسائل بشروطها

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢٣/ ٥٤-٥٥).

(٢) مفهوم العالمية من الكتاب إلىٰ الربانية ص (٩١).

وضوابطها في الأذهان.

ومن السلبيات: المبالغة أحيانًا في الإيجاز إلى حد الإلغاز، وخلوها من مستجدات العصر وحوائجه بحكم أنها قديمة، وربما أعاقت بعض الطلبة عن المطولات، وربما حجبت عن التعامل مع النصوص الشرعية والدربة على ذلك؛ لقيامها على التلقين والتلقي، وخلوها من الأدلة.

صحيحٌ إنَّ هذه الملاحظات لا تتعلقُ بالمتون في نفسها؛ وإنما بفقه التعامل معها، وصحيحٌ أنها مداخلُ إلى العلم وأبوابٌ له.. لكن الطالب قد يقف عندها ولا يواصل، ومن ثم تصبح على حالها هي التي تتحكم في تشكيل عقلية الأجيال، وقد يعيش الطالب بضع سنين بعيدًا عن كتب معاني القرآن والسنة، وقد يعيش عزلةً عن واقعه بسبب ذلك، لا سيما وأنَّ كتب الشروح إنما هي تبعٌ لها تجاريها.

ومن الحلول: اختيار المتون البعيدة عن الإيجاز خاصةً في حق المبتدئ، والعناية بالمسائل المستجدة أثناء الشرح كل بابٍ بحسبه، وتكليف الطلبة بقراءةٍ مفردةٍ لبعض الشروح والكتب، مع البرامج الموازية للقراءة في كتب معاني القرآن والسنة[1].

خامسًا: من معايير اختيار المتن: أن يكون واضحًا، مُصَحَّحًا مضبوطًا، محلَّ عنايةِ العلماء بالشرح والتدريس، ولو توازت المعاييرُ بين مَتنَيْنِ وكان أحدهما محلَّ درسِك في وِردٍ خاص أو في مجلس علمٍ تحضره.. فهذه علامة ترجيح[2].

وإذا كان الطالب مبتدئًا فالمتن المنثور أحسنُ من المتن المنظوم؛ لأنه يغرس المسائل في ذهن الطالب بترتيبٍ محكم، وكلما كان سهل العبارة كان أحسن، بحيث لو أعدت المتن بلسانك أنت لم تبعد عن عبارة المصنف.

---

(١) معالم في حفظ المتون والمنظومات للبيب نجيب، بتصرف.

(٢) معالم في حفظ المتون والمنظومات للبيب نجيب، بتصرف.



ومن المتون التي تنطبق عليها هذه الصفة: الورقات في الأصول، والآجرومية في النحو، ومتن البناء والأساس في الصرف ونخبة الفِكَر في المصطلح.

وإذا كان الطالب في المرحلة الثانية أو الثالثة فالمتن المنظوم أحسن له من المتن المنثور؛ لأنَّ المادةَ تكبر، والمتن يطول، والنظم أسهل، إلا إذا كان المنثور أيسر له.

سادسًا: الناسُ في المتون طرفانِ ووسط؛ فمنهم من يبالغ في العناية بها، حتىٰ لا يكاد يدرس مسألةً إلا من خلال متن، ويحفظ عدة متون في العلم الواحد، ومنهم من يُبالِغ في ردِّها، مكتفيًا بالفهم، والوسط أن يحفظ ما تحصلُ به الحاجة، وهذا يتحقق بحفظِ متنٍ صغير يجمع رؤوس المسائل بترتيبٍ حسن، وحفظ متنٍ طويل يتناول ما ينبغي العلم به، ولو حصل المقصود بمتنٍ واحدٍ فقط اكتفىٰ به.

ومن أمثلة ذلك: أنَّ حاجةَ طالبِ النحو تحصل بحفظ الآجرومية والألفية، ولا داعي لأن يحفظ ملحة الإعراب وقطر الندىٰ وشذور الذهب، وإلا.. فقد أرهق عقله بغير كثيرِ فائدة.

ومن الفقه أن يجعل الطاقة في الاستكثار من حفظ الوحي كتابًا وسنة، وما استطاع من كلام العرب وأشعارهم؛ فهذا الذي ينتفع به، ويبني ملكته العلمية بواسطته؛ إذ الاكتفاء بالمتون وهجر ما سواها من شأنه أن يخدش وجه الملكة البيانية عنده، حتىٰ إنه ربما بات يألف لغة المتون أربىٰ من الكلام البليغ والإنشاء الفصيح.

سابعًا: يحسن قراءة شرح مختصرٍ ميسرٍ للمتن الذي يحفظ، ويمكن أن يعتمد شرحًا قديمًا يكون هو العُمدة، وشرحًا معاصرًا يستعين به علىٰ فهم الأول، ولا ينبغي التوسع أكثر من ذلك في المرحلة الأولىٰ والثانية.

ثم هو بالخيار؛ إما أن يَقرأ الشرح المعاصر أولًا، فإذا انتهىٰ منه قرأ الثاني، وإما أن يقرأ قطعةً من الأول، ثم يقرأ ما يوازيها من الثاني.

ثامنًا: تجزؤ الحفظ، فإذا أراد المتفقه أن يحفظ متنًا.. فلا يزد عن ثلاثة أبياتٍ في كل يوم، وبهذا ينتهي من ألفيةٍ في كل سنة، وبهذا يكون قد انتهىٰ بعد خمس سنوات من حفظ مهمات المتون.

وهذا المَعلمُ من أعظم العلامات التي تدلك علىٰ عقل المتفقه؛ إذ المراهنة الكبرىٰ علىٰ المواظبة، والعبرة باجتماع النقط، وأغلب حالات الفشل تأتي من إرادة الكثير ثم الانقطاع التام.

ومن مآثر أهل العلم في ذلك ما رواه حصين قال: جاءت امرأةٌ إلىٰ حلقة أبي حنيفة، وكان يطلب الكلام، فسألته عن مسألةٍ فلم يحسنوا فيها شيئًا من الجواب، فانصرفت إلىٰ حماد بن أبي سليمان فسألته فأجابها، فرجعت إليه فقالت: غررتموني؛ سمعت كلامكم ولم تحسنوا شيئًا!.

فقام أبو حنيفة فأتىٰ حمَّادًا فقال له: ما جاء بك؟ قال: أطلب الفقه، قال: تعلم في كل يوم ثلاث مسائل، ولا تزد عليها شيئًا، حتىٰ يتفق لك شيءٌ من العلم، ففعل، ولزم الحلقة، حتىٰ فقه فكان الناس يشيرون إليه بالأصابع[1].

ومرَّ بنا أنَّ الشيرازي كان يحفظ قياسًا واحدًا، ويكرره ألف مرة، ثم يتحول إلىٰ غيره، وبلغ بهذا.

والتقيت بأحد الأطباء فقال لي: كنت أشتهي حفظ القرآن، وأراه شيئًا يتعذر، وهو بالأحلام أشبه، فقررت أن أحفظ في كل شهرٍ خمس صفحاتٍ فقط، وكنت أظنها لا تُبَلِّغني شيئًا، لكنني أعجب من تتابع الأيام؛ إذ إني أقف اليوم علىٰ مشارف الانتهاء من حفظ القرآن مضبوطًا بفضل الله!.

تاسعًا: يحسن بحُفَّاظِ المتون البدءُ بحفظ خارطة كل علمٍ أولًا، فلو كان طالب الفقه يريد حفظ فصل المسح علىٰ الخفين مثلًا، فهناك فرقٌ بين الهجوم

---

(١) أخبار أبي حنيفة للصيمري ص (٢٠).



على حفظه، وبين إدراك موقعه من الخارطة.

وذلك بأن يعلم أنَّ أبوابَ الفقه تسعة، وأنَّ أولَها بابُ العبادات، وهو يتضمن خمسة كتب أولها الطهارة، وكتاب الطهارة يتضمن أربعة عشر فصلًا، وأن فصل المسح على الخفين ترجع عامةُ مسائله إلى خمس، وهو يشتغل الآن بحفظ الأولى أو الثانية، فعلى سهولة إدراك الخارطة إلا أنَّ لها دورًا عظيمًا في استحضار المسائل والأبواب.

عاشرًا: قد يحتاج قاصد الحفظ أدوات ووسائل تعينه؛ مثل رسم الجداول والربط بين الحروف، ومن ذلك ما قاله الشيخ فيصل المنصور:

«لا تظننَّ أنك قادرٌ على أن تُحكم العلم وتستحضر أبوابه بمجرد القراءة؛ بل لا بد لك من الحفظ والتكرار والتلخيص ووضع الجداول كما يفعل الطلاب الصغار!».

وقال: «طريقة ربط الحرف بالحرف للحفظ قديمة، قال ابن رستم: سألت التوزي عن التحنيب والتجنيب، أيهما في اليدين وأيهما في الرجلين؟ فقال: الجيم مع الجيم».

وفي هذا يقول الشاعر:

إنمـا العقـل ربـطُ شـيءٍ بشـيء ... ذاك معنـاه، فأسـمعوا يـا عيـون[1]



(١) ديوان عبد الغني النابلسي (١/ ١٦٤١).

المطلب السادس
ثمرة الحفظ

تقدم أنَّ العالِمَ حارسٌ للشريعة بعلمه كما أنَّ المجاهدَ حارسٌ لها وللعباد بعتاده، وإذا كان العلم كالسلاح فإنَّ الحفظَ كالذخيرة، فالذي وعىٰ العلم وحفظه فإنه يمشي بالشريعة في الناس، يبث أحكامها، ويدافع عنها، وكلما احتاج نصًّا أو فُتيا أو قاعدةً أو بيتًا من أنظام العلم.. نطق به من فوره؛ فعلمه عامرٌ في صدره، يستدعيه متىٰ شاء، ويتكلم فيه برسوخٍ وأهليَّة.

ومتىٰ لزم المتفقه هذا السبيل انتفع به غاية الانتفاع بعد أن يبلغ في العلم؛ إذ يتيسر له من التدريس والتصنيف والإفتاء وأضراب ذلك ما لا يتيسر لغيره، حتىٰ إنه ليقوم بالأعمال الكبيرة في أوقاتٍ يسيرة.

وانظر إلىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية وقد كتب العقيدة الحموية في قعدةٍ واحدةٍ، واليوم يدرسها طلاب الدراسات العليا في سنة!.

ولما قصد مصرَ مرَّ بغزةَ وعقد بها مجلسًا عظيمًا في جامعها[1] بعد صلاة العصر في صحن المسجد، ولعله المسجد العمري، وسأله أمير غزة يومها الأمير الكبير قيس المنصوري أن يُعلِّق له شيئًا في سياسة الرعايا، وما ينبغي للوالي أن يسلكه معهم، فأجابه إلىٰ ذلك، وعلقها له في ليلةٍ واحدةٍ إلىٰ الصباح، وكان جوابه الذي حرره هو كتابه الذي سماه: «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي

---

(١) وذكر ابن كثير ذلك في كتابه البداية والنهاية (١٤/ ٤٣)، وكذلك الشيخ بكر أبو زيد في كتابه المداخل إلىٰ آثار شيخ الإسلام ابن تيمية ص (١٩).

والرعية»، وهو الكتاب المشهور في الأحكام السلطانية الذي قل أن تخلو منه مكتبة طالب علم(١).

وجاء في ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه كان ذا قلم يسابق البرق إذا لمع، يملي على المسألة الواحدة ما شاء من رأس القلم، ويكتب الكرَّاسين والثلاثة في قعدة، وكان يكتب في بعض الأحيان في اليوم الواحد ما يُبيِّض منه مجلد(٢).

ومر بنا أنَّ أبا بكر بن محمد الزَّرَنْجَري كان يلقي الدرس من أي موضع متى طُلِبَ منه ذلك من غير مطالعةٍ ولا مراجعةٍ لكتاب، لكنه لما سئل عن مسألة قال: كررتُ هذه المسألةَ ليلةَ أربعمائة مرة!(٣).

وهذا النَّفَسُ من العطاء والضبط وجدته في السادة الشناقطة؛ كشيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو ومحمد يسلم والتاه وسيدي أحمد وَيْس وخيار الناس وغيرهم.

فهذا هو سبيل الأئمة، والفقيه من لزمه ولم ينحرف عنه يمنةً أو يسرة، يقول الشيخ مشاري الشثري: أدنى مطالعةٍ لتراجم العلماء في مختلف القرون تدلك على أنَّ حفظَ المتون كان نهجًا محكمًا لا يكاد يحيد عنه طالبٌ للعلم في مبتدأ طلبه وخبره، بل ربما رأيت الواحد منهم يحفظ أكثر من متنٍ في فنٍّ واحد، وهم أعلامٌ ليسوا نُسَخًا زائدةً كما يحلو لبعض المحرومين وصفُ الحفاظ بذلك(٤).

ويالله ما أعظمَ أن يكون علم العالِم في صدره، يأخذ منه ما احتاج متى شاء لا يضيع منه حرفًا!.

---

(١) كشف النقاب عن مؤلفات الأصحاب لسليمان بن عبد الرحمن بن حمدان ص (١٢٥)، موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة ١-٢٩ للشحود (٨/ ١٤١).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ص (٣٤٠)، أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي ص (١/ ٥٨).

(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٩/ ٢٠٠-٢٠١).

(٤) ارتياض العلوم للشثري ص (١٠٦).

ويتأكد التنظير لهذا النَّهج أننا اليوم في عصر أزمات، وقد تأتي البلدَ الذي تسكنه من الأحداث العظام ما لا تقدر معه أن تُطالع كتابًا، وقد تكون ممن انعقدت الأنامل عليه يطلبون العلم الذي عنده، وليس معك ساعتئذٍ كتبٌ متنقلة، ولا مكتبةٌ شاملة، ولا شبكة انترنت تستدعي عبرها ما تشاء، وإنه لمن السهل أن تقول لما لا تدري: لا أدري، لكنَّ من العيب أن تقول للشيء الذي كنت تقدر أن تقول فيه: أدري: لا أدري.

فإن قلتَ: إنَّ السبيلَ طويل، وقد مضىٰ العمر؟.. قلت: أشاطرك الشعور، وإني لأبكي علىٰ نفسي إذ لم أجد من يأخذ بي إلىٰ هذا السبيل، ويلزمني به، وما اكتملت اليقظة له إلا متأخرًا، لكنَّ المراهنةَ علىٰ قرار البداية والمواظبة واجتماع النقط.

ولنا في سيرةِ الإمام أبي بكر القفال سلوىٰ وعظةٌ وأمل.

فإنه لما رغب في العلم وقد بلغ من العمر أربعين سنة جاء إلىٰ شيخ من أهل مرو، وعرَّفه رغبته، فلقنه أول كتاب المزني: «هذا كتابٌ اختصرته..»، فرقي إلىٰ سطح بيته، وكرر عليه هذه الكلمات الثلاث من العشاء إلىٰ الفجر، فغلبته عينه فنام، فلما انتبه وجد أنه نسيها فضاق صدره، وقال: ماذا أقول للشيخ؟.

وخرج من بيته حزينًا فقالت له امرأةٌ من جيرانه: يا أبا بكر؛ لقد أسهرتنا البارحة في قولك: «هذا كتابٌ اختصرته..»، فتلقنها منها وعاد إلىٰ شيخه وأخبره بما كان منه، فقال له: «لا يصدنك هذا عن الاشتغال؛ فإنك إذا لازمت الحفظ والاشتغال صار لك عادة»، فَجَدَّ ولازم الاشتغال حتىٰ كان منه ما كان، فعاش ثمانين سنة أربعين جاهلًا وأربعين عالمًا![1]

يقول تاج الدين السبكي: فبارك الله تعالىٰ في علمه، حتىٰ أربىٰ علىٰ أهل

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (١١٦/٥).

عصره، وصار أفقه أهل زمانه، وكانوا يقولون: إنه مَلَكٌ في صورة إنسان!.

ومع بلوغه الإمامة فإنه لم ينس حاله أول نشأته؛ فقد أثر عنه أنه قال: ابتدأتُ التعلم وأنا لا أفرق بين «اختصرتُ واختصرتَ»، قال ابن الصلاح: أظن أنه أراد بهذا الكلمة الأولىٰ من مختصر المزني، وهو قوله: «اختصرت هذا من علم الشافعي»، وأراد أنه لم يكن يدري من اللسان العربي ما يفرق به بين ضم تاء الضمير وفتحها![(١)]

ولهذا اقصد باب الله، وألح عليه، ولا تيأس، وارج فضله، فإن الله إذا أعطىٰ أدهش، والله ذو الفضل العظيم.

لكني أهتف بك قائلًا: يا أيها الطالب اللبيب، والراغب الأريب.. اعلم - أسعدك الله تعالىٰ- أنَّ هذا العلمَ بطيءُ اللِّزام، بعيدُ المرام، لا يُدرك بالسِّهام، ولا يُرىٰ في المنام، ولا ينال بالأوهام، ولا يورث عن الآباء والأعمام، ولا يناله كسلان، ولا يوفقه نومان، وإنما يعطاه من بذل كلَّه في سبيل الطَّلب، ولم يُبالِ بما يناله من كدٍّ وتعب، فإنَّه شجرةٌ لا تصلح إلا بالغرس، ولا تُغرس إلا في النفس، ولا تسقىٰ إلا بالدرس، ولا يحصل إلا لمن أنفق العينين، وجثا علىٰ الركبتين، ووصل الليل بالنَّهار، وحفظ موقعه في محاريب الأسحار[(٢)].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ لتاج الدين السبكي (٥/ ٥٤-٥٥).

(٢) تُنسب هذه المقولة لغير واحدٍ من المعاصرين، ولكن بألفاظٍ مختلفة، وقد جمعت بينها بشيءٍ من التصرف مع زيادةٍ ونقص، وأحسب أنَّ أولَ من تكلم بأصلها هو بديع الزمان الهمذاني (ت: ٣٩٨هـ) في مقاماته، وذلك في «المقامة العلمية»، ونصها:

«كُنْتُ فِي بَعْضِ مَطَارِحِ الغُرْبَةِ مُجْتَازًا، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَقُولُ لآخَرَ: بِمَ أَدْرَكْتَ العِلْمَ؟ وَهُوَ يُجِيبُهُ، قَالَ: طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ بَعِيدَ المَرَامِ، لا يُصْطَادُ بِالسِّهَامِ، وَلا يُقْسَمُ بالأَزْلامِ، وَلا يُرَىٰ فِي المَنَامِ، وَلا يُضْبَطُ بِاللِّجَامِ، وَلا يُورَثُ عَنِ الأَعْمَامِ، وَلا يُسْتَعَارُ مِنَ الكِرَامِ، فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ بِافْتِرَاشِ المَدَرِ، وَاسْتِنَادِ الحَجَرِ، وَرَدِّ الضَّجَرِ، وَرُكُوبِ الخَطَرِ، وَإِدْمَانِ السَّهَرِ، وَاصْطِحَابِ السَّفَرِ، وَكَثْرَةِ النَّظَرِ، وَإِعْمَالِ الفِكَرِ، فَوَجَدْتُهُ شَيْئًا لا يَصْلُحُ إِلاَّ لِلْغَرْسِ، وَلا يُغْرَسُ إِلاَّ بِالنَّفْسِ، وَصَيْدًا لا يَقَعُ إِلاَّ فِي



وأخيرًا:

لا تنس أنَّ من أعظم ثمرات الحفظ والضبط اكتمالَ نضارة وجهك، كما دعا النبي ﷺ بذلك لمن حسن حفظه، فأمامك مشهد تكريم يوم القيامة، وما أسعدها من ساعةٍ يوم تأتي القيامة وتكون ضابطًا للعلم متقنًا للقرآن ويكون حالك كما مرَّ من حال الشيخ المعصراوي الذي يختم القرآن غيبًا بإحدى القراءات في كل عشرة أيام مرة، وما أمسك المصحف للمراجعة من خمسين سنة، تستمتع حين **«يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»**[1]!.

اللهم أنعم علينا بذلك، وأنزل علينا من بركاتك ورضوانك.



= النَّذْرِ، وَلا يَنْشَبُ إِلاَّ فِي الصَّدْرِ، وَطَائِرًا لا يَخْدَعُهُ إِلاَّ قَنصُ اللَّفظِ، وَلاَ يَعْلَقُهُ إِلاَّ شَرَكُ الحِفْظِ، فَحَمَلْتُهُ عَلىٰ الرُّوحِ، وَحَبَسْتُهُ عَلىٰ العَينِ، وَأَنْفَقْتُ مِنَ العَيْشِ، وَخَزَنْتُ فِي القَلْبِ، وَحَرَّزْتُ بِالدَّرْسِ، وَاسْتَرَحْتُ مِنَ النَّظَرِ إِلىٰ التَّحْقِيقِ، وِمِنَ التَّحْقِيقِ إِلىٰ التَّعْلِيقِ، واسْتَعَنْتُ فِي ذَلِكَ بِالتَّوْفِيقِ، فَسَمِعْتُ مِنَ الكَلامِ مَا فَتَقَ السَّمْعَ، وَوَصَلَ إِلَىٰ القَلْبِ، وَتَغَلْغَلَ فِي الصَّدْرِ، فَقُلْتُ: يَا فَتَىٰ، وَمِنْ أَيْنَ مَطْلَعُ هَذِهِ الشَّمْسِ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ:

إِسْكَنْدَرِيَّةُ دَارِي ... لَوْ قَرَّ فِيهَا قَرَارِي
لكِنَّ بِالشَّامِ لَيْلِي ... وَبالْعِرَاقِ نَهارِي

انظر: مقامات بديع الزمان الهمذاني ص (٥٠).

وذكرها أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت: ٤٥٣ هـ) في كتابه «زهر الآداب وثمر الألباب»، ولكن بزياداتٍ كثيرة، أحيل علىٰ الكتاب لطولها، وموضعها فيه المجلد الثاني ص (١١٩).

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٤٦٦)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٩١٤). وقال الألباني: حسن صحيح، واللفظ لأبي داود، ولفظ الترمذي: «فإن منزلتك عند آخر آيةٍ تقرأ بها».



الفصل الثالث
الإنتاج العلمي وصناعة المعرفة

من رام الإمامةَ في علمٍ فإنَّ علاقتَهُ بمعلوماته ينبغي أن تمرَّ بثلاثِ مراحل:

الأولىٰ: تلقي المعلومة وفهمها وضبطها.

الثانية: معرفة نَسَبِ المعلومة وأصلِها الذي تُرَدُّ إليه وكيف تأَسَّست وصُنِعت ونَمَت حتىٰ تشكَّلَت بهذه الصورة؟، ويعرف كذلك كيف نشأ العلمُ نفسه وكيف صُنِع وتَرَتَّبَ ونضج وترعرع وتطوَّر حتىٰ اكتمل واستوىٰ علىٰ سوقه؟.

الثالثة: صناعة المعلومة؛ إذ لكل زمنٍ ذوقُه وحوائجه، وينبغي أن يُنْتَجَ له من العلم نسجًا علىٰ أصول كل علم وقواعده ما يلبي حوائجه، ويتناول مستجداته ونوازله، ويُعرض بحسب ذوق أهله؛ من إعادةِ عرضٍ وترتيبٍ وصياغةٍ واستنباط.

وإنَّ الذي عرف كيف صنع الأئمة المتقدمون العلمَ في صورته الأولىٰ يسهل عليه أن يصنع مثلهم مستفيدًا من تجاربهم المُدَوَّنَة، وفضلُ الله واسع.

ولله در شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي إذ قال: هذه الكتب فيها أماكن تبقىٰ مصونة، وأرزاقٌ تبقىٰ مدَّخرةً لبعض المتأخرين، فيفتح الله لهم فيها ما كان مسدودًا علىٰ من سواهم، ولهذا قال ابن مالك في مقدمة التسهيل: «وإذا كانت العلوم مِنحًا إلهية، ومواهب اختصاصية.. فغير مستبعدٍ أن يدَّخر الله

لبعض المتأخرين ما عسر علىٰ كثيرٍ من المتقدمين».

وإذا كان ما تقدَّمَ من فقهِ الطلب يُركِّزُ علىٰ حسنِ إدراكِ العلم وفهمه وضبطه.. فإنَّ هذا الفصلَ يتناول التمكنَ من ناصية العلم، وبثه في التدريس والتأليف، وتكوين الملكة فيه، والترقي في ذلك حتىٰ التمكن من صناعة العلم والمعرفة برسوخٍ وأهليةٍ بإذن الله وفضله.

وبحسب هذه التقدمة فإنَّ عرشَ هذا الفصل يتكئ علىٰ مبحثين، يتناول الأول الإنتاج العلمي تدريسًا وتأليفًا، وما يتطلبه ذلك من الشروع في تكوين الملكة العلمية، ويتولىٰ الآخر الحديث عن صناعة المعرفة والسبيل إلىٰ ذلك.

هذا الإجمال وإليك التفصيل:



المبحث الأول
الإنتاج العلمي

المعارج التي يترقىٰ فيها المتفقهُ تفصيلًا هي تلقي العلم ثم حسن فهمه ثم حفظه وضبطه ثم نشره بالتدريس أو التصنيف، مع ما يقترن بذلك من العمل به، وما يتطلبه من الشروع في بناء الملكة العلمية، ثم صناعة المعرفة.

وفي هذا المبحث حديثٌ عن تكوين الملكة العلمية، ثم عن فقه التدريس، ثم عن فقه التأليف، فهو مبحث ذو ثلاثِ شُعَب، ودونك بثَّ كلِّ شعبةٍ منه في مطلب:

المطلب الأول
تحصيل الملكة العلمية

الملكة هي صفةٌ راسخةٌ في النفس، وذلك أنَّ النفسَ إذا فعلت فعلًا ما صار لها كيفيةٌ نفسانيةٌ تسمىٰ حالًا، ومن شأن الحال أن يكون سريع الزوال، فإذا تكرر الفعل ومارسته النفس حتىٰ رسخت فيها تلك الكيفية وصارت بطيئة الزوال قيل لها: مَلَكَة[1].

ولمَّا كان الطَّاهرُ بن عاشور يبين أنَّ القصد من كل علمٍ إنما هو إيجاد

(١) التعريفات للجرجاني ص (٢٩٦).

الملكة التي استُخدمَ لإصلاحها.. قال: ونعني بالملكَةِ أن يصيرَ العلم بتعليمات العلم كسجيَّةٍ للمتعلم لا يحتاج معها إلىٰ مشايعة القواعد إياه[١].

ومن ذلك أنَّ طالبَ النحو مثلًا يتعلم قواعده ويتدرب علىٰ التزامه في منطقه، ويحاول إصابةَ الإعراب في حديثه وكتابه، فإذا استمرَّ علىٰ ذلك، وداوم تكراره صار النطق به علىٰ الوجه العربي الصحيح ملكةً مستقرَّةً له، لا يحتاج فيها إلىٰ تذكر القواعد؛ بل يجري علىٰ لسانه سهلًا حاضرًا بلا تكلف[٢].

ومن هنا نلحظ أنَّ المجالَ الذي تنشأ فيه الملكة هو السلوك والأفعال والتصرفات والمهارات، فتكرار هذه الأمور يصَيِّرها صفةً راسخةً في النفس، تُفعل بتلقائيَّةٍ من غير تكلفٍ ولا استحضار[٣].

وهذا المعنىٰ وافرُ الحضور في كلام السلف، لكن يُعَبَّر عنه في كلامهم بألفاظٍ منها: فقه النفس وفقه الطبع والرسوخ.

واعلم أنَّ الملكةَ العلميَّةَ مراتبُ ودرجات؛ فتبدأ من ملكة النظر في كتب العلم، وقوة الإدراك للمسائل، وكذلك ملكة الضبط والمذاكرة والمناظرة والتأمل والتدريس والتأليف وفهم وحسن التمرس في تقرير مسائل الفن.

فلو جئنا إلىٰ علم الفقه مثلًا فإننا نجد ملكة الاستدلال واستنباط العلل والقياس ودراسة المسائل وتحقيق المناط وتحرير الأقوال والترجيح بينها، وتخريج الفروع علىٰ الأصول، والتنزيل علىٰ الوقائع، والإفتاء والاجتهاد الجزئي والاجتهاد المطلق الذي يستقل صاحبه بالنظر دون أن يتقيد بأصول غيره، وصناعة المعرفة.

---

(١) أليس الصبح بقريب لابن عاشور ص (١٥٣).

(٢) الملكة الفقهية حقيقتها وشروط اكتسابها وثمراتها لعبد الله القاضي ص (٢٥)، وتختصر حيث ذكرت: الملكة الفقهية.

(٣) الملكة الفقهية ص (٣٤).

وعلىٰ هذا؛ فإنَّ الملكةَ يُنفخ فيها الروح من بواكير الطلب، لكنها لا تولد عادةً إلا في المرحلة الثانية من التلقي، في بعض المراتب المذكورة، والمتفقهة في كل علمٍ يتفاوتون في اكتسابها بين مقلٍّ من هذه المراتب ومستكثرٍ منها، وكلٌّ وما فتح الله له.

أما عن السبيل لاكتساب الملكة العلمية فإنه يتوقف علىٰ خمسة شروط: الاستعداد الفطري والنفسي، والعناية بقواعد العلم وكلياته، وإحكام منهج التلقي، والممارسة المباشرة، والتكرار، فالشرط الأول جِبلِّي، والأربعة التالية مكتسبة، ودونك تفصيل ذلك:

أولًا: الاستعداد الفطري والنفسي:

وهو يتضمن ثلاثةَ أمور:

الأول: الذكاء: أي: المعتدل، فلا نقصد العبقرية الفائقة، وذلك ليكون المتفقه جيدَ التمييز صحيحَ الفهم سريعَ الإدراك.

الثاني: الرغبة في اكتساب الملكة: وهذه قد تُعوِّض نقص الذكاء، فلو كان غير سريع الإدراك فإنَّ قوة الميل النفسي تعين علىٰ تحصيل الملكة.

الثالث: الطبيعة المعتدلة: وذلك أنَّ الإنسان وإن اتبع قواعد كل علم إلا أنه بشرٌ لا يخرج عن طبيعته التي جُبِل عليها، وبقدر قربه في الخصال والأخلاق من الاعتدال بين طرفي الإفراط والتفريط.. يكون أقرب إلىٰ السَّداد، ويكون قربه هذا عونًا ربانيًّا عظيمًا؛ إذ فطره الله علىٰ حسن الخلق واستوائه؛ لما له من أثرٍ كبيرٍ علىٰ سلوكه واختياره وتصرفه.

أما حيث ابتعد خلقه الفطري عن الاعتدال فليجاهد نفسه جهادًا كبيرًا علىٰ اكتساب الخلق الحميد، أو كف النفس عما يدعو إليه الخلق الذميم، وإن كان

باقيًا، وما دام مكلفًا بالتحول إلىٰ الخلق الحميد فهذا أعظمُ دليلٍ علىٰ الوسع والإمكان؛ فإنَّ الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها[1].

وفصَّل الشيخ الطريفي فرَّج الله عنه القول في طبائع النفوس واختلافها وفقه التعامل معها، ومما قال:

ثمة نفوسٌ غضوبٌ حادة وأخرىٰ هادئة، ونفوسٌ عجولٌ طائشة وأخرىٰ ذات تؤدة، ونفوسٌ مضطربة وأخرىٰ ساكنة، ونفوسٌ طامعةٌ متشوفة وأخرىٰ قنوع، ونفوس شديدةٌ وأخرىٰ رقيقة لينة، وغيرها من الطبائع، وكل طبع من هذه الطبائع النفسية مؤثرٌ في عقل صاحبه، ولو كان العلم الذي تلقته هذه النفوس واحدًا في نوعه وكمه.. لاختلفت هذه النفوس كثيرًا في الانتفاع منه، وفي طريقة استعمال العقل له، وانتقاء أدلته وبراهينه، وبيناته وحججه، واستخدام ذلك عند النوازل الخاصة والعامة.

فالنفوس المطبوعة علىٰ الشدة والقسوة مثلًا قد تكون ميالةً إلىٰ العلم الذي تهوىٰ ويشابه طبعَها، فتعمل به مطمئنة، ولهذا تتشوف إلىٰ أدلة الانتصار والمجازاة بالمثل ومعاقبة المخطئ وردعه وزجره، فتتلقف أدلة ذلك ولا تتشوف إلىٰ ضدها.

ويقابلها النفوس المطبوعة علىٰ الراحة والرقة والضعف؛ فإنها قد تكون ميالةً إلىٰ أدلة السلم والمسالمة والمسامحة والعفو والصفح، ولا تتشوف إلىٰ ضدها، وكل هذه النفوس تحتاج إلىٰ مجاهدةٍ حتىٰ تتوسط وتعتدل.

ولهذا كان من فقه المُعَلِّم التيقظ لذلك، فيقابل هذه النفوس بضد طبعها؛ فالنفوس التي تميل إلىٰ الحدة والشدة لا تُعطىٰ من الأدلة ما يزيدها في ذلك، وكذلك النفوس التي تميل إلىٰ الرقة والضعف.

---

(١) الملكة الفقهية ص (٤٨٨) بتصرف وزيادة يسيرة.

وتُراعىٰ كذلك النفس المضطربة التي لا تتلقىٰ العلم تلقيًا صحيحًا سويًّا، ومن ثَمَّ لا تستعمله استعمالًا صحيحًا؛ لأن علمها مجتزأ مبتور غير ناضج ولا مكتمل؛ لأنها ستستعمل العلم وتؤديه كما أخذته.

وقد تكون هذه النفوسُ زكيةً صادقةً في تحصيل العلم، ولكنها مبتلاةٌ باضطرابها وشتاتها، فهذه تتلقىٰ العلم بجهدٍ جهيد، وربما لا تُحَصِّلُ من العلم في عامٍ ما تحصله النفوس السوية في شهر.

ومن الرحمة بهذه النفس إعطاؤها من العلم ما يكفي ذاتها، ونصحُهَا بالتوجه إلىٰ ما ينفعها مما يناسبها من الأعمال والمصالح، حتىٰ لا تأخذ العلم مبتورًا وتستعمله مبتورًا فتسيء إليه وهي تظن أنها محسنةٌ فيه، خاصة إذا كانت علىٰ اضطراب طبعها مطبوعةً علىٰ طبعٍ آخر؛ وهو الجسارة والعجلة، وفي مثل هذه النفوس يقول الفراء: «لا أرحم أحدًا كرحمتي لمن يطلب العلم ولا فهم له».

بل إنَّ من النفوس من ضعف تحصيلها للعلم رحمةً بها وبالناس؛ لأنها تستعمل العلم في غير مواضعه وتستغله للهوىٰ، ومن هنا قال ابن المبارك: «لقد من الله علىٰ المسلمين بسوء حفظ إسماعيل بن خليفة»[1].

والمقصودُ أنَّ تكوينَ الملكة في علمٍ يجب ألا يتجاوز قواعد هذا العلم، سواء في التدريس أو التصنيف أو الابتكار فيه أو غير ذلك، وهذا يتطلب نفسًا معتدلةً ليكون صاحبها صحيحَ النظر فيه، سواء كان اعتدال النفس حاصلًا بالطبع والجِبِلَّة أو بالتربية والمجاهدة.

---

(١) الفصل بين النفس والعقل للطريفي ص (٥٢-٦٣) بتصرف.

ثانيًا: العناية بقواعد العلم وكلياته وأصوله:

إذ بهذه العناية يتيسر لطالب العلم إدراك مسائل العلم الذي يشتغل فيه؛ لما تجمعه الأصول والقواعد من أشتات الفروع، وبهذا يصح تصوره للعلم، وتتضح له مآخذه، وينكشف له ما بين أفراد مسائله من الصِّلة والنَّسب، وبه يطَّرد في أحكامه، ويسلم من التناقض والتخبط الناشئ عن النظر الجزئي في الفروع.

ومن وعىٰ ذلك وتمكَّن منه ظهرت له أسرار العلم، وقدر علىٰ معالجة المستجدات فيه، وكان علىٰ بصيرةٍ وطمأنينةٍ وثباتٍ مما يتكلم فيه، وهذه المعاني هي المقصودة بالرسوخ في العلم المُعبَّر عنه بالمَلَكةِ فيه[1].

إذا تقرر هذا؛ فلا ينبغي أن يتراخىٰ طالب العلم في العناية بهذا الباب، بل يجتهد من أول يوم في الطَّلبِ أن يجعل عامة ما يتلقاه من علمٍ مُقَعَّدًا؛ بأن يفكر في القواعد التي يُرَدُّ إليها، والأصول التي يتفرع عنها، مع تتبع الحرف الذي عليه المدار في المسألة، وسبب الخلاف فيها، ويتدرب دومًا علىٰ كل ذلك، فإذا لزمه صار له سجيةً وملكةً يجد بركتها في الضبط والتفكير والتدريس والتأليف والمباحثة وغير ذلك.

ثالثًا: إحكام منهج التلقي:

ونقصد به خصوص ما يتعلق بالبناء المنهجي للملكة، ويمكن رسم معالمه في البنود الستة الآتية:

الأول: إحكام المنهج الدراسي؛ بأن يشتمل علىٰ علوم الآلة والغاية، وما يتشقق عنها من علوم فرعية، مع العناية بالكتب التي تبني العقل.

الثاني: وجود المدرس الحاذق القدوة، وحبذا لو كان يسعىٰ في تكميل الطالب، وكان له مشاركةٌ في العلوم.

---

(١) الملكة الفقهية ص (٤٨٩).

يقول ابن خلدون: «ولقاء المشيخة مزيدُ كمالٍ في التعليم، والسبب في ذلك أنَّ البشرَ يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة، إلا أنَّ حصولَ الملكات عن المباشرةِ والتلقين أشد استحكامًا وأقوىٰ رسوخًا، فعلىٰ قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها»[1].

الثالث: الطريقة المثلىٰ في التدريس، وهي التي يقوم بنيانها علىٰ سماتٍ منها: حسن التصوير للمسائل، والعناية بالتأصيل والتقعيد، والتدرج بتدريس صغار العلم قبل كباره، وعدم الاستطراد، ومتابعة الطالب في الحفظ والضبط، مع تخصيص مساحةٍ من الدرس للمباحثة والمذاكرة والتأمل والتدريب.

وينبغي أن ينتبه إلىٰ أنَّ وجودَ مُدَرِّسٍ عارفٍ بالفن لا يعني وجود طريقةٍ صحيحةٍ في التدريس؛ فكم من شيخٍ أوتي علمًا لكن طريقته المتبعة لا تبني طالبًا ولو مكث عنده سنوات، والمدرس الفذ هو من يُوَصِلك ويُوصِلُك لا من يُعَلِّمك ويلقنك.

ولهذا إذا منَّ الله عليك بشيخٍ يُراعِي قواعدَ البناءِ المنهجي للطالب.. فعض عليه بالنواجذ، واجعل له الأولوية في الأوراد، وإلا.. فاستفد منه ما يُحسن، مع المبالغة في توقيره، وابحث عمَّن تُكَمِّل به غايتك ولو عبر التواصل الشبكي، بالإضافة للتسجيلات الصوتية والمرئية.

الرابع: الاستعداد الحسن لمجلس الطلب: وذلك بأن يقرأ الدَّرس عدَّة مراتٍ حتىٰ يستظهر أكثره؛ إذ لا يُستفاد من الدرس جيدًا إلا إذا كان المتفقه واعيًا بأصله، ولم يبق إلا حل المُشْكِل، وعندئذٍ يتفرغ الذهن لالتقاط الجديد، ومعالجة النقص، وقوة الإدراك للمسائل، واكتشاف صلة الرحم بين الفروع، وتنزيله علىٰ

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٣٤٨).

الواقع، وغير ذلك، وسيأتي مزيدُ بسطٍ لهذا البند في المطلب القادمِ إن شاء الله.

الخامس: حضور المؤتمرات العلمية والأيام الدراسية والمحاضرات المنهجية: فإنها تهبك عقلًا واسعًا في الموضوع الذي يُطرح.

ولا ينبغي أن تفوت؛ لأنها مما يفوت، والأوراد الشخصية لا تفوت، صحيحٌ إنَّ بعضَها قد يلتهم وقتك الذي تضن به من غير كثير فائدة، إلا أن ما يأتي من خيرٍ يكون عظيمًا.

السادس: فن القراءة المنتجة: ولها صور منها:

أولًا: القراءة التحليلية على ما مرَّ من الطريقةِ الفَذَّةِ التي ذكرها ابن بدران الحنبلي[(١)].

ثانيًا: القراءة في كتب المتقدمين والكبار؛ فإنها تُقَدِّمُ وتُكبِّر، وقد قالوا: صُحبَةُ الفُحولِ تُفَحِّل، ومن لزم ذلك استراح من عناء الجدل حول كلام بعض المعاصرين، وتحريراتهم للمسائل، على ما في كلام المتقدمين والكبار من تأصيلٍ ودُربةٍ وعمقٍ ودِقَّةٍ وبركة، حتى تكاد الصفحة الواحدة من كلامهم تعدل عشرين أو يزيد من كلام المعاصرين غالبًا.

ثالثًا: أن يقرأ قراءةَ ارتياضٍ على الاجتهاد؛ فيقرأ ليتعرف على مسالك النظر، ويتأمل في دقة الفهم عند العلماء، وكيفية استدلالهم للمسائل ومناقشتهم للأقوال، ويمحص الآراء، ويتدرب على الاستنباط والتكييف الفقهي للمستجدات والنوازل.

فطالب المَلَكَةِ ليست همته في قراءة النتيجة التي انتهى إليها المؤلف؛ إنما كيف انتهى إليها؟ وما الخطوات التي سلكها؟ وما القواعد والمقدمات التي بنى قوله عليها؟ أما معرفة النتيجة فإنها تبع، وإلا فما القيمة العلمية العائدة على تنمية

(١) انظر مطلب أنواع القراءة من المبحث الأول من الفصل الأول.

الملكة بين أن يوافق رأيُ الشيخ الذي رجَّحَهُ مذهبَ الشافعي أو أحمد في الفقه أو مذهب البصرة أو الكوفة في النحو مثلًا!.

وأشار د. أحمد خيري العمري إلىٰ ذلك فقال: من تربىٰ علىٰ التلقين يريد أن تقول ما لديك بأقصر الطرق، ربما لكي يسجلها في دفتر ملاحظاته ضمن محفوظاته، أما من يرغب في التعلم حقًّا فيريد أن يخطو معك في طريقك الأطول خطوةً خطوة؛ ليصبح شريكًا معك في وصولك.

وقصد هذا الطرح أن يُعمِلَ القارئُ مهارات النقد والتحليل والتأصيل لما يقرأ[١].

ومن الخير أن ينظر في الكتب التي تكلمت عن تكوين الملكة، ويرىٰ المعاني التي ينبغي استحضارها في الذهن ساعة القراءة في كتب أهل العلم؛ فإنَّ ذلك أعون علىٰ استثمار القراءة في تحصيل الملكة وبناء الذهنية العلمية[٢].

رابعًا: التكرار وإدمان النظر في كتب العلم:

وذلك أنَّ كثرة المزاولات تعطي الملكات، فتبقىٰ للنفس هيئة راسخة، وملكة ثابتة[٣]، وقد تقدَّم التنظيرُ طويلًا لحفظ العلم وضبطه، ومذاكرته ومباحثته والتأمل فيه، والتفرغ له، والاختصاص ببابٍ من أبوابه، وإدمان النظر في عمدةِ الكتب.

---

(١) الملكة الفقهية ص (٣٢٤).

(٢) ينظر مثلًا: تكوين الملكة الفقهية لمحمد عثمان شبير، والملكة الفقهية.. حقيقتها وشروط اكتسابها وثمراتها لعبد الله القاضي، وتكوين ملكة المفسر لحاتم العوني، وتكوين الملكة اللغوية للبشير عصام المراكشي، وتربية ملكة الاجتهاد من خلال كتاب «بداية المجتهد وكفاية المقتصد» لمحمد بولوز، وأضراب ذلك.

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢٨٤).

وهذه الوسائل هي المتبعة في ترسيخ المعارف من جهة، وتحصيل الملكة والرسوخ من جهةٍ أخرىٰ، وذلك من أجل أن تبني بها عقلًا ينتج علمًا ويصنع معرفة؛ فإنَّ شأنَ العلم شأنُ الصنعة، بقدر المواظبة عليها يكون إتقانها والتمهر فيها، حتىٰ ربما حصلت علىٰ براءةِ اختراعٍ فيها.

وهذا المعنىٰ قد صرَّح به ابن خلدون حتىٰ إنه جعل الحذق في العلم منوطًا بتحصيل الملكة فيه فقال: «إنَّ تعليمَ العلم من جملةِ الصَّنائع؛ وذلك أنَّ الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكةٍ في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف علىٰ مسائله، واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلًا»[1].

خامسًا: الممارسة المباشرة:

وسبب ذلك أنَّ منهج التعليم النظري الذي يتلقىٰ فيه المتعلم المسائل مسلَّمةً مقررةً لا يكفي في بناء عقلٍ وصناعة ملكة، بل يجب وجوبًا صناعيًّا أن يترقىٰ بعده ليباشر التجربة بنفسه، فيواجه الحقائق ويحس بها، ويتبع الخطوات الموصلة إلىٰ النتائج، ويربط الفروع بالأصول، ويربط كلًّا من الأصول والفروع ببعضها.

وذلك أنَّ الدربةَ أعونُ علىٰ تحصيل الملكة، فمن أراد تعلم قيادة السيارة.. فإنه يبدأ مرتبكًا، لا يوازن بين مهارة القيادة نفسها مع ملاحظة الإشارات والنظر في الطريق، فإذا تمرَّن مرةً بعد مرة أصبح يزاول ذلك باحتراف، ولا يأبه بدخول الأماكن المزدحمة وربما كان يهاتف رجلًا، مع نسيانه للقواعد المدونة في الكتب.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٢٤٦).

ولهذا لا يكفي أن ينفق الطالبُ همته في حفظ المسائل والمتون فحسب؛ بل يجتهد في تكوين الملكة وتحصيلها وتنميتها في ساحة الممارسة والتطبيق، ونبه صاحب كشف الظنون علىٰ ذلك فقال:

«اعلم أنَّ من كانت عنايته بالحفظ أكثر من عنايته إلىٰ تحصيل الملكة.. لا يحصل علىٰ طائل من ملكة التصرف في العلم، ولذلك ترىٰ من حصَّلَ الحفظَ لا يُحسِنُ شيئًا من الفنِّ، وتجد ملكته قاصرةً في علمه إن فاوض أو ناظر، ومن ظنَّ أنه المقصود من الملكة العلمية.. فقد أخطأ؛ وإنما المقصود هو ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال من الدوال إلىٰ المدلولات، ومن اللازم إلىٰ الملزوم وبالعكس، فإن انضم إليها ملكة الاستحضار.. فنعم المطلوب، وهذا لا يتم بمجرد الحفظ؛ بل الحفظ من أسباب الاستحضار، وهو راجعٌ إلىٰ جودةِ القوَّةِ الحافظةِ وضعفها، وذلك من أحوال الأمزجة الخلقية وإن كان مما يقبل العلاج»[1].

أما طرق الممارسة فإنها كثيرةٌ، وهذه ستةٌ منها:

١- **العمل بالعلم.**

٢- **مزاولة التدريس والتأليف.**

٣- **تمرين الطلاب علىٰ تطبيق القواعد**؛ كجمع الأقوال من مظانها، وتحرير محل النزاع، والبحث عن سبب الخلاف، ومناقشة الأقوال، وتخريج الفروع علىٰ الأصول، والتطبيق علىٰ الواقع، ومعالجة المستجدات بناء علىٰ أصول كل علم وقواعده.

٤- **إعمال الفكر في العلم**، ومن الوسائل التي اتبعها الفقهاء لتنمية التفكير: المحاورة في العلم والمناظرة فيه، والألغاز الفقهية، وتعلم العلوم الحسابية

(١) كشف الظنون لحاجي خليفة (١/ ٤٦).

ونحوها[1]، وإلقاء المسائل على الطلبة امتحانًا، وإذا كان الطالب يدرس وحده فإنه يُعمل عقله في الجواب قبل أن يطلع عليه، ولا يتعجل؛ فإنَّ الملكةَ كاللآلئ في قعر البحر، وإطالة التفكير كالغوص سعيًا لها.

وهذا يستفز المدرس إلى ترقية مهاراته التعليمية؛ فإنَّ توريثَ الطلبة ملكة العلم لا تتوقف على ما لديه من علمٍ فحسب؛ وإنما تفتقر إلى الجودة في الأداء، والمهارة في العطاء[2].

٥- **تنوع مصادر التلقي**: إذ الملكة لا تنمو في بيئةٍ واحدة، ومن ذلك: تعدد الشيوخ والمدارس والرحلة في طلب العلم، والمشاركة في العلوم الأخرى، وسعة الاطلاع خاصة على العلوم الإنسانية والاجتماعية[3].

٦- **مخالطة الناس وملابسة شؤون الحياة**: فدارس الفقه يلزمه مثلًا أن يجالسَ أهل الإفتاء ويحضر مجالس القضاء، وينزل إلى الأسواق ويعرف أحوال الناس وأعرافهم؛ إذ إنه يدرك بذلك حوائج الناس وضروراتهم، ويفهم مقاصدهم في ألفاظهم وتصرفاتهم، ويتفطن لحِيَلِهم، ويعرف البدائل والمخارج المباحة عن المحرمات، بل ويكون أقدر على مخاطبتهم وإفهامهم وإقناعهم[4].

وقد نبه الشيخ أحمد سالم على هذا الأمر المهم فقال: إدمان القراءة وطغيانها على الإنسان له أثرٌ جانبيٌّ شديد السوء؛ وهو أن تظن أنها تكفيك لفهم العالم والناس، وأن تظن أنها فعلٌ خلاصيٌّ تملك به كل الحلول، ويغنيك عن الخبرات والتجارب وملابسة الحياة.

---

(١) الملكة الفقهية ص (١٣٧).
(٢) الملكة الفقهية ص (٤٩١).
(٣) الملكة الفقهية ص (٢٥٣، ٣٧٠).
(٤) الملكة الفقهية ص (٤٨٩).

صحيحٌ أنَّ الكتب تخبرك عن العالم لكن ليس الخبر كالمعاينة، وألف كتابٍ عن البحر لا تعدل ما تتعلمه من صدمةِ موجٍ واحدةٍ لقاربٍ يرتطم بك. ا. هـ.

فإذا سار طالبُ العلم في هذا السبيل، وحصَّل الملكة بتوفيق الله وتسديده.. فقد بدأ العمل، ولاحت بواكير الصناعة والإنتاج، ومن الغبن الكسل أو القصور ساعتئذٍ، وهذا ما نبه عليه الشيخ إبراهيم السكران فقال: «المرحلة الذهبية للتحصيل العلمي هي مرحلة الذروة في قوة الملكات، وأي غبن أن تبدأ المعركة بعد أن تخور قواك»![1].

وعقب بيان هذه الشروط لا بد من التعقيب بكلمة:

إنَّ وجودَ هذه الشروط لا يلزمُ منه وجودُ العالم ذي الملكة والرسوخ؛ فإنَّ الشرطَ لا يلزم من وجوده الوجود، وما ذلك إلا لأنَّ الملكةَ لا تقتصر على رياضة العلم وكثرة المسائل، ولكنها هبةٌ من الله، وتوفيق منه، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وما كل صدر يأتمنه الله على وحيه كما تقدم من كلام شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي، وقد رُوي عن الإمام مالك أنه قال: «**ليس الفقه بكثرة المسائل؛ ولكن الفقه يؤتيه الله من يشاء من خلقه**»[2].

وقال الإمام أحمد: «إنما العلم مواهب يؤتيه الله من أحب من خلقه وليس أحد يناله بالحسب، ولو كان بالحسب لكان أولى الناس به أهل بيت النبي ﷺ»[3].

وقال الإمام الشافعي: من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره.. فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه، واجتناب المعاصي، ويكون له خبيئةٌ فيما بينه وبين الله تعالى

---

(١) مسلكيات ص (٣٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ٥٧).

(٣) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد (١/ ١٦٤).

من عمل، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء[١].

وإذا كان الطالب ينشغل بحفظ المتون والمسائل فإنَّ حفظَهُ لأمر الله ينبغي أن يكون ألزم وأتم وأكمل، وقد قال نبينا ﷺ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»[٢].

ولهذا ينبغي إلىٰ جانب تحصيل الشروط من حسن الإيمان بالله والعمل الصالح والتقوىٰ والتوكل وتزكية النفس وتطهير القلب ليصلح وعاءً للعلم والوحي ومواهب الله؛ فإنَّ الفقه في الدين ليس عملًا ذهنيًّا محضًا كالعمليات الحسابية والهندسية، التي يكون الأقربُ فيها إلىٰ الإصابة من كان أَحَدَّ ذكاءً وأبرع عقلًا؛ ولكنه منحةٌ من الله الكريم يمنحها من يشاء من عباده الصالحين المخلصين له المنيبين إليه[٣].

ومن هنا فإنَّ المتفقهَ كما يُحذِّر من المعوقات المنهجية؛ كمخالفة قواعد الفن وشروط اكتساب الملكة فيه.. فإنه يحذر من المعاصي والآفات الخُلُقية؛ كالكبر والعجب والغرور والحسد والأثرة[٤]، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيم.



(١) المجموع شرح المهذب للنووي (١/ ١٣).
(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٥١٦). صححه الألباني.
(٣) الملكة الفقهية ص (٤٩٠).
(٤) تكوين الملكة الفقهية لمحمد عثمان شبير ص (١٥٠) وما بعدها.



المطلب الثاني

فقه التدريس وحضور مجالس الطلب

تقرر في غير موضعٍ من المطلب الفائت دورُ التدريسِ في صناعة الملكة، وهذا يبشر بأنَّ التدريسَ كما هو آلةٌ للإنتاج العلمي النافع.. فإنه يمكن أن يكون جسرًا يُعبر منه إلىٰ عالم صناعة المعرفة.

وإذا كانت العمليَّةُ التعليميَّةُ تتكون من طالبٍ ومنهجٍ ومدرس.. فإنَّ ما تسطَّر علىٰ صفحات هذا الكتاب تناولَ معالمَ المنهج وما ينبغي للطالب فعلُه، وتولىٰ هذا المطلب بيان ركن التدريس؛ لمحوريته الكبرىٰ في صناعة الطالب وتكوين الملكة لديه.

وحتىٰ لا يتشعب بنا الكلام عن هذا الموضوع المهم فإني أنظم القول فيه في ثلاثة أفرع: فقه التدريس، وفقه حضور مجالس الطلب، وآفات الدرس العلمي، وهاكَ تبيانَ ذلك:

الفرع الأول: فقه التدريس:

إنَّ امتلاكَ العلم شيءٌ، وفقهَ بثِّه للطالب شيءٌ، والحقيقةُ المُرَّةُ أنَّ بعض أولي التدريس يستحوذ علىٰ عقله الأول دون الثاني، ولهذا ربما طرح ما تشتهيه نفسه وظنه مفيدًا لا ما يُكَمِّل به الطالب وينفعه ويؤسسه، ومبنىٰ الدرس علىٰ حاجة الطالب لا علىٰ غرض الشيخ.

ومن وعىٰ هذا التنبيه الدقيق أدرك أنَّ بناءَ الطَّالبِ فَنٌّ لا يؤتاه كل من وقف علىٰ منبر الدرس، ولم يغفل العلماء هذا الجانب، ولهذا جاء في ترجمة الإمام أبي الحسن الجِلاوي [ت: ٧٨٢ هـ] أنه كان من المعلمين الحاذقين الجامعين لعدة علوم، وكان حريصًا علىٰ طلابه، عظيم العناية بهم، وكان مجتهدًا في تكميل الطالب، وهذه الجملة الأخيرة عزيزة الوجود حلوة الطعم عذبة المذاق(١).

ولما كان الصفدي يتكلم عن شيخه نجم الدين الصفدي الخطيب قال: «وتخرج به جماعةٌ فضلاء، وقل من قرأ عليه ولم ينبه، ولم أر مثله في مبادئ التعليم؛ كان يفتق أذن المشتغل، ويوضح له طرق الاشتغال»(٢).

وهنا تسجيل لستةٍ من معالم فقه التدريس هذا ذِكرُها:

أولًا: التدرج بتعليم صغار العلم قبل كباره:

قال ابن خلدون: اعلم أنَّ تلقينَ العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدًا إذا كان علىٰ التدريج شيئًا فشيئًا وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولًا مسائلَ من كل بابٍ من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها علىٰ سبيل الإجمال.

ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه، حتىٰ ينتهي إلىٰ آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكةٌ في ذلك العلم، إلا أنها جزئيةٌ ضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله.

ثم يرجع به إلىٰ الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلىٰ أعلىٰ منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلىٰ أن ينتهي إلىٰ آخر الفن فتجود ملكته.

---

(١) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج للتنبكتي (١/ ٣٥٠)، ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (٢٩).

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (١/ ٢٨٩).

ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصًا ولا مبهمًا ولا منغلقًا إلا وضحه، وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولىٰ علىٰ ملكته.

هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاثة تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يتيسر له.

وقد شاهدنا كثيرًا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانًا علىٰ التعليم وصوابًا فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله، فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها..

فإن قبول العلم والاستعداد لفهمه ينشأ تدريجًا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزًا عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل وعلىٰ سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قَليلًا قليلًا بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلىٰ الاستيعاب الذي فوقه حتىٰ تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن.

وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجزٌ عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كلَّ ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادىٰ في هجرانه، وإنما أتىٰ ذلك من سوء التعليم[1].

وعقب هذا الكلام بالغ الحسن غزير الفقه فإنَّ من فقه المدرس أن يُحكم بناء العلم في صدر الطالب، لا سيما في المرحلة الأولىٰ، وإعانةً علىٰ تحصيل المقصود فيها أقول:

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٣٤٣).

إنَّ حاجةَ المبتدئ تشتد إلىٰ ثلاثة أركان لا ينبغي أن يخلوَ منها الدَّرس: رسم خارطة العلم المتناول ويضمنها الأبواب والفصول[1]، وحصر رؤوس المسائل في كلِّ باب، وحسن التصوير لها، ولو أضاف الأدلة فقد تمَّت النعمة بها علىٰ الطَّالب.

ثانيًا: عدم تطويل المدة في العلم الواحد والكتاب الواحد:

ما زال القلم بيد ابن خلدون، وقد توجه هنا بنصيحةٍ إلىٰ المدرس فقال: وكذلك لا ينبغي أن تُطَوَّل علىٰ المتعلم في الفنِّ الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها؛ لأنه ذريعةٌ إلىٰ النسيان، وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها.

وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرةً عند الفكرة مجانبة للنسيان.. كانت الملكة أيسر حصولًا، وأحكم ارتباطًا، وأقرب صبغة؛ لأنَّ الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه، والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون[2].

ويتأكد هذا المَعلَم إذا استحضرنا أنَّ الإنسان جُبِل علىٰ حبِّ الإنجاز، وقطع الأسفار مرحلةً مرحلة، فينبغي أن نراعي الطبع ونحن نشتغل بتعليم الشرع، فهذا أغرىٰ للطالب بدوام السير، وأعون علىٰ توفير همته وإقباله علىٰ الطَّلب وأفعال الخير.

ثالثًا: عدم الاستطراد:

إنَّ الوظيفة الأساسية للمُدَرِّس أن يشرح الكتاب الذي يُدرِّسه، فيذكر مقاصده ويحل مُشكِلَه ويحسن عرضه، ثم يرقىٰ للذي بعده في أدنىٰ مُدَّةٍ ممكنة،

---

(١) تقدم الحديث عنها ص (٨٠-٨٤).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص (٣٤٣).

أما استدعاء ما لم يأت قبل محله فقصورٌ وإن ظنَّ فاعله الكمال؛ لأنَّ **المستويات لم تُجعل للاستيعاب**، ولهذا قال ابن خلدون:

ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه علىٰ فهم كتابه الذي أكبَّ علىٰ التعليم منه بحسب طاقته ونسبة قبوله للتعليم، مبتدئًا كان أو منتهيًا، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتىٰ يعيه من أوله إلىٰ آخره، ويحصل أغراضه، ويستولي منه علىٰ ملكةٍ ينفذ بها في غيره؛ لأنَّ المتعلم إذا حصَّل ملكةً ما في علمٍ من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاطٌ في طلب المزيد، والنهوض إلىٰ ما فوق، حتىٰ يستولي علىٰ غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم، وأدركه الكلال، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم، والله يهدي من يشاء[1].

وأحسب أن جزءًا من الباعث علىٰ الاستطراد مرده سطوةُ طرحِ الجديد في الدرس، بحيث يأتي الشيخ بملحٍ وفوائد وتحقيقاتٍ لا تُقتنص إلَّا من بطون المطولات، وربما شعر بعض المدرسين أنَّ الطالبَ لن يستمسك بالعلم أو الدرس إلا بها، والحق أننا كمن صاد عصفورًا وضيَّع جملًا، إذ إننا بذلك قد فوَّتنا التأصيل المنهجي الذي يكمل به الطالب.

ثم ما الفائدة من استدعاء مادة كتب المرحلة الثالثة في المرحلة الأولىٰ إذا كنا سنصل إليها بعد مدة يسيرة؟ فلو أردت أن أشرح متن الآجرومية.. فلماذا أسهر علىٰ شروح الألفية فآتي منها بتحقيقاتٍ وفوائد إذا كنت سأدرسها بعد بضعة أشهر؟ فكيف لو كان هذا الصنيع يطيل بنا المدة ويصرفنا أصلًا عن إكمال السلم، ويظن المتفقه عندئذٍ أنَّ الوصولَ إلىٰ المطولات يحتاج إلىٰ سنواتٍ وسنوات!.

اللهم إن هذا تضييعٌ للطالب لا نرضاه، ولو كان الأمر بيدنا لغيرناه.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٣٤٣).

علىٰ أنه لا بأس أن يتوسع الشيخ في تقرير ألفاظ الكتاب بما لا يخرج عنه، لا سيما إذا كان الكتاب نفسه دقيقَ الألفاظِ غزيرَ المعاني؛ كتفسير البيضاوي والجلالين، وشذا العرف في الصرف وكفاية الأخيار وكنز الراغبين في الفقه.

أما ما يعتمده بعضُ أهل العلم من جعل الدرس مَجْمَعًا للعلوم؛ بحيث إذا مرت آيةٌ فسرها، أو مسألةٌ فقهيَّةٌ بيَّن حكمَها، أو موعظة قالها، أو بيت شعر أعربه وبين قصته.. فإنَّ هذا نافعٌ للمنتهي ضارٌّ بالمبتدي؛ إذ المنتهي يثري به علمًا أو يتمم به نقصًا، أما المبتدي فإنه لا ينتفع بهذا المنهج ولو لزم شيخه سنوات؛ لأنَّ حاجته إنما هي في ضبط الأصول وحسن التصوير للمسائل، وإني لأشفق علىٰ من هذا حاله في التدريس أنَّ جهده الذي قضىٰ فيه سنوات يتبعثر دون أن يَغرِسَ بذرةً لعالمٍ راسخٍ مُؤَصَّل.

وخذ تجربة رجلين من الأكابر وعض عليها بالنواجذ:

يقول الطاهر بن عاشور: قد تفضي الغفلة بالمعلم إلىٰ الارتماء في مسالك قليلة الجدوىٰ توقع تلامذته في خطلٍ أو فشل، وهذا يعرض كثيرًا لمن اتسعت معلوماتهم من المتصدرين للتدريس في مبدأ تصدرهم، فيدفعهم حب إظهار ما لهم من المزية ثم لا يلبث أن يستيقظ من بهجته تلك، ويصير إلىٰ وضع المقادير في نصابها.

وقد نبه علىٰ هذا صديقنا الشيخ محمد الخضر بن الحسين في مقالات رحلته الجزايرية فقال: قد كنت -عافاكم الله- ممن ابتلي في درسه باستجلاب المسائل المختلفة الفنون، وأتوكأ علىٰ أدنىٰ مناسبةٍ لذكرها، حتىٰ أفضىٰ الأمر إلىٰ أن لا أتجاوز في الدرس شطر بيتٍ من ألفية ابن مالك مثلًا، ثم أدركت أنها طريقة منحرفة المزاج عن الإنتاج!.

وأنا أيضًا قد عرض لي مثل ذلك في تدريس المقدمة الآجرومية، فكنت آتي في درسي بتحقيقات من شرح الشاطبي على الألفية، وفي درس مقدمة إيساغوجي فأجلب فيه مسائل من «النجاة» ثم لم ألبث أن أقلعت عن ذلك[١].

ومن هنا أقترح على سادتي أهل العلم أن ينهوا المختصرات ثم يشتغلوا بتدريس نفس المطولات، ولا يخرج الشيخ عن الكتاب إلا عند الحاجة وعلاج المُشكِل، وعندئذٍ سيشتغل بالاختصار لا بالتوسع، وهذا أخف مؤنةً عليه في التحضير.

فماذا لو وجدنا من يُدَرِّسُ مطولات الإسلام؛ مثل تفسير الطبري والتحرير والتنوير وفتح الباري والتوضيح لابن الملقن والموافقات وإعلام الموقعين والمغني لابن قدامة وتحفة المحتاج وبدائع الصنائع ومواهب الجليل وأضراب ذلك!.

وعند الإعلان عن الدرس لا يحدد الفن أو المتن بل الكتاب نفسه، فلا يُقال: سيعقدُ درسٌ في التفسير أو في شرح المنهاج؛ ولكن في تفسير الطبري أو نهاية المحتاج، وهكذا.

ومما يحرضك على تقبل هذا المقترح أنَّ المؤلفَ في هذه الكتب قضى جزءًا كبيرًا من عمره في التأليف، وطاف في كتب العلم، والتقط دررها ثم أودعها كتابه؛ ليريح من بعده فيتفرغ للضبط كما مرَّ في نصيحة ابن الجوزي لولده[٢].

فلما وصلنا هذا الجهد الضخم توجهت عيوننا إلى غيره؛ استكثارًا من الفروع وبحثًا عن الفوائد والمُلَح، مع أنَّ عامة أمهات المسائل ومتين العلم إنما هو مبثوثٌ في الكتاب نفسه، ثم إنَّ من يسمع شرحك أو يقرأ لك وينوي التدريس

---

(١) أليس الصبح بقريب لابن عاشور ص (١١) بتصرف يسير.
(٢) انظر ص (٧١).

سيفعل مثلك، وبهذا تكون المُلَح قد شكّلت سدًّا منيعًا حال دون التأصيل المنهجي والبناء العلمي الجاد، بل وربما حالت دون إكمال المشروعات العلمية التي تبدأ.

رابعًا: تخصيص مساحة لمذاكرة المسائل:

لا تبنىٰ الملكات في الدَّرس إلا بالمباحثة والمذاكرة والسؤال، في حين أنَّ الكتب لا ينبغي أن تُشرح إلا بالإلقاء، ولو جُعِلت للمذاكرة والمناقشة لكثر الاستطراد وفات التأصيل، اللهم إلا للمنتهي، أو من تجاوز المرحلة الثانية، وعلىٰ ذلك فإنَّ من الفقه أن يجعل المُدرِّس دَرسَهُ قسمين:

الأول: يُلقي فيه المسائل من غير توسعٍ ولا مقاطعة، ويستغرق ذلك ثلثي الوقت.

والآخر: أن يذاكر فيه الطلبة فيلقي عليهم الأسئلة ويناقشهم، ولا يتعجل بثَّ ما عنده حتىٰ يستخرج ما في عقولهم، ويجتهد أن ينتقي من الأسئلة ما يكون جوابُهُ مما يُفَتِّقُ الأذهان، ويربي علىٰ ضبط القواعد والأصول، وبهذا نجمع بين البناء المنهجي وتكوين الملكات.

ويمكن الإصغاء لنصح الخطيب البغدادي فإنه قال: «أستحب أن يخص يوم الجمعة بالمذاكرة لأصحابه في المسجد الجامع، وإلقاء المسائل عليهم، ويأمرهم بالكلام فيها والمناظرة عليها»[1].

ولنا في المذهب الحنفي أسوة حسنة؛ فإنَّ نشأته كانت جماعية، قال الموفق المكي: وضع أبو حنيفة مذهبه شورىٰ بينهم، لم يستبد فيه بنفسه دونهم؛ اجتهادًا منه في الدين، ومبالغة في النصيحة لله ورسوله والمؤمنين، فكان يلقي مسألة

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ص (٤٩٩).

مسألة، يقلبهم، ويسمع ما عندهم، ويقول ما عنده، ويناظرهم شهرًا أو أكثر من ذلك، حتىٰ يستقر أحد الأقوال فيها، ثم يثبتها القاضي أبو يوسف في الأصول، حتىٰ أثبت الأصول كلها[(١)]. ا. هـ.

ويستحب للشيخ أن يحث تلامذته علىٰ إبداء الرأي؛ لأنهم في مقام المذاكرة والتعليم لا في مقام الإفتاء والقطع، وقد رُوي عن علي بن يوسف الهمذاني المقرئ قال: دخلت علىٰ أبي بكر الخوارزمي، فلزمت السكوت، وجعلت أسمع كلامه، فقال لي: «تكلم؛ فإن أصبت كنت مفيدًا، وإن أخطأت كنت مستفيدًا؛ كالغازي؛ إن قَتَلَ كان حميدًا، وإن قُتِل كان شهيدًا»[(٢)].

واعلم أنَّ حاجة الشيخ إلىٰ هذه المذاكرة تتوازىٰ مع حاجة الطلبة أو أشد، وقد يستفيد هو من الطلبة، وعندئذٍ ينبغي أن يظهر ذلك، ويشكر صاحب الإفادة، ولك في الإمام الجويني سلفٌ صالحٌ حسن؛ فإنه قال: وقد اتفق لبعض ذوي الفطن من المختلفين إليَّ فِكَرٌ غائصةٌ في جهات الاحتمالات، وعَرَضَهَا عليَّ فارتضيتُها، ولم أعثر علىٰ زللٍ فيها، ولابد من إيداعها هذا المذهب[(٣)].

خامسًا: الدرس مفتاح العلم فقط:

إنَّ العلم كبستانٍ ناضرٍ وسيع والدرس مفتاحه، وإذا وعىٰ المدرس ذلك عرف كيف يعرض درسه، وكرر علىٰ سمع الطالب أنه هو الماكينةُ الحقيقيَّةُ للطَّلب، وإلا كان متهمًا لعقله، وإذا تشرب الطالبُ هذه الثقافة انطلق بعد الدرس للضبط والبحث والإبحار فيما فُتِح له، ولم يكتف بما تلقفه من شيخه.

---

(١) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ص (٣٣٧).

(٣) نهاية المطلب للجويني (١/ ٣٦٧)، والمقصود بالمذهب هو كتابه نهاية المطلب، وبهذا سماه في المقدمة كما جاء في حاشية الكتاب.

وأشار الشيخ عبد العزيز الطريفي إلىٰ ذلك فقال: «أكثر العلوم يتحصلها الإنسان من قراءة الكتب ودوام النظر فيها حفظًا وفهمًا، وأما العلماء والمدرسون فيعطون مفاتيح العلوم ويرسمون الطريق إليها».

وقال الدكتور محمَّد محمد أبو موسىٰ: لا يوجد أستاذٌ يجعل الطالبَ عالمًا؛ بل الذي يصنع العالم هو طريقة قراءة الكتب.

سادسًا: العناية الخاصة بالطالب:

من فقه المدرس العناية بالدارس لا بالدرس فقط، فيحرص أن يُوجِدَ الكفاءات ثم يرعاها وينميها حتىٰ تبلغ، ونبه الشيخ فيصل المنصور علىٰ بعض منافع هذه العناية فقال: «ينبغي للمعلِّم أن يُقبل علىٰ من يرىٰ فيه مخايلَ الذكاء من طلابه، وأن يقرِّبَه ويختصَّه بضربٍ من المعاملةِ؛ ليحبِّب إليه العلم، ويشجِّعه علىٰ التحصيل».

وفي كتب التراجم أنَّ الخليل كان إذا رأىٰ سيبويه رحَّب به، وقال: مرحبًا بزائرٍ لا يُمَلُّ، وكان أبو حيَّان عظيم التقدير للطلبة الأذكياء، وكان يقبل عليهم وينوه بهم، ولذلك ظهر منهم المرادي وابن هشام وابن عقيل والسمين الحلبي».

وقد كان الشافعي أول أمره فقيهًا مالكيًّا ثم استقل بمذهب له، وكان أحمد بن حنبل فقيهًا شافعيًّا ثم استقل بمذهب له، هكذا فلتكن قصص النجاح؛ نجح التلميذ في بلوغ الإمامة كشيخه، ونجح الشيخ أن يخرج إمامًا مثله، فالعالم الحق ليس من يعلمك فحسب؛ ولكن من يؤصلك ليُوصِلك.

ومن أوجه العناية أيضًا أن يسعىٰ في تكميله، ويحميه مما يعيقه ويضره، وينبهه إذا اشتغل بالمفضول دون الفاضل؛ فإن الهوىٰ في الطلب كثير، ولهذا قال الشيخ الطريفي فرج الله عنه: «للعلم شهوةٌ تَصرِفُ المتعلم إلىٰ المفضول ليترك

الفاضل، وتصرفه إلىٰ العمل المفضول ليترك الفاضل، وهذا كذلك في الدعوة ونشر العلم؛ فربما قدم العالم علمًا يحبه الناس وهو مفضول، ويترك ما هو أولىٰ منه مما يحب الله تقديمه»[1].

وأختم المقال هنا بجملةٍ من التنبيهات جاد بها قلم شيخنا العدني د. لبيب نجيب وفقه الله فقال:

☒ أَحَبُّ المعلمين إليَّ ليس هو من حثني علىٰ كثرة القراءة أو علىٰ كثرة حضور الدروس؛ بل ذاك الذي كان يحثني علىٰ مداومة مذاكرة ما درسته، وقليلٌ ما هم.

☒ المعلم الذي يريد نبوغ طلبته لا يكتفي بإلقاء مسائل العلم عليهم؛ بل يحثهم علىٰ مذاكرته، ويعقد لهم مجالس المذاكرة، ويسمع إعادة إلقاء طلبته للدروس.

☒ بعض المعلمين لديهم علمٌ وفير، ويقعد الطالب عنده سنوات ومع ذلك لا يستفيد، وإنما المشكلة في طريقة التعليم، فقليل من يحرص علىٰ تطويرها.

☒ يظن بعض معلمي العلوم الشرعية أنهم لا يحتاجون إلىٰ القراءة والدراسة لكتب طرق التدريس، وفي نظري أنهم أحوج إلىٰ ذلك ممن يُعَلِّمُ العلومَ الطبيعية وغيرها.

☒ قد يكون المعلم لديه فقر ليس علميًّا؛ ولكنه فقر اجتماعي؛ فالطالب يحضر عنده أشهر وسنوات ولا يسأله: ما اسمك، ومن أين أنت؟ ولا يعرف شيئًا عنه، فلا وجود للأبوة العلمية إلا قليلًا منهم. ا. هـ.

---

(١) صفة وضوء النبي ﷺ للطريفي ص (٢٥).

الفرع الثاني: فقه حضور مجالس الطلب:

إنَّ الطالب هو عمدة أركان الطلب، وهذا يستدعي منه أن يُحسن التعامل مع مجالس العلم، وهذا الفرع تسطع شمسه علىٰ أربعةٍ من معالم هذا الفقه هذا بيانها:

أولاً: أن يحضر الدرس متمكنًا من مادته:

إذ إنَّ مستوىٰ الطالب هو الذي يحدد مستوىٰ عطاء الشيخ، فإذا حضر الطالب الدرس وهو خالٍ من مادته أُنفِقت طاقةُ الشَّيخِ في فك ألفاظ المسائل، دون التعمق فيها، والكشف عن أسرارها، والربط بين أفرادها وبيان اتصالها بالأصول والقواعد، ومن هنا قال ثعلب: إنما يتسع علم العالم بحسب حِذق من يسأله، فيطالبه بحقائق الكلام وبمواضع النكت؛ لأنه إذا طالبه بحقائق الكلام احتاج إلىٰ البحث والتنقير والنظر والفكر، فيتجدد حفظه وتتسع معرفته وتقوىٰ قريحته[1].

وقد تقدم أنَّ الإمام ابن عرفة كان يستعدُّ لدرسِ العلم، ويبالغ في التحضير له، فلمَّا عوتب قال لهم: كيف يطيب لي النوم وأنا بين أسدين: البُرْزليُّ بحفظه ونَقْله، والأُبِّيُّ بفَهْمه وعقله»!.

وأذكر أني تعنيت مرة في إجابة بعض دقائق النحو، فطفت علىٰ أكثر أمهات الكتب أبحث عن الجواب فلم أجد، وبحثت في الشبكة فلم أعثر علىٰ شيء، فقصدت رجلًا من أهل العلم قضىٰ أكثر من عشرين عامًا في التدريس الجامعي فسألته، فلم يعرف الجوابَ عن أيِّ مسألة، وقال: إنَّ دنوَّ مستوىٰ الطلاب أشغلنا عن تتبع ذلك!.

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٢/ ٦٩٧).

ولما كنت بشنقيط درست على شيخنا محمد يسْلِم، وكان كلما لقيني طالبٌ ذكر لي إمامته في العلم، لكن يخبرني ببطء الشيخ في الشرح، وكنت أستعد للدرس قبله، فأهضم مادته، وأشرحه لأخٍ كان معي، وظهر أثرُ هذا في التفاعل مع أسئلة الشيخ والجواب عنها، فلما كان بعد درسين توقف الشيخ أثناء الدرس وقال: إنَّ مستواكم مستوىٰ المشايخ لا مستوىٰ الطلبة، ولا بد من تغيير منهج الدرس، وصار يشرح لنا في مجلس ما لا يشرحه لغيرنا في عشرة مجالس.

والأهم من هذا أنَّ الشيخَ صار يتعمق في الطرح، ويعرف الشيء الذي نبحث عنه، فكان يمشي كالسلحفاة عند المسائل التي تجري مجرىٰ الأصول والقواعد، ويركض كالغزال عند التطبيقات وما يُحَصِّلُهُ الطالب بأدنىٰ نظر.

والمقصود أن الذي يستفيد من المحاضرة حقًّا هو من يحسن التحضير، وقد كان شيخنا د. لبيب نجيب يقول للفضلاء الذين يُشَرِّفُون مجلسه: التحضير بمثابة السُّنَّة القبلية للدرس، والمذاكرة بمثابة السنة البعدية.

ولهذا إذا حضرت درسًا.. فحضِّر له كأنك من يلقيه، وإذا انتهيت منه.. فراجعه كأنك تُمتحن فيه.

ثانيًا: إيثار الشيخ الحاذق في البناء والتأصيل:

وذلك لأنَّ له دورًا محوريًّا في بناء الطالب، وتنمية عقله وملكته، وهو الذي يختصر له خطَّ الرحلة لئلا يتيه في الأودية.

وقد نبه علىٰ ذلك الفيروزآبادي علىٰ ذلك فقال: ومن شأن الأستاذ أن يرتب الطالب الترتيب الخاص بذلك العلم، ويؤدبه بآدابه، وأن يقصد إفهام المبتدئ تصور المسائل وأحكامها فقط، وأن يثبتها بالأدلة إن كان العلم مما يحتج إليه عند من يستحضر المقدمات، وأما إيراد الشبه إن كانت وحلها.. فإلىٰ

المتوسطين المحققين[١].

علىٰ أنَّ هذا الشيخ قد لا يكون مشهورًا، ولا كبيرًا في السن، لكنَّ عقلَهُ تُشَدُّ له الرِّحلة، ولو رزقك الله شيخًا هذه صفته، واحتُمِلَ فواتُهُ.. فعض عليه بالنواجذ، وقدمه علىٰ غيره، ولك في الإمام أحمد أسوةٌ حسنة.

فقد قال محمد بن الفضل الفراء: سمعت أبي يقول: حججت مع أحمد بن حنبل فنزلت في مكانٍ واحدٍ معه، فخرج باكرًا وخرجت معه، فدرت المساجد فلم أره في مجلس ابن عيينة ولا غيره، حتىٰ وجدته جالسًا مع أعرابيٍّ فقلت: يا أبا عبد الله تركت ابن عيينة وجئت إلىٰ هذا؟ فقال لي: اسكت؛ إنك إن فاتك حديثٌ بعلوٍّ وجدته بنزول، وإن فاتك عقلُ هذا أخاف ألا تجده، ما رأيت أحدًا أفقه في كتاب الله من هذا الفتىٰ، قلت: ومن هذا؟ قال: محمد بن إدريس[٢].

وما ذلك إلا لأنَّ الشافعي قد تميز بالنظر الأصولي والفكر الفقهي والضبط العقلي ووضع أصول الاستنباط، فكان في نفسه مدرسةَ نظر.

ولهذا قال الشيخ الدكتور محمد أبو موسىٰ: وقد أصاب الإمام أحمد حين ركن إلىٰ مجلس الشافعي؛ **لأن الذي يعلمك العقل مقدمٌ علىٰ الذي يعلمك العلم.**

ولهذا فإنَّ الكتب التي تعلمك العقل أفضل من الكتب التي تعلمك العلم كذلك؛ لأنَّ الكتب التي تعلمك العقل هي التي تجعلك شريكًا في استكشاف المعرفة التي تتعلمها منها، وكأنها تدربك لا علىٰ استيعاب المعرفة؛ وإنما علىٰ إنتاج المعرفة، وقليلةٌ هي الكتب التي تعلمك ذلك، وهكذا كانت رسالة الشافعي[٣].

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (١/ ٣٤).

(٢) مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه للمروزي (١/ ٧٣-٧٤).

(٣) مستفاد بتصرف من مقدمة كتابه شرح أحاديث من صحيح البخاري.

ثالثًا: الدنو في المجلس من الشيخ:

فإنه أعون على الفهم، وقد جاءت الشريعة بالترغيب من الدنو من الإمام في الصلاة ومن الخطيب يوم الجمعة، وإن كان الطلبة ربما يتباينون في ذلك، وكلٌّ أدرى بما يصلحه.

ومن الأخبار المستظرفة ما قال أبو المواهب اليوسي: كنت أيام البداية أجلس في حلقة شيخنا أبي بكر التطافي رَحِمَهُ اللَّهُ ناحية جنبه الأيسر، وهم يقرؤون الخلاصة، فكنت أفهم بعضًا من كلامه وأشياء لا أفهمها، حتى بلغنا نحو النصف، فاتفق لبعض من كان بين يديه أن خرج من البلد، فجلست في موضعه بين يدي الشيخ، فكنت من ذلك اليوم كل ما يخرج من الشيخ يدخل في قلبي كالشمس المنيرة، ولا يفوتني شيء، وقضيتُ العجبَ من ذلك[1].

رابعًا: سؤال الشيخ:

فإنَّ العلومَ أقفال والسؤالات مفاتيحها كما قال الخليل، أما

إذا كنت لا تدري ولم تك بالذي يسائل   من يدري فكيف إذًا تدري؟!.

ولهذا أنصت جيدًا لوصية ابن الأعرابي إذ قال:

وسل الفقيه تكن فقيهًا مثله   من يسع في علم بفقه يمهر

وتدبر الذي تعنى به   لا خير في علم بغير تدبر

فالسؤال إذن زيادةٌ في العلم، وتركه حرمان منه، ولهذا لما سُئِل الأصمعيُّ: بم نلت ما نلت؟ فقال: بكثرة سؤالي وتلقفي الحكمة الشرود، بينما قال عبد العزيز بن عمر: ما شيءٌ إلا وقد علمت منه إلا أشياء كنت أستحي أن أسأل

---

(١) القانون لليوسي ص (٣٨٦).

عنها، فكبرت وفيَّ جهالتها(١).

ورویٰ ابن عبد البر أنَّ رجلًا قدم علیٰ ابن المبارك وعنده أهل الحديث، فاستحيیٰ أن يسأل، وجعل أهل الحديث يسألونه، قال: فنظر ابن المبارك إليه فكتب بطاقة وألقاها إليه، فإذا فيها:

إن تَلَبَّثْتَ عن سؤالك عبد الله ... ترجع غدًا بخُفَّي حُنين

فأَعنِتِ الشيخ بالسؤال تجده ... سلسًا يلتقيك بالراحتين

وإذا لم تصِح صياح الثكالیٰ ... قمت عنه وأنت صفر اليدين(٢)

لكن ينبغي ألا يسأل إلا عما يحتاجه أو ينتفع به، واعتبر بهذا الخبر المروي عن الشافعي، فإنه قال: قلت لسفيان بن عيينة: كم سمعت من الزهري؟ قال: أما مع الناس فما لا أحصي، وأما وحدي فحديثٌ واحد، قلت: ما هو؟ قال: دخلت يومًا باب بني شيبة، فإذا أنا به جالسٌ إلیٰ عمود من أساطين المسجد، فقلت: هذا أبو بكر ولا أجده أخلیٰ منه الساعة، فجلست إليه، فقلت: يا أبا بكر، حدثني حديثًا أو حديثين، فقال: سلني عمَّا شئت، قلت: حدثني حديث المخزومية التي قطع رسول الله ﷺ يدها، قال: فضرب وجهي بالحصا ثم قال: قم لا أقامك الله، فما يزال عبدٌ يقدم علينا بما نكره!.

قال: فقمت منكسرًا نادمًا، فجلست قريبًا منه، فمرَّ رجلٌ في المسجد لابن شهاب -أي الزهري- إليه حاجة، فسبَّح به فلم يسمع، فرماه بالحصا فلم يبلغه، فاضطرَّ إليَّ فقال: قم فادعه لي، فدعوته له فأتاه فقضیٰ حاجته، وعدت إلیٰ مجلسي، فنظر إليَّ فدعاني، فجئته فقال: أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن جميعًا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٨١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٨٠).

«الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ، وَالْبِئْرُ جُبَارٌ، وَالْمَعْدَنُ جُبَارٌ، وَفِي الرِّكَازِ الْخُمُسُ»، هذا خيرٌ لك من الذي أردت[١].

ولا يخفىٰ النظر التربوي الذي لا ينبغي أن يذهل عنه الواقف بمنبر الدرس.

وبقي تنبيه المدرس أخيرًا ألا يضجر من السؤال؛ فإنَّ الانتفاع به مشتركٌ بينه وبين الطَّالب؛ وذلك أنه ينشر الخير ويثاب عليه، ويتنبه به لما لا يعلم فيبحث عنه، ولهذا وصاه الخليل فقال: لا تجزع من تفريع السؤال؛ فإنه ينبهك علىٰ علم ما لم تعلم.

هذا فضلًا عن أن السؤال يستنطق الشيخ بما عنده من علم، فيحفظه بذلك من الدَّرْسِ والنسيان، ولهذا لما ذهب سعيد بن جبير إلىٰ فارس كان يتحزن يقول: ليس أحدٌ يسألني عن شيء[٢].

وقال عروة بن الزبير: والله ما يسألني الناس عن شيء حتىٰ لقد نسيت.

وقال مكحول: قدمت دمشق وما أنا بشيءٍ من العلم أعلم مني بكذا -لبابٍ ذكره من أبواب العلم- فأمسك أهلها عن مسألتي حتىٰ ذهب.

وقال رواد بن الجراح: قدم سفيان الثوري عسقلان، فمكث ثلاثًا لا يسأله أحدٌ في شيء، فقال: اكترِ لي أخرج من هذا البلد؛ هذا بلد يموت فيه العلم[٣].

الفرع الثالث: آفات الدرس العلمي:

مادة هذا الفرع مستفادةٌ في أكثرها من كلام الطاهر بن عاشور في كتابه البهيج «أليس الصبح بقريب»، فإنه اعتنىٰ بإصلاح التعليم، وهذا دعاه إلىٰ بيان

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي ص (١٩٦-١٩٧).
(٢) تهذيب الكمال للمزي (١٠/ ٣٦٢).
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٧٩، ٢٢٩، ٣٠٩).

أسباب تأخره، وتناول مجلس الدرس بالتقييم لدوره؛ بحثًا عن تشخيص الداء؛ تيسيرًا لتقديم جرعة الدواء، وأقتنص بعض ما قال على هيئة بنود، ودونك بيانها:

أولًا: سلب التعليم حرية النقد الصحيح في المرتبة العالية وما يقرب منها:

وهذا خللٌ بالمقصد من التعليم، وهو إيصالُ العقول إلىٰ درجةِ الابتكار.

ومعنىٰ الابتكار أن يصيرَ الفكرُ متهيئًا لأن يبتكر المسائل ويوسع المعلومات، كما ابتكرها الذين من قبله، فيتقدم العلم وأساليبه، ولا يكون ذلك إلا بإحداثِ قوةٍ حاكمةٍ في الفكر تميز الصحيحَ من العليل مما يلقىٰ إليه.

ولهذا الغرض انتخبت في عصور النهضة لكل أمةٍ طريقة التعليم القائمة علىٰ البحث والنظر، وهذه طريقة المتقدمين من المسلمين؛ فإنهم ما كانوا يتابعون رأيًا إلا بعد اتضاح دليله، وما كان تعلمهم لعلوم أساتذتهم ومتابعتهم لأقوالهم إلا ليجعلوها أصولًا يبنون عليها ما يحدثونه؛ اقتصادًا في الوقت، وتقليلًا للمسافة.

ثم أصيب العالم الإسلامي في عصور الانحطاط بشيءٍ من سلب حرية النقد، وأصبحت متابعة كل ما يكتب فكرةً سائدةً في أهل العلم، نعم إنها تضعف وتقوىٰ في جهات[1].

ثانيًا: إهمال التمرين والعمل بالمعلومات:

كما هو الغاية من كلِّ علم، ولهذا نرىٰ بالجامع بتونس وفي كثيرٍ من بلاد الإسلام علومًا تُدرس وكتبًا تُختم، ولا نرىٰ فيمن نحادث أو نجالس فصيح لسان أو بليغ بيان، مع احتياجنا إلىٰ إحياء اللغة العربية لتفي بالحاجات المدنية الواسعة؛ لأنَّ سعة التمدن تقتضي سعة اللغة بالضرورة كما هو معلوم.

ويقرأ الناس علم الأصول وعلم البلاغة وعلم النحو فلا نرىٰ من يتجنب

---

(١) أليس الصبح بقريب للطاهر بن عاشور ص (١٠٩).

اللحن في قوله ودرسه، ولا من يشعر بالمقاصد البلاغية فينطق بها أو يفهمها، ولا من يُرجِّح في مسائل الخلاف.

وما سبب ذلك إلا أنهم إنما حصلوا ألفاظًا متحجرةً اصطلحوا أن يسموها علمًا، وهم يدرسونها وما يشعرون بعنوانها وغايتها والقصد منها، وما يجري من التمرينات في الدروس ليس هو إلا تمرينًا سطحيًا، وربما كان بعضه فوق عقل التلميذ؛ كتمرينات شرح الآجرومية؛ فإنك تجد درس أدوات الجزم مشتملًا علىٰ شواهد من صميم الشعر العربي ذات تراكيب لا قِبَل للتلميذ بالاستنارة منها في مرتبته تلك[1].

ثالثًا: عِرْوُ التعليم من ملاحظة المصالح الصحية:

ولو بالتنظير والحث، مع كون ذلك بالغ الأهمية، ففي الحديث: «إن لجسدك عليك حقًّا»، وقد قيل: العقل السليم في الجسد السليم، وقال الفيلسوف بونالد: «الإنسان عقلٌ تخدمه الأعضاء»، والإنسان خُلِق ليعلم ويعمل، فالعلم بالعقل والعمل بالبدن، وهما متكافئان في وجوب التحفظ عليهما، ورغم ذلك فإنا لم نر الاعتناء بذلك في نظام التعليم، ونرىٰ أشغال التلامذة وأوقاتهم ومجالسهم ومساكنهم ومحل درسهم كل ذلك قاضيًا بإنهاك قواهم القوية.

ومن ذلك التعليم بعد الأكل، وتقليل الحركة والمشي خصوصًا في وقت الشتاء، وإكثار الدروس المقتضي كثرة النصب في حفظ المتون ومراجعتها.

وقد شاع من تقاليد الفئة العلمية عندنا أنَّ من لوازم الصفة العلمية قلة المشي ومشي الهوينا وقلة الحركة، وإلا عُدَّ ذلك من خوارم المروءة وخطل الرأي وسوء السيرة الأدبية[2]!.

---

(١) أليس الصبح بقريب للطاهر بن عاشور ص (١١٢-١١٣).

(٢) أليس الصبح بقريب للطاهر بن عاشور ص (١١٣) بتصرف يسير.

والمقصود العناية بالرياضات البدنية؛ فإنَّ الجسدَ إذا كَلَّ كَلَّ العقل تبعًا له، فيفوته حظه من العلم بقدر تعب الجسم.

رابعًا: إغفال بعض العلوم المحورية في بناء العقل والملكة:

لا بد أن يُعلم أنَّ العلومَ من جهة ثمرتها تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: ما تنشأ عنه ثمرةٌ هي من نوع موضوعات مسائله؛ كعلم النحو الذي يبحث في عوارض الألفاظ، فإنَّ ثمرته لفظيةٌ محضة.

والآخر: ما يبحث عن أشياء لا لذاتها؛ بل لاستنتاج نتائج عنها؛ مثل علم التاريخ الباحث عن أحوال الأمم، وأسباب صعودها وهبوطها، لا ليكون ذلك في ذهن مزاوله؛ بل لحصول غايتها؛ وهو عقل التجربة وتجنب المضار والسعي للمنافع.

ومثل الفلسفة الباحثة عن الدقائق الفكرية في كلِّ عصر؛ فإنَّ لها تأثيرًا في إنارة العقل وتدريبه علىٰ فتح أبواب الحقائق المصفودة، والحكم الأعلىٰ علىٰ عموم العلوم، وهذه النتيجة لا تقرأ في الفلسفة؛ ولكن يعتادها الذهن في ضمن ممارسته لمغلقات المعلومات.

ومثل هذين علم البلاغة الذي يضلُّ فيه كثيرٌ يتوهم أننا نعلم التلميذَ البلاغة بمعنىٰ أن نضع له قاعدةً يصير بها بليغًا، حتىٰ إذا أيسوا من ذلك هجروا هذا العلم.

وجميع العلوم البرهانية النظرية نحو الهندسة النظرية وبراهين المنطق وأصول الفقه أي فلسفة الاستنباط تفيد هذا من إحدىٰ جهتيها، وإن كانت تفيد غايات علومها من حيث إنَّها براهينُ علىٰ الإطلاق.

وكثيرٌ من الناس نظر إلىٰ هذه العلوم نظر المغتر بالظواهر فخالوها عديمةَ الجدوىٰ، فاطَّرحوها من التعليم، واستبقوا بعضًا منها متابعةً للسلف حين رأوهم عنوا بها، ولقد سمعت من الأفاضل من يقول: لا فائدة لدرس علم الإنشاء، ولا

لدرس التاريخ والأدب؛ لأنها علومٌ يطالعها المطالع من كُتبها[(١)].

وعلىٰ هذا؛ فينبغي العناية بهذه العلوم ونحوها؛ لأنها ذاتُ دورٍ فعَّالٍ في تكوين منهج النظر عند المتفقه، وفي فهم كلام الأئمة، وفي معالجة الشبهات التي تُورد.

وكتابات شيخ الإسلام ابن تيمية شاهدٌ حيٌّ ناطق بما نقول؛ فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ اعتنىٰ بهذا الباب من بواكير طلبه، حتىٰ بلغ شأوًا عظيمًا في العلوم العقلية، وانتفع بها غاية الانتفاع في تقريراته العلمية خاصة العقدية، وتلحظ ذلك في كتبه.

ولك أن تمتع عينك وتنعش عقلك وأنت تقرأ كلامه إذ يقول: «وقد كنت في أوائل معرفتي بأقوال الفلاسفة بعد بلوغي بقريب، وعندي الرغبة في طلب العلم، وتحقيق هذه الأمور، ما أوجب أني كنت أرىٰ في منامي ابن سينا، وأنا أناظره في هذا المقام، وأقول له: أنتم تزعمون أنكم عقلاء العالم وأذكياء الخلق، وتقولون مثل هذا الكلام الذي لا يقوله أضعف الناس عقلًا»![(٢)].

ولعلَّ هذا مما ذلَّل له الرد علىٰ مخالفيه بلوازمهم وأصولهم، ومن أقواله المبثوثة في ذلك قوله: «فإن قلتم..»، «فإن قيل..»، «فإن قال قائل..»، ولعلَّ قائلًا أن يُعارض قولنا فيقول..» وهكذا، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ يرد بأكثر من وجه.

وهذه العبارات وأمثالها هي مناجم للإشكالات والشبهات وما يُجاب عنها، وتسمىٰ عند الفقهاء بالفنقلة، وعبارتهم: «فإن قيل كذا.. قلنا كذا»، ويستعملها الفقهاء في الانتصار لمذاهبهم، وذلك أنَّهم يقررون المسألة بدليلها، ثم يأخذون في إثارة الاعتراضات عليها والجواب عنها.



(١) أليس الصبح بقريب للطاهر بن عاشور ص (١٥١).

(٢) نقلًا عن الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل لعلي الشحود (٩/ ٢٦٧).

المطلب الثالث

فقه التأليف

تأليفُ الكتب شيءٌ عجيب؛ إذ يجتمع فيه التلقي والعطاء وسعة الاطلاع، وتنمية ملكة التفكير والكتابة والبحث والتحليل، وعلاج المُشكلات وتنضيج التصورات وإنتاج المفاهيم والدربة علىٰ حسن العرض والتفهيم.

وقد سجَّل الشيخ عبد الله القاضي طائفةً من منافع التأليف في تحصيل الملكة الفقهية، وموجز ما قال: إنَّ البحثَ في مبدئه ناشئٌ عن استشكال يحتاج جوابه إلىٰ بحثٍ وتنقير، أو غموض يحتاج إلىٰ إيضاحٍ وتحرير، وهذا يستلزم تصور موضوع البحث وتتبع أطراف المسائل، والوقوف علىٰ الآراء المختلفة، وتمحيصها، وربما الترجيح بينها.

هذا بالإضافة إلىٰ الاستقراء والتحليل والاستدلال وتخريج الفروع علىٰ الأصول وتحقيق المناط عند تطبيق حكمٍ كليٍّ علىٰ واقعةٍ معينة، وهكذا يأخذ التأليف صاحبه في سبيل الدربة علىٰ التعامل مع مسائل الفن حتىٰ يتملكه، ويدرك غوره.

وهو مع ذلك يُكسِبُ آدابًا علمية وأخلاقًا مرضية مثل اعتياد الأناة والتثبت، والإنصاف، واتباع الدليل، والبعد عن المجازفة في القول، وتوظيف عامة ما عنده من علمٍ في تقرير مسائل الكتاب الذي يكتبه[١].

---

(١) الملكة الفقهية ص (٣٤٧). بتصرف وزيادة يسيرة.

وذكر الخطيب البغدادي طرفًا حسنًا أيضًا من فوائد التأليف، بل إنه عقد بابًا في جامعه سمَّاه: «البيان والتعريف لفضل الجمع والتصنيف»، ولما تكلم فيه عن محورية التأليف لمن قصد التمهر في علم الحديث ساقه الكلام إلىٰ فضائل التأليف فقال: «فإنَّ ذلك الفعل مما يقوي النفس ويثبت الحفظ ويذكي القلب ويشحذ الطبع، ويبسط اللسان ويجيد البيان ويكشف المشتبه ويوضح الملتبس»[1].

وعلىٰ دربه جاء النوويُّ من بعده فقال ناصحًا: وينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له؛ فبه يطلع علىٰ حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه؛ لأنه يضطره إلىٰ كثرة التفتيش والمطالعة والتحقيق والمراجعة والاطلاع علىٰ مُختَلِفِ كلام الأئمة ومتفقه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد[2].

وبعد هذا القدر من منافع التأليف؛ فإنَّ من أنعم النظر فيها أدرك أنَّ المستفيد الأكبرَ من التأليف هو شخص المؤلف، ومن هنا قال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: لو قُضِي لي تمامه كان أول من يصيبه نفع ذلك إياي خاصةً قبل غيري من الناس[3].

وقال ابن ضويان في مقدمة كتابه «منار السبيل»: «وإنما علقته لنفسي، ولمن فهمه قاصر كفهمي»[4].

وهذا الذي جعل بعض العلماء يعتبر التأليف للاستفادة الشخصية لا للإفادة العامة مقصدًا معتبرًا من مقاصد التأليف، وفي هذا يقول حاجي خليفة: «ومنهم من

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (٢/ ٢٨٠).
(٢) المجموع للنووي (١/ ٢٩-٣٠).
(٣) صحيح مسلم (١/ ٢).
(٤) منار السبيل في شرح الدليل لابن ضويان (١/ ٤).

جمع وصنَّف للاستفادةِ لا للإفادة، فلا حجرَ عليه، بل يُرغب إليه إذا تأهل؛ فإنَّ العلماء قالوا: ينبغي للطالب أن يشتغل بالتخريج والتصنيف فيما فهمه منه»[1].

وعقب هذه التوطئة أذكر هنا ستةً من معالم فقه التأليف بعد أن اطلعت على طرفٍ من فضائله، ودونك بيان ذلك:

أولًا: التصنيف التحصيلي:

وبيان هذه الفكرة مأخوذ من كلام الإمام الإسنوي عن الإمام النووي يكشف فيها سِرَّ كثرة مؤلفاته التي أربت عن خمسين مؤلَّفًا مع ما تميزت به من دقة التحرير وجودة التحقيق وإمامتها من بين الكتب؛ كالأربعين النووية ورياض الصالحين وشرح صحيح الإمام مسلم والأذكار وتهذيب الأسماء واللغات ومنهاج الطالبين وروضة الطالبين والمجموع، فإنه قال:

لما تأهل للنظر والتحصيل رأى في المسارعةِ إلى الخير أن جعل ما يُحصِّله ويقف عليه تصنيفًا ينتفع به الناظر فيه، فجعل تصنيفه تحصيلًا، وتحصيله تصنيفًا، وهو غرضٌ صحيح، وقصدٌ جميل، ولولا ذلك لم يتيسر له من التصنيف ما تيسر له؛ فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ دخل دمشق للاشتغال وهو ابن ثماني عشرة سنة، ومات ولم يستكمل ستًّا وأربعين!»[2].

ولبراعة هذه المنهجية أطال الشيخ إبراهيم السكران النَّفَسَ في تقريرها، والتحريض عليها[3].

وأقربُ صورةٍ لها في زماننا هي الرسائل العلمية الجامعية؛ فإنَّ طالب الدراسات العليا ينتقي موضوعًا لا يحيط به، لكنه يقدر على الكتابة فيه، فيضع

(١) كشف الظنون لحاجي خليفة (١/ ٣٨).
(٢) المهمات في شرح الروضة والرافعي للإسنوي (١/ ٩٩-١٠٠).
(٣) مسلكيات لإبراهيم السكران ص (٧٧) وما بعدها.

خطةً ويبدأ في جمع المادة وتحرير المسائل، ويبقىٰ في ذلك بضعة أشهر أو سنين، ومع انتهاء الرسالة يكون قد تمكن من الباب الذي يبحثه، وانتفع به إخوانه، والمشرف أثناء ذلك يرعاه ويسدده.

ولو أدرك الطالبُ عظمةَ هذا النَّوعِ من التصنيف لاختلف أداؤه جذريًّا، ولما استعجل في الكتابة، ولأحسن وحرر وحقق ومحَّص وفتَّش، ومن هنا تتوجه النصيحة له بأن يحرر رسالته بحيث تصلح للنشر العام في اللحظة التي يدفع بها إلىٰ لجنة المناقشة؛ فإنَّ الجودة عند ذلك ستختلف.

ثانيًا: برنامج الرحلة إلى تأليفٍ محكم:

أول ما ينبغي أن يُعلمَ أنَّ الموضوعَ الذي تكتب فيه لا بد أن يكون محل عنايتك واهتمامك، بحيث تقدر أن تتكلم فيه طويلًا ولو علىٰ سبيل الإجمال؛ إذ **العنايةُ بالباب تُطلِقُ القلمَ فيه.**

ثم يأخذ في رحلة اطلاعٍ واسعةِ النطاق علىٰ ألمع الكتب في الباب، ويكتب علىٰ إثر ذلك الخُطَّةَ الأولية للكتاب.

ثم يشتغل بجمع مادة الكتاب كله إن كانت فكرته مترابطة! ويتعنىٰ هنا جدًّا، بحيث يجمع كلَّ ما يقدر عليه؛ لأنه بذلك يعرف المهم الذي ينبغي التركيز عليه، وغير المهم الذي أخذ حيزًا من الخطة الأولية وكان حقه الضمور أو الحذف ولو كان عنوانه برَّاقًا، ويضيف من المسائل والفصول ما حقه أن يُثْبَتَ مما طاله بصره ولو كان عنوانه باهتًا، ثم يعيد كتابة الخطة بحسب ما اطلع عليه، ويوزع المادة المجموعة علىٰ الخطة الناضجة.

ولا يستطِل هذه المحطة؛ لأنَّ جولةَ جمعِ المادَّةِ وتوزيعها علىٰ مباحث الخطة وإن استغرقت مُدَّةً ليست قليلة إلا أنها تهبه العين الباصرة التي يلتقط بها

أهم النتائج البحثية والتصورات العلمية، فإذا أخذ في الكتابة بعد ذلك كان أحكمَ في الأداء، وأمهر في العطاء؛ لأنه وهو يكتب في البداية يعلم جُلَّ ما سيأتي حتىٰ النهاية، فيكتب بقوةٍ وبصيرةٍ من أول يوم.

هذا فضلًا عن كونه أسرعَ في الكتابة عندئذٍ؛ لأنَّ المادةَ في مجملها حاضرة، والتصورات ناضجة، والطاقة الذهنية منصبَّةٌ علىٰ حسن العبارة وإحكام الصياغة لا علىٰ جمع أصل المادة ومعرفة النتائج، وهذه مسألة يعرف الباحثون قيمتها جيدًا.

فإذا تمَّ له ذلك فينبغي أن يتخفف من الشواغل ويُقبل بكُلِّيَّته علىٰ الكتابة، ويجتهد إزاء ذلك بتدريس ما سيكتبه أو كَتَبَهُ، فإذا اجتمع لسان التدريس مع قلم التصنيف كان المُنتَجُ محكمًا.

ويبقىٰ أثناء ذلك يذاكر أقرانه ويسأل أشياخه عما يحتاج إليه، فإذا انتهىٰ من الكتاب عقد مجلسًا لمذاكرته، ودفعه لعارفٍ بالفن أو أكثر لمراجعته.

وبعد ذلك لا ينشره إلا إذا زَكَّاه أهل الفن، ولا تغتر بمن مرَّرَ بصره سريعًا عليه وأكثر لك من الثناء، فلا تُخرجْ إلا ما ترضاه وتشعر أنَّ الله يرضاه؛ فإنَّ المقامَ دين، وإنَّ الإنسانَ يُعرَضُ عقلُهُ للناس علىٰ طبقين: الكتابة والخطابة، فتريث، ولك في الإمام المزني عظة؛ فإنه قال عن مختصره في الفقه: «كنت في تأليف هذا الكتاب عشرين سنة، وألفته ثماني مرات، وغيَّرته، وكنت كلما أردت تأليفه أصوم قبله ثلاثة أيام، وأصلي كَذا كذا ركعة»!.

لكن لا تركز علىٰ التعب؛ بل عاين الثمرة:

يقول الإمام البيهقي: لا أعلم كتابًا صُنِّف في الإسلام أعظم نفعًا وأعم بركة وأكثر ثمرةً من كتابه[1].

---

(١) المجموع للنووي (١/ ١٠٧-١٠٨).

وقال الإمام الذهبي: وامتلأت البلاد بمختصره، وشرحه عدةٌ من الكبار، بحيث يقال: كانت البِكْر يكون في جهازها نسخة من مختصر المزني![١].

إذا وعيت هذا فأَصْغِ جيدًا لنصيحة الإمام النووي التي ساقته لبيان بعض معايير المؤلَّف النافع حيث قال:

«**وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له؛ فإنَّ ذلك يضره في دينه وعلمه وعِرضه، وليحذر أيضًا من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه، وترداد نظره فيه، وتكريره، وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها، فلا يوضح إيضاحًا ينتهي إلى الركاكة، ولا يوجز إيجازًا يُفضي إلى المحق والاستغلاق.**

وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يُسبق إليه أكثر، والمراد بهذا أن لا يكون هناك مصنَّفٌ يُغني عن مصنفه في جميع أساليبه، فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يُحتفل بها، مع ضم ما فاته من الأساليب، وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به، ويكثر الاحتياج إليه»[٢].

أما الاكتفاء بإعادة عبارات السابقين حيث سدت منافذ التفكير، أو ابتكار طريقة خلط التأليف الذي يُؤَلَّفُ في علم مسائل من علوم أخرى بأدنى مناسبة حيث شعر بسماجة الإعادة للمسائل.. فإنَّ هذا من أسباب انحطاط التأليف[٣].

ثالثا: الكتاب فكرة متكاملة:

تقدَّم أنَّ المتفقه متى تقدَّم في الطَّلب أدرك أنَّ العلمَ مفاهيمُ وتصورات لا مسائل ومعلومات فحسب، وأنَّ المسائل الجزئية ما هي إلا خرزاتٌ في عِقد المفاهيم الكلية.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ٤٩٣).
(٢) المجموع للنووي (١/ ٢٩-٣٠).
(٣) أليس الصبح بقريب لابن عاشور ص (١٤٧).

وعلىٰ هذا؛ فإنَّ الكتاب ينبغي أن يدور حول فكرةٍ أساسية يمكن تلخيصها في جملةٍ واحدة، ثم تأتي أبواب الكتاب وفصوله ومباحثه تنصر الفكرة وتبين حدودها ومعالمها، وأما آحاد المسائل والمعلومات.. فإنما هي بمثابة أمثلةٍ أو أدلةٍ لها أو شواهدَ عليها، بحيث لو غاب شيءٌ منها لم تختل فكرة الكتاب.

وهذا المعلم من أهم الفوارق بين المؤلِّف القوي والمؤلِّف الضعيف، ومتىٰ استحضره المؤلِّف أدرك أنَّ قيمةَ النقول إنما هي في حسن توظيفها في خارطة الفكرة الأساسية لا في كثرتها واستظرافها، وهذا ينبه أن أدقَّ شيءٍ يحتاجه المؤلِّف هو العقل ودقة النظر.

وأمثِّل بهذا الكتاب الذي أخط؛ فإنَّ موضوعه «نظريةُ الطلب»، ولهذا آوىٰ إليه السياق الذي يأتي فيه فقه الطلب، وخارطة العلوم، ومنهج التلقي، وفقه القراءة والحفظ والضبط والمذاكرة والمباحثة، وتكوين الملكة وفقه التدريس والتأليف وصناعة المعرفة وإنتاج العلم، وتربية الطالب وأخلاقه وعوامل نجاحه وبرامجه وتفاصيل خطته، وغير ذلك مما تضمنه الكتاب.

وجل العناوين المذكورة ربما طرقتها الأقلامُ في مؤلَّفاتٍ مستقلة، لكن تم استدعاؤها هنا ونَظْمُها بإيجازٍ بالغٍ لتشكل أعمدةً في بناء، وهذه الأعمدة إذا وُزِّعت بعنايةٍ منحت تصورًا متكاملًا لما يحتاجه الطالب من أول يومٍ له في الطلب حيث أُمِّيَّتُه، إلىٰ منتهىٰ سيره حيث إمامته من غير تناقض في التنظير، وأما آحاد المعلومات والأخبار المدونة فإنما هي جنودٌ تنصر النظرية، ولولا اتضاح الخارطة الكلية ودور كل جنديٍّ فيها.. لتاه الكاتب في حدائق القصص وبساتين الأخبار والمُلَح التي تنهمر عليه أثناء جمع مادة الكتاب.

ومن الفوائد النفيسة لجلاء الفكرة في صدر الكاتب أنه متىٰ هضمها.. انطلق قلمُهُ في تقريرها، وصار يجمع المعاني الكثيرة ويؤديها موجزةً بعبارته ولسانه، بما



يُناسب أهل العصر وذوقهم، وليس تقريب العلم بالشيء الهين، وهذا الذي يجعل الفقهاء يعيدون إنتاج التصانيف في كل زمن؛ لتكتبَ بعبارةٍ يفهمها أهل العصر، وتُضمَّنَ النوازل الجديدة، ومن لا ينتبه لذلك يأخذ في ذم كثرة المؤلفات، وما يدري الفروق الدقيقة بين مؤلفات كل طورٍ وعصر إلا إذا جرَّته حوائج البحث إلىٰ معاينة ذلك بنفسه.

رابعًا: لا تكتب إلا فيما تحسن:

وحَذَارِ أن تُغادِرَ ما عليه قولُ أهلِ الفن في المسائل تحت عنوان أنه قد جاءك من العلم ما لم يأتهم؛ فإنَّ ندمَك يوم أن تدري سيكون شديدًا؛ لأنَّ ذلك وإن كان واردًا إلا أنه نادرٌ أو قليل؛ إذ المخالفة قد تكون في مسائل وجزئيات لا في مفاهيم وتصورات.

وقد رأيت بعض من تورَّط في هذا يعرض قوله بنَفَسٍ من الاستعلاء، ويتبعه بتقريع ما عليه أهل الفن، حتىٰ إنه ليسدَّ الباب علىٰ من أراد مباحثته ونصيحته، وأقول في نفسي: كيف سيكون وجهه يوم أن يدري وقد دوَّن وكتب وتكلَّم وسجَّل!.

علىٰ أنَّ قولَ من لا يحسن قد يتفق في النتيجة ويختلف في المقدِّمات الأصولية التي آلت إليها، وعند ذلك يكون أضحوكةً أمام العارف بالفن.

ولهذا أنصح من رام أن يتكلم في فنٍّ أن يدرسه علىٰ أهله، وأن يبالغ في الانقطاع له، حتىٰ يتمكن منه، حتىٰ لكأنه من أهله، وعندئذٍ سيكون رَجُلَ بناءٍ ولو خالف لا رجلَ هدمٍ ولو وافق.

خامسًا: حسن الترتيب وجودة التبويب:

وذلك أنَّ الكتابَ كما يروج بصلاح صاحبه وتقاه وخشيته من ربه.. فإنه يروج بحسن ترتيبه وتيسير عرضه، ولو تأملت المتون مثلًا التي اعتمدها أهل

العلم في كل عصرٍ.. لوجدتها على ترتيبٍ حسنٍ؛ كالآجرومية وقطر الندى والبناء والأساس والورقات ومتن أبي شجاع ونخبة الفِكَر.

وأمارة ذلك: أنك لو أردت أن ترسم خارطة مسائل الفن في ورقةٍ واحدةٍ.. لقدرت بسهولة، بحيث تنظر إلى جمهرة أبواب العلم كقطعةٍ واحدة، فهذا أعون على معرفة حدود الفن، وتصور مسائله، وتيسير فهمه والإحاطة به.

وانظر مثلًا إلى كتابٍ موسوعيٍّ مثل «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» في الفقه الحنفي للإمام علاء الدين الكاساني؛ لا يزال أكثر الطلبة من غير المذهب الحنفي يُهرعون إليه كما يُهرعون إلى حاشية ابن عابدين، وما ذلك إلا لحسن عبارته وجودة ترتيبه وتبويبه، وهذا ظاهرٌ من اسمه، وذلك فضلًا عن حسن تحقيقه للمسائل على قواعد المذهب.

وليس الترتيب فيه جاء مصادفةً؛ بل إنَّ صاحبَهُ قصدَ ذلك وتعمَّدَهُ وتعنى فيه، فإنه يقول في مقدمته:

«وقد كثر تصانيف مشايخنا في هذا الفنِّ قديمًا وحديثًا، وكلُّهم أفادوا وأجادوا، غير أنَّهم لم يصرفوا العناية إلى الترتيب في ذلك، سوى أستاذي وارث السنة ومورِّثها الشيخ الإمام الزاهد علاء الدين رئيس أهل السنة محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي رحمه الله تعالى، فاقتديت به فاهتديت؛ **إذ الغرض الأصلي والمقصود الكلي من التصنيف في كلِّ فنٍّ من فنون العلم هو تيسير سبيل الوصول إلى المطلوب على الطالبين، وتقريبه إلى أفهام المُقتبسين، ولا يلتئم هذا المراد إلا بترتيب تقتضيه الصناعة، وتوجبه الحكمة، وهو التصفح عن أقسام المسائل وفصولها، وتخريجها على قواعدها وأصولها؛ ليكون أسرعَ فهمًا، وأسهل ضبطًا، وأيسر حفظًا، فتكثر الفائدة، وتتوفر العائدة**»[(١)].

---

(١) بدائع الصنائع للكاساني (١/ ٨-٩).

وكفىٰ بموعظةٍ اجتمع فيها القول والفعل والحال!.

سادسًا: إذا اشتد عودُك في التأليف، وصار لك فيه خبرة أو عادة.. فأعمل عقلك في اختيار مشروعٍ بحثيٍّ كبيرٍ تكتبه، فإنَّ ذلك جادةٌ مطروقةٌ عند السلف.

فهذا البخاري يبدأ في تصنيف كتابه «التاريخ الكبير» وعمره ثمانية عشر عامًا، وبقىٰ فيه غالب عمره، ومكث في جمع الصحيح ستة عشر عامًا خرَّجه من ستمائة ألف حديث[1].

وابتدأ ابن عساكر تصنيف «تاريخ دمشق» بمجلداته الثمانين من صباه، واستمر في جمعه حتىٰ شاخ، وأفنىٰ الطبراني عمره المديد في معجمه الأوسط، وقد عمَّر مائة سنة[2].

ومن فوائد ذلك: إدمان النظر في الكتب، وسعة الاطلاع، وشغل الوقت، ودفع الملل، وتنمية ملكة التفكير والكتابة والنقد والبيان، فضلًا عن أنَّ التأليفَ متىٰ كان نافعًا فإنَّه من الحسنات التي لا تنقطع.

ولهذا ينبغي أن يَسُدَّ بالكتاب فُرجَةً بحثية، لا أن يعيد عبارة السابقين، أو يملأ الكتب بإنشاء كثيرٍ ومعنىً قليل.

ومتىٰ اعتاد التأليف فالأحكم في إدارة وقته أن يُحَدِّدَ وقتًا ثابتًا للتأليف؛ إما بتحديد ساعاتٍ معينةٍ من كل يوم لا يتخلف عنها، أو بتحديد شهرين أو ثلاثة في السنة، يعتكف فيها علىٰ الكتابة، ويشتغل خلال السنة بتنضيج التصورات وجمع ما عثر عليه من مادةٍ تخدمه، ولو استطاع أن يُدرِّسَ في المعاني التي سيكتب فيها فهذا أعون له، فإذا جاء وقتُ الكتابةِ انطلق راكضًا فيها بكلِّ إقبالٍ وإتقانٍ وإحكام.

---

(١) تهذيب الكمال للمزي (٢٤/ ٤٤٩).

(٢) موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ لعلي الشحود (١٢/ ٨٢).

وقيمة هذه الوصية تكمن في أنَّ الإنجازَ يأتي بمثله، فمتىٰ أنجز الباحثُ عدةَ كتبٍ انفتحت له الآفاق البحثية، وصار كلُّ كتابٍ يتبعه غيثٌ من الأفكار الكتابية، وتفتي الحكمةُ عندئذٍ ألا تبقىٰ هذه الكنوز الذهبية حبيسة صدره، بل ينبغي أن ينفع بها الناس قبل أن يرحل؛ إذ كم من رجل وُسِّد المقابر وصدره منطوٍ علىٰ كنوزٍ ذهبيةٍ بحثية، ولهذا أهتف بك أخي: مت فارغًا منها، ولا تذهب مُحمَّلًا بها.

وقد قرأتُ مقالةً تذكر كتابًا للمؤلف الأمريكي تود هنري عنوانه: «مت فارغًا»، يذكر فيه مؤلِّفُه أنَّ أغنىٰ مكانٍ في العالَم هو المقبرة؛ لأنَّ ملايين البشر دخلوها وهم يحملون الكثير من الأفكار القيمة التي لم تر النور، ولم يستفد منها سوىٰ المقبرة، ولهذا وصيته لكل صاحب علمٍ وفِكْر: مت فارغًا.

وهذا المعنىٰ ذكَّرني بحديثٍ عجيبٍ يأخذ بالألباب نصه: «**إِنْ قَامَتْ عَلَىٰ أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسْلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا**»[1] أخرجه أحمد وصححه شعيب الأرنؤوط.

أما من استعمله ربه في نفع العباد بالتدريس أو الجهاد أو الدعوة أو العمل السياسي أو الإصلاح بين الناس أو غير ذلك من المواطن الصالحة.. فليجتهد في الموازنة بين ذلك وبين التصنيف ما استطاع؛ فإنَّ نفعه عظيم، وهذه هي وصية ابن الجوزي؛ فإنه قال:

«رأيت من الرأي القويم أنَّ نفعَ التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقًا لا تُحصىٰ ما خلقوا بعدُ!.

ودليل هذا أنَّ انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم، فينبغي للعالَم أن يتوفر علىٰ التصانيف إن وُفِّق للتصنيف

---

(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٢٩٠٢).

المفيد؛ فإنه ليس كل من صنَّف صنف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان؛ وإنما هي أسرارٌ يطلع الله عَزَّوَجَلَّ عليها من شاء من عباده ويوفقه لكشفها، فيجمع ما تفرق، أو يرتب ما تشتت، أو يشرح ما أهمل، هذا هو التصنيف المفيد.

وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأنَّ أوائلَ العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس»[(١)].

وفي ختام هذا المطلب أقول:

لا تحقرن ما آتاك الله من القُدُرات والمواهب؛ فإنَّ ذلك رزقٌ من الله، والرجل الفقيه أعقلُ من أن يردَّ فضل الله عليه، ولا تعارض أو تصادم بين استثمار النعمة وبين التواضع وهضم النفس.

وقد أخرج البيهقي عن يوسف بن الماجشون قال: قال لنا ابن شهاب الزهري أنا وابن أخي وابن عمٍّ لي ونحن غلمان أحداث نسأله عن الحديث: **«لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإنَّ عمرَ بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم؛ يبتغي حدة عقولهم»**![(٢)].



---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص (٧٥).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي، رقم الأثر: (٢٠٨٢٨).

المبحث الثاني
صناعة المعرفة

تقدَّم أنَّ لكل زمنٍ ذوقَه وحوائجَه، وينبغي أن يُنتَج له من العلم نسجًا علىٰ أصول كل فنٍّ وقواعده ما يلبي حوائجه، ويتناول مستجداته ونوازله، ويُعرَض بحسب ذوق أهله؛ من إعادةِ عرضٍ وترتيبٍ وصياغةٍ واستنباط.

وقد اكتملت أصولُ العلم علىٰ يد من سَلَف، وكفانا الأئمةُ عناءَ التأسيس الأول، ويبقىٰ من التتمات والثغور البحثية ما جعله الله من أرزاق كلِّ جيل، لا سيما وأنَّ النوازلَ تتجدد، والأذواق تتفاوت، والثقافات تتغير.

ومن هنا تَحَتَّمَ علىٰ فطناءِ كل زمنٍ أن يتصدوا لمهمة صناعة المعرفة، وإنها لمهمةٌ دقيقةٌ عميقةٌ متقدمة، لكنها في غاية المتعة.

وقد تقدم المثل الذي ضربه النبيُّ ﷺ علىٰ تفاوت مراتب أهل العلم، ونص الشاهد منه هنا: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا»[١].

فالأرض الأولىٰ أرضٌ طيبة، تنبت الكلأ وتنفع الناس، وهذا مثال المجتهدين الذين يستنبطون الأحكام، ويتصدون لنوازل الناس ومستجداتهم وما يناسب أفهامهم وأذواقهم، فهم يُفَجِّرُون النصوصَ ويثورونها كالغيث الذي يُحَوِّلُ الأرضَ إلىٰ جنَّاتٍ وخيراتٍ وحدائق ذات بهجة؛ إذ الفكرة إذا دخلت

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٧٩)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٠٩٣).

النفوس الحية آتت أكلها، والقلوب تتفجر بالعلم حين تسقىٰ بماء العلم.

والأرض الثانية أرضٌ صلبةٌ تمسك الماء لكنها لا تنبت الكلأ، وبذلك ينتفع الناس بها وإن لم تنتفع هي به في نفسها، وهذا مثال الحفاظ الذين لهم قلوبٌ حافظة، وذاكرةٌ قوية، يضنون علىٰ حرفٍ واحدٍ أن يضيع، لكن ليست لهم أفهامٌ ثاقبةٌ يستنبطون بها المعاني والأحكام، فهم يحفظونه حتىٰ يأتي طالبٌ محتاجٌ متعطشٌ لما عندهم من العلم فيثوره.

ولما عقد الإمام ابن حزم مقارنةً بين حفظ أبي هريرة رضي الله عنه وفقه ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «**وإلا فعلم ابن عباسٍ كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس، وقد سمعوا ما سمع وحفظوا القرآن كما حفظه، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.**

وأين تقع فتاوىٰ ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوىٰ أبي هريرة وتفسيره؟ وأبو هريرة أحفظ منه؛ بل هو حافظ الأمة علىٰ الإطلاق، يؤدي الحديث كما سمعه ويدرسه بالليل درسًا، فكانت همته مصروفة إلىٰ الحفظ، وتبليغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلىٰ التفقه والاستنباط وتفجير النصوص وشق الأنهار منها واستخراج كنوزها»[1].

وهذا المبحث يتولىٰ بيانَ هذه المحطةِ المُهِمَّةِ في برنامج رحلة الطلب والرسوخ فيه، وفيه مطلبان: يتناول الأول مقدمات صناعة المعرفة، ويتحدث الثاني عن مهارات هذه الصناعة وبعض آلياتها ومنهجياتها، ودونك بيان ذلك:



(١) ذكر هذا نقلًا عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٩٤).

المطلب الأول

مقدمات صناعة المعرفة

وأعني بهذه المقدمات ما ينبغي تحصيلُهُ والتمهرُ به مما له دورٌ في صناعةِ المعرفة؛ إذ الصناعةُ العلمية عمليةٌ لا تتم بالتشهي؛ وإنما تحتاج إلىٰ أهليةٍ ورسوخٍ وعقل، وأذكر هنا سبعًا من المقدمات هذا بيانُها:

أولًا: ضبط مفاتيح العلم:

وذلك بضبط أصول العلم الذي تتم الصناعة في ساحاته خاصةً، وضبط علوم الآلة عامة؛ كاللغة وأصول الفقه والمنطق.

ثانيًا: سعة الاطلاع:

إنَّ إدمانَ النظر في العلوم التي أنتجها الأئمةُ يُيَسِّرُ عمليةَ الصناعة، شأن من أراد التمهرَ في حرفةٍ، فإنه يكثر من مجالسة أهل الخبرة فيها والنظر في آثارهم.

ولا ينحصر الاطلاع في نفس الفن؛ بل العلوم متعاونة، والأفكار التي تأتي من علومٍ أخرىٰ هي أشد وقعًا وأعظم نفعًا وأوسع أفقًا مما يأتي من خزائن العلم نفسه.

ومن المهم الجمعُ بين الأطروحات المتقابلة في الفنِّ الذي تريد الصناعة فيه؛ كالجمع بين مدرسة الفقهاء والمحدثين، وطريقة العلماء والمفكرين، مع ما يحتاجه ذلك من نظرٍ نقدي.

ومن أعظم فضائل سعة الاطلاع كشفُ الثغور البحثية والمساحات المتبقية، التي لا يراها البعيد عن أوراد القراءة عادةً، كمن نظر إلىٰ مدينة من فوق برج، فإنه يرىٰ البيوت متكدسة، فإذا نزل إلىٰ طرقات المدينة، وأخذ يتجول في أحيائها وجد كثيرًا من المناطق الفارغة.

وبهذا بشر الشيخ د. محمَّد محمد أبو موسىٰ المشتغل بالعلم والبحث فقال: كل من يحمل القلم والكتاب لا بد لعينه أن ترىٰ مساحاتٍ لم تشبعها أقلام العلماء قبله، وكل من يمسك القلم لا بد أن يطرق أرضًا جديدة، ويحصل ذلك بمقدار التغلغل في العلم والتخصص، ومن المتقرر أنَّ الأول ترك للآخر أكثر مما ورثه إليه.

ومتىٰ جدَّ الباحث واجتهد وصدق.. فإنَّ لله عطايا يعطيها له في آخر الطريق، بعد أن يبذل الجهد، ويستفرغ الوسع، والله ذو الفضل العظيم[1].

ثالثًا: التربية علىٰ قراءة المصادر:

تقدم أنَّ النظرَ في كتب المتقدمين يُقَدِّم، وأنَّ صحبةَ الفحول تُفَحِّل، وإذا لزم هذا في ضبط العلم وفهمه فهو في صناعةِ العلمِ وإنتاجه ألزم، وقد أحسن الشيخ د. محمَّد محمد أبو موسىٰ إذ قال:

لا يُربِّيْ الباحثُ الجيِّدُ والعالمُ الرَّاسِخُ علىٰ الملخصات والمقتطفات؛ وإنما يتربىٰ علىٰ المصادر، وهذا يُحَتِّمُ العنايةَ بالكتب التي تصنع الثقافة والتجديد والإصلاح، وتؤسس للمعرفة، وتكشف عن كيفية بناء المعرفة علىٰ يد من بناها، وإطالة النظر في أيِّ شيءٍ أعمل عقله، وكيف وصل إلىٰ ما وصل إليه، وكيف أسس المعلومة وصنع لها شكلًا؛ لأنَّ المعرفة وحيٌ وإعمالُ عقل، ولا

(١) انظر السلسلة الحوارية المرئية مع الشيخ محمد أبو موسىٰ بعنوان: سؤال الثقافة، وهي منشورة علىٰ الشبكة، وعامة ما أورده هنا من كلام الشيخ فإنما هو منها، لكن بمعناه.

أجلَّ من العلم إلا أن تَعلَمَ كيف وُجِد العلم وكيف استخرجه العقل وكشَفَ عن دفائنه؟.

أما أن يحفظ المسائل دون أن يحيط علمًا بأصلها وتاريخها وتطورها.. فإنه لا يكون باحثًا مُنتجًا، والمطلوب أن نغرس أبناء الجيل في أغوار التراث غرسًا، وأن نعينهم علىٰ الاستخراج من مناجمه، والتعامل المباشر معه.

ولهذا فالمرتجىٰ من أذكياء الطلبة أن ينظروا في كل علم كيف أُنتج، فإن هذا أجلُّ من دراسة الفروع الجزئية، وما من علمٍ إلا وفيه إضاءات وعقليات ومنهجيات صاحبته في أول الطريق. ا. هـ.

ومما يعين علىٰ بلوغ هذا المرام قراءةُ الكتب التي تكلمت عن أطوار العلم وأسرار نشأته وترعرعه وتطوره، ويعتني الباحث بمناهج العلماء في ذلك أكثر من عنايته بالسَّرد التاريخي.

رابعًا: دراسة نماذج صُنَّاعِ المعرفة:

هنا دعوةٌ لمجالسة صُنَّاع المعرفةِ أنفسهم، ومحاولة استنطاقهم عبر آثارهم؛ فإنَّ الذي يرىٰ كيف صنع الأئمةُ العلمَ في صورته الأولىٰ يسهل عليه أن يصنع مثلهم، مستفيدًا من تجاربهم.

وقد منَّ الله علىٰ المؤمنين بتجارب كاملة، وشخصياتٍ فذة، فيمكنك أن تنظر مثلًا في التراث الذي دوَّن تجربةَ رجال مدرسة الحديث والرأي في الفقه، ومدرسة البصرة والكوفة في النحو، وغيرهما من التجارب.

وتَقْدِرُ أن تُجَالِسَ أشخاصًا بأعيانهم من أئمة صناعة المعرفة؛ كأن تجالس مالكًا مع موطئه، والشافعي مع رسالته، والخليل مع عروضه، وسيبويه مع كتابه، وابن جني مع خصائصه، وابن فارس مع مقاييسه، وتستفيد من عقولهم وتلتقط

خطة عملهم، بل لك أن تتخيل نفسك واحدًا منهم، وأنك المطالب بوضع خطة العمل، وهذا يجعلك تقرأ كتبهم بعقولهم، لتسير علىٰ منوالهم وتُكمِلَ من بعدهم، وفضل الله واسع.

وإعانةً لك علىٰ مزيدٍ من التصور أضع بين يديك لمحاتٍ في غاية الإيجاز من إنتاج ثلاثةٍ من هؤلاء:

الأول: الخليل بن أحمد الفراهيدي:

إنَّ أدنىٰ نظرٍ إلىٰ ترجمة هذا الإمام ينبيك أنَّ عقله كان مركبًا علىٰ صناعةِ المعرفة واختراع العلوم، حتىٰ قالوا: إنَّ عقلَهُ أكبرُ من علمه، وإنه لأعظم قدرًا من أن يتفرغَ لعلمٍ؛ بل كان يخترع العلوم ويمضي، ويترك للأئمة من بعده مهمة التدريس والتدوين!.

وليس بمستبعدٍ إذن ما ذكره ياقوت الحموي في ترجمته أنه كان يقال: إنَّ الخليل دعا بمكة أن يرزقه الله تعالىٰ علمًا لم يُسبق به، فرجع وفُتِح له بالعروض[1].

وقال الشيخ محمد الطنطاوي: اتفقت كلمة العلماء علىٰ أنَّ الخليل واضعُ علم العروض والقافية، وأول من دوَّن معجمًا في اللغة بتأليفه «كتاب العين»[2]، وله بعدئذٍ مأثرة الشكل العربي المستعمل الآن في الكتابة.

لقد نبغ الخليل في العربية نبوغًا لم يُسبق إليه، وبلغ الغايةَ في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو.

وفي هذا يقول الزبيدي: والخليل هو الذي بسط النحو ومد أطنابه، وسبب علله، وفتق معانيه، وأوضح الحِجاجَ فيه، حتىٰ بلغ أقصىٰ حدوده وانتهىٰ إلىٰ أبعد

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١/ ٤٦١).

(٢) مات رَحِمَهُ اللهُ ولم يتم الكتاب ولا هذبه، ولكن العلماء يغرفون من بحره.



غاياته، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفًا، أو يرسم منه رسمًا؛ ترفعًا بنفسه وترفعًا بقدره؛ إذ كان قد تقدم إلىٰ القول عليه والتأليف فيه، فكره أن يكون لمن تقدمه تاليًا، وعلىٰ نظر من سبقه محتذيًا، واكتفىٰ في ذلك بما أوحىٰ إلىٰ سيبويه من علمه، ولقنه من دقائق نظره، ونتائج فكره ولطائف حكمته، فحمل سيبويه ذلك عنه، وتقلده وألَّفَ فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله، كما امتنع علىٰ من تأخر بعده.

ولولا تعهد الخليل النحو في نشأته لبعد عنه طور النضوج والكمال؛ فللخليل فضل النهوض به كما لأبي الأسود فضل تكوينه[1].

فلا غرو إذن أن تنهمر كلمات الإشادة بفضله وقدره، ومن ذلك ما قال سفيان الثوري: من أحب أن ينظر إلىٰ رجلٍ خُلِقَ من الذَّهَبِ والمسك.. فلينظر إلىٰ الخليل بن أحمد!.

وقال محمد بن سلام: «سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكىٰ من الخليل بن أحمد ولا أجمع»!.

ومع ذلك فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ في فاقةٍ وزهدٍ لا يبالي بالدنيا، بينما الناس محظوظون بها من علمه وكتبه، حتىٰ قال النضر بن شميل: أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو في خُصٍّ لا يُشعر به»[2].

الثاني: الإمام الشافعي:

لما كنت أقرأ في ترجمة الإمام الشافعي شَدَّني أنه كان رأسًا في اختراع الفنون وتقرير المنهجيات، ومن ذلك:

---

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة لمحمد الطنطاوي ص (٧٧-٧٨).

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١/٤٦١)، الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص (٦)، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة لمحمد الطنطاوي ص (٧٧-٧٨).

١- أنه أول من دوَّن أصول الفقه في كتابه الرسالة، واستطاع أن يخُطَّ منهجَ نظرٍ يَجمَعُ عليه أرباب المدارس الفقهية، ويحمي به النصوص من اعتداء اللصوص.

ويُمكِنُ للباحث الفطن أن يرجع إلىٰ الرسالة، ويتأمل فيها، ويرىٰ كيف ألفها ولماذا وما موضعها في مشروعه الإصلاحي الذي عنوانه: تنضيج المذاهب الفقهية وتدوين أصول الاستنباط والتعامل مع الوحي؟.

٢- صنف كتابه «اختلاف الحديث» ليكون أول مُصَنَّفٍ في علم مختلف الحديث يصل إلينا، وتطرق الإمام السيوطي في ألفيته إلىٰ هذا فقال:

أَوَّلُ مَـنْ صَـنَّفَ فِـي الْمُخْتَلِـفِ الشَّـافِعِي، فَكُنْ بِـذَا النَّـوْعِ حَفِـي[١]

وعلم مختلف الحديث علم متفرعٌ عن أصول الفقه، ويُصَنَّفُ عادةً في علوم السنة لاختصاصه بالحديث، وهو علمٌ يبحث في الأحاديث التي ظاهرها التعارض.

٣- وضع كتاب السبق والمناضلة في الفقه.

٤- ألف خمسة كتب تُعَدُّ من أقدم ما وصل إلىٰ زماننا مما أُلِّفَ في علم الخلاف المُلَقَّبِ اليوم بالفقه المقارن، وهي: كتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلىٰ، واختلاف علي وعبد الله بن مسعود، واختلاف مالك والشافعي، والرد علىٰ محمد بن الحسن، وسِيَرَ الأوزاعي.

٥- دوَّنَ طرفًا عظيمًا من قواعد علم الحديث والعلل في كتابه الرسالة، يقول العلامة أحمد شاكر: إنَّ أبواب الكتاب ومسائله التي عرض الشافعي فيها للكلام علىٰ حديث الواحد والحجة فيه وإلىٰ شروط صحة الحديث وعدالة

---

(١) ألفية السيوطي في علم الحديث ص (٤١)، رقم البيت: (٦٣٩).

الرواة ورد الخبر المرسل والمنقطع إلىٰ غير ذلك هو عندي أدق وأغلىٰ ما كتب العلماء في أصول الحديث، بل إن المتفقه في علوم الحديث يفهم أن ما كُتِبَ بعده إنما هو فروعٌ منه وعالةٌ عليه، وأنه جمع ذلك وصنَّفَهُ علىٰ غير مثالٍ سبق، لله أبوه!(١).

ومن هنا كثرت النقول التي تثني علىٰ عقله وعلمه، وتظهر الاندهاش من عبقريته، ومن ذلك: قال الزعفراني: كان أصحاب الأحاديث رقودًا حتىٰ أيقظهم الشافعي، وما حمل أحد محبرة إلا وللشافعي عليه منة(٢).

وقال أحمد بن حنبل: ما أحد مس بيده محبرة وقلمًا إلا وللشافعي في عنقه منة.

وقال: كان الفقه قفلاً علىٰ أهله حتىٰ فتحه الله بالشافعي.

وقال: كانت أقفيتنا لأصحاب أبىٰ حنيفة حتىٰ رأينا الشافعي.

وقال: ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني أحاديث رسول الله ﷺ فبينها لهم.

وقال: هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي، ما بت مدة أربعين سنة إلا وأدعو الله للشافعي وأستغفر له.

وقال: لما قدم علينا الشافعي سرنا علىٰ المحجة البيضاء.

وكان مع بعض نفر فمر الشافعي فقال: هذا رحمة الله عز وجل لأمة محمد ﷺ.

وقال الكرابيسي: ما فهمنا استنباط أكثر السنن إلا بتعليم الشافعي إيانا.

وقال: ما كنا ندرىٰ ما الكتاب والسنة والإجماع حتىٰ سمعنا الشافعي.

---

(١) الرسالة للشافعي تحقيق أحمد شاكر ص (٩).
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٧٣).

وقال البويطي: قد رأيت الناس، والله ما رأيت أحدًا يشبه الشافعي ولا يقاربه في صنف من العلم، والله إنَّ الشافعي كان عندي أورع من كل مَن رأيته يُنسب إلى الورع.

وقال المريسي: مع الشافعي نصف عقل أهل الدنيا.

وقال: رأيت بمكة فتىً لئن بقيَ ليكونن رجل الدنيا.

وقال داود بن علي الظاهري: كان الشافعي رحمه الله سراجًا لحملة الآثار ونقلة الأخبار، ومن تعلق بشيء من بيانه صار محجاجًا.

وقال الربيع: لو رأيتم الشافعي لقلتم: ما هذه كتبه، كان والله لسانه أكبر من كتبه.

وقال إبراهيم الحربي: قدم الشافعي بغداد وفي الجامع الغربي عشرون حلقةً لأصحاب الرأي، فلما كان في الجمعة لم يثبت منها إلا ثلاثُ حِلَق أو أربع(١).

وبعد هذا القدر اليسير ممَّا وردَ من كلماتِ الإشادة لعلك آنستَ أثرَ صناعةِ العلم في نفوسهم ومشاعرهم التي لا تخفىٰ، لا سيما الكلمات التي تناولت إنتاجه العلمي بشكلٍ خاص؛ لتدرك القيمة العلمية والمعنوية الحاصلة عندما يتقدم النُّبغاءُ لسدِّ الثغورِ البحثية ومواقع الحاجة من العلم.

الثالث: ابن فارس:

هو أحمد بن فارس الرازي صاحب الاستقراء التام والتتبع الواسع، والتألق في فقه اللغة وأسرار العربية، متىٰ سمعت اسمه ذكرتَ معجم مقاييس اللغة.

وأعير القلم للمحقق الكبير عبد السلام هارون رحمه الله ليدلي بالقيمة العلمية لهذا المعجم الذي أَهَّلَ صاحبَه إلىٰ دخول الفئة الذهبية من الأئمة؛ صُنَّاع العلمِ والمعرفة.

---

(١) تهذيب الأسماء للنووي (١/ ٨٦-٩٠)، الجرح والتعديل للرازي (٧/ ٢٠٣).



فإنه لما ذكر معجمه قال عنه: إنَّ هذا المعجمَ مفخرةٌ من مفاخر التأليف العربي، بل يكاد يكون الفذ في نوعه من بين المؤلفات اللغوية في المحيط العربي، إن لم يكن في المحيط اللغوي العالمي، فنحن لم نعلم إلىٰ الآن أنَّ مؤلفًا لغويًّا آخر حاول أن يدرس مواد اللغة في ظل القياس المطرد في معظم تلك المواد، كما لم نعلم بعد الاستقصاء والبحث أنَّ لغةً من لغات العالم كائنة ما كانت، ظفرت بمثل هذا التأليف المبتدع في قديم الزمان ولا في حديثه.

وقال عنه في موضع آخر: إنَّ في التراث العربي كثيرًا من المعجزات الفريدة التي لم تتكرر في عالم التأليف إلىٰ الآن؛ فكتاب مقاييس اللغة لابن فارس يعد فريدًا في بابه؛ إذ إنَّ ابن فارس استطاع أن يبتدع نظريةً لغويةً دقيقةً تتمثل في إرجاع كلِّ مادةٍ لغويَّةٍ من مواد المعجم إلىٰ أصل أو أصلين أو عدة أصول معنوية، وقد يكون في المادة الواحدة مئات الكلمات.

ثم ضرب مثلًا بمادة «ربع» فقال: إنَّ ابن فارس أعادها إلىٰ ثلاثة أصول، بينما لو رجعنا إلىٰ لسان العرب لوجدناه يتناول هذه الكلمة في خمس عشرة صفحة كاملة، بحيث يظن الرائي أنَّ هذه الكلمة لها مئات الدلالات، وهي كلها لا ترجع إلا إلىٰ هذه المعاني الثلاثة أو الأربعة[1].

فعلًا أنك أمام عبقري من أذكياء العالم أجمع!.

وعقب هذا القدر الذي لم تكتمل به صورةُ الإنتاجِ العلمي والنظر العقلي لهؤلاء إلا أنه يستفز الحريصَ لِيُفَتِّشَ وَيُنَقِّرَ ليلتقط ما يعينه في تكوين منهجٍ يخطه.. أستحضر قول الشيخ د. محمد أبو موسىٰ: ينبغي للمختصين العناية بهذا الجانب، وتربية الطلبة عليه؛ لينشئوا علىٰ الولاء لهذه الأمة؛ لتكون كالبنيان

---

(١) الإبداع العلمي لأحمد القرني ص (١٠٢-١٠٣).

المرصوص في مواجهة أعدائها، فنتمكن بذلك من صياغة العقول وصناعة الأدمغة التي تنتج العلم والمعرفة، ولا تكتفي بمجرد القراءة.

خامسًا: كثرة النظر والمراجعة:

وهذه مقدمةٌ مهمةٌ من مقدمات الصناعة.

فعندما نرىٰ أنَّ الإمامَ المزنيَّ قرأ الرسالة للشافعي خمسمائة مرة، وأبا بكر الأبهري قرأ مختصر ابن الحكم خمسمائة مرة، والأسدية خمسًا وسبعين مرة، ومختصر البرني سبعين مرة، والموطأ خمسًا وأربعين مرة، والإمام النووي طالع الوسيط للغزالي أربعمائة مرة، وابن السبكي يدأب في قراءة الشرح الكبير للرافعي ليلًا ونهارًا كما أخبر بذلك عن نفسه.. فظاهرٌ جدًّا أن هذا وأضرابه مما مر بنا عند الحديث عن ضبط العلم تحت عنوان: «إدمان النظر في عُمدة الكتب» لا يراد به إدراكُ أصل العلم فحسب؛ وإنما يريد هؤلاء شيئًا فوق ذلك..

إنهم يريدون البناء العقلي والتأصيل المنهجي وحفر الأخاديد في أرض التحقيق لاستخراج منهج نظر يُعتمد في إنتاج العلم وصناعة المعرفة، عبر طول النظر في كُتُبٍ من بناها، ولا غروَ إذن أن تكون الأسماء الواردة ممن يطيل النظر هم من الأئمة أصحاب التحقيق والتصانيف والإنتاج العلمي، وليسوا طلابًا مبتدئين في أول معارج الطلب لنقول إن أعمارهم ضاعت في كتبٍ بعينها.

ولمَّا أشار الشيخ د. محمد أبو موسىٰ إلىٰ ذلك قال: إنَّ الكتاب الذي يقرأ ويُراجع ويُتدبر كما يجب إذا لم أقع فيه علىٰ كلمةٍ جديدةٍ أو فكرةٍ جديدةٍ.. فإنه جديرٌ بأن يثير في نفسي فكرةً جديدةً ليست فيه؛ وإنما أثارها هو في نفسي ولو لم أقرأه لم تُثَر.

أضف إلىٰ ذلك أنَّ العلمَ يربو بطولِ المُرَاجعة، وأنَّ كثرةَ النَّظَرِ تمنح العقلَ وتَهَبُ عُمقَ الفهم، وتربي علىٰ القراءة النقدية وفحص الأفكار، واكتشاف عقول

الأئمة، والتقاط معالم العبقرية فيها.

سادسًا: الانقطاع للمعرفة:

إنَّ التفرغ للعلم يحتاجه كُلُّ مشتغلٍ فيه، لكنَّ الحاجة له أشدُّ في صنفين من المشتغلين في العلم: المشارك في العلوم، والسالك سبيل صناعة المعرفة، ومن هنا أطل علينا الشيخ د. محمد أبو موسىٰ من جديد ليقول:

إنك لا تستطيع أن تُلامِسَ جوهرَ المعرفة إلا إذا انقطعت لها، فلو قرأت في أوقات الفراغ فيمكن أن تكتب عنها مقالة، أو تلقي فيها كلمة، لكنك لا تستطيع أن تفتح أبوابها المغلقة؛ إذ العلم يحتاج لانقطاع، بحيث لا يشغلك عنه شاغل؛ بل يشغلك هو عن كل شاغل.

وعندئذٍ يستطيع الفقيهُ غيرُ النائم والنحوي غير النائم أن يستخرج من طرائق العلماء الأوائل كيف كشفوا حقائق العلم؛ لأني أريدُ أن أكون واحدًا من هؤلاء، فكيف صار هؤلاء إلىٰ ما صاروا إليه، وكيف كشفت لهم الحُجُب؟!.

سابعًا: التركيز:

تقرر آنفًا أنَّ التركيزَ ركنٌ في عامة مراحل الطلب، لكنَّ أهميته هنا أكمل؛ لأننا لا نتكلم عن فهمٍ أو ضبطٍ فحسب؛ بل عن إنتاجٍ وصناعة، ولا يصلح لهذا إلا أن تقرأ النصَّ بخفضِ جناحٍ وسكون طائر، ولو استحضرت مصنوعات إمامنا الخليل بن أحمد ثم فتَّشتَ في ترجمته لوجدته يقول: «إني لأغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همي»![1].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٣١/٧). ويشير بكلمته أنه إن خلا بنفسه لم يفكر فيما وراء الباب، فعقله كله موجه لما هو فيه!.

واعتناء بهذا الكنز أَلَّفَ الدكتور مشعل الفلاحي كتابًا مفردًا للحديث عنه سماه: «التركيز.. أكثر العادات أثرًا في حياة الناجحين»، وقد قام عمود الكلام هنا عليه.

والتركيز هو الاهتمامُ البالغُ بهدفٍ أو فكرةٍ أو مشروعٍ تمنحه قلبك ومشاعرك وتفكيرك ووقتك حتىٰ تبلغ فيه، بحيث تقطع مسافةً كافيةً كل يوم في الطريق إليه، ولا تتنازل عن ذلك[(١)].

خذ الإمام البخاري مثلًا لمن استحوذ مشروعُهُ علىٰ فِكْرِه، قال محمد بن يوسف البخاري: كنت عند محمد بن إسماعيل البخاري بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثماني عشرة مرة[(٢)].

فلو افترضنا أنَّ نومَهُ كان خمسَ ساعاتٍ، فهذا يعني أنه كان يقوم من نومه بعد كل نحو ربع ساعة مرة، وهذا رقمٌ مذهلٌ عند تصوره، لكنه مثالٌ عزيزٌ في التركيز وجمع الهم علىٰ علمٍ أو مشروعٍ بحيث يقلق صاحبه حتىٰ يجعل عامة جهده الذهني منصبًّا علىٰ إنجازه.

ومن الوسائل المعينة علىٰ تحصيل التركيز في الصناعات المعرفية المعالمُ الخمسةُ الآتية:

الأول: حصر الجهد في دائرة محددة:

ولك فيما صنعته شركة «أبل» عبرة؛ فإنها قد أوشكت علىٰ الإفلاس عام ١٩٩٧م ولم يكن بينها وبين الضياع إلا ثلاثة أشهر، فاجتمع مجلس الإدارة لتدارك الوضع، واتفقوا علىٰ إعادة «استيف جوبز» الرجل المستقيل من الشركة، وهو

---

(١) التركيز لمشعل الفلاحي ص (١١-١٢).

(٢) تهذيب الكمال للمزي (٢٤/ ٤٤٨).

المؤسس لها، وهو أحد القلائل الذين استطاعوا أن يغيروا وجه عالَمِ التكنولوجيا؛ فهو من فتح أول بوابةٍ لاقتحام عالم الحواسيب الشخصية ليمكن استخدامها من كل البشر، وبالفعل تم تقديم أول حاسوبٍ شخصيٍّ وهو يحمل شعار شركة أبل.

وهو مخترع جهاز الآيفون، ليكون أول ثورةٍ في عالم تقنيات الهواتف الذكية، وأول هاتفٍ يعمل بتقنية اللمس.

ولما رجع إلىٰ الشركة أمر مجلس الإدارة بتقديم استقالتهم من الشركة، فاضطروا لظروف الشركة أن يتقدموا باستقالةٍ جماعية.

ثم إنه خفَّض كمية المنتجات من مائتي منتج إلىٰ أربعة، وحصر الجهد فيها، فأخذت الشركة في التماسك، وبعد عام بدأ الصعود من جديد، فجمع كبار الموظفين وطلب منهم التفكير في منتجٍ تعمل عليه الشركة خلال العام القادم، فضغطوا الأفكار إلىٰ عشرة، فشطب علىٰ السبع السفلىٰ وقال: شركة أبل ستركز علىٰ أول ثلاثة منتجات فقط، فتقدمت الشركة، وأصبحت ميزانيتها توازي ميزانية دول مجتمعة[1]، وبلغت قيمة الشركة السوقية مؤخرًا تريليون دولار.

والعجيب أني لما فتشت في الشبكة عن سيرة هذا الرجل وجدت من خصاله التي يذكرونها وينصون عليها «التركيز»، علمًا بأن هذا الرجل يمتلك ٢٤١ براءة اختراعٍ باسمه أو بالاشتراك مع غيره، ومات عن ستة وخمسين عامًا!.

هذا هو الدرس، وهذه هي كلمة السر؛ أن تُهمِّش كل شيءٍ ولو كان ذهبًا، وتركز الجهد في دائرةٍ واحدة، وتمنحها كل وقتك ومشاعرك، ولو استطعت أن تجعل وظيفتك ضمن تحقيق مشروعك فافعل، ولو أن تقبل ما كان دنيًّا وترفض ما كان عليًّا، وإلا فمن أراد كلَّ شيءٍ فلن يبلغ أي شيء.

---

(١) انظر بعض ما ورد في كتاب التركيز لمشعل الفلاحي ص (١٢٤-١٢٥).

الثاني: الاغتسال الثقافي:

لا يتم لصانع المعرفة مرادُهُ إلا إذا خلَّص عقله من الشعث الفكري الذي يحول دون التركيز، أما إذا كان متشعب الأعباء، مشتغلًا بعدة علومٍ في وقتٍ واحدٍ ثم أراد الإنتاج أو الصناعة في أحدها.. فإنَّ هذا متعسرٌ عليه أو متعذر، ولا بد من تنقية الذهن إلا من العلم الذي يريد الصناعة فيه، وهذا ما وصفه الرافعي بالاغتسال الثقافي.

فإذا أراد أن يكتب في التاريخ فينبغي أن ينغمس في كتبه زمنًا حتىٰ يجري في دمه؛ لتكون الأفكارُ خالصةً للمشروع، فيدرك ما بين السطور، ويتمكن من ضخ المفاهيم التي يحتاجها أهل الزمان[1].

وهذا المنطق كما يحتاجه صاحب الصناعة والتصنيف يحتاجه أيضًا صاحب التدريس، إذا أراد أن يُدرِّس في علمٍ وقد بعُد العهدُ به، فيتجول جولة علىٰ رزمةٍ من مهمات كتبه، ويستحضر لوامع مفاهيمه، ثم يبدأ مستعينًا بالله تعالىٰ، فيبارك له في سعيه.

الثالث: عدم إغماد السيف حتى النهاية:

إنَّ عادةَ التركيز تؤتي ثمارها حين تُبقِي وعيَك في موضعٍ واحدٍ حتىٰ تأتي منه علىٰ النهاية؛ فهذا يخلق وحدة الفكر، ويُسلم من آفات الشتات، لا سيما إذا استحضرت أنَّ العملَ يحتاج إلىٰ عددٍ معين من الأيام أو الشهور أو الأعوام، سواء جاءت متتالية أو متفرقةً، لكن التوالي يعصم من التشتت، ويضمن جمع الهم وجودة الإنتاج وحسن الإخراج؛ لأنَّ الفكرة بقيت مترابطةً لم تنخرم بانقطاع، فضلًا عما في هذا المنهج من دافعيةٍ داخليَّةٍ لإنجازه إذا علم صاحبه أنه

---

(١) التركيز لمشعل الفلاحي ص (٨٧-٨٩).

لن يتحول إلىٰ غيره إلا بإنجاز ما بدأ.

وقد ذكروا أنَّ اليابان لما أرادت أن تنقل إليها صناعة المحركات اختارت رجلًا مبدعًا من رجالاتها اسمه تاكيو أساهيرا، وبعثه رئيس الدولة إلىٰ ألمانيا لإنجاز ذلك، وبقي فيها ثمانية عشر عامًا متواليةً يعمل علىٰ ذلك، ورجع في النهاية حاملًا للفكرة من أصولها، وألقىٰ بهذا المُنتج العظيم في العاصمة، وحين جاء رئيس الدولة ورأىٰ المحركات وهي تشتغل في أرض اليابان صناعةً محليَّةً وعمت الأفراح البلاد قرَّت عين تاكيو أساهيرا، وعاد إلىٰ بيته ونام عشر ساعات، قال: وكانت هذه أول مرة أنام عشر ساعات كاملة منذ ثمانية عشر عامًا!.

ومن ذلك اليوم تحولت اليابان إلىٰ دولةٍ صناعية، واكتسحت صورة أوربا الصناعية، واقتاتت من هذه الصناعة روحها، وبنت منها عزتها، وما زالت تأكل منها ما ينعش عليها الحياة[(١)].

والمقصود: أنَّ الأفكارَ لا تلين لأصحابها إلا بالتركيز، ولهذا لا تتوقف أثناء المشاريع إلا من راحةٍ لا تُخِل؛ فإنَّ «أخذ الراحة للجد جد»[(٢)]، وإياك أن تغمد سيفك إلا وقد أنهيت علىٰ المقصود، واجمع الهم، وقدم ثمرًا جنيًّا تقتات منه الأمة، كما أنها ما زالت تقتات علىٰ موطأ مالك ورسالة الشافعي وصحيح البخاري ومسلم وعَرُوض الخليل وكتاب سيبويه وخصائص ابن جني ومقاييس ابن فارس وموافقات الشاطبي، وقائمة مفاخر التراث تطول.

الرابع: المرابطة في موضع الأوراد:

إذا أخذت في مشروعٍ واتخذت لك أورادًا لإنجازه.. فإنَّ هذه الأوراد بمثابة الثغر الذي تحرس به مشروعَك من التيه أو التقهقر، ومتىٰ غفلت عنه أو

(١) التركيز لمشعل الفلاحي ص (١٢٢-١٢٣).

(٢) هذه العبارة للإمام ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر ص (٨٠).

تركته داهمته المشتتات، وربما قضت عليه.

وإذا استحضرنا أنك لا تصنع من المعرفةِ إلا ما يحتاجه الناس.. فإنَّ المسلمين يتضررون بتركك لثغرك، وإنَّ الفرجةَ التي كنت عليها قد لا تُسَد، ولهذا رابط في ثغر أورادك، وانضبط بالساعات التي حددتها لنفسك موضعًا وعددًا ولو قلَّت؛ فإنَّ الماء يحفر أخدودًا في الصخر الأصم متىٰ تتابع بانتظام، والانضباط صناعةُ الكبار.

ومن المآثر في ذلك ما ذكره الشوكانيُّ في معرض حديثه عن السيد علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامر [ت: ١٢٠٧ هـ] فإنه قال عنه: وكتب من نفايس الكتب بخطه شيئًا كثيرًا، وكنت أعجب من سرعة ما يتحصل له من ذلك مع شغلته بالتدريس، فسألته بعض الأيام عن هذا فقال: إنه لا يترك النسخ يومًا واحدًا، وإذا عرض ما يمنع فعل من النسخ شيئًا يسيرًا، ولو سطرًا أو سطرين، قال الشوكاني: فلزمت قاعدته هذه فرأيت في ذلك منفعةً عظيمة[١].

الخامس: تفريغ البال من الأشغال:

لا يصنع العلمَ النقيَّ ذو كدر، ولهذا من قصد أن يضرب له بسهمٍ في الصناعات المعرفية.. فعليه أن يجمع همَّهُ علىٰ متنجاته، ومن وسائل تحصيل ذلك:

أ- أن تأتي الوِرْدَ وأنت في استعدادِ ذهنٍ وإقبال نفس.

ب- أن تنام الحد الكافي من غير تفريطٍ أو إفراط؛ فليس بالضرورة أن يقوم النجاح علىٰ أجسادنا المعتلة من التعب والمعاناة والإجهاد، بل كما تُرَبِّي نفسَك علىٰ استثمار الزمن.. فربَّها علىٰ الاستمتاع به، فماذا عليك لو قصدت النجاح وأنت تشعر بالبهجة وانشراح الصدر ومتعة النفس في كل لحظةٍ تقضيها في الوصول إليه!.

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١/ ٤٣٠).

ت- ترك الجوال ووسائل التواصل أثناء الورد، وتتشدد جدًّا في ذلك[1].

ث- استثمار وقت الذروةِ النفسية والعقلية عندك، وذلك أنَّ كل شخصٍ له أوقاتٌ يكون فيها في غايةِ الإقبال؛ كالليل أو بعد الفجر، فاجعل عامة الأشغال خارج وقت إقبالك، ولا تثريب أن يفهم من حولك أنَّ هذا الوقت خطٌّ أحمر لا تدخله الشواغل مهما كانت قدسيتها عند أصحابها، وأنَّ لهم الخيرة في غيره.

علىٰ أنَّ إدارة المشروع الذي تصنعه والوقت الذي تحتاج إنفاقه فيه يستلزم خطةً إداريَّةً محكمة، وقد تطرقت لزمرةٍ من معالمها في كتاب «فقه الاستدراك»، فانظره إن شئت[2].



(١) التركيز لمشعل الفلاحي ص (٨٦).
(٢) وهو منشورٌ علىٰ الشبكة.



المطلب الثاني
كيف تصنع المعرفة؟

اعلم أنَّ صناعةَ المعرفة علىٰ أشكالٍ شتىٰ؛ فمنها ما يكون صناعةً لعلمٍ مكتملِ الأركان، أو بابٍ منه، أو ثغرٍ فيه، لكنَّ الفكرَ الصناعيَّ متىٰ تشبع به عقلٌ.. ظهر في عامة جهده العلمي، حتىٰ إنك لتراه في خُطبه ومحاضراته وكلامه؛ إذ قد ارتاض أن يجعل له بصمةً جديدةً في كل منتج معرفيٍّ.

وتظهر العظمةُ الإلهيَّةُ هنا أنَّ كلَّ من سار في هذا السبيل وأخذ بأسبابه.. فإنَّ الله يهبه حظًّا يختص به، فرزق الله محفوظٌ لكلِّ جيل، ولا تكاد شخصيةٌ تماثل الأخرىٰ، شأنَ بصمةِ اليد، تبدو متحدة، لكن التحقيق يظهر الفرق، وهذا من توزيع الرِّزقِ بين المتقدمين والمتأخرين، وفضلُ الله واسعٌ لا ينقطع.

ويتولىٰ هذا المطلب بيانَ زُمرةٍ من المهارات الآلية لصناعة المعرفة؛ لنعرف كيف تصنع؟ مع الاعتراف بأنَّ صناعة المعارف أشبه بالوحي، فإذا كانت النفس صالحةً للإنتاج المعرفي فتح الله عليها بما يشاء، والله أعلم حيث يجعل رسالته، ودونك أربعًا من المهارات:

أولًا: تآخي المعارف:

إنَّ كلمةَ السرِّ في الصناعات المعرفية هي مهارةُ الرَّبطِ بين العلوم، فعلىٰ قدر ما يُفتح للإنسان فيها ينتج من المعارف؛ إذ العلم ينصهر عند تلاقي أفراده فيخرج منتجًا جديدًا في صورته وإن كان معهودًا في مادته، شأن عصير الكوكتيل، مواده

معروفة لكنَّ كلَّ خليطٍ يُنتِجُ طَعمًا لا يماثل غيره.

ولهذا إذا تلقىٰ الصانع المعرفي جملةً من العلم فإنها تُصبَغُ بثقافته فتُخرِجُ معرفةً يعتقد من يراها أنها لم تولد إلا علىٰ يديه.

وقد كشف الشيخ د. محمد أبو موسىٰ سر براعة الرافعي في الإعجاز فقال: لم يتكلم أحدٌ في الإعجاز أفضل مما تكلم به الباقلاني، والرافعي لما تكلم في الإعجاز كان يقتات علىٰ كلام الباقلاني، لكنَّ الرافعي كان من الصنف الذي إذا سقطت كلمةُ العالِمِ في نفسه خرجت من نفسه وهي مصبوغةٌ بصبغة عقله هو، فتقرؤها وكأنَّهَا من بنات أفكار الرافعي؛ وذلك أنَّ المعرفةَ حين تأتي بها من عند غيرك وتغرسها في نفسك الحية.. فإنها تنبت نباتًا جديدًا، وعندئذٍ تخرج في صورةٍ حية كأنها تُبثُّ أول مرة، ومتىٰ بلغْتَ هذا المرتقىٰ فهذه قرينة الولوج في المصانع المعرفية.

ثانيًا: هواجسُ الإنتاج:

يقول الشيخ د. محمد أبو موسىٰ: إنَّ رؤيتي للكتاب تختلف باختلاف الهواجس التي تُداخِلُنِي وأنا أقرأ هذا الكتاب، فما يسكن في قلبك وأنت تقرأ هو الذي يصنع رؤيتك فيه، ولو لم يقصده صاحبه؛ إذ من حقِّي أن أستخرج من نصِّ العالم ما أراده وما لم يرده، علىٰ أن يكون صحيحًا في نفسه وتتحمله اللغة، ويبقىٰ الفضل بعد الله له؛ لأنَّه هو الذي أثاره في نفسي.

ومثال ذلك: إنَّ أعظمَ تراثِ النحو ثلاثة: تراث الخليل وسيبويه وأبي عليٍّ الفارسي، هذا التراث قرأته عينان:

عين أبي الفتح ابن جني المسكونة بهاجس الحكمة؛ وهو الأصل الذي بنيت عليه اللغة، لما قرأت عينه هذه المادة العلمية استخرجت منها كتاب الخصائص علىٰ غير مثالٍ سابق، ولا ينازعه كتابٌ في العربية في بابه، ولم تكتب

مسائله قبل أبي الفتح، وأضحىٰ بعده كالهضبة الشماء في تاريخ هذه الأمة، وجرىٰ اللغويون المعاصرون وراء المسالك الحديثة في البحث وتركوا هذه الغابة المليئة بالأسرار.

وعين عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغة المسكونة بسرِّ الإعجاز، لما قرأت عينُهُ هذه المادة استخرج منها مع ما أضافه من علم الجاحظ كتابًا في معاني النحو لم يكتب مثله في بابه في تراث العربية لا قبله ولا بعده؛ وهو دلائل الإعجاز.

ومن ذلك أنه لما قرأ كتاب سيبويه المرة الأولىٰ وكان يكتب كتابه «المقتصد» مرَّ بقولِ سيبويه: «كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنىٰ، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم»[1]، لكنه لم يقف عنده.

ولما قرأ النحو مرةً ثانيةً وعنده هاجسٌ جديد؛ وهو معرفة الشيء الذي به يفضل كلامٌ كلامًا؛ لأنَّ هذه الدرجة من المعرفة هي الدرجة الأولىٰ في سلم الوصول إلىٰ الإعجاز، وهي كيف يفضل كلامٌ كلامًا؟، ثم كيف يفضل كلامٌ كلَّ كلام؟، ثم كيف يكون هناك كلامٌ يقطع الأطماع ويقهر القُوَىٰ والقُدَر، وتستوي الأقدام عنده عاجزةً؟، فتوقف عند هذه العبارة، وصنع منها بحثًا وهو التقديم والتأخير، فاستطاع أن يُفَجِّرَ النص المختصر لمَّا كانت نفسيته مشغولة بهاجسٍ بلاغيٍّ وهو تقديم الشيء.

فهذان علمان عظيمان مختلفان خرجا من رحم علم النحو؛ وهما الصرف والبلاغة، وكانا ثمرة الهاجس المختلف أثناء قراءة تراث هذه الأمة. ا. هـ.

واعلم أنَّ الهاجس قد لا يكون لصناعةِ علمٍ أو بابٍ منه؛ ولكن للوقوف علىٰ معالم طرفٍ منه، أو سدِّ ثغرٍ فيه، فإذا أخذ في القراءة أعمل ذهنه في تصوره واستخراج أحكامه.

---

(١) الكتاب لسيبويه (١/ ٦).

ومن الخير لو جعل له هاجسًا أو أكثر في عُمَد الكتب التي يقرؤها، وما إن ينتهي من الكتاب إلا وقد أشرقت شمسُ بحثٍ أو مُؤَلَّفٍ جديدٍ أخرجته دلاء تلك الهواجس.

ومن هذه المشكاة ما وعظ به الشيخ د. صلاح سلطان فرَّج الله عنه المتفقه أن يستحضر هاجسًا علميًّا معينًا عند كل ختمةٍ قرآنيةٍ يختمها، ويبقىٰ يلاحظه ويتتبع أسراره، ويرىٰ منهج القرآن في عرضه وتقرير أحكامه.

وقد جرَّبت هذا بنفسي بعد أن قرأت هذا الكلام؛ فقرأت القرآن وأنا استحضر هاجس فقه الدعاء؛ لأنَّ الكلامَ في التنظير له كثير، أما الكلام في فقهه التربوي وأسراره فعزيز، وسبحان الله؛ ما انتهيت من الختمة إلا وقد ارتسمت مخايل مؤلَّفٍ جديد سميته حينها «إبهار النبلاء بفقه وأسرار الدُّعاء»، وعسىٰ الله أن ييسر إتمامه وإخراجه قريبًا.

ولعلك أدركت الآن بعد الغور في كلمة الإمام الشافعي حين قال: لما أردت إملاء تصنيف «أحكام القرآن» قرأتُ القرآن مائة مرة![1].

ولما كنت أحَضِّر دروسَ السيرةِ النبوية أردت التمهد بالحديث عن الدول العالمية والإقليمية التي جاءت في ظلالها الأحداث؛ لأنَّ ذلك هو آلةُ الفهم لبعض أحداث السيرة النبوية، فصرتُ أتأمل القرآن وأرىٰ مدىٰ عنايته بالشأن الدولي والإقليمي لجزيرة العرب زمن التنزيل.

فوجدت سورةً باسم ثاني أكبر قوةٍ في العالم حينها؛ وهي الروم، وقد آوت زمرةً من المفاهيم المهمة في فهم الأحداث يومها.

وجاءت سورةُ سبأ باسم المملكة التي قامت في اليمن، وكان لها حضارة، فجاء القرآنُ وتناول طرفًا من أحوال أهلها، والسد الذي بنوه، وبعض الميزات

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/ ٣٦٣).

الجغرافية لبلادهم، ومظاهر فضل الله عليهم، والعظات المستفادة من مصيرهم.

وأشارت سورة قريش إلىٰ الاتفاق الاقتصادي الذي عقدته قريشٌ مع فارس والروم وقبائل الجزيرة العربية المعروف بالإيلاف، وهو الذي غيَّر وجه الجزيرة العربية، وقد تحكم في شكل عامة أحداث السيرة النبوية، سواء في ذلك المرحلة المكية أو المدنية، وكان هو كلمة السر في فهم كثيرٍ من المواقف والوقائع.

وتناولت سورة البروج حادثةً لها دلالتها القوية في الصراع بين فارس والروم الذي يؤثر علىٰ المشهد الاقتصادي في مكة، وهي قصة أصحاب الأخدود، وما حصل فيها من حرقٍ للمسيحيين علىٰ يد ذي نواسٍ حاكم اليمن بتوجيهٍ من السلطات الفارسية.

وتحدثت سورة الفيل عن مصير جيش أبرهة الذي حاول هدم الكعبة في سياق صرف الأنظار عن مكة، وتوجيهها إلىٰ اليمن بعد أن فقدت مركزها التجاري، اعتقادًا أنَّ إمامة مكة الاقتصادية نابعةٌ من وجود الكعبة، فحيث هُدمت سهل صرف الناس عنها، وبهذا يتيسر ربط اليمن بالشام، والسيطرة علىٰ الطرق الواصلة بينهما، والتخلص من الأسعار الجنونية التي كان يفرضها الفرس علىٰ السلع عند مرورها ببلادهم.

وأفردت سورة الكهف مساحةً للحديث عن ذي القرنين، ورحلاته الثلاث إلىٰ العالم، مع ما كشفته هذه الرحلات من فقهه، وتفهمه لأمور الناس وقضائه لحوائجهم، ونصرته للمستضعفين، وحسن إدارته للطاقات البشرية والموارد الطبيعية، مع رزمة القواعد الإدارية المتناثرة في قصته.

والقرآن الكريم يذكر قصص الأنبياء وقد حدثت في أزمنةٍ مختلفةٍ وأماكن مختلفة؛ فآدم وإسماعيل بمكة، ونوحٌ وإدريس وإبراهيم ويونس بالعراق، وهودٌ

باليمن، واليسع وذو الكفل بدمشق، وموسىٰ وهارون ويوسف بمصر، ويعقوب وداود وسليمان وعيسىٰ وزكريا ويحيىٰ بفلسطين، وهي مهاجر إبراهيم ولوط.

وأخبار الأنبياء زاخرةٌ بالفقه السياسي والدعوي وقواعد الحكم والعلاقة مع الدول والحكام، وغير ذلك مما تطرقتُ لطرفٍ منه في دروس أعقدها في السيرة النبوية بشيءٍ من البسط، وصُنِّفت في قِطَعٍ منه رسائلُ علمية.

ولو أنَّ أحد الباحثين تتبع نصوص الكتاب والسنة التي تطرقت لهذا الجانب وأدمن النظر فيها وثوَّرها وشق الأنهار فيها.. لتفجرت بين يديه ينابيع يرتوي منها الناس في الشأن السياسي الدولي والإقليمي في القرآن والسنة.

وقد يكون الهاجس جسرًا تصل به إلىٰ حسن الإدراك والفهم.

ومن أمثلة ذلك أني كنت أجد في نفسي أنَّ مجردَ مطالعة كتب التفسير ولو بتوسعٍ وتعمق لا يعطي درجة الفهم التي كان يجدها الصحابة عند سماع الآيات، وهذا ليس بمستغرب، ولكن الذي لا يُرتضىٰ أن تَتَّسِعَ الفجوةُ بيننا وبينهم مع إمكان تضييقها، وكنت أرىٰ أنَّ البطولةَ ليست في تحليل ألفاظ القرآن والتعمق في دلالاتها؛ وإنما هي في التقاط الرسالة التي تؤديها الآياتُ لحظةَ التنزيل.

ثم إنَّ الله وهبني هاجسًا انتفعت به غاية الانتفاع، وذلك في شهر رمضان عام ١٤٣٨ هـ لمَّا كنت بالسودان، وهو أنَّ قصص القرآن التي استغرقت ثلثه هي بمثابة الأرشيف والسوابق والخبرات المتراكمة التي نستعين بها في مواجهة الأحداث، ونستلهم منها التصورات ونتخذ بناءً عليها القرارات، بل ونعرف الخطوط العامة لمجريات الأحداث في المستقبل بناء علىٰ احتشاد قواعد فقه السنن فيها.

وأخذت أرتل القرآن بهذا الهاجس، وشعرتُ لأول مرة أني أعيش بيئةَ التنزيل، وصرت أفهم خلجات النفوس، وما وَقْعُ الآيات علىٰ كلِّ طرف؟،

وأتوقع كيف سيتصرف كل فريق؟، وأدركت يومها ركنية درسِ السيرة في فهم درس التفسير.

وأذكر مثالًا واحدًا على وجه الإيجاز:

لما بلغتُ سورة يوسف ﷺ وأنا أرتل القرآن بالهاجس المذكور انقدح في ذهني بمجرد تلاوة الآيات الأولى أنَّ السورةَ تُعالج أمرًا يتعلق بالنبي ﷺ، وأنَّ القرآن يستدعي له قصةَ نبيٍّ قبله، وأخذت ألاحظ مقاطع الشبه بين قصة يوسف ﷺ وقصة نبينا ﷺ، وفعلًا التقطت إشاراتٍ كثيرةً أكتفي بمنها بثلاث:

أولها: إنَّ يوسف ﷺ قد حسده إخوته، وكذلك نبينا ﷺ حسده قومه، وقد صرَّح أبو جهلٍ بأنهم لما صاروا مع بني هاشم في تنافس الرياسة كَفَرَسَي رهان قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فأنَّى ندرك هذه!.

وثانيها: لما أراد إخوة يوسف قتله نجاه الله منهم وانتهى به الأمر أن أصبح حاكمًا في البلد الذي رحل إليه، وهذا يُنبِئ أنَّ سياسة الاغتيال واردة، وفعلًا أرادت قريشٌ قتل النبي ﷺ فيما بعد، وأحاطوا ببيته، ونجاه الله تعالى، وانتهى به الأمر أن أصبح حاكمًا في البلد الذي هاجر إليه.

وثالثها: لما تمكن يوسف ﷺ من إخوته عفا عنهم و ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف: ٩٢]، وهذه الألفاظ بعينها قالها النبي ﷺ لقومه لما تمكن منهم يوم الفتح.

وعليه؛ فإنَّ حديثَ السورة عن خروج نبيٍّ من بلده إلى بلدٍ آخر، وتسلمه لمقاليد الحكم فيه إشارةٌ لاحتماليةِ خيار الهجرة، وضرورة التفكير في إيجاد مأوىً جديدٍ للدعوة، ويُبَشِّرُ بدولة الإسلام القادمة، وتفريج الكُرَب القائمة.

هذا بعض ما خطر بالبال أثناء التلاوة.

ثم إني رجعتُ إلى كتب التفسير لفحص هذه الخواطر؛ لأنَّ بابَ الاستنباطِ

مهما دق فلا بد له من الفحص والتوثق؛ لنرىٰ هل تُعتمد النتائج أم تهذب أم تنسف؟، فوجدت أنَّ السورةَ نزلت في المدة التي أعقبت الإسراء والمعراج وسبقت الهجرة، وأنها كانت من أشق الفترات علىٰ النبي ﷺ وأصحابه، وأنهم احتاجوا إلىٰ ما يسليهم، حتىٰ جاء في أسباب نزول السورة أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم ملوا ملَّةً وقالوا: لو قصصت يا رسول الله، فنزلت(١).

بل وجدت من كلام المفسرين ما ينصر الفكرة نصًّا، يقول الألوسي: هذه السورة اشتملت علىٰ ما قاساه بعض الأنبياء من الأقارب، وفيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ عما يفعله به قومه بما فعلت إخوة يوسف عليه السلام به(٢).

وأصرح من ذلك ما استفتح به سيد قطب الكلام علىٰ هذه السورة فمما قال: نزلت هذه السورة بين عام الحزن وبين بيعة العقبة الأولىٰ ثم الثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه فرجًا ومخرجًا بالهجرة إلىٰ المدينة.

نزلت السورة وعليها طابع الفترة الحرجة الموحشة في الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يعاني فيه من الوحشة والغربة والانقطاع، فأنزل الله يقص علىٰ نبيه الكريم قصة أخٍ له كريم عانىٰ صنوفًا من المحن والابتلاءات، وأن الله كما أخرجه من حضن أبيه ليواجه هذه الابتلاءات، ثم لينتهي به ذلك إلىٰ النصر والتمكين.. فكذلك أنت يا محمد؛ ستخرج من بلدك مهاجرًا إلىٰ دارٍ أخرىٰ يكون لك فيها النصر والتمكين، ثم تعود إلىٰ مكة في الوقت الذي يشاؤه الله ظافرًا منتصرًا(٣).

ولعلك بهذا العرض الموجز قد عاينت طرفًا من الدور الذي يقوم به القصصُ القرآنيُّ في رسم الرؤية للتعامل مع الأحداث، وفقه التنبؤ بمجرياتها، والله

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٥٢).
(٢) روح المعاني للألوسي (١٢/ ١٧٠).
(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ١٩٤٩-١٩٥١) بتصرف شديد.

تعالىٰ أعلم، ونسبة العلم إليه أسلم[١].

ثالثًا: طول التأمل:

لو أردت أن أضع اسمًا لمصنع المنتجات المعرفية لسمَّيْتُه «مصنع التأمل»؛ وذلك أنَّ اكتشاف المعارف وتخلل أعطاف العلوم لا ينال إلا بالتأمل وتقليبِ المسائل والأبواب علىٰ صفائح العقل، وجوهرُ المجاهدة في صناعة العلم ليس في قراءةِ أكبر قدرٍ من الكتب؛ بل في أطر النفس علىٰ التحنث في محراب المعاني الغائرة والإشكالات المرهقة[٢].

ألا أيهــا الأغفــال إيهّــا تــأملوا وهــل يــوقظ الأذهــان غيــر التأمــل

وإنَّ من المسالك المنتشرة بين قطاع من المشتغلين بالعلم كثرةَ النُّقول، فإذا كتب أحدهم كتابًا أو رسالةً فيرىٰ أنه قد أحسن بمقدار النقول التي يوردها، وإنها لفتنة؛ وذلك أنَّ التربية علىٰ الصنائع المعرفية ينبغي أن تُوَجِّهَ السالكَ فيها أنه إذا كتب شيئًا هضمه واطلع علىٰ متعلقاته، ثم أضاف إليه من نفسه ونتاج تأمله؛ فإنَّ لكل عالِمٍ بصمتَهُ ونَفَسَهُ، بل ويَستدرِك إن رأىٰ ما يُستدرك متىٰ كان لذلك أهلًا.

وبهذا ينشأ علىٰ أنَّ الأفكارَ التأمليةَ أصلٌ والنقولَ الناصرةَ لها تبع، ومتىٰ احترف ذلك فقد أُذِن له بدخول مصنع المعارف وسلوك مسلك الكبار، ولا يزال يتقدم في ذلك حتىٰ يصبح من الأئمة الراسخين في العلم بإذن الله وفضله.

خذ هذه القطعة من كلام ابن عبد الهادي عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية المشهور بالتأمل وطول النفس في التحقيق، واملأ عينك وقلبك بها؛ فإنها من

(١) وقد ذكرتُ عددًا وافرًا من الأمثلة والمنهجيات في التدبر، وذلك في محاضرة بعنوان: «منهجياتٌ في تدبر آيات الكتاب»، وهي منشورةٌ علىٰ الشبكة، نسخة أولىٰ صوتية، وثانية مرئية، والنسخة المرئية فيها مزيد إضافات، وتعقيبٌ كريم من شيخنا د. يونس الأسطل وفقه الله.

(٢) انظر مقال: «طالب العلم والتأمل» لمشاري الشثري، وهو منشور علىٰ الشبكة.

أحسن التنظير والتمثيل لما تقرر هنا، ونص كلامه عنه:

«وقلَّ أن يدخل في علمٍ من العلوم من بابٍ من أبوابه إلا ويُفتح له من ذلك الباب أبوابٌ، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حُذَّاقِ أهله!.

ولقد سمعته في مبادئ أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تُشكِل عليَّ فأستغفر الله تعالىٰ ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتىٰ ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل، قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلىٰ أن أنال مطلوبي»[(١)].

والحق أنَّ هذه القطعة متنٌ موجزٌ في الهمة وتحصيل الملكة وصناعة المعرفة وطول التأمل وحسن التعبد والإقبال على الله والافتقار له.

لكن ينبغي أن يُعلَم أنَّ التأملَ مرهقٌ للذهن، متعبٌ للعقل، حتىٰ إنَّ الإنسان ليجوعُ بعده، ولهذا لو اقترحت علىٰ صديق لك أن تسير وإياه مدة ساعة في حاجةٍ لوافقك من فوره، ولو سألته سؤالًا في العلم، وطلبت أن يُعمِلَ عقله في جوابه لقال لك بعد دقيقةٍ أو أقل: لقد تعبت، هات الجواب!.

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يعدم والإقدام قتال

ولهذا ألتمس من المشايخ والمدرسين تربية طلبة العلم علىٰ هذا النهج، وبيان فضائله، وإعلامهم ما مفاده أنَّ الاطلاعَ المجرد إذا كان مشروعَ معلومةٍ.. فإنَّ التأمل مشروعُ فكرةٍ وصناعة، وهو الذي تستثمر به المعلومات.

وإنما يحصل التمايزُ بين الطلبة بقدر استحواذهم علىٰ الأفكار لا المعلومات، فلا شأنَ للمعلومات إلا بقدر ما يمدها العقل من إدراكه وتأمله، ولهذا فإنَّ القليل من العلم مع التأمل والتفهم خيرٌ من الكثير الذي لا يديره الطالب علىٰ فهمه وتأمله.

---

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لابن عبد الهادي ص (٢١/ ٢٢).

ولذلك لما رأى الإمام مالك ابني أخته أبا بكر وإسماعيل مشتغلين برواية الحديث على حساب فقهه والتأمل فيه قال لهما: أراكما تحبان هذا الشأن، فإن أردتما أن ينفعكما الله به.. فأقلا منه وتفقها فيه(١).

فآل الأمر إلى استثمار المعلومات لا استكثارها، وما ذلك إلا لفضل حسن التصرف فيها ولو قلت على مجرد العلم بها ولو كثرت.

وإذا طلبت برهانًا على ذلك فقلب طرفك في جنبات التراث المعرفي للعلماء بشتى طبقاتهم، ستجد السادة منهم هم من كانت الأفكار هي المحرك الأكبر لعلمهم، وبها تقلدوا مناصب التحقيق، وحازوا مفاخر الإنتاج، بخلاف من نصَّب نفسه لاجترار المعلومات المنثورة عند الشركاء دون استثمارها(٢).

فهذا الإمام الشافعي الذي تقدم بيان طرفٍ من منتجاته المعرفية التي ما زلنا نقتات عليها كان يتأمل المسائل ويشتغل بتقليبها في هدوء الليل وظلمته؛ ليصل إلى استنباط القواعد والأحكام.

ومن شواهد ذلك ما أخرج البيهقي بسنده إلى الربيع المرادي قال: رأيت الشافعي بنصيبين قبل أن يدخل مصر، فلم أره آكلًا بنهار ولا نائمًا بليل، وكانت له جاريةٌ سوداء تخدمه، وكان يعمل الباب من العلم ثم يقول: يا جارية قومي إلى القداح، فتقوم فتسرج له، فيكتب ما يحتاج أن يكتبه ويرسمه في موضوعه، ثم يطفئ السراج ويستلقي على ظهره فيعمل الباب من العلم، ثم يكرر ذلك فقلت: يا أبا عبد الله لو تركت السراج؛ فإنَّ هذه الجارية منك في جهد، قال: إنَّ السراجَ يشغل قلبي(٣).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٤٣٦)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/ ١٣٣).
(٢) ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (١٣٣).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

ولما بلغ الرازي تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩] ألفيته يقول: «اعلم أنَّ هذه الآية آيةٌ شريفةٌ مشتملةٌ على أكثر علم أصول الفقه» ثم بين وجه ذلك[1].

وكحِّل عينك بقراءة ما خطَّه ابن القيم ذو النفس الطويل في الاستدلال والتمثيل، فإنه لما أخذ يتكلم في مسألة سد الذرائع، -وهي مسألةٌ أصوليةٌ مختلفٌ فيها- ذكر تسعة وتسعين مثالًا ينصر القول بها، وبعد أن سردها جميعًا عقَّب عليها بقوله: «ولنقتصر على هذا العدد من الأمثلة الموافق لأسماء الله الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة[2]؛ تفاؤلًا بأنه من أحصى هذه الوجوه، وعلم أنها من الدين، وعمل بها دخل الجنة؛ إذ قد يكون قد اجتمع له معرفةُ أسماءِ الربِّ تعالى ومعرفة أحكامه، ولله وراء ذلك أسماءٌ وأحكام»[3][4].

واستمع إلى زفرته حين تكلم عن قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ٣] بكلام امتد لبضع صفحات، واستنبط منها جملًا من العلوم والمعارف ثم قال: فهذه عشرة قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة، فهل خطر ببالك قط أنَّ هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها، وسماعك إياها،

---

(١) تفسير الفخر الرازي (١/ ١٤٧٥).

(٢) يشير إلى حديث الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة». انظر: صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٧٣٦)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٩٨٦).

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم (٣/ ١٥٩).

(٤) قلت: سبحان الله! أثمر هذا التأمل ونحوه حدًّا من العلم بلغ نصابًا يصلح لرسالة علمية مفردة فيه!، فقد كتب الباحث سعود بن ملُّوح سلطان العَنْزي رسالته العلمية بعنوان: «سد الذرائع عند الإمام ابن قيم الجوزية وأثره في اختياراته الفقهية» وهي مطبوعة لدى الدار الأثرية - عمان.

وهكذا سائر آيات القرآن، فما أشدها من حسرةٍ وأعظمَها من غبنة علىٰ من أفنىٰ أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه!(١).

وبعد جولةٍ من التأمل في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٥] خرج محملًا بما لذَّ من الثمار وطاب من الفوائد ثم قال: «فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحِكَم، ولعلها قطرةٌ من بحرٍ بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار.

وإلا فلو طهرت منا القلوب وصفت الأذهان، وزكت النفوس وخلصت الأعمال وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله.. لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحِكَمِهِ ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشىٰ عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته»(٢).

ولا تحسبن التأمل مرهقًا إلىٰ الحدِّ الذي يتعبك، وحتىٰ لو افترضنا ذلك فإنَّ نواتجه إذا طلّت تُبَدِّدُ كلَّ تعب، شأن الولد، تتعب في حمله الأم، فإذا سمعت صوته ذهب كل ألم، وإنَّ الصنائعَ المعرفيَّة مواليدُ معنوية، فالفرحة بها أتم، والابتهاج بها أكمل.

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠١).
(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ١٧٥).

يقول الشيخ مشاري الشثري: هذا وإنَّ للعلم فرحةً لا تنال بحصد أكبر قدرٍ من الفوائد والمُلَح، ولا بالترنم -حين تُسأل- ببضعة أبياتٍ من هذه المنظومة أو تلك؛ وإنما تنال حين يترنح عقلك من رهق التأمل في دهليز مسألةٍ مظلمة الآخر، ويتهادى فكرك كليلًا خلف أذيال قضيةٍ مغلقة، حتىٰ إذا ما أزفت ساعتك انسدل لك خيط الفتح، وانحلت عُقَدُ الإشكال، هناك الفرحة»[١].

وبعد الذي تسطر بقي أن يُشار أخيرًا إلىٰ جملةٍ من الحقائق المتعلقة بالتأمل، وعددها خمسٌ هاك سردَهَا:

الأول: لا تلازم بين التأمل وطول الوقت؛ فقد تتأمل مسألةً ويُفتح لك فيها بعد دقائق يسيرة، وهذا كثير.

الثاني: ساحة التأمل واسعة، فقد يكون التأمل في العلوم كلها، أو علمًا واحدًا منها، أو بابًا منه أو مسألة، أو في تخريج فرعٍ علىٰ أصل، أو في الاستهداء إلىٰ تقسيمٍ حاصرٍ أو محكم، أو في مثالٍ أو حجَّةٍ أو استدلال، أو في رد شبهة، وغير ذلك.

الثالث: تُغرسُ بذرةُ التأملِ من بواكير الطلب، وتنبت مع دخول المتفقه المرحلة الثانية من العلم، فإذا دخل المرحلة الثالثة ظهرت ثمرته، ويمكن ترويض النفس عليه ليبلغ فيه مبكرًا، ومن وسائل العون علىٰ ذلك كثرةُ النظر في عُمَد الكتب في كل فن، والاطلاع علىٰ منتجات حُذَّاقِ النقدِ والتأملِ والتحقيق، ومن أمهر هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

الرابع: من فضائل التأمل إعانتُهُ علىٰ كشفِ مواطنِ الإشكال، ومعرفة مظانِّ البحث عن الجواب، وبناء الملكة، وصناعة المعرفة.

---

(١) ارتياض العلوم لمشاري الشثري ص (١٤٥).

وإنَّ من أعظم مغانم التأمل صنعَ عقلٍ يُحسِنُ النظرَ في المسائل، ويعرف مسالك الاستنباط، وهذا العقل قد لا يراه الناس في كثرة المعلومات وتعداد المحفوظات، لكن شأنه شأنُ قواعد البيت لا يراها الناس، لكن البناء لا يقوم إلا عليها.

ومن هنا لست أشك أنَّ تأمل صفحة خيرٌ من قراءة عشر، وأن إعادة قراءة كتابٍ ثلاث مرات خيرٌ من قراءة خمسة كتب جديدة، وإني ما رأيت طالبًا نبغ بمجرد الاستكثار من القراءة؛ وإنما بحسن النظر فيما يقرأ.

الخامس: حذار من الجزم بنواتج التأمل حتىٰ تقتل المسألة بحثًا وفحصًا وتمحيصًا، وصدق الشيخ فيصل المنصور إذ قال: لا بدَّ للعالِم أن يتحلَّىٰ بقدرٍ كبيرٍ من الجرأة محفوفٍ بقدرٍ كبيرٍ من الحذر.

رابعًا: تكوين منهج النظر:

وهذا حصادُ ما سبق، وهو حصاد العمر.

ومنهج النظر هو هوية العقل وطريقة التفكير والماكينة التي تنتج الآراء، وهو خليطٌ مركزٌ من المحصول الثقافي وطبائع النفس وثقافة البيئة والمحيط.

ومن خلاله تستطيع أن ترد كلَّ منتجٍ معرفيٍّ إلىٰ صاحبه، شأن بصمة اليد؛ لأنَّ نَفَسَ العالم ومعارفه وطريقته حاضرةٌ فيه.

وقد جادت قريحة الشيخ أحمد سالم فتناوله بشيءٍ من البسط فقال:

كل إنسان اكتمل منهجه في النظر فقد اكتملت عُدَّتُه العلمية، وأمكنه أن يكون له رؤيةٌ مستقلةٌ في أيِّ مسألةٍ بمجرد أن تجتمع لديه معطياتها الأساسية، وبدون منهج النظر يظل الإنسان أسيرًا لوجهات النظر المطروحة ولو حصَّل معطيات المسألة، وقصارىٰ أمره أن يتخير أو يلفق بينها دون أي رؤية مستقلة.

ولهذا فإنَّ إصلاح منهج النظر هو وظيفة العمر، وهو نسقٌ مفتوح يموت أكثر الناس ولم يتمه، وهو حلقات، وفي كل حلقةٍ ميزانٌ يجب أن يُدرك، فإذا أدركته وزنت به ما وُضِع هذا الميزان له؛ فللرواية والنقل ميزان، ولضبط اللسان العربي ميزان، ولتفسير النصوص ميزان، ولتصرفات الخلق والحكم عليها ميزان، ولإصلاح النفس ميزان، ولمنتجات العقول الإنسانية ميزان، ولسان كل هذه الموازين واحد؛ وهو الوحي، وإنما النظر في صفةِ كلِّ ميزان، وباقي بِنيته التي تتصل بهذا اللسان.

من هنا نستطيع أن نقول: إنَّ استواء منهج النظر عمليةٌ تراكمية، تنتج من تفاعل القراءة مع التأمل والتفكير، ومع المناقشة والمباحثة وإعادة النظر كرةً بعد أخرىٰ، وهذا يظهر جليًّا عند تكرار الكتب المُؤسِّسة؛ فإنَّ انتفاعك بها يتناسب زيادةً ونقصًا مع المحصول الثقافي ودرجة الوعي والإدراك التي عندك.

ولا غرو إذن أنك حين تعيد قراءة كتابٍ مهمٍّ من الكتب المؤسسة بعد سنواتٍ من القراءة الأولىٰ ستشعر أنك تقرؤه لأول مرة، وتتعجب من الغيث المنهمر من الفوائد التي حصَّلتها منه، كأن لم تمر عليها من قبل.

وإذا استوىٰ المنهج فلا بد من إنفاذه وتفعيله عند النظر في كلِّ مسألة، والنظر الذي نعني هنا هو الذي يعتمد علىٰ جمع ما يتعلق بالمسألة، والنظر في أجزاء المسألة جزءًا جزءًا، مع جودة ترتيب المقدمات والنتائج، واختبار ما يتم إيراده من الحجج، والعمق في استقراء أسباب الظواهر وصولًا إلىٰ تفسيرها، مع الحذر من السطحية والتفسيرات الواحدية، ومع تقدير احتمال الخطأ، والفحص النقدي المتكرر.

هذا هو التفكير المستقيم الذي يقود للعلم، ويُنقذ صاحبه من براثن المغالطات والأوهام، وبمثل هذا التماسك المنهجي أقام الأئمة صروح العلم.

إذن لدينا ثلاث مراتب:

المرتبة الأولىٰ: الحصيلة العلمية: وهذه يكفي لتحصيلها مواصلة القراءة والاطلاع الثقافي، ولو لم يكن هناك درسٌ منهجيٌّ لتحصيل أدوات العلم.

المرتبة الثانية: إنتاج الأفكار: وهذه لا بد لها من خطوتين أساسيتين:

إحداهما: الدرس المنهجي الذي يقصد إلىٰ ضبط أدوات العلم ومفاتيحه، أو المجال المراد إنتاج الأفكار فيه.

والأخرىٰ: مداومة الاطلاع المخلوط بالتأمل النقدي علىٰ كتابات المبدعين والمجددين، وأصحاب النقلات المحورية في العلم المراد إنتاج الأفكار فيه، وتزداد القدرة علىٰ إنتاج الأفكار بزيادة الاطلاع الثقافي خارج مجال العلم المراد إنتاج الأفكار فيه.

المرتبة الثالثة: صياغة منهج النظر: والذي يليه صياغة رؤية منهجية مترابطة ومتكاملة.

وهذه أشق المراتب وأعسرها، ولا تنال إلا بطول الزمان وتكرار النظر ومداومة البناء والهدم، وإعادة التشكيل مع التواصل والحوار والصبر والانقطاع التام.

ولا شك أنَّ هذه كلها شروطٌ ضروريةٌ تقنية، يجب أن تكون محوطةً بتوفيق الله للعبد، وقدر من المواهب الذاتية، مع أمانةٍ تامَّةٍ ونزاهةٍ وجرأة نقديةٍ، وأناةٍ ومراقبةٍ ومحاسبة[1].



---

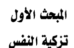
(١) السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية لأحمد سالم ص (٥٦-٥٨)، بتصرف.

الفصل الرابع
مراقي التزكية ومقومات النبوغ وآفات الطريق

تولىٰ هذا الفصل تقديم جرعةٍ يسيرةٍ من الزَّادِ الإيماني والتعبدي والخُلُقي الذي تحصل به حِليَةُ المتفقه، ومقوماتِ نبوغه، والآفاتِ التي تعرض له.

وإزاء ذلك فإنَّ عرش هذا الفصل يقوم علىٰ ثلاثة أعمدة: **الأول**: لتزكية النفس، **والثاني**: لمقومات النبوغ، **والثالث**: لآفات الطريق، ودونك عرضَها في ثلاثةِ مباحث، فيها هدايةٌ للباحث:





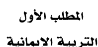
المبحث الأول
تزكية النفس

إنَّ مسائلَ العلمِ كجواهر الذهب، ولا يودع الذهبُ إلا في أوعيةٍ كريمة، فمن لم يطهر قلبه من نجاسة الشهوات أو سعىٰ في ذلك ولو حبوًا بأثقال طينه.. فإنَّ العلمَ يأبىٰ أن يسكنه، ومن هنا قال سهل بن عبد الله: «حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يشم رائحة اليقين وفيه سكونٌ إلىٰ غير الله، وحرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخله النور وفيه شيءٌ مما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ»(١).

وقد آوىٰ هذا المبحث جُمَلًا من قاموس الإيمان والتعبد والعمل الصالح والإخلاص والسلوك، تعين الناظر فيها علىٰ تزكية نفسه، وإصلاح قلبه، ودونك عرضها في خمسة مطالب:



(١) الزهد والرقائق للخطيب البغدادي ص (٥٩).



المطلب الأول
التربية الإيمانية

إنَّ من علائم فقه طالب العلم وتوفيق الله له عنايته بالتربية الإيمانية كما يعتني بالأوراد العلمية، ومن هنا قال الشيخ عبد الرحيم الطَّحان: من رحمةِ الله بالشاب أن يُوَفَّقَ في بداية طريقه لرجلٍ يربط قلبه بالله جل وعلا، ويعرفه على الطريق المستقيم، ثم بعد ذلك يُقبل على العلوم، يأخذ منها وينهل، وهكذا يكون تعلمُ الإيمانِ عن طريق الخلو بالرحمن في جنح الظلام. ا. هـ.

وإن من علائم الجهل والحرمان هجر طالب العلم لأوراده الإيمانية بحجة انشغاله بالأعباء العلمية؛ إذ الفضل في اقتران العلم والإيمان، وقد بين الشيخ إبراهيم السكران هذا المعنىٰ أحسن بيان فقال:

«لفت انتباهي في كتاب الله كثرة اقتران مفردتي العلم والإيمان؛ فجعلهما الله لقبًا علىٰ طائفةٍ استشهد بكلامها فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦]، وأخبر عن رفعة من جمعهما فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ونبهنا كيف يقود أحدهما إلىٰ الآخر فقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، وامتن الله علىٰ رسوله بهما سويًّا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقال ابن تيمية: «فإنَّ

الخيرَ كلّهُ أصله وفصله منحصر في العلم والإيمان»(١)(٢).

وقال الشيخ عبد العزيز الطريفيُّ: «لا يصدق الأمة إلا عالمٌ جمع مع العلم الديانة وقوة إيمان؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ ، والعالم بلا إيمانٍ يقود أمته إلىٰ هواه وهواها».

وسمعت الشيخ د. صلاح سلطان فرَّج الله عنه يجمع بينهما فيقول: قوام التربية الإيمانية: حجةٌ علمية وخشيةٌ قلبية وحركةٌ دعوية.

ومن هنا؛ فإنَّ إغفالَ مناهج التلقي لمعراج التربية الإيمانية معدودٌ في الزلات المنهجية، بل لا يكاد ينقضي العجب حين ترىٰ أنَّ الله يقسم أحد عشر قسمًا متتاليًا في صدر سورة الشمس علىٰ فلاح من زكىٰ نفسه بالطاعة، وخيبة من دسَّها بالمعصية.. ثم لا تجد علم التزكية معدودًا عند بعض المشتغلين بالعلم في علوم الغايات!.

وربما لو نظر بعض طلبة العلم إلىٰ أخٍ لهم يَنكَبُّ علىٰ كتب التزكية لوقع في أنفسهم أنَّ اهتمامه هذا اهتمامُ مبتدئٍ في الطلب، مع أنَّ عنايتَهُ بذلك تُقَدِّمُهُ عليهم؛ فإنَّ الفقيه من خشي ربه وأقبل علىٰ شأن الآخرة، وبقي يُراعي ذلك، وهو صريح قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد تأفف الإمام الغزالي من بعض المشتغلين العلم الذين يشتغلون بمسائل ربما لا يحتاجون إليها في العمر سوىٰ مرة، وإذا سئل أحدهم عن أعمال القلب ومسائل الإخلاص والرياء لم يجب، مع أن هذا مما يحتاجه كل يومٍ وليلة فقال:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص (١٤٦).
(٢) مسلكيات لإبراهيم السكران ص (٧).

أما علم أحوال القلب فهو علم المعاملة، وهو علىٰ أحوال، منها ما يحمد ومنها ما يذم.

أما ما يحمد منها؛ فكالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوىٰ والقناعة والسخاء ومعرفة المنة لله تعالىٰ في جميع الأحوال والإحسان وحسن الظن وحسن الخلق والصدق والإخلاص، فمعرفة حقائق هذه الأحوال وأسبابها التي بها تكتسب وثمرتها وعلاماتها ومعالجة ما ضعف منها حتىٰ يقوىٰ.

وأما ما يذم؛ فكالخوف من الفقر وسخط المقدور، والغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو وحب الثناء والرياء والغضب والأنفة والعداوة والبغضاء، والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والمباهاة والاستكبار عن الحق، وحب كثرة الكلام والمداهنة والعجب والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل وضعف الانتصار للحق والقسوة والفظاظة، فالعلم بحقائق هذه الأمور وأسبابها وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوىٰ علماء الآخرة.

ولو سئل فقيه عن معنىٰ من هذه المعاني.. لتوقف فيه مع أنه فرضُ عَينِهِ الذي فيه هلاكه في الآخرة، ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي.. لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلىٰ شيءٍ منها، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلًا ونهارًا وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين.

وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به؛ لأنه علم الدين وفرض الكفاية، ويلبس علىٰ نفسه وعلىٰ غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فروض الكفاية لقدم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيرًا من فروض الكفايات[1].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١/٢٠-٢١) بتصرف.

واسمع إلىٰ زفرة ابن السبكي حين حكىٰ حال بعض الفقهاء فقال:

ومنهم طائفةٌ لا تترك الفرائض ولكنها أحبت العلم والمناظرة، وأن يقال: فلانٌ اليوم فقيه البلد، حبًّا اختلط بعظامها ولحمها، فاستغرقت فيه أكثر أوقاتها، واستهانت بالنوافل، ونسيت القرآن بعد حفظه، وشمخت بآنافها مع ذلك وقالت: نحن العلماء.

وإذا قامت لصلاة الفريضة قامت أربعًا لا تذكر الله فيها إلا قليلًا، مزجت صلاتها بالفكر في باب الحيض ودقائق الجنايات، وربما جاء ليقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ فسبق لسانه إلىٰ ما هو مفكرٌ فيه من جزئيات الفروع فنطق به.

ثم إذا سألت واحدًا من هذه الطائفة: أصليت سنة الظهر؟ قال لك: قال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، أو قلت له: أخشعت في صلاتك؟ قال: ليس الخشوع من شرائط صحة الصلاة، أو قلت له: أنسيت القرآن؟ قال لك: لم يقل إن نسيانه كبيرة إلا صاحب العدة وما الدليل علىٰ ذلك؟! وأنا لم أنس الجميع؛ فإني أحفظ الفاتحة وكثيرًا من القرآن غيرها.

فهذا قل له: أيها الفقيه، كلمة حق أريد بها باطل، إن الشافعي لم يَعْنِ ما أردت، ولكلامه تقريرٌ لسنا له الآن، ويخشىٰ علىٰ من هذا شأنه المروقُ من الدين رأسًا»[1].

وعقب هذا؛ فإننا إذا رددنا الأمرَ إلىٰ نصابِهِ كان الصواب فيما خطه الشيخ د. صلاح سلطان فرَّج الله عنه إذ قال: لعل أكثر الناس حاجة إلىٰ تقوىٰ القلب هم العلماء والأئمة؛ لأنَّ زلة العالِم يضل بها عالَم، واجتماع الخشية القلبية

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي ص (٦٨-٦٩)، وهذا الكتاب نفيس، وللشيخ محمد أحمد الراشد تهذيب له بعنوان: «سبائك السبكي».

مع الحجة الشرعية أمرٌ لا مناص منه في الاجتهاد الصحيح، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩][1].

وينبغي أن يُعلَم أنَّ التراخيَ في هذا الباب يؤثر بالسلب علىٰ الثغر العلمي نفسه الذي يقيم طالب العلم علىٰ حراسته، والمرابطة علىٰ حدوده، وهذا ما نبَّهَ عليه الشيخ الدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال:

«إنَّ كثيرًا من طلبة العلوم الشرعية بما أعرضوا عن التربية الروحية؛ تخليةً وتحلية.. ساءت أخلاقهم، وفسدت نياتهم، وانحرفت أعمالهم، فما صلحوا لا لأنفسهم ولا لغيرهم، وإنما الغاية من طلب العلم نيلُ رضا الله جل علاه، فإذا أخطأه العبدُ.. فقد خاب وخسر، وكفىٰ بقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ضابطًا لقصد الشارع من العلم والتعلم، وقد فسر أهل العلم ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ هنا بأنهم العلماء بالله وبأمره.

فما عالمٌ ليست له خلواتٌ بجوف الليل الآخر، يتبتل فيها إلىٰ الله، ويدعوه رغبًا ورهبًا، وما عالمٌ ليست له أوقاتٌ مع ربه يذكره فيها ويستغفره ويسبحه، وما عالمٌ ليست له أشواقٌ ولا أذواق، ولا حياة لوجدانه بمسالك المحبة الإيمانية، ولا معرفة لقلبه بمدارج الخوف والرجاء.. ماذا يرجىٰ من ورائه لهذه الأمة! وماذا يمكن أن يفيد في تربية الخلق! وفاقد الشيء لا يعطيه.

وإنَّ العالم الذي ليس له عمقٌ روحي.. لا يمكن أن يفيد الأمة بشيء؛ دعوةً وتربيةً؛ إذ الدعوة إلىٰ الله إنما هي قائمةٌ علىٰ سقي ذَوْبِ الروح للعطشىٰ والمحرومين، ونشر مواجيد الرحمة والمحبة للحيارىٰ والمحزونين.

---

(١) من مقال للشيخ منشور علىٰ الشبكة بعنوان: الضوابط المنهجية لفقه الأقليات المسلمة، بتصرف.

فأنىٰ لمن تخشَّب قلبه أن يجد ذلك! بله أن يعطيه للناس! ألا وإنَّ ذلك إنما يتأتىٰ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧]، وإنما الموفق من وفقه الله، فلا بد لطالب العالمية إذن من حمل النفس علىٰ مقتضىٰ الأدب في المعاملة مع الله، والمعاملة مع خلقه، وإلا كان من الهالكين[(١)].

وبعد هذه النقول ندرك فقه الشيخ د. طه جابر العلواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ عدَّ تزكية المخلوق أحد المقاصد العالية للشريعة إلىٰ جانب توحيد الخالق وعمارة الكون، فإذا كانت الشريعة تهدف إلىٰ حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل.. فإنَّ تلك المقاصد الثلاثة أعلىٰ منها، فهي بمثابة مقاصد المقاصد.

ومن كلامه في ذلك أنَّ الله هو خالق الإنسان والكون والحياة، وأنه استخلف الإنسان في هذه الأرض، وأوكل إليه مهمة إعمارها، فما يجري علىٰ الأرض هو حاصل العلاقة بين الربِّ المستخلِف والعبد المستخلَف، والتوحيد يُمثِّل حق الله علىٰ العباد، والتزكية أهم صفةٍ في المخلوق تجعله أهلًا للقيام بدور الخليفة في الأرض، وعامة سور القرآن الكريم تدور حول هذه المقاصد الثلاثة[(٢)].

وتزداد وجاهة هذا الكلام والذي قبله إذا استحضرنا أنَّ كثيرًا من مسائل العلوم الشرعية واللغوية ليست متوجهةً أصالةً إلىٰ إصلاح القلب وعلاج آفات النفس، وإذا لم يعتن المتفقه بتلقي جرعات التزكية المركزة، ولم يجعلها وردًا ثابتًا له.. عطبت نفسه، وربما تجرأ علىٰ المعصية تجرأ الجاهل الغافل، فلزم عندئذٍ تكامل المعارف، والعناية بأبواب التزكية، وقد تطرق ابن الجوزي من قديم إلىٰ هذه الأزمة التربوية فقال:

«رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكفي في صلاح القلب، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصود النقل،

---

(١) مفهوم العالمية من الكتاب إلىٰ الربانية ص (١٢١-١٢٢).

(٢) انظر للتوسع الحوارَ مع الدكتور طه جابر العلواني تحت عنوان: مقاصد الشريعة.

وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلىٰ ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجةٍ وذوق؛ لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغالب به الخصم، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء؟!.

وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلىٰ سمته وهديه لا لاقتباس علمه؛ وذلك أنَّ ثمرةَ علمه هديُهُ وسمتُهُ، فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا؛ ليكون سببًا لرقة قلبك»[(١)].

وهذه وصيةٌ غالية، وهي نتاجُ خبرةِ إمامٍ فذ، جمع الله له بين العلم والإيمان، وإنه والله ما زاد عن أن ذكَّرك بِهَدْيِ من سلف؛ فإنَّ عنايتهم بمسالك التقىٰ والإيمان شديدةٌ، ولهذا كانوا يبدؤون طلب العلم بحفظ القرآن الكريم؛ إذ إنَّه أصل العلم، وينبوع التزكية، وأماط اللثام عن منهجهم في ذلك حافظُ المغربِ ابنُ عبد البر فقال:

طلب العلم درجات ورتب، لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملةً فقد تعدىٰ سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدىٰ سبيلهم عامدًا ضل، ومن تعداه مجتهدًا زل، فأول العلم: حفظ كتاب الله جل وعز وتفهمه، وكل ما يعين علىٰ فهمه فواجب طلبه معه، فإنَّ القرآنَ أصلُ العلم، فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فرغ إلىٰ ما يستعين به علىٰ فهمهم من لسان العرب كان له ذلك عونًا كبيرًا علىٰ مراده منه[(٢)].

ومن أحوال السلف في ذلك:

ما مرَّ بنا من كلام المزني عن تأليفه لكتابه المختصر، فإنه قال: كنت كلما أردت تأليفه أصوم قبله ثلاثة أيام، وأصلي كَذا كذا ركعة»!.

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص (٧١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/٣٢١-٣٢٢)، ولهذا الكلام تتمة، فقد ذكر ابن عبد البر الخطوات التي ينبغي العناية بها.

وأصاب السرخسي ليلةً داءٌ في بطنه فتوضأ سبع عشرةَ مرة؛ لئلا ينظر في كتب العلم بغير طهارة.

وقال البخاري: «ما وضعتُ في كتاب «الصحيح» حديثًا إلا اغتسلْتُ قبل ذلك وصلَّيْتُ ركعتين»، وقال عبد القُدُّوس بن هَمَّام: سمعت عدةً من المشايخ يقولون: دوَّن محمد بن إسماعيل تراجمَ جامعِهِ بين قبر النبيِّ ﷺ ومنبره، وكان يصلِّي لكل ترجمة ركعتين[1]!.

ولهذا إذا رأيت من نفع الله بعلمه أهل الإسلام شرقًا وغربًا.. فلا تنظر إلىٰ كمية العرق المتصبب من الجهد العلمي؛ ولكن تأمل التقىٰ الذي قارنه، وصلاح القلب الذي رافقه؛ لتدرك أنَّ المعراجَ الأعظمَ لسالك سبيل الطلب إنما هو الذي تبلغ به رضوان الله.

والمقصودُ من هذا المطلب ألا نذهل عن بناء القلب ونحن في زحمة بناء العقل، ومتىٰ عدل المتفقه بينهما فإنه أقربُ للتقوىٰ، فإذا كان يحرص علىٰ الحفظ والضبط وسعة الاطلاع والإنتاج.. فينبغي أن يحرص علىٰ مادة التربية والتزكية والورع والخشية والإخلاص ومعصية الهوىٰ والتهجد والتوبة.

وإنَّ رسالةَ سورة الشمس التي تقدمت لتجعلنا نستحيي أن نهمل مادة التزكية أو نزحزحها عن بدايات قائمة الأولويات؛ بل تقرع قلوبنا بطلب تقديمها في خارطة العلوم وإفراد معراجٍ لها.



(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (١/ ٢١).



المطلب الثاني

العمل بالعلم

إذا انفتح لك بابٌ من علمٍ فلا تغلق به بابًا من عمل، ولك في رسولِ الله أُسوةٌ حسنة؛ فقد كان قرآنًا يمشي على الأرض، وإنك متى عملت بكل نصٍّ ورد صرت كذلك بعون الله وفضله.

وإنَّ أعظمَ وصيَّةٍ في هذا الباب أن ترقى إلى الله درجةً درجة، ولا تكثر، لكن الدرجة التي تصعدها لا تنحط عنها؛ فالمشي البطيء يُبَلِّغُ صاحبه متى انتظم ولو زحفًا؛ وذلك أنَّ الشيءَ القليلَ متى لزمه الإنسان صار أكثر من الكثير الذي ينقطع عنه، فلا تنظر إلى نتيجة كل يوم؛ ولكن إلى حصيلة كل سنة، وهل السيل إلا اجتماع النقط!.

وقد دل على هذا المعنى الدقيق ما أخرج مسلم عن القاسم بن محمد عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»، قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ إِذَا عَمِلَتْ الْعَمَلَ لَزِمَتْهُ[1].

فالنجاح إذن لا يناط بالكمية؛ وإنما بالاستمرارية، وهذا المنهج نافعٌ في العمل بالعلم والحفظ والقراءة وغير ذلك من وسائل التحصيل.

ومن لطف الله الخفي أنه لا يجعلك تأخذ العلم جملة، ولكن مسألة بعد أخرى فيسهل حمله والعمل به، ولهذا يتكرر أن تقول: هذه المسألة أسمع بها أول

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٦٦) وبنحوه عند البخاري.

مرة، وبذلك لا يجتمع الكثير لديك فيشق عليك.

واعلم أنَّ العلمَ وإن كان مقصودًا في نفسه.. إلا أنَّ العملَ به من أعظم أغراضه ومقاصده، ومن هنا هتف الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جموع طلبة العلم ناصحًا ومحذرًا فقال: «يا حملة العلم اعملوا به؛ فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله، وسيكون أقوامٌ يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يقعدون حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا، حتىٰ إنَّ الرجل ليغضب علىٰ جليسه أن يجلس إلىٰ غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ»[1].

وقد أصغىٰ السلف لهذا الخطاب المزلزل، وشهد علىٰ ذلك القاسم بن محمد إذ قال: «أدركت الناس وما يعجبهم القول؛ إنما يعجبهم العمل».

وقال الإمام مالك: لا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، وقد رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل، قال ابن عبد البر: والذي قاله مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عليه جماعةُ الفقهاء والعلماء قديمًا وحديثًا[2].

بل قال الفضيل بن عياض: «لَا يَزَالُ الْعَالِمُ جَاهِلًا بِمَا عَلِمَ حَتَّىٰ يَعْمَلَ بِهِ، فَإِذَا عَمِلَ بِهِ كَانَ عَالِمًا»[3].

وبهذا أوصىٰ الخطيب البغدادي طالبَ العلم فقال: «وليجعل حِفظَهُ للحديث حفظَ رعايةٍ لا حفظَ رواية؛ فإنَّ رُواةَ العلوم كثيرٌ، ورعاتها قليل»[4].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١٧).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١٩١).

(٣) اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي ص (٣٧).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي ص (٨٧)، وحفظ الرواية هو الحفظ باللسان، أما حفظ الرعاية فهو أن يحفظ العلم بنيةِ رعايته وصيانته، وهذا لا يتأتىٰ إلا بالعمل به والتأسي بمقتضاه وبذله إلىٰ من يحتاجه.

وترجمة ما تسطر أن تجعل العملَ قرينَ العلم، فمتىٰ تعلمت شيئًا أتبعته بالعمل، وبهذا يتيسر لك أن تلتزم خطة أحمد بن حنبل إذ كشف عنها فقال: «ما كتبت حديثًا إلا وعملت به، حتىٰ مرَّ بي أنَّ النبيَّ ﷺ احتجم وأعطىٰ أبا طيبة دينارًا، فاحتجمت وأعطيت الحجام دينارًا!»[(١)].

ويعظم هذا المنهج إذا استحضرت أنَّ الإمام أحمد يحفظ ألفَ ألف حديث، وكأني به يلتزم مذهب الصديق الذي سبقه بهذا النهج فقال: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملتُ به»[(٢)].

ولما تعرض لفتنة خلق القرآن وطورد مدة وصار يتخفىٰ آثر أن يتحول بعد ثلاثة أيام؛ تأسيًا بالنبي ﷺ يوم الهجرة، قال إبراهيم بن هانئ: اختفىٰ عندي أحمد بن حنبل ثلاث ليالٍ ثم قال لي: اطلب لي موضعًا حتىٰ أدور، قلت: إني لا آمن عليك يا أبا عبد الله، فقال: النبي ﷺ اختفىٰ في الغار ثلاثة أيام ثم دار، وليس ينبغي أن نتبع سنة رسول الله ﷺ في الرخاء ونتركها في الشدة![(٣)].

وقال عبد الرحمن بن مهدي: سمعت سفيان يقول: ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديثٌ قط إلا عملت به، ولو مرة[(٤)].

فهذه هي النماذج الهادية التي تربي وتهذب وتؤدب، وصدق المأمون إذ قال: نحن إلىٰ أن نوعظ بالأعمال أحوج منا أن نوعظ بالأقوال.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٢٩٦).

(٢) أبو بكر الصديق رضي الله عنه.. شخصيته وعصره للصلابي (٣/ ١٧٨).

(٣) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلىٰ (١/ ٩٧)، الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٨٦). قلت: وهذه عناية وافرة بما أثر عن النبي ﷺ، وإلا فإن نفس الاختفاء سنة، أما عدد الأيام فموكولٌ بحسب الظرف والطلب، فهو من السيرة، والسنة هي المنهج والسيرة هي التاريخ.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٢٤٢).



وهذا هو العلم النافع، وليس كلُّ علمٍ ينتفع به، بل ما تعلق به غرضٌ صحيح، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يستفتح يومه بسؤال العلم من ربه لكن يقيده بالنافع منه؛ فقد أخرج ابن ماجه عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا صَلَّىٰ الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا»(١). صححه الألباني.

ووصانا قائلًا: «سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ»(٢). أخرجه ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه وحسنه الألباني.

وفي هذا السياق جذب الإمام الشاطبي الأنظار إلىٰ معيارٍ دقيقٍ للعلم النافع فقال: «العلم الذي هو العلم المعتبر شرعًا -أعني الذي مدح الله ورسوله ﷺ أهله علىٰ الإطلاق- هو العلم الباعث علىٰ العمل، الذي لا يُخلي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المُقَيِّدُ لصاحبه بمقتضاه، الحامل له علىٰ قوانينه طوعًا أو كرهًا»(٣).

وإنك لن تذوق طعم الانتماء للشريعة إلا إذا خرجت عن داعية هواك وما ترغبه نفسك وامتثلت أحكام الشريعة من غير تتبعٍ لأقوال العلماء في بلدك، وكلما تعبت وتعنيت وربما دفعت المال كان هذا أورث لانشراح الصدر وسعة التقىٰ والديانة.

ويتأكد التنظير للعمل بالعلم هنا ونحن نعيش اليوم وسط زوابع من الشبهات وعواصف من الشهوات، حتىٰ صرنا نسمع بين حينٍ وآخر بانتكاسةِ بعض الرموز فضلًا عن غيرهم، وهذا يحمل المتفقه علىٰ فرط العناية بالعمل؛ فإنه من أعظم المثبتات علىٰ الدين، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٩٢٥).
(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٨٤٣).
(٣) الموافقات للشاطبي (١/ ٨٩).

ولهذا فإنَّ من فقه المتفقه أن يُلزِمَ نفسه بأورادٍ ثابتة، ويجعل الاقتراب منها أو المساس بها خطًّا أحمر، وما أحسنَ نصحَ الشريف الزاهد علىٰ بن أحمد الزيدي لو أصغيت إليه وهو يعظك بمنهجٍ واضحٍ في ذلك فيقول: **«اجعل النوافل كالفرائض، والمعاصي كالكفر، والشهوات كالسم، ومخالطة الناس كالنار، والغذاء كالدواء»**[(١)].

ولو عمر قلب طالب العلم بهذا لكان حرصه علىٰ العمل أعظم في عينه من حرصه علىٰ العلم، ولكان فوات نصيبه من العمل أثقل عليه من فوات شيءٍ من العلم، فكيف لو كان العمل أحد أهم وسائل حفظ العلم!، وقد أحسن التعبير عن هذا المعنىٰ الشيخ عبد العزيز الطريفي فرج الله عنه فقال:

«العلم كنزٌ يحرسه العمل، وقد كثر العلم وقل العمل فتسلل الهوىٰ إلىٰ العلم فألبس الرأس خلخالًا والقدم تاجًا، وكيف يعرف مواضعها وهو لم يعمل بها قط!».

وما أحسن ما قال عبد الله بن إدريس [ت: ١٩٢ هـ] لأبي عبيد القاسم بن سلام [ت: ٢٢٤ هـ] لما سمعه يتلهف علىٰ بعض الشيوخ فقال له: يا أبا عبيد: **مهما فاتك من العلم فلا يفوتنك العمل**[(٢)].

أما من أقبل علىٰ أوراد العلم وأهمل أوراد العمل في زحمة الطلب فأعظه بقلم الشيخ محمد مصطفىٰ عبد المجيد فأقول:

يا طالب العلم، تحسن مسائل الاعتقاد، وتعرف أقوال الفرق في صفات الله ثم تتوسد ما علمت، ولا يفصل بينك وبين جارك الذي لا يُحسن ما تحسن سوىٰ جدار، ولكن قلبه قد امتلأ يقينًا بأن الله ينزل في ثلث الليل الآخر نزولًا يليق بجلاله، فقام يتهجد ويبكي ويسأل وكأنه يسمع نداء الله: هل من سائل فأعطيه!.

---

(١) تذكرة الحفاظ وذيوله للذهبي (٤/ ١٠٤).

(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص (٤٥).



يا طالب العلم، أتقنت كتاب الصلاة، وأحسنت الكلام في أوقات النهي، ثم ما تنفلت بصلاةٍ لا في وقت استحبابٍ ولا إباحةٍ، وكأنَّ يومك وليلتك وقت نهي، وثَمَّ رجلٌ لم يعلم ما علمت لا تفوته راتبةٌ ولا وترٌ ولا ضحىٰ، وكأنها فرائض قد افترضها الله عليه.

يا طالب العلم، أحسنت الكلام في معاني القرآن والتفسير والأقوال فيه، ثم وقفت شارد الذهن في صلاتك، لا تعقل شيئًا من قراءة إمامك في الصلاة، وكأنَّ القرآن نزل إلىٰ غيرك، سارحٌ في فروع فقه الجنايات وأنت تقوم بأعظم جنايةٍ في حق نفسك، ومنكبك في منكب رجل ربما لا يعلم مما تعلم شيئًا، لكنه يسمع الآية فيقشعر لها جلده، وتفيض لها عينه، ثم يلين جلده وقلبه إلىٰ ذكر الله، تطيب أيامه ولياليه بما يدنيه هذا من الله.

يا طالب العلم، قلبك يشكو، وإيمانك يَخْلَق، ومحرابك في شوقٍ إليك.

يا طالب العلم، اطلب العلم واستكثر منه لكن تذكر: «**إنما العلم الخشية**».ا.هـ[1].

يا طالب العلم، لا تنس وأنت تصعد في معراج الطَّلب أن ترقىٰ في معراج التعبد والأدب والإيمان والدعوة والجهاد والعمل، بل استعن علىٰ ضبط العلم بالعمل به، ومتىٰ زللت فتب إلىٰ الله، وانكسر بين يديه، ولا توقف قطار الحسنات إذا عرقلتك كلاليب السيئات.

واعتن بقولك وعملك وحالك، وما يخرج عنك، خاصةً إذا كنت قدوةً يأخذ الناس عنه؛ فإنَّ تيقظهم لحالك أضعاف تيقظهم لمقالك، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيم.



---

(١) وهي خاطرة كتبها وانتشرت علىٰ وسائل التواصل، وأثبتها بزيادةٍ يسيرة.

المطلب الثالث

تعبد الطالب

هذا المطلب متفرعٌ عن سابقه؛ إذ التعبدُ من جملةِ العمل، لكنَّ أهميتَهُ حملت على إفراده بالكلام عنه.

وذلك أنَّ من الزلات المنهجية هجرَ النوافل وأوراد التعبد بسبب الانكباب على أوراد الطَّلب، بحجة أنَّ العلمَ أفضلُ من العبادة، وهذا تصورٌ رديء؛ فإنَّ المفاضلة بين أمرين تعني اشتراكهما في أصل الفضل، لكن أحدهما أكثر فضلًا.

وعلى هذا؛ فإنَّ تفضيلَ العلمِ على العبادة يعني اختصاصه بمزيد عناية، فلو كان وِرْدُ الطالب خمس ساعات.. فيمكن صرف ثلثيه للطلب وثلثه للتعبد أو فوق ذلك أو دونه، أما أن يفهم من المفاضلة فعل الفاضل وترك المفضول.. فإنَّ هذا خللٌ في التصور، ولا تدل عليه النصوص، ولا أخبار الأئمة.

على أننا قد نحتاجه عند التعارض الحقيقي في الأوراد بسبب نازلةٍ أو حاجةٍ طارئةٍ ونحو ذلك، أما أن يكون منهجًا دائمًا أو غالبًا.. فلا.

ومن أعجب العجب أن ترى إهمالًا ظاهرًا لتلاوة كتاب الله وحفظه ومراجعته والنظر في معانيه، والقرآن هو رأس العلم وأصله، ومسائله هي أعظم العلم، والمتورط في ذلك مشتغلٌ بالمفضول ظانًّا أنه فاضل، وهاجرٌ للفاضل ظانًّا أنه مفضول.

ولست أتكلم هنا عن طلب الإيغال في أسرار الكتاب ولطائفه؛ وإنما أعني إدراك أصل المعنى الذي تفيده الآيات، ويتحصل هذا بتفسيرٍ متوسطٍ أو مختصر.

وإزاء ذلك فإني أخشىٰ أن يكون برنامج الطالب موكولًا لشهوته ومراده هو من الشريعة لا لمراد الشريعة منه، لا سيما وأنَّ العلم له شهوة وسطوة، وقد جاء في الأخبار أنَّ الحسنَ البصري دخل المسجد يومًا ومعه فرقد، فقعد إلىٰ جنب حلقة يتكلمون، فأنصت لحديثهم، ثم أقبل علىٰ فرقد فقال: يا فرقد، والله ما هؤلاء إلا قومٌ ملوا العبادة ووجدوا الكلام أهون عليهم، وقل ورعهم فتكلموا»[1].

فإن تشبثت بآثار المفاضلة وتأولتها بالذي تريد فإني أسألك: هل إذا جنَّ الليل مثلًا تشتهي نفسُكَ الوقوف بين يدي مولاك، والتلذذ بمناجاته، وترتيل كلامه، ثم إذا جاء وِرْدُ التلقي تنزع نفسَك من سجادة المحراب لصالح واجب الوقت؟، أم هو التخدير الموضعي للقناعات ليكون الطالب مقتاتًا علىٰ أقوال العلماء التي تساند كسله، والمرء يحتال علىٰ نفسه فكيف لا يحتال علىٰ غيره؟!.

ثم إني ذاكرٌ لك أمرًا مهمًّا حقًّا:

لا تحسبن أوراد التعبد معيقة؛ بل إنها مُعينة، فكم أنجزت من مرادات، وفكّت من مُشكلات، وهذبّت من نفس، وأصلحت من قلب، فبات صاحبه قادرًا علىٰ مواجهة النوائب ومعالجة الأزمات!.

وأحسن الله إلىٰ الشيخ الطريفي إذ قال: «العلم ثقيل الحمل علىٰ صاحبه لا يقوىٰ علىٰ أمانته إلا من ثبتت أقدامه بالعبادة، فبقدر العبادة يثبت وبقدرها يزيغ».

وقال: «قليل العلم مع عمل أفضل من كثير العلم بلا عمل؛ فالعبادة تسدد رأي العالم فيصيب الحق ولو بدليلٍ واحد، وإن قلت عبادته حرم السداد ولو جمع الأدلة».

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/ ١٥٦-١٥٧).

وينبغي أن يُعلمَ أنَّ الاشتغال بالتعلم دون حصانةٍ قلبيةٍ وعباديةٍ يجعل الطالب عرضةً للآفات، ومن أشد الآفات التي تصيب طالب العلم آفة الغرور التي إن أصابت الطالب آل أمره إلىٰ ضمور آلة العلم عنده وعدم الإفادة الحقيقية من المُحَصَّل[١].

وكشف هذه الثغرةَ يوسف بن الحسين من قبلُ فوعظك ناصحًا: «في الدنيا طغيانان: طغيان العلم وطغيان المال، والذي ينجيك من طغيان العلم.. العبادةُ، والذي ينجيك من طغيان المال.. الزهد فيه»[٢].

ولهذا وذاك يلزم النظر المتكرر في تراجم العلماء وسير الأئمة؛ فإنَّ معاينةَ فهمهم للموازنة بين العلم والتعبد واستعانتهم بالتعبد علىٰ العلم أظهر في تحصيل المقصود، وخذ طرفًا من أخبار أئمة كبار اشتغلوا بالفقه واشتهروا به:

فهذا الإمام أبو حنيفة يقول عنه أبو عاصم النبيل: كان أبو حنيفة يسمىٰ الوتد لكثرة صلاته[٣].

وجاء عنه أنه قال: إنما أدركت العلم بالحمد والشكر، فكلما فهمت ووقفتُ علىٰ فقهٍ وحكمةٍ قلت: الحمد لله تعالىٰ، فيزداد علمي، وإن الله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وكان إذا أشكلت عليه مسألة قال لأصحابه: ما هذا إلا لذنبٍ أحدثته، وكان يستغفر، وربما قام وصلىٰ، فتنكشف له المسألة، ويقول: رجوت أني تيب عليَّ، فبلغ ذلك الفضيل بن عياض، فبكىٰ بكاءً شديدًا ثم قال: ذلك لقلة ذنبه،

(١) قراءة وتعريف بكتاب «الغرور العلمي وأثره في العقل العلمي وأبجديات الطلب» للشيخ السعيد صبحي العيسوي، موقع الدرر السنية، والكتاب نافعٌ في بابه، وهو من طباعة دار الميمان.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٣٩).

(٣) ترجمة الأئمة الأربعة لأبي حمزة الشامي ص (١٥-١٦).

فأما غيره فلا يتنبه![1].

وهذا الإمام مالك تقول ابنته فاطمة: كان يصلي كل ليلة حزبه، فإذا كانت ليلة الجمعة أحياها كلها.

وقال أبو مصعب: كان مالكٌ يطيل الركوع والسجود في وِرده، وإذا وقف في الصلاة كأنه خشبةٌ يابسةٌ لا يتحرك منه شيء، فلما ضُرِب قيل له: لو خففت في هذا قليلًا، فقال: ما ينبغي لأحدٍ أن يعمل لله عملًا إلا حسَّنه، والله تعالىٰ يقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

وقال المغيرة: خرجت ليلةً بعد أن هجع الناس هجعةً، فمررت بمالك بن أنس، فإذا أنا به قائمٌ يصلي، فلما فرغ من الحمد لله ابتدأ بـ ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ حتىٰ بلغ ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ فبكىٰ بكاءً طويلًا، وجعل يرددها ويبكي، وشغلني ما سمعت ورأيت منه عن حاجتي التي خرجت إليها، فلم أزل قائمًا وهو يرددها ويبكي حتىٰ طلع الفجر، فلما تبين له ركع، فصرت إلىٰ منزلي، فتوضأت ثم أتيت المسجد، فإذا به في مجلسه والناس حوله، فلما أصبح نظرت فإذا وجهه قد علاه نورٌ حسن.

وقال محمد بن خالد: كنت إذا رأيت وجه مالك رأيت أعلام الآخرة في وجهه، فإذا تكلم علمت أنَّ الحق يخرج من فيه.

وقال ابن المبارك: رأيت مالكًا فرأيته من الخاشعين، وإنما رفعه الله بسريرةٍ بينه وبينه، وذلك أني كثيرًا ما كنت أسمعه يقول: «من أحب أن يفتح له فرجة في قلبه، وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة.. فليكن في عمله في السر أكثر منه في العلانية»[2].

---

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية لأبي الوفاء القرشي (٢/ ٤٨٧).

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/ ٥٤).

وهذا الإمام الشافعي يقول عنه الربيع بن سليمان: كان قد جزَّأ الليل؛ فثلثه الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام(١).

وقال الكرابيسي: بت مع الشافعي غير ليلة، وكان يصلي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمر بآية رحمةٍ إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين، ولا يمر بآية عذابٍ إلا تعوذ منها، وسأل النجاة لنفسه ولجميع المسلمين، قال: فكأنما جمع له الرجاء والرهبة جميعًا(٢).

وقال بحر بن نصر: كنا إذا أردنا أن نبكي قال بعضنا لبعض: قوموا بنا إلىٰ هذا الفتىٰ المطلبي نقرأ القرآن، فإذا أتيناه استفتح القرآن حتىٰ يكثر عجيج الناس بالبكاء، فإذا رأىٰ ذلك أمسك عن القراءة من حسن صوته(٣).

وهذا الإمام أحمد يقول عنه أبو بكر المروزي: كنت مع أبي عبد الله نحوًا من أربعة أشهر بالعسكر لا يدع قيام الليل وقراءة النهار، فما علمت بختمةٍ ختمها، كان يُسِرُّ ذلك.

وعن أبي عاصم بن عصام البيهقي قال: بت ليلةً عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظر في الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله؛ رجلٌ يطلب العلم لا يكون له وِردٌ بالليل(٤)!.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول عنه ابن القيم: وحضرته مرة صلىٰ الفجر ثم جلس يذكر الله تعالىٰ إلىٰ قريبٍ من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ الغداء سقطت قوتي!.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٣٥).
(٢) تهذيب الكمال للمزي (٢٤/ ٣٦٧).
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/ ٦٤).
(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣٣٩).

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكرٍ آخر.

وقال: سمعته يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء!(١).

وقال ابن عبد الهادي: ولقد سمعته في مبادئ أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تُشكِل عليَّ فأستغفر الله تعالىٰ ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتىٰ ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل»(٢).

وهذا المعنىٰ اللطيف عقد له ابن القيم فصلًا في كتابه «إعلام الموقعين» بعنوان: «توجه المفتي إلىٰ الله»، وكتب تحته:

ينبغي للمفتي الموفق إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقي إلىٰ ملهم الصواب ومعلم الخير وهادي القلوب أن يلهمه الصواب، ويفتح له طريق السداد، ويدله علىٰ حكمه الذي شرعه لعباده في هذه المسألة، فمتىٰ قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق..

فإذا وجد من قلبه هذه الهمة فهي طلائع بشرىٰ التوفيق، فعليه أن يوجه وجهه إلىٰ نصوص الكتاب والسنة وآثار الصحابة فيستفرغ وسعه في تعرف حكم النازلة، فإن ظفر بذلك أخبر به، وإن اشتبه عليه بادر إلىٰ التوبة والاستغفار والإكثار من ذكر الله؛ فإنَّ العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوىٰ والمعصية رياحٌ عاصفةٌ تطفئ ذلك النور أو تكاد، ولا بد أن تضعفه..

وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه فر منها إلىٰ التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللجأ إليه، واستنزال الصواب من

(١) الوابل الصيب لابن القيم ص (٦٣).

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لابن عبد الهادي ص (٢١/ ٢٢).

عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدًّا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه.

ولا ريب أن من وفق لهذا الافتقار وسار قلبه في ميادينه فقد أعطي حظه من التوفيق، ومن حرمه فقد مُنِع الطريق والرفيق، فمتىٰ أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[١].

ورسالة هذه الأخبار من أئمة العلم والفقه والهدىٰ تعظني وتعظكم بالعناية بأوراد التعبد عنايتنا بأوراد العلم؛ فإنها تصنع قلبًا طاهرًا من نجس الشهوات يكون صاحبه أهلًا لتوفيق الله له، وإلهامه للصواب، ومهما قصرت فلا ينبغي أن تقصر في وِردين:

الأول: تلاوة القرآن وحفظه وتدبره:

فإنَّ القرآنَ معينٌ لا عائق، وأصغ جيدًا إلىٰ تجربة عباس بن عبد الدايم المصري فإنه قال: أوصاني الشيخ عماد الدين المقدسي وقت سفري فقال: أكثر من قراءة القرآن، ولا تتركه؛ فإنه يتيسر لك الذي تطلبه علىٰ قدر ما تقرأ، قال: فرأيت ذلك وجربته كثيرًا، فكنت إذا قرأت كثيرًا تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي[٢].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: هذا الكتاب كثيرُ البركات والخيرات، من تعلمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة، فإن الله سماه مباركًا فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فوجدنا ذلك.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٤/ ١٧٢-١٧٣) بتصرف يسير.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ص (٢٢٢).

والآخر: التهجد:

فإنه أصل العملية التربوية، ورأس الأوراد الإيمانية، ويجزئ فيه ركعتان، لكن طويلتان خاشعتان، فما تغني الركعات الخفيفة لمتعطشٍ لرحمة الله والتعرف عليه! فكيف لو كان ينعقد الأمل عليه في بث الوحي وإصلاح الناس ومواجهة الطغيان والتحرر من أغلال الحياة!.

وإنه لا بد أن يأتي يومٌ تتصادم فيه المبادئُ مع المصالح، إلىٰ الحدِّ الذي يُنحرُ واحدٌ منهما، وعندئذٍ؛ فإنَّ القوةَ التي تضخها المحاريبُ لا تعدلها قوة، وذلك أنَّ جرعات التعظيم للمولىٰ التي تراكمت عبر ليالي التهجد تطيش معها حظوظ النفس ومهابة الناس ولو كانوا من الأكابر.

وبيان هذا: أن طالب العلم متىٰ اشتغل ببثه وإصلاح واقعه فإنه سيُواجَه من طلبة الرخص وضغط الأكابر وأصحاب المصالح ممن يقع في قلبه مهابةٌ منهم، فيحتاج ساعتئذٍ إلىٰ حكمةٍ وجرأةٍ وقوة شخصية لئلا يلين فيستدعي من أقوال العلماء ما يرضي به أهواء الناس، فإذا لزم التهجد، وعمر قلبه بجرعاتٍ منتظمةٍ من التعظيم بحيث تتوالىٰ عليه كل يوم.. صار يتعامل مع الناس ولو كانوا من الأكابر والأمراء كما يتعامل مع المساكين والفقراء، فآل وِرْدُ التعبد عندئذٍ من أسلحة القيام بأمر الله.

وخذ هذا المثل واتعظ به.

قال القاضي عياض: كان إبراهيم الأمير يقول: علىٰ بابي رجلان، أحدهما يخاف الله ولا يخافني، والثاني يخافني ولا يخاف الله، فأما الذي يخاف الله ولا يخافني فهو ابن طالب، والثاني فلان، فذاك عظيم الحرمة عندي، وهذا الذي يخافني صغيرٌ عندي.

وبالنظر في أخباره وجدنا القصري يقول: ما رأيت أكثر دموعًا عند ذكر رسول الله ﷺ منه، وكان يذكر تنازع أصحابنا في المسائل، فربما ذكر في المسألة خمسة أقوالٍ أو ستة، ثم تسيل دموعه ويقول: يا فتىٰ إذا أردت أن يقال فقيه، فهل معك عملٌ صالح تنجو به من عذاب الله، وإلا فما يغني عنك هذا!.

وكان يقول: يا ابن طالب: هبك أعظم الناس قدرًا وأكثرهم علمًا أليس يشفع وراء ذلك كله الموت![1].

وصفوة القول:

إنَّ انتفاعك بالعلم أظهر في سمتك وحال قلبك منه في قولك ودرسك، وقد روىٰ الدارمي عن مِسعَرٍ قال: سمعت عبد الأعلىٰ التيميَّ يقول: من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليقٌ أن لا يكون أوتي علمًا ينفعه؛ لأنَّ الله تعالىٰ نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩ ۝١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩][2].

ولهذا يا طالب العلم؛ إذا كان يخفق قلبك فرحًا عند إبانتك لغامض مسألة، أو كشفك لعويصها، وما يخفق عند سماع النداء للصلاة، أو عند فوات وردك من القرآن. فثق أنه ليس لك حاسد، وما مثلك مغبوط[3].

وجادة التربية عندئذٍ تقليبُ النظر في الأوراد، وإعادة رسم الأولويات، حتىٰ يتدانىٰ ورد التعبد من ورد العلم إلىٰ الحد الذي يكون عاملًا متعبدًا معه.

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/ ٣١٨).

(٢) سنن الدارمي، رقم الأثر: (٢٩٩).

(٣) من مقال بعنوان: يا طالب العلم، لخالد بن عبد العزيز أبا الخليل، وهو منشورٌ علىٰ الشبكة، بتصرف يسير.

أما متىٰ تفوق العلم علىٰ العمل أضعافًا مضاعفةً إلىٰ الحد الذي يهجر به العمل مع العلم به.. فإنَّ هذا قرينةُ اتباع الهوىٰ في الطلب، وتحكيم الشهوة في الأوراد، وجاز لك أن ترسل للمُتورط بذلك رسالةً نصها: «**اعلم يا عبد الله أنَّ قضية التعبد قضية توفيقٍ وحرمان لا معرفةٍ وبيان**».

وما أنفع ما قال أبو طالب المكي:

يقال: من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البرِّ عليك من غير قصدٍ لها، وصرف المعاصي عنك مع الطلب لها، وفتح باب اللجأ والافتقار إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في الشدة والرخاء.

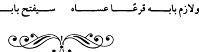
ويقال: من علامات الخِذلان ثلاث: تعسر الخيرات عليك مع الطلب لها، وتيسر المعاصي لك مع الرهب منها، وغلق باب اللجأ والافتقار إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، في كل حال، فنسأل الله تعالىٰ بفضله حسن التوفيق والاختيار، ونعوذ به من سوء القضاء والأقدار[1].

وحاصل ما تسطر:

تعبد، وأكثر من التنفل، فهب أنَّ الله لم يتقبل منك العلم لآفاتٍ أفسدته.. فإنَّ العمل يسعفك، ولهذا قاتل، وتهجد، وقف بالباب، واسأل الله من فضله، واسجد واقترب.

وناداه إذا سجدت له اعترافًا ... بما ناداه ذو النون بن متىٰ

ولازم بابه قرعًا عساه ... سيفتح بابه لك إن قرعتا[2]



(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١١٥).

(٢) ديوان أبي إسحاق الإلبيري، القصيدة التائية ص (٢٩).

المطلب الرابع
إخلاصُ الطَّالبِ لربّه

هذا الموضوع مقلقٌ مفزع، ولا يكاد الإنسانُ يأمن إلا إذا عاين قدميه في الجنة، واللغة النبوية الواردة بخصوصه شديدة؛ فقد أخرج أبو داود وابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١). صححه الألباني.

فأفاد الحديث أنَّ العلمَ قسمان: علمٌ دينيٌّ؛ وهو الذي يبتغىٰ به وجه الله، وعلم دنيوي؛ وهو الذي يراد به إصلاح الدنيا وتلبية الحوائج.

فمن درس العلوم الدنيوية كالهندسة والفلسفة ليأخذ راتبًا أو ينال رتبة.. فلا بأس في ذلك؛ لأنَّه علمٌ دنيويٌّ يراد للدنيا، غير أنه لو نوىٰ نفع المسلمين وسد حاجتهم بما تَعَلَّم.. لحاز ثواب الآخرة ومكاسب الدنيا فكان خيرًا له.

أما من درس العلوم الدينية ولم يرد بذلك إلا الدنيا؛ كالتحصل علىٰ وظيفةٍ أو حظٍّ من احترام المجتمع وتقديره.. فإنه لا يجد رائحة الجنة يوم القيامة، وهذا وعيدٌ شديد، وهو يدل علىٰ أنَّ انحرافَ النية من الكبائر، وأن تصويبها من الواجبات.

ونفي الرائحة مبالغةٌ في تحريم الجنة؛ لأنَّ من لا يجد ريح الشيء لا يتناوله، وليس معنىٰ ذلك أنَّ حكمَهُ حكمُ الكفار الذين لا يجدون ريح الجنة أبدًا؛ بل هذا

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٣٦٦٦)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٥٢).
والعَرَض: المتاع والحظ كمالٍ وجاه، والعَرف: الرائحة.

محمولٌ علىٰ أنه يستحق ألا يدخلها أولًا، ثم أمره إلىٰ الله تعالىٰ، كأمر صاحب الذنوب إذا مات علىٰ الإيمان[1].

فإن قيل: ما حال من درس العلم الشرعي في الكليات والجامعات، ويقصد بذلك التوسل إلىٰ وظيفةِ التدريسِ وغيرها من المقامات الصالحة فهنا ينظر:

إن كان لا يقصد إلا متاع الدنيا كراتبٍ ومنصبٍ.. فإنه داخلٌ في الحديث، وليس له في الآخرة نصيب، وقد قال الله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من عمل صالحًا التماسَ الدنيا لا يعمله إلا لذلك يوفيه الله الذي التمسه في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين[2].

وإذا كان يقصد تعلم الحق والعمل ونفع الناس، وإنما سلك سبيل الشهادات الجامعية لأنَّ أهلَ الزمان لا يقدرون الإنسان بعلمه مهما بلغ وإنما بشهادته.. فلا بأس في ذلك، وما يأخذه عندئذٍ معدودٌ في الثواب المعجل بإذن الله، فالعبرة بالباعث، ولكل امرئ ما نوىٰ[3].

فإن قيل: إنَّ النيةَ قد تختلط بين ابتغاء وجه الله وطلب حظٍّ من الدنيا يستعين به الإنسان علىٰ قضاء حوائجه، فالجواب: إنَّ الحكمَ يختلف بحسب قوةِ الباعثِ علىٰ العمل:

---

(١) مرعاة المفاتيح لعبيد الله المباركفوري (١/ ٣٢٦)، شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد (١٩/ ٣١١).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٢٦٣) بتصرف يسير.

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/ ١٩١٧)، شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد (١٩/ ٣١١).

فإن كان الباعث الأقوىٰ هو وجه الله وابتغاء الأجر.. فلا بأس، وهذا ما أحسن بيانه الطاهر بن عاشور إذ قال: «فأما إن كان للنفس حظٌّ عاجلٌ وكان حاصلاً تبعًا للعبادة وليس هو المقصودَ.. فهو مغتفر، وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان مما يُعين علىٰ الاستزادة من العبادة»(١).

وإن كان الباعث الأقوىٰ هو قصد الدنيا.. فلا ثواب له، وإنما ثوابه ما حصَّله من الدنيا، ويُخشىٰ عليه من الإثم(٢).

علىٰ أنَّ من اختلطت نيته وإن أساء غيرُ داخلٍ في الحديث؛ لأنَّ قوله ﷺ: «لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا» فيه دلالةٌ علىٰ أنَّ الوعيدَ المذكورَ يستحقه من لا يقصد بالعلم إلا الدنيا، وأما من طلب بعلمه رضا المولىٰ، ومع ذلك له ميلٌ ما إلىٰ عَرَضِ الدنيا.. فخارج عن هذا الوعيد، فابتغاء وجه الله يأبىٰ إلا أن يكون متبوعًا ويكون العرض تابعًا(٣).

وبعد الذي آنس بصرك لا بد من التعقيب بكلمة:

حري بمن اشتغل بالعلم الشرعي أن يعي أنَّ عالمَ الشريعة ما ينبغي أن يقصد أن يقتات عليها، ويملأ بطنه ويُشبِعَ أهلَهُ وأولاده منها، ويصل إلىٰ المناصب وأصحاب الجاه من خلالها، وإنما يدرس هذا العلم العظيم ليجاهد به في سبيل الله عبر ثغر البيان والحجة والبرهان.

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء فإنَّ العالم ينبغي أن يقول كما كان الواحد من الأنبياء يصدح من قبل: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾ [هود: ٥١].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣/ ٣١٨).
(٢) انظر فتوىٰ بعنوان: حكم فعل الطاعات بقصد الفوائد الدنيوية للشيخ محمد صالح المنجد، وهي منشورةٌ علىٰ الشبكة.
(٣) مرعاة المفاتيح للرحماني المباركفوري (١/ ٣٢٦).

وأما ما يأتي بعد ذلك من الحظوظ فإنه بمنزلة الغنيمة التي تأتي للمجاهد، تحل له، لكنه لا يطلبها لذاتها، وإنما قِبلَتُهُ التي يتوجه إليها هي إعلاء كلمة الله، والدفاع عن الدين، وإعزاز المسلمين، وإذلال الكفرة والمنافقين.

والمقصود أنَّ المشتغَل بالعلم لا يربط بين التفقه والوظيفة، فالشريعة ليست متجرًا يقتات منه، وإنما يطلب العلم لله، وأما الوظيفة فيأخذ بأسبابها، ويبذل جهده في البحث عنها، دون أن يعلق ما يتعلمه بها، وإن تعنىٰ في ذلك.

ومع ذلك فإني أبشره أنَّ الدنيا متىٰ تَرَفَّع عنها أتته، ومتىٰ طلبها أذلته، وقد أخرج ابن ماجه في سننه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ الْمَعَادِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ»[1]. حسنه الألباني.

فإن شكوت شدة الإخلاص فإني أختم هذا المطلب بسبع من المعينات عليه:

الأول: لا بد أن يُعلم أنَّ اللهَ عدلٌ إذ لم يقبل الشرك والرياء، فلو أنَّ عاملًا صرف العمل لغير من تعاقد معه فلن يؤجر من الأول ولن ينتفع بثناء الثاني، وكذلك العبد متىٰ صرف العمل لغير الله، فقد خسر ثواب الله، ولم ينتفع بثناء الناس.

الثاني: إنَّ فهمَ مداخل النفس وطبائعها معينٌ علىٰ تحصيل الإخلاص؛ فإنَّ النفس قد تطلب الثناء عليها في صورة ذمها، وطلب تقديم النصيحة لها، بل إنَّها لتستعد أن تقتل في المعركة ليقال: شهيد، فالضريبةُ هي القتل، والثناء لن يسمعه في حياته، وربما لم يتكلم به الناس أصلًا، فقد يتهم بالتهور.

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤١٠٦).

وأنصح هنا بقراءة كتاب «الفصل بين النفس والعقل» للشيخ عبد العزيز الطريفي فرّج الله عنه؛ فقد أطال النفس في بيان ذلك.

الثالث: اجعل عملك في السر أكثر من عملك في العلانية، فلو افترضنا حبوط ما ظهر.. فينجيك ما بطن، وقد مرَّ بنا قول الإمام مالك: «من أحب أن يفتح له فرجة في قلبه وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة.. فليكن في عمله في السر أكثر منه في العلانية»[1].

وهذا ضابطٌ نفيسٌ لمن تنبه إلىٰ تطبيقاته.

الرابع: أن يعلم العبد أنَّ ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وأنه علىٰ قدر الإخلاص الصاعد من الأرض يكون التوفيق النازل من السماء، وأنَّ من أحبَّ أن **يُذكر فلن يُذكر، ومن أحبَّ أن لا يُذكر فإنه يُذكر.**

وكنت قد أفردت الكلام علىٰ هذا المعنىٰ في كتاب «سراج الغرباء إلىٰ منازل السعداء» في سنة إلهية تحت عنوان: «**كل سر تخفيه فالله مبديه**»، وجاء في بطاقة التعريف بهذه السُّنَّة:

«**إذا أراد العبد صدارةً وظهورًا، وسعىٰ في الناس لأن يكون مشهورًا.. فإنه يبقىٰ خفيًّا مغمورًا، أما من اجتهد في إخفاء حسناته أو سيئاته، واتخذ كل وسيلة لئلا يراه أَحَد.. فإن الناس ستعلم أمره، وكَأَنَّهُ فعله علىٰ جبل أُحُد، أو صدح به في المنابر، حتىٰ علا في المآذن والمنائر**»[2].

الخامس: لا تنخدع بثناء الناس عليك وتجويدهم لك وأنت تعلم رداءة نفسك؛ فإنَّ أهلَ العلم والفضل يظنون في طالب العلم خيرًا بحسب الذي يرونه في أنفسهم.

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/ ٥٤).

(٢) سراج الغرباء لمحمد بن محمد الأسطل ص (٣٤).

وإنَّ من أنفس نعم الله على العبد أن يعرف سعر نفسه، فلو كان ذهبًا لم ييتئس بمن عده نحاسًا، ولو كان نحاسًا لم ينخدع بمن رآه ذهبًا، وإني لأخشى أنَّ من عاين نقصًا في نفسه أن يكمله بثناء غيره عليه، وربما طلب ذلك بنفسه أو استكثر بألقاب تحتف باسمه.

ولهذا لا يغرنك مديح الناس لك، فإنهم إن مدحوك إنما يمدحون ستر الله فيك، فالفضل لمن سترك وغمرك لا لمن مدحك وشكرك، وأجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند غيره[1].

وحيث سمعت من يثني عليك فحرك شفتيك بدعاء الصديق رضي الله عنه حيث كان يقول إذا مُدِح: «اللهم أنت أعلم مني بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون».

السادس: أن يستشعر أنَّ الأمرَ جد، وأنه وسط معركةٍ هي أعظم من الحظوظ الذاتية والأمجاد الشخصية، بل تطيش نفسه في غبار المعركة، وهو يستشعر أنه مجاهدٌ بهذا العلم، له قضيةٌ ينتصر لها، ويسترخص حياته في سبيلها.

وثمة أمران متى سيطرا على ذهن عبدٍ أذهلاه عن كثيرٍ من حظوظ النفس: الاستكثار من التلذذ بالصلاة، ومقاومة الطغيان في الأرض، ولم يُحفظ أنَّ الله كلَّم نبيًّا كفاحًا إلا محمدًا وموسى عليهما السلام، ولا يكون هذا إلا لشيءٍ عظيم، فلما نظرنا وجدنا أنه كلم الأول بالصلاة، وكلم الثاني بقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤].

ونبي الله موسى عليه السلام مكث في مدين عشر سنين اختزلها القرآن في قوله: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] مع ما تضمنته هذه المدة الطويلة من زواجٍ وكدٍّ وعملٍ لكنها لم تستدع التفصيل والذِّكر، في حين أنَّ القرآن فصَّل

---

(١) بعض كلمات هذه الفقرة مقتبسة من الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري.

طويلًا في أيام الخوف والدعوة والمطاردة والمواجهة والمناظرة، فهذا هو مقياس الحياة الذي يستحق الذكر[1].

السابع: أن يعلم أنَّ الأمة بحاجةٍ ماسَّةٍ إلىٰ العالم الراسخ المخلص المتجرد، لا سيما بعد أن اشتدت عواصف التلبيس وزوابع التدليس.

وأحسن الله إلىٰ الشيخ عبد العزيز الطريفي إذ خط قائلًا: «الناس في حاجة إلىٰ عالمٍ متجرد، لا إلىٰ متجردٍ جاهل، ولا إلىٰ عالمٍ يخاف ويطمع، فالعالم بلا تجرد يعطل الأمة بإحجامه، والمتجرد بلا علم يهلك الأمة بإقدامه، وأعظم الشرور تأتي إذا قاد الناس جاهلٌ غير متجرد»[2].



(١) أخذت الفكرة من رسالةٍ يتناقلها روادُ وسائلِ التواصل، والله يثيب قائلها خيرًا.

(٢) المغربية في شرح العقيدة القيروانية للطريفي ص (٢٦٧).

المطلب الخامس

أدب الطالب

هذا الموضوع لا يكفيه مطلبٌ ضامر، وإنما حقه إفراده بالتصنيف، وتحريضُ طالبِ العلم على قراءة الكتب المُفردةِ فيه، وقد أحسن الإمام البخاري إذ أفرد كتابًا سماه «الأدب المفرد».

وذلك أنَّ الآداب التي تتشكل منها حِليةُ طالبِ العلم كثيرةٌ جدًّا؛ كالعدل والإنصاف والعفة والتواضع والرحمة والوفاء والأمانة والحياء والبذل والعطاء والعفو والصفح والتغافل والإحسان والحلم والحكمة والرفق والكرم والوقار وطول الصمت واللطف في التعامل مع الناس عامة والوالدين والأهل خاصة، وأدب التعامل مع المخالف[1] وغير ذلك.

وعلىٰ هذا؛ فما ينبغي أن يُصنَّفَ هذا الباب في مُكَمِّلاتِ منهج الطلب وذيوله؛ وإنما في عُمَدِه وأصوله، ولست أدري كيف يرضىٰ المتفقه إهمال العناية به وهو يحتاج إليه كل يوم، ومن العلم الذي يشتغل به وينكب عليه ما لا يحتاج إليه في العام كله ربما سوىٰ مرة.

وقد تأسف الطاهر بن عاشور علىٰ إهمال مناهج التعليم لهذا الجانب المهم، وعد ذلك من جملة أسباب تأخر التعليم فقال: «من أسباب تأخر التعليم

---

(١) كنت قد كتبت مادةً بعنوان: «البيان الوارف في أدب التعامل مع المخالف»، وهي منشورةٌ علىٰ الشبكة، ولعل الله ييسر أن أجعلها كتابًا متكاملًا يومًا ما، مع إضافة فقه التعامل مع المخالف؛ إذ لا تكتمل حلية الطالب في هذا الباب إلا بالجمع بين أدب التعامل مع المخالف وفقه ذلك.

عروه عن مادة الآداب وتهذيب الأخلاق، وشرح العوائد النافعة، فهذا قضىٰ علىٰ المسلمين بالانحطاط في الأخلاق والعوائد، وقد اعتنىٰ المسلمون في صدر الإسلام بذلك، فتلقوا آداب القرآن وهدىٰ الرسول ﷺ.

أما إهماله بعد ذلك فسببه تأخر المسلمين، وقصور أنظارهم واعتقادهم أنَّ العلم منحصرٌ فيما تتضمنه القواعد العلمية كالنحو والفقه، وبعبارة أخرىٰ: ميل طائفة العلماء إلىٰ الحفظ والاستكثار من فروع المسائل ومن عدد العلوم.

ومن العار الكبير أن نرىٰ كثيرًا ممن ينتصب لتعليم النشء تعجبك أجسامهم، وتبهجك بِزَّتُهم، وتعظم صورهم، ولكن ما بينك وبين أن ترمقهم بضدِّ ذلك إلا أن تعاشرهم أو تجادلهم، فترىٰ تلك الهياكل العظمية فارغة من الفضيلة ومكارم الأخلاق والمروءة، وبذلك رزئت الأمة في أنفع عنصر في حياة الأمم وكمالها، وهو الأخلاق، وإذا كانت تلك حالة خاصة الناس فما ظنك بعامتهم!.

وإذا ذهب وقت التعليم عن الطلبة ولم يتلقوا فيه فضائل الأخلاق.. فمن العسير أو المتعذر تلقينها لهم من بعد؛ لأنَّ فيما يدخل فيه المُحَصِّل علىٰ الشهادة من معترك الحياة شغلًا شاغلًا عن ذلك.

وقد قال عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب أولاده: «**ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنيَّ إصلاحَ نفسك؛ فإن أعينهم معقودةٌ بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، وروِّهم سير الحكماء، وزد في تأديبهم أَزِدْكَ في بري**».

وقال الحكيم جول سيمون: «**ليست وظيفةُ المدرسةِ مقصورةً علىٰ التعليم فقط؛ فإنَّ بثَّ الفضيلة والإقدام من أهم وظائف المدرسة**»[1].

(١) أليس الصبح بقريب لابن عاشور ص (١٠٨-١٠٩).

انتهىٰ كلام الطاهر بن عاشور، وإنَّه لقطعةٌ نفيسةٌ خطَّها قلمُه، وكأني به يريدها صيحةً في أسماع طلبة العلم، يحذر الواحد منهم أن يكون مشحونًا بالمسائل لكنه هيكلٌ عظميٌّ فارغٌ من الفضيلةِ والمروءة والأخلاق، فإنَّ شكله عند ذلك يُزري، وهذا يؤذن بركنية تنشئة الطالب علىٰ المكارم من أول يوم.

وقد صدق رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنَّ فقدَ الأخلاقِ من شأنه أن يُزَهِّدَ الناسَ في الأخذ عن العالِم، ويحجبه عنهم، فيفوتهم الانتفاع به، ويفوته ثواب الله علىٰ إفادتهم وتعليمهم.

خذ خُلُقًا مثل التواضع، لو اشتم الناسُ رائحةَ الكِبْرِ من أحدٍ غسلوا أيديهم منه ولو كان عالمًا، ولم يُقبِل عليه إلا الحريص علىٰ العلم مع نفرةٍ قائمةٍ به.

فإذا كان فواتُ خلُقٍ واحدٍ يحجب عامة ما حصَّل من علم عمن يحتاجه.. فكيف برزمة أخلاق سيئةٍ لو اجتمعت، ومكارم فاضلةٍ لو انتقصت!.

ومن جهةٍ أخرىٰ؛ فإنَّ المشتغل بالعلم لا بد وأن يتعامل مع المخالفين، وهذا يستدعي شحن النفس بالأخلاق والأدب أربىٰ من شحن العقل بالبراهين والحجج، وإلا فقد أغرىٰ الناس بمعاداته، وَعَدَّ ذلك عداءً للدين، وما أوتي إلا من جهة اهتزاز الأخلاق، فأساء للحق الذي يحمل من حيث أراد أن يحسن، وكان كمن قدَّم الذهب في وعاءٍ متسخ، لكنها الطبائع حين تغلب علىٰ الإنسان.

ولله دَرُّ شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فإنه كان كثيرًا ما يُنَبِّهُ علىٰ مسالك الأدب وهو يقرر الحجج ويرد علىٰ المخالفين، فيخرج من ذلك خليطٌ حسنٌ فيه شفاءٌ للناس.

وانظر إليه وهو يتكلم عن التزام بعض الأشاعرة لأصلٍ أخذوه عن المعتزلة فيقول: «ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساعٍ مشكورة، وحسناتٌ مبرورة، وله في الرد علىٰ كثيرٍ من أهل الإلحاد والبدع والانتصار لكثيرٍ من أهل

السنة والدين ما لا يخفىٰ علىٰ من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلمٍ وصدقٍ وعدلٍ وإنصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداءً عن المعتزلة وهم فضلاء عقلاء.. احتاجوا إلىٰ طرده والتزام لوازمه فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس بسبب ذلك منهم من يعظمهم لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها..

وهذا ليس مخصوصًا بهؤلاء؛ بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين، والله تعالىٰ يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيئات، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠][(١)].

ولما تحدث عما أحدثه الصوفية من السماع والرقص قال: «والذين شهدوا هذا اللغو متأولين من أهل الصدق والإخلاص والصلاح غمرت حسناتهم ما كان لهم فيه وفي غيره من السيئات أو الخطأ في مواقع الاجتهاد، وهذا سبيل كل صالحي هذه الأمة في خطئهم وزلاتهم»[(٢)].

ومثل هذا الصنيع منه ترجمةٌ حيةٌ للوصف الفاخر الذي وسم به علماء الحق فقال: «وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق»[(٣)].

وقال في موطنٍ آخر: «وأهل السنة والعلم والإيمان يعرفون الحق ويتبعون سنة الرسول ويرحمون الخلق ويعدلون فيهم، ويعذرون من اجتهد في معرفة الحق فعجز عن معرفته»[(٤)].

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٨٣).
(٢) الاستقامة لابن تيمية (١/ ٢٩٧-٢٩٨).
(٣) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٦/ ٩٦).
(٤) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢٧/ ٢٣٨).

ومع كل هذه العناية بهذا المسلك المهم إلا إنه كان يشتد أحيانًا على المخالفين بعض الشيء؛ لحِدَّةٍ كانت فيه، وأدعك تعاين أثر ذلك عبر شهادة تلميذه الإمام الذهبي، فإنه بعد أن ساق جملًا حسنةً في فضائله ومناقبه قال:

«ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومن نابذه وخالفه ينسبني إلى التغالي فيه، وليس الأمر كذلك، مع أنني لا أعتقد فيه العصمة، كلا؛ فإنه مع سعة عمله وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين بشرٌ من البشر، تعتريه حدةٌ في البحث، وغضبٌ وشظفٌ للخصم يزرع له عداوةً في النفوس، ونفورًا عنه، وإلا والله فلو لاطف الخصوم ورفق بهم ولزم المجاملة وحسَّن المكالمة.. لكان كلمةَ إجماع؛ فإنَّ كبارَهُم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، معترفون بشفوفه وذكائه مقرون بندور خطئه»![1].

ورسالة هذا المطلب:

أن تتزين مناهج الطلب بدرس الأخلاق والأدب، وأن يعتني المتفقه بذلك، ويتعبد لله به، ويتخذ له سلمًا ومعراجًا، يترقىٰ فيه أدبًا بعد أدب، وخلقًا بعد خلق، وليكن دائمًا علىٰ استحضار أنَّ استفادةَ الناس من أدبه أربىٰ من استفادتهم من علمه، وأنَّ خلافَنا مع المخالف خلافُ حجةٍ لا خلاف قلوب كما قال شيخنا عبد الهادي الخضر السوداني وفقه الله.

وهذا السطر ما إن خطَطْتُهُ الآن هنا حتىٰ هجم علىٰ ذهني جوابٌ لشيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي وفقه الله؛ فإني زرته مرةً في بيته وسألته أسئلةً منها: كيف تتعامل مع المخالفين وقد اشتد بعضهم عليك؟ فقال: إذا كان الرجل صالحًا فلا تملك إلا أن تصبر عليه.

فصرت أعجب كيف هضم نفسه وزكّىٰ مخالفه بسطرٍ واحدٍ!.

---

(١) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام للذهبي ص (٢٣-٢٤).

وجالست نفرًا ممن تعامل مع الشيخ، فذكروا لي أنه كان إذا حصل خلافٌ وجدلٌ في مجلسٍ يحضره الشيخ فإنه يكون حاضرًا غائبًا، ولو عارضه أحد فإنه يبقىٰ يلاطفه ويلاينه.

ولما كنت في شنقيط حضرته مرةً في لقاءٍ عام، وكان يجلس علىٰ المنصة، فلما انتهىٰ اللقاء نزل من علىٰ المنصة وجاء يُسَلِّمُ عليَّ فقمت إليه علىٰ الفور وإذ به يُقَبِّل رأسي، وكم تصاغرت حقًّا حينها في نفسي!.

الشيخ الددو نحسبه من أئمة العلم في هذا الزمان، ما الذي يحمله علىٰ هذا المستوىٰ الرفيع من الأدب في التعامل مع المخالفين وصغار الطلبة؟ لعل الجواب أنَّ العظماء هم من يُشعرون غيرهم أنهم عظماء لا أنهم هم العظماء، لكن الأهم من ذلك أنَّ أهل العلم والهدىٰ يدركون أنَّ منزلةَ الأدب في تنافس مع منزلة العلم في القيمة والفضل، خذ مثلًا قول النبي ﷺ وقَلِّبْه في نفسك: «وأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُم أَخْلَاقًا»[١]، وفي الأسطر الآتية زمرةٌ من الشواهد التي ترفع في نفسك منزلة الأدب عند الله.

وفي ختام هذا المطلب دونك عشرًا من الوصايا:

الأولىٰ: لا تشغلنك أوراد الطلب عن العناية بمسالك الأدب؛ فإنه فوق أهميته في الدنيا إلا أنه يرفع صاحبه يوم القيامة كالعلم؛ فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أَثْقَلُ شَيءٍ في ميزانِ المُؤمنِ يَومَ القيامَةِ حُسنُ الخُلُقِ، وإنَّ اللهَ ليبغضُ الفاحشَ البذيَّ»[٢] صححه الألباني.

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٠١٨).
(٢) الأدب المفرد للبخاري، رقم الحديث: (٤٦٤).



وروىٰ البخاري في الأدب المفرد كذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «اعلَمُوا أَنَّ حُسن الهَدْيِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَيرٌ من بَعضِ العَمَلِ»(١) حسنه الألباني.

الثانية: اعلم أنَّ الأخلاق زينة، وكم أظهرت من فضيلة وسترت من نقيصة، ولهذا عظمت عناية الشريعة بها، حتىٰ كانت المتحلي بها حائزًا بعض حلية الأنبياء؛ فقد أخرج أبو داود عن عبد الله بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ وَالِاقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»(٢) حسنه الألباني.

ومن هنا أحسن رُويم بن أحمد البغدادي النصح لولده إذ قال له: يا بني اجعل عملك ملحًا وأدبك دقيقًا؛ أي: استكثر من الأدب حتىٰ تكون نسبته في الكثرة نسبة الدقيق إلىٰ الملح، وكثيرٌ من الأدب مع قليلٍ من العمل الصالح.. خيرٌ من كثيرٍ من العمل مع قلةِ الأدب(٣).

الثالثة: اعلم أنَّ تحصيل الأخلاق شيءٌ صعب، لا سيما إذا تعارض بعضها مع الطبائع التي ابتلاك الله بها؛ فإنَّ الإنسانَ كما هو مكلفٌ بامتثال الشرائع.. فإنه مكلفٌ بمغالبة الطبائع، فلو كان الإنسان حادَّ المزاج والمعاملةِ مثلًا فهذا يحتاجُ منه إلىٰ جهادٍ وأي جهاد حتىٰ يصبح حليمًا رفيقًا، فاصبر وصابر ورابط علىٰ ثغر المكارم وسترىٰ فضل الله عليك.

الرابعة: رسم النبيُّ ﷺ سُلَّمَ الأدب لمن جاء يسأله: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: «أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»(٤)، فأفهَمَ أنَّ مركز اللطف في التعامل والذوق فيه إنما يبدأ من الأم ثم الأب، وكلما ابتعد عن

---

(١) الأدب المفرد للبخاري، رقم الأثر: (٧٨٩).

(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٧٧٨).

(٣) الفروق للقرافي (٣/ ١٦٧).

(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٦٦٥).

المركز أمكن التخفف بما لا يخرم خُلقًا أو يخدش أدبًا، فإياك أن تقلب السُّلَّم، وإلا كان خلقك عادةً لا عبادة.

الخامسة: راعِ دقائقَ الأدبِ مع من علَّمك ولو أنكرت شيئًا منه؛ فإنَّ عقوقَ المشايخ والعلماء بدأ في الظهور، ولك في الروح الأمين جبريل ﷺ أسوة حسنة؛ فإنه لما سأل النبي ﷺ عن مهمات الدين جلس منه مجلس التلميذ من المعلم، وأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه وسأل وهو رأس الملائكة!.

وهذا نبي الله موسىٰ ﷺ يقول للخضر ﷺ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [الكهف: ٦٦]، فاستأذنه في الطلب مع أنَّ الله هو الذي وجهه، وجعل نفسه طالبًا وتابعًا، وأشعر شيخه بجهله إذ قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ ، وطلب بعض العلم لا كله فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ ، وهذا في غاية التواضع منه.

السادسة: إذا طالعتَ كتابًا وانتفعتَ به.. فلا تبخَل علىٰ مؤلِّفه بالدعاء له بالرحمةِ والمغفرةِ؛ فإن هذا من أدنىٰ حقِّه عليك. قاله الشيخ فيصل المنصور.

السابعة: اهضم نفسك ما استطعت، ولا تر لها سعرًا فوق قدرها، وخذها وصيةً هاديةً من الإمام الغزالي فإنه قال: «العالم هو الذي فهم أنَّ الله يقول له: إنَّ لك عندنا قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا، فإن رأيت لها قدرًا فلا قدر لك عندنا»[1].

وإياك والكِبْر ولو قطرةً منه؛ فمن تكبر بَعُدَ فلاحُهُ.

وإذا رأيت نفسك تعجبك فاجعل لك وردًا من سِيَر نجوم الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ؛ لتقوىٰ في موطن الضعف، وتضعف في موطن الكِبر، فإذا رأيت من نفسك نبوغًا في علم السنة.. فاقرأ في ترجمة البخاري، وإذا رأيت منها نظرًا دقيقًا في الفقه فدونك سيرة الشافعي، وإذا أوحت إليك نفسك ببلوغ القمة في الأصول

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٣٥١).

والمقاصد فربِّ نفسك بأخبارِ الشاطبي[١].

الثامنة: لا تلازم بين رتبة «دكتور» ورتبة «عالِم»؛ فشهادة الدكتوراه درجةٌ جامعيةٌ وتزكيةٌ أكاديميةٌ ببحث موضوع محدد، قد لا يزيد عن واحدٍ بالمائة من مسائل العلم الذي يدرسه في أعلىٰ أحواله، فكيف بموقعه من عامة العلوم الشرعية واللغوية!.

ولهذا لا يغتر بالشهادات إلا جاهل، ولا يستكثر بها إلا من آنس نقصًا في نفسه، وأحسن الشيخ سلمان العودة وأجاد فرَّج الله عنه إذ قال: «اسمي جملةٌ تامة»، ومن وعىٰ هذا لم يحتج لقبًا قبله ولا منصبًا بعده.

وهذا ليس تزهيدًا في الدراسات العليا؛ ولكنَّهُ تحريضٌ بجعل معيار الرسوخ القدر الذي ضبطه من خارطة العلوم التي تقدمت في صدر الكتاب لا الاستكثار بالشهادات العلمية والمناصب الأكاديمية.

ومن رأىٰ قصورَ نفسِهِ في المادَّةِ العلمية يكاد أن يتآكل ويتصاغر في نفسه لو خاطبه أحدٌ بدرجته الجامعية مكسوةً بألفاظ التزكية العلمية.

التاسعة: لا تفقد مقامك من الأدب عند الخصومات، فإني رأيت بعض من يشتغل بالعلم يربح الجولة بالحُجَّة والبرهان لكنه يخسر منصبه من سلم القِيَم والأخلاق، وربما خاصم ففجر، حتىٰ ليكون ردُّ العامَّةِ إلىٰ الصلح والإخاء أيسرَ من ردِّ الخاصة.

فيا طالب العلم: اخفض جناح الذل لإخوانك، وتلطف بهم، واحترس من داء التعالم عليهم، وتذكر أنَّ النَّاس تعفو عن السوء وتغفره لكنها لا تنساه.

العاشرة: لا تمدح أحدًا بما ليس فيه، لكن لا تسكت عما هو فيه من الفضل إلا لحكمة؛ فلا يعرف فضلَ ذوي الفضل إلا ذوو الفضل.

---

(١) من مقال بعنوان: يا طالب العلم لخالد عبد العزيز أبا الخليل، وهو منشورٌ علىٰ الشبكة.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يُعَظِّم عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الفتيا والقضاء جدًّا، ويعرف له قدره، ومن ذلك ما رُوِيَ عن سعيد بن المسيب أنه قال: كان عمر يتعوذ من قضية معضلةٍ ليس لها أبو حسن، ولما أراد عمر رجم المرأة التي وضعت لستة أشهر قال له علي: إنَّ الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ فصح الحمل ستة أشهر، فقال عمر: لولا عليٌّ هلك عمر![1].

وجاءه رجل يومًا فقال: يا أمير المؤمنين، إني غبت عن امرأتي سنتين، فجئت وهي حبلىٰ، فشاور عمر رضي الله عنه الناس في رجمها، وتوجه للرجم، فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين، إن كان لك عليها سبيلٌ فليس لك علىٰ ما في بطنها سبيل، فاتركها حتىٰ تضع، فتركها فولدت غلامًا قد خرجت ثنيتاه، فعرف الرجل الشبه فيه فقال: ابني ورب الكعبة! فقال عمر: عجزت النساء أن تلدن مثل معاذ رضي الله عنه، لولا معاذ هلك عمر[2].

وهذا الإمام أحمد يقول عن الشافعي: كان الفقه قفلاً علىٰ أهله حتىٰ فتحه الله بالشافعي.

وقال: ما أحد مس بيده محبرة وقلمًا إلا وللشافعي في عنقه منة.

وقال: كانت أقفيتنا لأصحاب أبي حنيفة حتىٰ رأينا الشافعي.

وقال: لما قدم علينا الشافعي سرنا علىٰ المحجة البيضاء.

وقال: هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي، ما بت مدة أربعين سنة إلا وأدعو الله للشافعي وأستغفر له.

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي (٢١/ ١٧٩).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٨/ ٤٢٢).

هل سمعت مثل هذا أو قريبًا منه من عالِمٍ بحقِّ عالِمٍ آخر اليوم، أو من طالب علمٍ بحقِّ آخر!.

إني لولا الخشيةُ من الإطالة لسطرت صفحاتٍ من مثل ذلك؛ فإني لما كنت أقرأ في أخبار العرب وكتب السيرة النبوية وتراجم رجال المدارس الفقهية والنحوية.. كنت أتعجب غاية العجب من حسن تقديرهم لأصحاب المواهب والفضل، وكثرة ثنائهم عليهم، ولا يكترثون بذم أنفسهم حين يرفعون غيرهم، في الوقت الذي انعكس فيه الحال عند كثيرين من المشتغلين بالعلم هذه الأيام، حتىٰ إنَّ الرجلَ ربما تَمَنَّعَ أن يُشعِرَ قرينه أنه استفاد منه أو تأثر به.



المبحث الثاني
مقومات النبوغ

كشف هذا المبحث عن ثلاثةٍ من مقومات النبوغ، يمكن أن يتقوىٰ المتفقه بها لينبغ ويصل، وهي الجدية وحسن التخطيط الإداري والتدريب، وهاكَ بسطَ الكلام عليها:

المطلب الأول
الجدية في الطلب

تقدم أنَّ للطلب أركانًا ثلاثة: الشيخ المتقن والمنهج المُحكَم والطالب المستعد.

أما الشيخ المتقِن فمتىٰ توفر فإنه نعمةٌ جليلةٌ من الله تعالىٰ علىٰ طالب العلم؛ لأنه هو الذي يعلم ويرشد ويربي ويهذب ويختصر السبيل ويرتب الأولويات ويختار الكتب، ويعصم من التشتت وكثرة التنقل.

وقد أشار الإمام مالك إلىٰ فضل المعلم في قوله: «حفظنا من علم ابن شهاب، وتعلمنا من علم ربيعة»؛ إذ هو الذي كان يرشده ويسدده، فعظم انتفاعه به أكثر من انتفاعه بشيوخه في الرواية.

ومتىٰ فات المُعَلِّمُ استعاض بالشروح المرئية والصوتية، لكن يتعين أن يجعل له في كل فنٍّ شيخًا مرجعًا يتابعه ويسدده ويرسم خطته، ويجيب عن

الأسئلة والمشكلات التي تواجهه.

وأما المنهج المُحكَم فقد تناثرت معالمُه في صفحات هذا الكتاب، وهو محاولةٌ اجتهاديةٌ في بيانه.

وأما الطالبُ المستعدُّ فهو موضوع هذا المطلب، وإنَّه لعمدة أركان الطلب، والماكينة الحقيقية التي عليها التعويل.

وإذا كانوا قد قالوا: المتعلم الموفق من حاز أربعًا: عنايةً مليحة، وذكاء القريحة، وطبيعة صحيحة، ومعلمًا ذا نصيحة.. فإنَّ العنايةَ المليحةَ هي كلمة السر التي تحمل علىٰ تحصيل المرادات وتجاوز العقبات، فلا مناص من تصبب العرق، والتخلي عن طرفٍ من الحظوظ.

وأحسن الله إلىٰ الشيخ إبراهيم السكران إذ أحسن التنبيه علىٰ هذا المَعلَم فقال: إنَّ أخطرَ مشكلة تهدد التربية الدعوية **نقصُ الجدية**، في بيئة يغلب عليها ضجيج اللهو وخفة المرح وقهقهات الفكاهة.. أتراها يمكن أن تُنتج مسندًا أو مدونةً أو معلَمة أو معجمًا؟! منطق الحياة يأبىٰ ذلك، والعلم جعله الله ثمينًا لا يُجلب في الأسواق المخفضة.

سل من شئت من أهل العلم المبدعين ونقب في السيرة الذاتية لمن يأسرك تدفقه بالعلوم، وستجد في كل هذه الشخصيات أنَّ المتضرر الأكبر في حياتهم هو النوم والطعام والشراب والترفيه.

خططنا في شواهق الجبال وما زالت أقدامنا غضة طرية، نتوهم أنه في يوم من الأيام ستهبط النتائج بدون مقدمات[1]. ا. هـ.

ولو أخذت تُقَلِّبُ صفحاتِ هذا الكتاب لمرت عينك علىٰ الشناقطة والواحد منهم يكرر المحفوظ مائة مرة، ولرأيت النووي يطالع الوسيط أربعمائة

(١) مسلكيات لإبراهيم السكران ص (١٣).

مرة، والمزني يقرأ الرسالة خمسمائة مرة، والشيرازي يكرر كلَّ قياسٍ يحفظه ألف مرة، وقائمة الفخر تطول.

وأذكر أني زرت أحد علماء اليمن لمَّا كنت بالسودان، ورأيت فيه تمكنًا ورسوخًا يُبهر وهو ما زال في سن الشباب، فسألته عن التحصيل، فقال: مضت عليَّ ست سنوات كنت أقرأ في اليوم ثماني عشرة ساعة!.

فالأمر جد، والرسوخ يحتاج إلى تعبٍ وجَلَد، وسواء رضيت أو سخطت فإنَّ هذه متطلبات الإمامة وطبيعة الحياة، وإلا فقد اعتمد العالَم اليوم لغةَ القوة، واستثناء الضعفاء من كلِّ مشهد، ومن هنا أخذ الشيخ د. أحمد القرني ينبهنا فقال محذرًا:

يجب أن نعلم أنَّ هذا العصر هو عصر القوة، وأنه لا مكان فيه للضعفة البطالين، ولا للمتواكلين المتخاذلين، وإنَّ العالَم لن يرحم الضعفاء، ولو صدقت منهم النيات، وسكبت منهم العبرات، وعلت منهم الزفرات.

أتحنو عليك قلوب الورىٰ	إذا دمع عينيك يومًا جرىٰ؟
وهل ترحم الحمل المستضام	ذئاب الفلا وأسود الشرىٰ؟
وماذا ينال الضعيف الذليل	سوىٰ أن يحقر أو يزدرىٰ؟
فكن يابس العود صلب القناة	قوي المراس متين العرىٰ
ولا تتذلل لبغي البغاة	وكن كاسرًا قبل أن تكسرا
إذا كنت ترجو كبار الأمور	فأعدد لها همة أكبرا
طريق العلا أبدًا للأمام	فويحك هل ترجع القهقرىٰ؟
وكل البرية في يقظة	فويل لمن يستطيب الكرىٰ[1]

---

(١) الإبداع العلمي لأحمد القرني ص (٢) بتصرف.

وإنَّ من استحضر خارطة العلوم وأعباء الطلب وأوراد التعبد وحاجة الواقع وانكسار المسلمين لم يكن لديه وقتٌ للتوغل في مُلَح العلم فضلًا عن التردي في أودية اللهو والهزل، ولهذا نهىٰ الإمام أحمد عن القراءة في كتب الأمم السابقة فقال: «الاشتغال بهذه الأخبار القديمة يقطع عن العلم الذي فرض علينا طلبه»[1]، فضلًا عما في ذلك من محظورٍ شرعيّ.



(١) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (٢/ ١٦٠).

المطلب الثاني
حسن التخطيط الإداري

إنَّ تشعُّبَ العلوم وتعدد جوانب التلقي من درسٍ وحفظٍ وضبطٍ ومذاكرةٍ ومباحثةٍ وقراءةٍ تحليليةٍ وجرديةٍ وتصويريةٍ واستكشافيةٍ وتأمل وسماعٍ وتعبدٍ وغير ذلك لا يمكن إنجازه علىٰ وجهه من غير خُطَّةٍ وتدبيرٍ وسياسة، ومن لم يخطط لأمله.. فقد خطط لفشله، وبَثَّ هذا المطلبُ أربعةَ معالم فيها هداية للمتعلم:

أولًا: تحديد الشكل النهائي للشخصية:

بمعنىٰ: هل ستكون رجلَ علمٍ أم رجل دعوةٍ وتربيةٍ وإصلاح مثلًا؟.

وإذا سلكت سبيل العلم فهل ستكون عالمًا راسخًا في فنٍّ مشاركًا في غيره، أم تكتفي بتحصيل ثقافةٍ شرعيةٍ تنضج بها التصورات وتمسح بها الأمية عنك؟ أم غير ذلك؟.

وإجابة هذا السؤال مهم، ولو بأن تعتكف أيَّامًا للجواب عنه؛ لأنَّ البرامجَ ستنبني عليه، وإن لم تفعل فلا يهم أي مسارٍ تسلك؛ لأنك لن تصل قطعًا، ويكون حالك كحال طالب دراسات عليا يكتب رسالةً علميةً من غير خطةٍ.

ومن معايير الاختيار أن تُوازِنَ بين قدراتِ نفسك وحاجة الناس، وإذا استطعت أن تشغل مساحة الفراغ وتسد الثغور الخالية من حارسٍ فافعل؛ فهذا أرجىٰ وأنفع وأدل علىٰ صحة القصد وإخلاص النية ووفور العقل والحكمة.



ثانيًا: كتابة الخطة العلمية:

فإنَّ الذي يمشي بغير خُطَّةٍ وافيةٍ يتعبُ ويفكرُ كثيرًا، ولا يُنجز أو يُنتج إلا قليلًا، والكلام عن كيفية كتابة الخطة يتفرع، وقد فصَّلت القول فيه وفي معالم كتابة الخطة الشخصية عامة في كتاب «فقه الاستدراك» فانظره إن شئت، وهو منشورٌ علىٰ الشبكة.

وأزيد هنا أنَّ طالبَ العلم وهو يَخُطُّ خطته عليه أن يراعي نقاط القوة لديه ونقاط الضعف.

ومن نقاط القوة: الجدية والهمة العالية، وقصد الإمامة والرسوخ في العلم، وتوفر الشيخ المُتقِن والمنهج المُحكَم، وتحمل ضغط البرامج، والصبر علىٰ تكرار المحفوظ، وحسن التصرف في العلم، وعمق النظر والنفس المتأنية والتجرد والحكمة والقدرة علىٰ فهم الواقع.

ومن نقاط الضعف: التشتت والغفلة وتوارد الشبهات وضغط الشهوات، وكثرة الأشغال، ومعاناة الرزق، والمشاكل الاجتماعية، والأمراض، وعدم وجود مكانٍ مريحٍ للدراسة، وأضداد ما ذكر في نقاط القوة.

فتستثمر نقاط القوة وتبالغ فيها، وتأخذ في تدبير نقاط الضعف واحدةً بعد أخرىٰ.

ثالثًا: تزمين الخطط:

من الفقه الإداري في تدبيج الخطة تفكيكُ الأعمال الكبيرة إلىٰ قطعٍ صغيرة؛ لأنَّ الإنسان سريع التثاقل واليأس، فلو بقي يلاحظ مستقبل الأيام وطول الطريق فلربما توقف عن المسير؛ شكًّا في الوصول، لكن متىٰ جزَّأ الأهداف سهل عليه.

وقد ذكروا أنَّ أحد العدَّائين كان أعرج القدم، لكنه استطاع أن يطوف عدة دولٍ عدوًا علىٰ قدميه، فسألوه: كيف استطعت فعل هذا؟ فقال: كنت فقط أعدو حتىٰ أبلغ عمود الإنارة القادم[1].

وترجمة هذا المَعْلم التركيز علىٰ الإنجاز اليومي بقطع النظر عن نهايات المشاريع، ويربي نفسه أنَّ أيَّ تفريطٍ يقع في أيِّ يومٍ فهو معدودٌ في العثرات التي لا تُجبر، لا سيما في المشاريع التي تمتد شهورًا أو أعوامًا.

وألق ذهنك في جَعبة الماضي وانظر في واقع بعض المشاريع؛ كالتمهيد كتبه ابن عبد البر في ثلاثين عامًا، وتحفة الأشراف ألفه المزي في ستة وعشرين عامًا وشهرين، وفتح الباري أنجزه ابن حجر في خمسة وعشرين عامًا وبضعة أشهر، والتحرير والتنوير صنفه ابن عاشور في تسعة وثلاثين عامًا وستة أشهر، والأعلام خطه الزِّرِكْلي في أكثر من ستين عامًا، فهذه الموسوعات الفاخرة لم تكن وليدة شهرٍ ولا سنة؛ ولكنها كانت خلاصة عمر ومشروع حياة، وتعاقبًا منتظمًا لمنجزات الأيام.

وتخيل لو أنَّ لك في ثلاثة فنون ثلاثةَ متونٍ تعزم علىٰ تأليف شرحٍ عليها، وفي كل يومٍ تشرح ثلاث جملٍ فقط، صدقني لن تمر عليك سنتان أو ثلاث إلا وقد أنجزت الشروح الثلاثة كلها أو جلَّها، وقل مثل ذلك في الحفظ والقراءة وغيرهما من وسائل التحصيل.

ولهذا لا تحدثني عن قدراتك الفائقة وآمالك الكبرىٰ وخططك المستقبلية، حدثني فقط عن إنجازك اليومي؛ فهو برهان آمالك وعنوان نهاياتك[2].

---

(١) السبل المرضية لأحمد سالم ص (٤٨).

(٢) ارتياض العلوم ص (٥٦-٥٧) بتصرف.

قال الأستاذ أحمد أمين: «قليلٌ من الزمن يُخصص كل يوم لشيءٍ معين قد يغير مجرىٰ الحياة، ويجعلك أقومَ مما تتصور، وأرقىٰ مما تتخيل»[(١)].

وقال مارون عبود: «إنَّ ساعةً تُنتزع كل يوم من ساعات اللهو، وتستعمل فيما يفيد تُمَكِّنُ كلَّ امرئٍ ذي مقدرةٍ عقليةٍ أن يتضلع من كل علمٍ بتمامه»[(٢)].

ومن درر الشعر التي تنصر ذلك:

اليــوم علــمٌ وغــدًا مثلــه	مــن نخــب العلــم التــي تلــتقط
يحصــل المــرء بهــا حكمــةً	وإنمــا الســيل اجتمــاع الــنقط

رابعًا: إدارة الوقت:

إنَّ تحصيلَ العلمِ يحتاج إلىٰ تفرغ، وإنَّ أنفسَ ما يملكه طالب العلم هو الوقت، والطالب الموفق يضن بكل دقيقةٍ أن تذهب سدىٰ، خاصةً مع كثرة الأشغال وتكاثف الأعمال، فكيف وقد قيل: «**العلم لا يعطيك بعضه حتىٰ تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك.. فإنك من إعطائه إياك بعضَهُ علىٰ خطر**»[(٣)].

وإزاء ذلك فدونك هذه العظات الأربع:

الأولىٰ: إذا كثرت أشغالك فاجعل الوقت الذي تنفقه في الطلب خالصًا له لا يتعكر صفوك فيه بشيء، ومن لوازم ذلك تصميتُ الهاتف وإغلاق وسائل التواصل.

الثانية: إذا كنت علىٰ وظيفةٍ أو عملٍ والتهم عزيز وقتك.. فلا تبتئس؛ فإنه أحسنُ من أن تقف بالأبواب، واستعن في التحصيل بوقت الفجر وآناء الليل، ولا تتبرع بذلك لأحدٍ إلا من نازلةٍ أو حاجةٍ طارئة، وأدمن الإلحاحَ علىٰ الله أن يبارك

(١) فيض الخاطر لأحمد أمين (٣/ ٨٥).

(٢) حبر علىٰ ورق لمارون عبود ص (١٣٤).

(٣) ميزان العمل لأبي حامد الغزالي ص (٤٧).

لك في وقتك، وييسر لك أمر رزقك.

ولك أن تحاكي سفيان الثوري إذ قال: لما هممت بطلب الحديث، ورأيت العلم يدرس خلوت وقلت: أي رب، إنه لا بد لي من معيشةٍ وهذا العلم يدرس، اللهم فاكفني أمر رزقي، وفرِّغني لطلبه، فتشاغلت بطلبه، فلم أر إلا خيرًا إلىٰ يومي هذا.

الثالثة: في تخصصك اعتن بجليل العلم ودقيقه، وفي غيره اعتن بجليله دون دقيقه؛ فلا وقت لملاحقة الفوائد والمُلَح، ولهذا نهىٰ بعض السلف عن تتبع المسائل الدقيقة فقال ناصحًا: لا تشرب بأقداح صغار؛ فقد ضاق الزمان.

الرابعة: اعلم أنَّ البركةَ في الحركة، وقد يتفضل الله علىٰ العبد فيبارك له في وقته وجهده، فتجتمع بركةٌ إلىٰ بركة، لكنَّ الله أقام الدنيا علىٰ قانون الأسباب، فلو لم يأت للإنسان إكرامٌ خاص فإنه مغمورٌ بالإكرام العام، ورزق الله محفوظٌ لكل جيل.

ومناسبة هذا الكلام أنَّ بعض المشتغلين بالعلم يبرر ضعف التحصيل وضآلة الإنتاج بقلة البركة في الوقت، وقد تطرق الشيخ د. أحمد القرني لهذه المسألة فقال: يظن بعض الناس أن الزمان هو صانع الحركة، وأنَّ الحركةَ لا تحدث إلا بقوة الزمان، فإذا قلت لأحدهم: اعمل أو اجتهد قال: إنَّ الوقتَ لم يعد فيه بركة، فنتج عن ذلك أن حمَّل الناس الزمان عيوبَهُم وعلقوا عليه كسلَهُم.

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

فقُتِّلَ بذلك الطموح، وأُثخِنَت العزائمُ والهمم، والصوابُ أنَّ الحركةَ هي المسيطرة علىٰ الزمان وليس العكس؛ فالإنسان لا يعيش وقتًا يستوعب أعمالًا؛ وإنما يعيش أعمالًا تستغرق مددًا، ولهذا نجد بعض العلماء يعيشون ثلاثين سنة أو أربعين لكنهم يحيون قرونًا متطاولةً بعلمهم وفكرهم وطرحهم.



وربما وقع لبسٌ بسبب ما جاء في حديث الترمذي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ؛ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الجُمُعَةُ كَاليَوْمِ، وَيَكُونُ اليَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرَمَةِ بِالنَّارِ[١]»[٢]. صححه الألباني.

فقد فسَّر جماعةٌ تقاربَ الزمان بقلة البركة فيه، منهم ابن حجر، فإنه قال: الذي تضمنه الحديث قد وجد في زماننا هذا؛ فإنا نجد من سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا، والحق أنَّ المرادَ نزعُ البركةِ من كل شيء حتى من الزمان، وذلك من علامات قرب الساعة[٣].

وهذا التفسير اجتهادي، وفسره آخرون بجملةٍ من التفسيرات غير هذا[٤]، ولو ترجح فإنَّ هذه العلامة من علامات الساعة الصغرى، ولا يعلم أحدٌ هل ظهرت هذه العلامة قبل زماننا أو فيه أو ستظهر بعده؟.

ولو أتانا نبأٌ يجزم بذلك فإنَّ هذا يستدعي إعلان الاستنفار ومضاعفة الجهد والحركة؛ لنستدرك على أنفسنا ما عساه أن يفوت.

ثم لئن فاتنا شيءٌ من الوقت لضعف البركة فيه.. فقد زادنا الله من فضله إذ يسر سبل التحصيل فيه، ألا ترى أنَّ التطور التقني المعاصر قد سدَّ كثيرًا من النقص الزمني؟؛ فقد كان العالم في القديم ربما سافر في طلب المسألة الواحدة أو سماع الحديث الواحد شهرًا كاملًا، بينما الآن قد يقطع تلك المسافة في سويعات، وربما لا يرتحل أصلًا؛ فقد تيسر من العلم القناطير المقنطرة بالمجان، وأصبح في

---

(١) أي مثلها في سرعة ابتدائها وانقضائها. انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري (٦/ ٥١٤).

(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٣٣٢).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٦).

(٤) انظر مثلًا ما جاء في الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري (٣/ ١٧٥)، تحفة الأحوذي للمباركفوري (٦/ ٥١٤).

متناول كل أحد، بالصوت والصورة وأنت في داخل البيت.

وإذا كان العالم قديمًا يمكث في بحث المسألة أيّامًا متطاولة، أو في نسخ الكتاب الواحد شهورًا عدة.. فقد أصبح ينجز ذلك اليوم بضغطة زر، كما أصبحت الكتب متوفرةً بطبعاتٍ متعددة، ومخدومة بفهارس متنوعة، ولله الحمد والمنة والفضل.

ثم إنَّ البركة في الوقت ليست ذاتيةً محضة، بمعنىٰ أنَّ العلماء السابقين ما كانوا يكتفون بالقليل من الطلب اتكالًا علىٰ بركة الوقت؛ وإنما كانوا يبذلون غاية الجهد، ويتعبون نهارهم ويسهرون ليلهم في التحصيل والطلب.

فقد مر أنَّ الإمام البخاري قام في ليلةٍ واحدةٍ ثماني عشرة مرة يُدَوِّن ما يسنح له من الفوائد.

ومكث الإمام النووي سنتين لا يمس جنبه الأرض لمَّا كان يدرس بالمدرسة الرواحية، وكان يكتفي بغفوةٍ يسيرةٍ ضنًّا بالوقت أن يضيع.

وقال ابن القيم: «وأعرف من أصابه مرض من صداع وحمىٰ وكان الكتاب عند رأسه فإذا وجد إفاقة قرأ فيه فإذا غلب وضعه»[١].

وغير ذلك من النماذج الفاخرة التي تزينت بها صفحاتُ هذا الكتاب، ممن لا زالت الأمة تقتات علىٰ علمهم وكتبهم، فهل حلت البركة في أوقاتهم لأنهم كانوا متقدمين من حيث الزمن فحسب؟! كلا؛ وإنما لأجل الحركة والجهد والعرق الذي بُذِل في الرحلة والطلب، مع ما يحتف بذلك من الاستعانة بالله[٢].

وابن حجر الذي فسَّر تقارب الزمان بقلة البركة فيه، وشكا سرعة الأيام في زمانه هو نفسُهُ آيةٌ مبهرة؛ فإنَّ نتاجه العلمي يعد مكتبةً شاملةً متكاملةً في شتىٰ فنون

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص (٧٠).

(٢) الإبداع العلمي لأحمد القرني ص (٧٣-٧٦)، بتصرف وزيادة.

المعرفة؛ كالفقه والأصول والحديث والأدب والتاريخ، وقد كتب الشيخ يوسف بن محمد العتيق مقالةً عن كتبه المطبوعة، فوقف منها على سبعةٍ وستين مؤلفًا[١]، بعضها يزيد عن عشرة مجلدات كبار، والأعجب من ذلك أن على كتبه التعويلَ في كثيرٍ من الفنون، فعلًا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ [النمل: ١٦]!.

وفي زماننا هذا انظر إلى التاج العلمي للشيخ ابن عثيمين والقرضاوي والألباني والطريفي والزحيلي والخضير ومحمد بن علي آدم الأثيوبي وغيرهم؛ لتُمسِكَ عن الشكوىٰ الدائمة من عزة الوقت، وتمضي في هذا السبيل.

والشيخ الطريفي مثلًا لو سمعت من يسأل عن حُفَّاظ العصر لقفز اسمه إلى الذهن ليصطف معهم، لكن لو فتشت في سيرته لوجدت أنه يقرأ في اليوم ثلاث عشرة ساعة مذ كان عمره ثلاث عشرة سنة، ويخصص أربع ساعاتٍ من كل يومٍ للحفظ، فآل الأمر إلى البذل والجهد والعرق، مع ما يتنزل على ذوي الصلاح من غيث الإعانة والتوفيق.

على أنَّ الشيخ الطريفي فرج الله عنه يُرجح في مسألة تقارب الزمان أنَّ الفتن تزيد فينشغل الناس بمتابعة أخبارها فيضعف تحصيلهم للعلم، وهذا ما جاءت الإشارة إليه في كلام التوربشتي فإنه قال: يحمل ذلك على قلة بركة الزمان وذهاب فائدته في كل مكان، أو على أنَّ الناس لكثرة اهتمامهم بما دهمهم من النوازل والشدائد، وشغل قلوبهم بالفتن العظام لا يدرون كيف تنقضي أيامهم ولياليهم[٢].

وإذا أردت أن تعاين البركة.. فحدد لك أوقاتًا تنكب فيها على أورادك، لا يتلصص عليها أحد، وافطم نفسك فيها عن وسائل التواصل كما يُفطم الرضيعُ

---

(١) انظر مقالة الشيخ بعنوان: ما طبع من كتب الحافظ ابن حجر العسقلاني، وبعض الفوائد المرتبطة بها، وهي منشورةٌ على موقع الألوكة.

(٢) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٦/ ٥١٤).

عن اللبن، وسترىٰ النتائج التي ستبهرك قبل أن تبهر من يراها أو تبلغه.

وأعرف بعض المشايخ الأفاضل من بلدنا يخرجون بين شهرٍ وآخر في خلوةٍ علميةٍ لمدة ثلاثة أيام، يعتمدون فيها القراءةَ النصيَّةَ الجردية، وقد أنجزوا في هذه الخلوات المتفرقة جامع الأصول الذي تضمن الكتب الستة، وشطر مسند الإمام أحمد الذي تبلغ مجلداته اثنين وخمسين مجلدًا، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي، وتهذيب مدارج السالكين لعبد المنعم صالح العزي، وصحيح الجامع الصغير للشيخ الألباني، وصفحات من صبر العلماء علىٰ شدائد العلم والتحصيل للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وغير ذلك.

فالعزلة ولو شعوريةً فيها بركةٌ وأي بركة، وقد حدثنا القرآن أنَّ مريم لما انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًّا، فاتخذت من دونهم حجابًا أرسل الله إليها روحه، ورزقها بعيسىٰ آيةً للناس ورحمةً منه.

ولما اعتزل إبراهيم قومه وما يعبدون من دون الله وهبه الله إسحاق ويعقوب، ووهب لهم من رحمته وجعل لهم لسان صدق عليًّا.

ولما أذن الله لنبينا ﷺ أن يُصلِحَ الأرضَ حبِّب إليه الخلاء، حتىٰ كان يتعبد الليالي ذوات العدد.

ومن هنا كان يحيىٰ بن معين يشتهي الإسناد العالي والبيت الخالي، فالتقط الإشارة، والله يتولاك ويرعاك.



المطلب الثالث

التدريب

كثيرةٌ هي المهارات التي تحتاج إلىٰ تدريبٍ ورياضة، مثل بحث المسائل وتحريرها، والكتابة والتأليف والخطابة والتدريس، وبعض أهل العلم أهمل ذلك أو لم يجد بيئةً تعينه فطال به العمر دون أن يحسن ذلك أو بعضه، فبقي العلم في صدره دون أن يقدر علىٰ حسن إنتاجه وبثه، ولو تكلم فيه لكان تعبيره قاصرًا.

وإذا جئنا إلىٰ نفس مادة العلوم والمعارف.. فإنَّ ضبطَها يحتاج إلىٰ التمرن عليها، فمن قرأ الفقه لزمه مجالسة المفتين مدة، ومن درس باب الزكاة لزمه أن يجالس المزارعين والتجار، ومن قرأ باب المعاملات لزمه النزول إلىٰ الأسواق، ومن درس القضاء لزمه معرفة أحوال الناس، ومجالسة القُضَاةِ.

ومن تعلم النحو أو الصرف لزمه التمرن عليه لئلا يلحن، وسبيل ذلك بالكلام أمام متقنٍ يسددك، وإدمان النظر في الكتب التي تكثر من استدعاء القواعد النحوية والصرفية في تقرير المادة العلمية؛ لأنَّ صورةَ العلم في مظانّه شيء، وصورته في ساحته التطبيقية شيءٌ آخر، وكم من تقريرٍ وتحريرٍ وإثراءٍ ما وُجِد إلا في هذه الكتب.

وقد رأيت من درس في النحو كتبًا كثيرةً، وهو راسخٌ في العلم ضعيفٌ عند الأداء؛ لتضخم نصاب التلقي علىٰ حساب التمرن والتدريب، وأذكر أني حين درَّست الآجرومية كنت أخرج مع الإخوة في مكانٍ هادئٍ ويبدؤون بارتجال الكلام وتتم المعالجة والتنبيه.

وغرض هذا المطلب أن نجعل التدريبَ محطةً معلومةً من محطَّاتِ دراسةِ المادة.

وليعلم من تكاسل عن ذلك أنَّ القليل من العلم مع كثيرٍ من الخبرة والتدريب أنفع من كثيرٍ من العلم مع قليلٍ من الممارسة والتطبيق، ورب شخصٍ ليس لديه كثيرُ علم إلا أنه يُحسِنُ أداءَ ما تَلَقَّىٰ وتوظيفه عند الحاجة، فينفع الله به أضعاف من تضخم عنده جانب التلقي علىٰ جانب التحلي.

وعلىٰ هذا؛ فمن الفقه العناية بهذا الجانب، فإن لم تجد بيئةً معينةً فيمكن الاستعانة بالجهود المبثوثة علىٰ الشبكة في ذلك.

ولا بد من المصارحة أنَّ المدارس والجامعات لا تُعنىٰ كثيرًا بالتدريب، فتكاد تقتصر وظيفتها الحالية علىٰ التلقين، إلا إذا كان المُدَرِّسُ علىٰ فقهٍ وأكرم طلابه بوسائل المهارة والتدريب.

وإذا نزلنا إلىٰ تعليم الطفولة فالمصيبة أعظم، خذ مثلًا هذا النصَّ الصادمَ في نقد المناهج التربوية التقليدية، والذي من شأنه أن يزلزل العقل التربوي، سواء اتفقنا مع الكاتب في كلِّ حرفٍ أو لا، وسواء انطبق علىٰ مدارسنا جله أو بعضه.

أعلن أدولف فرير أحد المؤسسين للمنظمة العالمية للتربية الجديدة في عام ١٩٢٠ ما يلي: وتبعًا لتعليمات الشيطان تم خلق المدرسة؛ يُحِبُّ الطفلُ الطبيعةَ فتم وضعُه في صالاتٍ مغلقة، يحب الطفل أن يرىٰ نشاطه يخدمُ شيئًا معينًا فجعلوه يتعلم بشكلٍ كما لو كان لا هدف له، يحب التعامل مع الأغراض فجعلوه علىٰ تماسٍ مع الأفكار، يحب استعمال يديه فجعلوه لا يستعمل إلا دماغه، يحب الكلام فأجبر علىٰ السكوت، يحب استعمال الحجج فجعلوه يستعمل ذاكرته، يحب البحث عن العلم فأعطِي كل شيءٍ جاهزًا، يحب الحماسة فتم استنباط العقاب، وحينئذٍ تعلم الأطفال الكتمان والخداع والكذب.



المبحث الثالث
آفاتٌ على طريق الطلب

هذا المبحث تبعٌ لسابقه؛ فإنَّ من مُقومات النبوغ السلامةَ من العوارض والآفات، فهي التي تُؤَخِّر وتُقهقِرُ، لكن لما بلغ هذا الموضوع نصابًا استحق به أن يُفردَ بالبحث آثرت اختصاصه بمبحثٍ مستقل.

وقد توقف هذا المبحث عند ستة من الآفات وهي: التعصب، والتصدر قبل التأهل، والتعجل في بناء المفاهيم، ومحاكاة الآخرين دون مقتضٍ، وعلمانية العلماء، والتشتت، ودونك البيان بعون الرحمن:



المطلب الأول
التعصب

لا يختلف عاميٌّ فضلًا عن طالبِ علمٍ أنَّ جادةَ التربية السلفية أن يتعصب الإنسان للحق أنَّىٰ كان، وحيث إنَّ الحقَّ قد اجتمع في شخص النبي ﷺ حصرًا، وتوزع في أمته نثرًا كما يقول الشيخ الشعراوي.. فإنَّ من الظنِّ القوي أن يُنكر الإنسان أشياء عند مدرسته أو جماعته، ويعرف أشياء عند غير طائفته، ولا نحتاج إلىٰ كثير تفكيرٍ أو تنظيرٍ لأن نقرر أنَّ الحقَّ هو اعتمادُ الصواب ولو عند المخالف، وهجر الخطأ ولو عند الموافق.

لكن هذه الثقافة علىٰ بداهتها تصطدم برزمةٍ من القناعات عند المتعصب لطائفته، حتىٰ ربما أخذ يقنعك بدفن حسنات المخالف وإذاعة سيئاته، وكتم سيئات الموافق وإشاعة حسناته، وربما حشد النقول علىٰ مسوغ ذلك.

وحيث استطاع طالب العلم والهدىٰ أن يتحرر من القيود الفكرية لأي بيئةٍ أو مدرسةٍ أو جماعةٍ وينتمي للحق أنَّىٰ كان.. فصدقني أنه قد حقق إنجازًا ضخمًا، وعافاه الله من أكثر قطاع الطرق، واستطاع أن ينتصر علىٰ نفسه في معركةٍ شعوريةٍ حقيقية قبل أن ينتصر علىٰ غيره.

ثم إننا لو رجعنا قرنًا من الزمان لوجدنا أنَّ الأمة الإسلامية كانت تخضع في مجملها لخليفةٍ واحد، ثم آلت الظروف فسقطت الخلافة الإسلامية، وهي أعظم كنز في حياة المسلمين، فتفرق أهل الإسلام، وتسلط عليهم العدو، وتمكن من ناصية سياسة الشعوب، فبدأ الصلحاء في الأمة بجمع الجهود المبعثرة، وحشد

الناس علىٰ كلمةٍ سواء؛ سعيًا في نصرة الإسلام، واستنقاذ المسلمين، والحفاظ علىٰ الهوية والعقيدة، وعندئذٍ كثرت الجماعات، وتعددت الاجتهادات، وهذه نتيجة طبعيةٌ لأمةٍ بلا رأس.

ثم إنك إذا اقتربت من هذه الجماعات عرفت أشياء وأنكرت أشياء، لكن أكثرها علىٰ معتقد أهل السنة، وتوقير المذاهب الفقهية، وإجلال تراث الأمة، فالأصول إما واحدةٌ أو متقاربة، وهذا يعني أنَّ احتمال توزع الحق علىٰ الجماعات احتمالٌ قوي، بل من السائغ أن تجد كل جماعةٍ تعتقد أنها علىٰ الحق الخالص.

وعندئذٍ فليس من العقل ولا الإنصاف أن يُزَكِّيَ الإنسانُ نفسَهُ وجماعته تزكية مطلقة، ويهدم مخالفه هدمًا مطلقًا، حتىٰ إنه ليشن حربًا عليه لو اقترف صغائر الصغائر، بينما يعذر الموافق ولو ارتكب كبائر الكبائر، وإذا كان يستدعي نصوص الحزم في الحق وعدم التمييع لمقررات الشرع للمخالف.. فإنه هو نفسه الذي يستدعي نصوص التسامح وتوقير العلماء والأئمة وإقالة عثرات ذوي الهيئات للموافق.

وهذا الكلام هل يعني التهاون في باطلٍ نراه؟ كلا وألف كلا؛ ولكن ألا نرد حقًّا نراه.

بل إنَّ من فقه الشيخ ووظائفه أن يُجَنِّب تلامذته المبتدئين الكتب التي اختلط فيها الغث بالسمين، فإذا قوي ساعد الطالب في الطلب، وقدر علىٰ التمييز، ولم تؤثر عليه الشبهات، وكان آمنًا من الرِّيَبِ وكثرة التحول.. فعندئذٍ نخاطبه: اقرأ لعامة العلماء وجميع المدارس، ولا تضع في أذنيك القطن، فإنك ذو تجردٍ وعقل، وما تستريبه فاسأل عنه، وليكن همك القول بغض الطرف عن القائل.

وقد حضرتُ شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي مرَّةً فتكلم

عن أحوال النَّاس عند سماع الذكرىٰ، وحاصل ما قال: **أقسام الناس عند سماع الذكرىٰ أربعة:**

الأول: من يفر من سماع الذِّكرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]، فالحُمُر جمع حمار، والمقصود الحمار الوحشي المعروف بشدة نفوره وفزعه وهربه إذا أحسَّ بحركة المقتنص له، والقسورة هو الأسد، وهم يفرون من الذِّكر فرار الحمر من الأسد.

الثاني: من يتحملون السماع بآذانهم، لكنَّ الآذانَ غيرُ أمينةٍ في إيصال ما سمعته إلىٰ القلوب، فقد طبع عليها، ومثال هؤلاء ما جاء في سورة محمد: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦]، فهم استمعوا لخير واعظٍ؛ وهو النبي ﷺ، لكن لم يبقَ من أثر المسموع شيء، وراحوا يقولون: ماذا قال آنفًا؟!.

الثالث: من يُفَضِّلون في السماع؛ فيسمعون من واعظٍ دون آخر، فتجد الواحد منهم لا يسمع إلا لصاحب الشهرة أو لمن يكون من قبيلته أو جماعته، فإذا قام غيره لم يسمع له، وهؤلاء مرضىٰ القلوب ولو ادَّعوا صلاحها وطلب العافية لها.

وهذه الصفة ذكرها الله عن الكفار في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]، فاشترطوا أن تكون النبوةُ آتيةً للزعماء والأغنياء منهم، وفاتهم أنَّ الوحيَ اصطفاءٌ من الله.

الرابع: الذين يسمعون من كلِّ أحد؛ فالعبرة عندهم بالقول لا بالقائل، بخلاف الذين قبلهم؛ فالمدار عندهم علىٰ القائل لا علىٰ القول، أما هؤلاء

الأخيار فيقصدون الحق وينتفعون به، ويتركون غيره.

وهؤلاء هم أفضل الأقسام وخير المراتب، وجاء القرآن يبشرهم بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٨]، فنصت الآية أنهم يستمعون القول من غير نظرٍ إلىٰ شخصية القائل، ويعين المسلم علىٰ الدخول فيهم أن يخشىٰ ربه، فإن الله يقول: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ [الأعلى: ١٠، ١١]؛ أي: يتجنب الذكرىٰ. ا. هـ.

وأذكر أني نزلت بلدًا، فطلب مني أحد الكرماء من أهلها أن أُعطي درسًا عندهم في مسجد، فسألته: هل الناس عندكم يعتنون بالقول أم بالقائل؟ فقال: العامةُ عندنا يعتنون بالقول والخاصة يعتنون بالقائل!.

وإذا تحلىٰ العامةُ بالفضائل؛ لأنهم ما زالوا علىٰ أصل الفطرة.. فما ينبغي للخاصة أن يرضوا أن يُسبقوا بتلك المكارم، وعلىٰ هذا؛ فاعتنِ بما قيل لا بمن قال، وعوِّد نفسك أن تُناقِشَ الفكرةَ لا حاملها، وراغم نفسك أن تقبل الحق ولو جاء علىٰ لسان مخالفك، وإنَّ هذا لمن أعسر الأشياء علىٰ النفس، لكنك في النهاية طالبُ حق وناشد ضالة، فلا يهمك علىٰ يد من جاءت.

وإنَّ لك في ابن حزمٍ أسوةً حسنة؛ فإنه قال:

ناظرت رجلًا من أصحابنا في مسألة فعلوته فيها، وانفصل المجلس علىٰ أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبتها في بعض الكتب فوجدت برهانًا صحيحًا يبين بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس، فعرَّفته بذلك، ثم رآني قد علَّمتُ علىٰ المكان من الكتاب، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أريد حمل هذا الكتاب وعرضه علىٰ فلان، وإعلامه بأنه المُحِق، وأني كنت المبطل، وأني راجعٌ إلىٰ قوله، فهجم عليه من ذلك أمرٌ مبهت وقال لي: وتسمح نفسك بهذا! فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في

وقتي هذا لما أخَّرته إلىٰ غدا.

ثم قال: اعلم أنَّ مثل هذا الفعل يكسبك أجمل الذِّكر مع تحليك بالإنصاف الذي لا شيء يعدله، ولا يكن غرضك أن تُوهم نفسك أنك غالب، أو توهم من حضرك ممن يغتر بك ويثق بحكمك أنك غالب، وأنت بالحقيقة مغلوب، فتكون خسيسًا وضيعًا جدًّا، وسخيفًا وساقط الهمة، وهذا بمنزلة من يوهم نفسه أنه ملكٌ مطاع وهو شقيٌّ منحوس، وكمن يقال له: إنك أبيض مليح وهو أسود مشوه، فيحصل مسخرة ومهزأة عند أهل العقول.

وقال قبل ذلك ناصحًا:

لا ترض لنفسك ببقاء ساعة آبيًا من قبول الحق، ولا تقنع بغفلة خصمك؛ بل انظر في كل ما يمكن أن يصحَّ به قوله، فإن وجدت حقًّا ببرهان فارجع إليه ولا تتردد، وإن وجدت تمويهًا فبينه ولا تغتر بذهاب خصمك عنه؛ فلعل غيره من أهل مقالته يتفطن لما غاب عنه، ولا تستوحش مع الحق إلىٰ أحد؛ فمن كان معه الحق فالخالق تعالىٰ معه، ولا تبال بكثرة خصومك، ولا بقدم أزمانهم، ولا بتعظيم الناس إياهم؛ فالحق أكثر منهم وأقدم وأعز عند كلِّ أحدٍ وأولىٰ بالتعظيم[(١)].

ومن مفاخر السلف أيضًا ما قصه الفلاس قال: رأيت يحيىٰ بن سعيد يومًا حدَّث بحديث، فقال له عفان بن مسلم: ليس هو هكذا، فلما كان من الغد أتيت يحيىٰ فقال: هو كما قال عفان، ولقد سألتُ الله أن لا يكون ما عندي علىٰ خلاف ما قال عفان!.

قال الإمام الذهبي معلقًا: هكذا كان العلماء، فانظر يا مسكين كيف أنت عنهم بمعزل![(٢)].

---

(١) رسائل ابن حزم (٤/ ٣٣٦-٣٣٨).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٢٤٨-٢٤٩).

وفي الاتجاه المعاكس:

فقد ذكر الإمام الماوردي موقفًا شهده لمتعصبٍ قَدَّمَهُ بقوله: فإنه ربما غلا بعض الأتباع في عالمهم حتىٰ يروا أن قوله دليل وإن لم يستدل، وأن اعتقاده حجة وإن لم يحتج، فيفضي بهم الأمر إلىٰ التسليم له فيما أخذ منه.

ثم قال: ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلًا يناظر في مجلسٍ حفْلٍ وقد استدل عليه الخصم بدلالةٍ صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالةٌ فاسدة، وجه فسادها: أنَّ شيخي لم يذكرها، وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه، فأمسك عنه المستدِلُّ تعجبًا، ثم أقبل علي وقال لي: والله لقد أفحمني بجهله، وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة ما بين مستهزئٍ ومتعجبٍ أو مستعيذٍ بالله من جهلٍ مغرب[1].

وأجاد الأستاذ فؤاد البنا حين شخَّص حال هؤلاء فقال: المتعصبون لا يرون شموس الحقائق، ولا يستضيئون بمصالح الهداية؛ لأنَّ التعصب يعمي أبصارهم عن الرؤية، ويمنع ألبابهم من الإدراك.

وبعد الذي تسطر فإني في ختام المطلب ناصحٌ لك بأمر:

دعك من كثيرٍ من مجالس الجدل حول الأشخاص والجماعات والمواقف السياسية، وحيث اضطررت إلىٰ شيءٍ من ذلك.. فكن حاضرًا غائبًا إلا من حاجةٍ تمليها قواعد الحكمة، وعندئذٍ اشتغل بتقرير الأفكار أكثر من نقد الأشخاص.

علىٰ أنَّه ليس بالضرورة أن يكون لك في كلِّ مسألة رأي، ولو كان لك رأي فليس بالضرورة أن تبثه في كلِّ مجلس ومع كلِّ شخص.

---

(١) آداب الدين والدنيا للماوردي ص (٧٧-٧٨) بتصرف.

واعلم أنَّ الناس ليس من السهولة أبدًا أن تغير قناعاتها، ولا أذكر أني شهدت جدلًا وتحول أحدهم إلىٰ وجهة نظر أخيه، فوفر نفسيتك، واحفظ صفاء قلبك، لا سيما وأنَّ كثيرًا من الناس سريعًا ما يتعكر صفوه بأدنىٰ شيء، وربما بقي أيامًا في غمٍّ وألم بعد شحن النفس بالأخذ والرد، فكيف إذا انضم إلىٰ ذلك سوء أخلاق من تجادل!.

وقد جرَّبت طرفًا يسيرًا من هذه المجالس فكنت أعجب للمآل الذي يُبَلِّغُهُ التعصبُ بصاحبه، حتىٰ إنه ليخالف النصوصَ ومقرراتِ العقول وبدهيات الأدب، حتىٰ قال أحدهم يومًا: مشروعي في دراستي الجامعية أن أقصم ظهرَ مخالفيَّ -وهم علىٰ خير-، فمن الله علىٰ المسلمين برسوبه!.

ولقد منَّ الله علىٰ المسلمين بسوء أخلاق كثيرٍ من طلبة العلم ورداءة أفهامهم؛ ليحرموا بذلك من الإمامة في الدين، وإلا فلو حَسُنَت أخلاقهم، وساءت أفهامهم.. لكانوا فتنةً علىٰ الناس في الدين.

اللهم إلا النقاش العلميَّ للمسائل، فإذا كان الذي تناقشه من أهل الدراية والأدب فناقشه؛ فإنَّ هذا من أعظم أسباب ثبات العلم ومذاكرته واستنباط الحجج والدلائل معه، ولا تكتم قناعاتك، بل اجعل ظاهرك كباطنك، واستعن علىٰ تقرير قولك بالحجة والأدب والشفقة.

وحيث اتضح لك الحق وتجلىٰ.. فاتبعه، وأظهر لمخالفك أنَّ الله منَّ عليك به، وأنك استفدت منه، وحيث بقيت متشككًا في المسائل أو فيمن تأخذ عنهم وتسمع أو تقرأ لهم.. فاتبع قلبك، فإن بقي الشك فأدمن النظر في كتب المتقدمين، فكلما رجعت إلىٰ الوراء تقدمت، وبهذا تنجو من تسعة أعشار الآفات الحاضرة والأدواء المعاصرة.

أما حيث ابتليت بمتخصصٍ في المراء.. ففرَّ منه ولو يقال: إنك مغلوب؛ فإنَّك ذو طموحٍ وأمل، وهذا يُعَطِّلُكَ أو يُعِيقُكَ، وقد أراد ابن القيم أن يقنعك بهذه

السياسة فقال: وقد ضربت لذلك مثلين فليكونا منك علىٰ بال:

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلىٰ الصلاة لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطانٌ من شياطين الإنس، فألقىٰ عليه كلامًا يؤذيه، فوقف ورد عليه، فربما كان شيطان الإنس أقوىٰ منه فقهره ومنعه عن الوصول إلىٰ المسجد حتىٰ فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوىٰ منه ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة، وربما فترت عزيمته، فإن كان له معرفةٌ وعلمٌ زاد في السعي، فلو كان أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده وخاف فوت الصلاة أو الوقت لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحسَّ به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب فيأخذه![1]



(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٢).

المطلب الثاني
التصدر قبل التأهل

ينشأ طالبُ العلم علىٰ حُبِّ نشرِ العلم وبثه، فهذا النور الذي أضاء جنباته يحب أن يتجاوزه إلىٰ غيره، فضلًا عما في ذلك من الفوز بالمثوبة والأجر، ويحتف ذلك بالاحتفاء والترحيب من المجتمع.

لكن حين يتقدم في هذا السبيل يتفاجأ أنَّ نشرَ ما حصَّل من العلم ليس هو كلماتٍ يقولها ويمضي؛ وإنما هو مجالٌ مغناطيسيٌّ يشد من دخل فيه، وكلما واصل الخُطَىٰ عَرَضَ له من مآلات التصدر المبكر ما لم يكن يخطر له من قبلُ ببالٍ.

وفي هذا المطلب إزاحةُ اللثام عن رزمةٍ من هذه المآلات، أُتبِعُهَا بحلٍّ مقترحٍ لإنقاذ من تورط في ذلك ويسأل عن الخلاص، ودونك سبعًا من المآلات:

الأول: إنَّ الناس إذا رأوا ضبطك للباب الذي تتناوله بحكم التحضير الجيد له تظن أنَّك كذلك في عامة أبواب الدين، وعندئذٍ تنهمر عليك الأسئلة وطلب الرأي في كل ما يعرض لهم، وربما سألوا عن النوازل والمستجدات التي تتطلب فقيهًا متمكنًا، وربما احتاجت اجتهادًا جماعيًّا أحيانًا، مع أنك عاميٌّ مثلهم في هذه الأبواب.

وإزاء ذلك ربما أخذت تقنع نفسك أنَّ هذه وسيلةٌ فعَّالةٌ لبحث المسائل والتواصل مع أهل العلم، لكن ما إن تبدأ في معالجة المسائل وترىٰ دِقَّتَهَا، وطول البحث عن إجابتها، واعتذار كثيرٍ من المختصين عن تقديم جوابٍ حاسمٍ فيها.. إلا وترىٰ أنَّ الأمرَ عسيرٌ جدًّا، وتبدأ تفكر في باب الطوارئ الذي تفر منه تخلصًا

من هذا المأزق.

الثاني: التعجل في بناء التصورات وتكوين المفاهيم؛ بناءً علىٰ ضغط الواقع الذي يملي عليه أن يتكلم، وعندئذٍ يُقَدِّم مادةً يحسبها جيدةً، فيسيء من حيث يحسب أنه يحسن.

الثالث: التسور علىٰ الفُتيا؛ فإنَّ ما سبق يجعله يعتاد الكلامَ في العلم، وهذا يدعوه للإجابة والترجيح عند السؤال، ومن هذا الموضع يتجه للاستدراك علىٰ الأئمة، وتصويب فلان وتغليط علان تحت شعار: العبرة بالدليل، وأنَّ كلَّ أحدٍ يؤخذ منه ويُرد، فيغطي جهله بكساءٍ طاهر من غير أن يشعر، وقد تبدأ رحلة الانتصار للنفس وما قرره ومناوأة من عارضه.

وربما تورط بالتقول علىٰ الله بغير علم؛ اتكاءً علىٰ بعض العلم الذي لا يجوز معه الإفتاء، فلا هو بالذي سكت، ولا هو بالذي نطق بالحق، والمصيبة هنا ليست في التقول الكامل علىٰ الله؛ بل في التكلم بما لا يحسن، وهو المعبر عنه بأنصاف العلماء، وهذا من فتنة العلم الجزئي الذي يفرز إجابات مشوهة، مع أنَّ الشخص قد يكون أوتي ذكاءً إلا أنه لم يؤت زَكاءً، وعندئذٍ لو راح يشتغل بأحقر وظيفةٍ في عرف الناس.. لكان أهون له من الوحل الذي غاص فيه.

الرابع: إنَّ التصدرَ حاجزٌ عن التحصيل؛ للانشغال به عنه، مع أنه لو فتش في خواطره القديمة لوجد أنه ما تصدَّر إلا لضبط ما حصَّل، وحمل النفس علىٰ المزيد، ولم ينتبه إلىٰ أن الحاجز يزداد سماكةً يومًا بعد يوم؛ لكثرة أعباء التصدر، وانشغال الذهن ولو تفرغ البدن.

ولهذا قال سفيان الثوري: من ترأس سريعًا أضر بكثيرٍ من العلم، ومن لم يترأس طلب وطلب حتىٰ يبلغ[1].

(١) سنن الدارمي، رقم الأثر: (٥٧٣).

ولا أنسىٰ أنَّ أحد كرماء بلدتنا نصحني يومًا: كل دقيقةٍ تستطيع أن تنفقها في الطلب لا تنفقها في الدعوة! ويا ليتني أخذت بكلامه، لكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

الخامس: التشغيب؛ وذلك أنَّ دائرةَ الاطلاعِ المعرفيِّ عند المُبَكِّر في التصدر تكون ضامرةً محدودة، وما إن يلتقط مسألةً أو طرفًا من علمٍ ليس شائعًا في بلده إلا ويوافق منه نفسًا مولعةً بحب الغرائب ونشرها، وعندئذٍ تكون قضيته الشاغلة إعلامَ الناس بما خفي عنهم، وربما أخذ يعتب علىٰ أهل العلم لماذا يشيعون أقوالًا ويخبئون ما هو أيسر منها، ويستمر في ذلك، لكنَّ الذي يقوده نَفْسُهُ لا عقلُه!.

أو أنه لم يتصدر بعد، ويريد من خلال الأقوال غير المشهورة في بلده أن يتخذ من إثارتها وسيلةً للتصدر؛ عبر استفزاز الناس فيما استقرَّ عندهم من أقوالٍ وقناعات، فليس القصد تحقيق مسائل العلم، ولا الوصول إلىٰ جادةِ الحق؛ بدليل أنه قد يختار من المسائل ما لا يحتاج الناس إليها، ولا يدعو الزمان أو حوائج المكان لطرحها، وإنما المدار عنده في اختيار ما لم يألفه الناس، فالمسألةُ المطروحةُ وسيلةٌ لغاية، لا أنها مقصودةٌ في نفسها.

وعندئذٍ فالتفاعل معه في حجج المسائل لا يُبَلِّغُ إلىٰ مقصد، بل إن الاشتغال بالنقاشات الجزئية هو عين ما يريد، ومن إملاء العقل حينئذٍ هجره؛ لأنَّ المسألة يكتنفها سياق، وليس من العقل إهماله.

علىٰ أنَّ ما يتكلم به قد يكون صحيحًا في نفسه، إلا أنه وسط بناءٍ هش، بمعنىٰ أنك قد لا تنكر قوله وإن كان مرجوحًا عندك؛ ولكنك تنكر عقله وتفكيره وطرحه، وطريقة تناوله ومنهج النظر الأصولي الذي انطلق منه.



وساعتئذٍ من نظر إلىٰ المشهد بتمامه.. تمعَّر وجهه وضاق صدره، حتىٰ لو كان المتصدرَ نفسَهُ، لكنَّ تركيزَهُ لَمَّا كان علىٰ نقطة الصحة.. فقد حجبه ذلك عن معاينة المشهد بتمامه، ويوم أن يختفي غبار المعركة الذي أثاره سينزل به الضيق ويفتك به الغم لو كان له عقل.

بل إنَّك قد تتفق معه في القول والنتيجة، لكنَّ المسار الذي سلكه خطأ؛ كحال الذي يسكن بيتًا هش القواعد، واحتاج أن يبني طابقًا أو طابقين لأولاده، فأملىٰ عليه العقلاء وأصحاب الخبرة أنَّ أساس البيت لا يحتمل ذلك، وأنَّ عليه أن يهدم البيت أولًا ويعيد التأسيس من جديد، فاستعظم ذلك وأبىٰ، وقال: أريد أن أعلو سريعًا بأقل سعر، وتريدون أن تعودوا بي من الصفر!.

ومن ثم استعلىٰ علىٰ كلِّ ناصح، وفسَّر نصحهم واعتراضهم بالحسد، وعوَّض ضعف البيت بزيادة التسليح في قوة الإسمنت ليتماسك، وما درىٰ أنَّ زيادة التسليح تُعجِّل من انهيار البيت، لكنه لم يكتشف ذلك ولم يعرف رأي العقلاء فيه إلا بعد أن سقطت الدار فعلًا، وأخذ يُقلِّب كفيه علىٰ ما أنفق فيها وهي خاويةٌ علىٰ عروشها.

وإنك ما تنكر غايته؛ وإنما تنكر المسار الذي سلكه، ويزداد الطين بلةً لو روَّج قولَهُ بأن مستعدٌّ لمنازلة أهل العلم ومناقشتهم؛ اطمئنانًا إلىٰ امتلاكه البرهان والحجة.

وهذا الصنف يأبىٰ كثيرٌ من أهل العلم مكالمته؛ لما مضىٰ تقريره، وإجلالًا للعلم وضنًّا به أن يُباحث مع الأجانب عنه، إلا من حاجةٍ، وصدق الشيخ الطريفي إذ قال: «علم الرد علىٰ الجُهَّال علمٌ حادث، لا يعرفه العلماء السابقون؛ لأنَّ جُهَّالَهُم لا يعرفون الكتابة، وجهال اليوم يكتبون كل شيء، نرىٰ جهلًا لم نقرأ عنه من قبل»!.

وقال: أمر الله بتعليم الجاهل ونهىٰ عن جداله؛ فالجدال إقرارٌ بعلمه، وإن تُرك بعدها اعتقد أنه انتصر فيزداد تمسكًا بجهله، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

وحق لهم ذلك؛ فلو نظرنا إلىٰ المشهد لوجدنا طالبًا مبتدئًا أجنبيًّا عن العلم، موغلًا في الهشاشة والضعف، يتسلح بنقلٍ صحيحٍ لكنه علىٰ خُلُقٍ قبيح، ترىٰ الاستعلاء في كلامه بأدنىٰ نظر، ولا يزال يصرح مرةً بعد مرة أنه يريد أن يُصَوِّبَ ويُصَحِّحَ ويستدرك، فأي كلمةٍ معه تشككه في طرحه فإنها تُصَوَّرُ له أنَّ مخالفيه توجعوا من صَدْحِهِ بما لم يُحبوا نشره، وهذه البيئة الصاخبة غير صالحةٍ لأن تُناقَشَ فيها مسائل، وتُخصَّبَ فيها أفكار، وتُنَضَّجَ فيها مفاهيم.

ولهذا أنصحك لله؛ إياك والتصدر، ولا يغرنك أنك تتسلح بكلام الأئمة والكبار، ورحم الله المربي الفاضل الشيخ عبد الكريم الرفاعي [ت: ١٣٩٣ هـ] إذ أجاد لما قال: «غذاء الكبار سمٌّ للصغار»[1].

السادس: كثرة الحُسَّاد فيما لو أحسن، وحفظ المعايب عنه فيما لو أساء، وقد كان مستورًا من قبل بستر الله، فأبىٰ إلا أن يهتك ستر الله فيه.

وإني لأخشىٰ أن يكون قد سقط من عين الحق، لكنَّ آثامه قد بلغت حدًّا استحق أن يسقط به من عين الخلق، لكن بَدَلَ أن يعلم بأمره خمسون أو مائة.. فما زال صيته ينتشر في الناس، حتىٰ إذا استوىٰ علىٰ عرش الشهرة.. سقط سقوطًا لا جبر بعده.

السابع: إنَّ قرارَ التصدرِ المبكرِ سهل، أما قرار الانسحاب فشاقٌّ صعب، فهو وإن ملك البداية إلا أنه ربما تهيب من قرار النهاية.

بل إنَّ المجتمعَ الذي رحَّب به يوم ارتقىٰ المنبر.. ربما يعجز الآن أن ينزله

---

(١) معالم إرشادية لصناعة طالب العلم لمحمد عوامة ص (٣١٧).

عنه فيما لو أساء، وقد يصر ويعاند ويستمسك به ظنًّا أنه حارسٌ لثغره على الوجه الحسن، فيسيء عندئذٍ إلى الرسالة التي يحمل من حيث أراد أن يُحسن.

وبعد هذا القدر من مآلات التصدر المُبَكّر لا بد من كلمةٍ لمن لم يتصدر بعد، وكلمةٍ لمن تصدر.

أما من لم يتصدر:

فأَرجِئْ ذلك حتى تنجز المرحلة الثالثة من التخصص الذي انتخبته لنفسك، والمرحلة الأولى والثانية من باقي العلوم الشرعية واللغوية.

وأنصت لعروة بن الزبير إذ أنبأك بتجربته ثم وصاك قائلًا: «إنا كنَّا أصاغر قوم ثم نحن اليوم كبار، وإنكم اليوم أصاغر وستكونون كبارًا، فتعلموا العلم تسودوا به قومكم ويحتاجوا إليكم»(1).

فإن ألح عليك بعضُ كرماء المجتمع وذكَّروك بأنَّ العلمَ له زكاةٌ وأنَّ زكاته نشره وأن النبي ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية»، فقل لهم: هذا صحيح، لكن هناك فرقٌ بين أن تبلغ آيةً من القرآن أو حديثًا من السنة، وتبثه لمن يحتاجه، لا سيما إذا أَمْلَت لذلك مناسبةٌ، وعسى أن يكون المُبلَّغ أوعى حينئذٍ من السامع.. وبين التصدي لمقام الإفتاء وتعليم الناس مع ما يستتبع ذلك من تدافع سيول الأسئلة، فهذا يتطلب قدرًا كافيًا من العلم ليكون المتكلم أهلًا للكلام في دين الله ﷻ.

ولهذا لما سئل شيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي عن زكاة العلم متى تجب؟ قال: إذا بلغ العلمُ النصاب.

والملاحظ أنَّ أكثرَ الناس حرصًا على التصدر في مواقع العلم والدعوة أقلُّهم علمًا، وأكثر الناس تهيبًا من التقدم أكثرهم علمًا وضبطًا.

---

(1) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (1/ 443).

وربما اندفع بعض رجال الفريق الأول للتصدر اغترارًا بالشهادات العلمية، والحق أنها درجات أكاديمية لا تصلح معيارًا دقيقًا كاشفًا لحال المتفقه؛ فقد يكون راسخًا بدونها، وقد يكون جاهلًا مع وجودها.

فإن قيل: إنَّ فرضَ الكلام هنا فيمن تصدىٰ لتدريس العلوم الشرعية والإفتاء، وليس كذلك الوعظ؛ فإنَّ المؤنة فيه أخف..

قلت: هذا صحيح، لكن ينبغي أن يستوثق من المادة المُقَدَّمة؛ فإنَّ الوعظَ في التكييف الشرعي ما هو إلا إفتاءٌ إيمانيٌّ أو تربويٌّ ينبيك بسياسة الشريعة في بابه، وقد يكون أخطر أثرًا من آحاد الفتاوىٰ العقدية والفقهية وغيرها؛ لأنَّه يتعلق بعامة الناس، أما المسائل فقد تتعلق بحال سائلٍ واحدٍ فقط.

فكم رأينا مثلًا من يذم الغِنىٰ ويمدح الزهد ويفسره بترك المال والانسحاب من الحياة، بما ينطق مجموع كلامه أنَّ الشريعة تُنَظِّر للفقر والمسكنة، حتىٰ رأينا جُلَّ التجارب الإسلامية التي وصلت إلىٰ الحكم تفشل علىٰ عتبة الاقتصاد، ويتلاعب بها عدوها صباح مساء.

وكم سمعنا من يرد عامة أزمات المجتمع إلىٰ الذنوب، ويختزل عامة الحلول في التوبة، وهذا اجتزاءٌ شديدٌ للنظر الشرعي في علاج الأزمات وإصلاح المجتمعات[1]، ولعلي أبسط القول فيه في مناسبةٍ بحثيةٍ أخرىٰ.

والمقصود أنَّ الوعظ والتذكير وإن كان أخف مؤنةً من الكلام في التفسير والحديث والعقيدة والفقه إلا أنه المسئول عن ضخ المفاهيم الشرعية عبر الساحة المنبرية، وقد يقدم أهله نظرةً رديئةً عن الشريعة التي يدعون لها، ويُرَوِّجُون مفاهيم وتصورات يحسبونها قويمةً ونصوص الشريعة تهدمها.

(١) يمكن الاطلاع علىٰ اللقاء الحواري المسجل علىٰ قناة فلسطين اليوم بعنوان: التربية الاقتصادية في الإسلام، فقد تكلمت فيه عن طرفٍ من بيان ذلك، وهو منشور علىٰ موقع اليوتيوب.

ولهذا لا تتقدم إلا حيث قدَّمك ربك، وسيهيئ الله لك على الطريق من القرائن التي تأذن لك بالتقدم، وعندئذٍ يُبارك لك فيما تكلمت كما بُورك لك يوم سَكَتَّ.

أما الآن؛ فانزوِ عن الأعين بضع سنين كما وصىٰ بذلك شيخنا د. يونس الأسطل وَفَّقَهُ الله، وأَجْمِع القوةَ والعزم علىٰ التأصيل والتحصيل، واضبط العلم في صدرك، ويوم أن تكتمل أهليتك.. سترىٰ فضل الله عليك، وسوف تذكر فضل هذه الوصية حين تزدحم بك الأعباء، وتحتشد في وجهك الأشغال، وتحيط بك جيوش النَّصَب والإرهاق، فاعقل هذا عن أخيك، ولا تكثر من التبرير أو الجدل.

أما من تصدر:

فاعلم أولًا أنك مبتلىٰ، وأعانك الله علىٰ مصابك، ودونك هذه الوصايا الإغاثية الخمس، فخذ منها ما ينفعك:

الأولىٰ: اجعل وقتك المخصص للعلم والدعوة أثلاثًا: ثلثًا للتلقي وثلثًا للحفظ وثلثًا للدعوة، فإن كانت الأعباءُ تضيق عن ذلك.. فاجعل النصف للدعوة والنصف الباقي يتقاسمه التلقي والحفظ بالتساوي، ولا تنحط عن ذلك.

وينبغي ألا تزيد مواطن التصدر عن موطنين أو ثلاثة، وعندئذٍ لا تتكلم إلا فيما تحسنه غايةَ الإحسان، وتتقنه غاية الإتقان، والتقسيم المقترح للوقت يُسعِفُكَ في ذلك، وهذا يعني أنك بحاجةٍ إلىٰ قرارٍ تكتيكيٍّ بإعادة توزيع الوقت علىٰ الأعباء، وربما تكون بحاجةٍ إلىٰ الانسحاب من أعمالٍ قائمة، وافتتاح أعمالٍ جديدة ملائمة.

وحين تنسحب من عملٍ لا تنظر إلىٰ قدسيته؛ لأنك إن لم تنسحب الآن طوعًا ستنسحب بعد ذلك كرهًا.

الثانية: رأس مالك العلمُ وضبطُه، فلا تتكلم ارتجالًا، بل اعتن بالضبط والتأصيل وسعة التحصيل، وركز الجهد في كتبٍ بعينها تستظهرها، واصبر على مرِّ ذلك، وما أحسن ما حكاه بعض أهل العلم عن الحكيم أفلاطون فإنه قال: «**الفضائل مرة الأوائل حلوة العواقب، والرذائل حلوة الأوائل مرة العواقب**»[1].

الثالثة: أدمن قول «لا أدري»، فإنك ستحتاج إليها كثيرًا، ولك في الملائكة أسوةٌ حسنة؛ فإنك لما سُئِلُوا عما لا علم لهم به ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٣٢].

الرابعة: أصغ جيدًا لنُصح النُّصَحاء، ولو اشتدوا عليك، ولا تكثر التبرير فتصدهم عن النصح، وحذار أن تعاند أصحاب العلم والدراية إذا تواتر نصحهم لك أن أغلق الفم أو اكسر القلم واطلب العلم.

الخامسة: اجتهد ألا تتكلم إلا مكرهًا، وعلى قدر اشتهائك للسكوت يبارك لك في الكلام، وأنصت جيدًا للشيخ د. محمد بن إبراهيم الحمد حين خطَّ قائلًا: ليس بالضرورة أن يكون لك رأيٌ في كل نازلة، وإذا كان لك رأيٌ فليس بالضرورة أن تبديه، ولو أبديته فليس بالضرورة أن يكون في كلِّ مجلس، ولو فعلت فليس بالضرورة أن تنتصر له، أو تظن أنه الحق الذي لا يُعقَّب، ولو خالفك أحدٌ فليس بالضرورةِ أن يكون خصمًا، وليس بالضرورة أن تكون المتصدر في كل مجلس، ولو بلغت ما بلغت من الثقافة والعلم؛ فما كل جوٍّ جوك ولا كل يوم يومك. ا. هـ.

فإن قلت: إنَّ العمرَ أقصرُ من انتظار تمام التأهيل والتحصيل، وربما داهمنا الموت في أي ساعةٍ، فينبغي أن نستكثر من الخير قدر الوسع قبل الرحيل.

قلت: إي وربي؛ إنَّ هذا لحق، ولولا هذه المشاعر ما خططتُ هذا الكتاب أصلًا، غير أنَّه لا بد أن نعترفَ أنَّ الشريعةَ لا تُنصَرُ في باب العلم بقعيدٍ فيه أو أعرج.

---
(١) أدب الطلب للشوكاني ص (١٣٣).



وعلى هذا فمن تورط وتصدر فعليه أن يستدرك غاية الوسع[1]، خاصة في باب اللغة وأصول الفقه والتزكية، ومن لم يتصدر.. فليمسك حتى يتأهل، ولا عليه أن يموت وهو يمضي في هذه السبيل، وإنَّ الله عليم بذات الصدور، وهو القائل سبحانه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠].



(١) ذكرت بعضًا من معالم الاستدراك لما فات من العمر الطويل في وقتٍ قصيرٍ في كتاب «فقه الاستدراك»، وتطرقت فيه للاستدراك في جانب التحصيل العلمي، فانظره إن شئت.



المطلب الثالث

التعجل في بناء المفاهيم

يقول الشيخ فيصل المنصور: «لا يبني الناسُ غالبَ آرائِهم في عامَّة القضايا علىٰ النظر المجرَّد المنصف إلىٰ أدلتها؛ وإنما يبنونها علىٰ الحدس أو الإلْف أو الاستحسان، ثم يطوِّعون الأدلةَ لذلك».

والحق أنَّ طالبَ العلم ما ينبغي أن تتصيده شباكُ هذه الآفة، وليس بعذرٍ له عند العقلاء أن ينشأ في جوٍّ فكريٍّ ثم يتشبث بأولِ رأيٍ حتىٰ يعادي الناس جميعًا فيه، بل ربما جعله معيارًا علىٰ الحق عنده، ثم أجراه علىٰ العلماء والأئمة أنفسهم، فمن وافقه كان مصيبًا ومن خالفه كان مخطئًا.

وهذا الذي حذَّر منه الشيخ محمد عوامة حين قال: لم يرض بعض الطلبة أن يدَّعي الاجتهاد في دين الله، حديثيًّا وأصوليًّا وفقهيًّا، بل أقام نفسه حكمًا علىٰ الأئمة المجتهدين الأربعة وغيرهم، يُخطِّئ ويصوِّب وينقد؛ لأنَّه تربىٰ علىٰ غير أصلٍ![1].

علىٰ أنَّه لا بأس أن ينطلق من مفاهيم وتصورات، وأن يجعلها راجحةً عنده، لكن لا يتعامل معها معاملة مسائل العقيدة التي لا تقبل تعدد الرأي، بل ينزلها منزلة المسائل الاجتهادية التي يتردد الناس فيها بين أجرٍ وأجرين.

وإن لم يفعل ابتُلي بتزكية نفسه ومن يحبهم تزكيةً مطلقة، وهدم غيره ومن يختلف معهم هدمًا مطلقًا، فيختل عنده ميزان القسط، وعندئذٍ يضيع العمر في المناكفات والجدال بعد أن يفقد موقعه في ميادين القتال ومواقع الأعمال، ولقد قال لي أحد مشايخ

---

(١) معالم إرشادية لصناعة طالب العلم لمحمد عوامة ص (٣٠٧).

السودان الكرماء يومًا: مكثنا عشرين سنة نعتقد أننا جماعةُ المسلمين، ثم اقتنعنا أننا جماعةٌ من المسلمين! فقلت مازحًا: حرفُ جرٍّ احتجنا في التحصل عليه إلىٰ عشرين سنةً!.

ومن الوسائل التي ينجو بها المتفقهُ من هذه المنقصة أن يُجرِيَ قانون الفقه المقارن علىٰ عامة المسائل الشرعية والفكرية، فإذا تلقىٰ قولًا أو نشأ عليه فإنه يتهيأ لوجود خلاف، ويتهيأ أن يكون قويًّا، ويربي نفسه ألا يرد القول قبل أن يطَّلع علىٰ حُجَّةِ أهله إذا كانوا من أهل العلم والفقه والصلاح.

وكم كنا نظن أقوالًا متهاوية ثم لما درسناها علىٰ طريقة الفقه المقارن تفاجأنا بأنَّ أدلتها متينةٌ عصيةٌ علىٰ الدحض، وأنَّ من يقول بها هم جمهرةُ العلماء، حتىٰ صرت أقول لإخواني: هذا العلمُ هو علم الصدمات، لكن غاية ما في الأمر أنَّ الإنسان يتخذ من الأقوال الشائعة في بلده معيارًا علىٰ القرب من الصواب والبعد عنه.

وقبل أيامٍ قليلةٍ من خطِّ هذه الكلمات وقع نقاشٌ بيني وبين أحد الكرماء المشتغلين بالعلم في مسألة، واستبعد هو قولًا أن يكون قويًّا، فقلت: أحسب أنه قول جمهور العلماء، فتعجب، فبحث المسألة ثم عاد إليَّ مندهشًا يقول: ليس هو قول الجمهور فحسب، بل حكىٰ كثيرٌ من الأئمة الإجماع عليه!.

ولهذا اجتهد ألا تقطع بما يشاع في بيئتك ولو خرج من بعض المشتغلين بالعلم؛ فقد يكون المقام مقام فتيا تتعلق بحال سائل لا مقام تعليمٍ وتحريرٍ للمسائل، وحتىٰ لو افترضنا أنه القول الراجح عند من أفتىٰ به فلا ينبغي أن نرفعه لمرتبة القطعيات الشرعية.

وقد رأيت من بعض طلبة العلم من يتلقف القول الشائع عند بعض مشايخه، ويظنه مجمعًا عليه، ومن ثم يوالىٰ عليه ويعادىٰ عليه، وبما أنه صدر عن مشايخ ثقات عنده فإنَّه إذن القول الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل شيء دونه مردودٌ باطل.

لكن هذا ما إن يتقدم في الطلب حتىٰ يرتطم بما يفتك بقناعاته، حين يرىٰ جماهير الأمة سلفًا وخلفًا علىٰ مناوأة هذا القول أو تَبْهيتِهِ.

وجزىٰ الله الإمام أحمد الذي ربانا حين كان ينهىٰ عن كتابة أقواله، فإذا كان قد نهىٰ عن كتابتها فكيف يتعصب لها؟!.

ورحم الله الإمام مالكًا الذي كان إذا أجاب عن مسألةٍ قال: إن نظن إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين.

بل إنَّ الإنسان نفسه قد يتحول من قولٍ كان عليه إلىٰ قولٍ كان يرده، ويعد هذا من مناقبه، وهو صنيع الأئمة في كل زمن، وكتب التراجم مزدحمةٌ بشواهد ذلك، حتىٰ بلغ الحال بالإمام الشافعي أن يغير مذهبه لمَّا أعاد النظر في أصوله، وصار له مذهبان قديمٌ وجديد، ولم يجعل من نقل عنه القديم في حلٍّ، ولم يكن التحول عنده عن أقوالٍ قليلةٍ فحسب؛ بل عن نظامٍ اجتهاديٍّ متكامل!.

وهذا الأدب أحوج ما تكون إليه إذا كان الرأي الذي استحسنته أو نشأت عليه يصادم مقررات أهل الفن نفسه، كمن يُعادي فكرة التمذهب عند الفقهاء، ويراها باطلةً متهاوية، وهو ما تصورها علىٰ وجهها أصلًا، وإني ما جالست أحدًا ممن يقدح فيها ووجدته علىٰ إلمامٍ حسنٍ بها وتصورٍ جيدٍ عنها.

ولهذا تَحَسَّس أن تُشْغِّبَ علىٰ أهل كل فنٍّ، خاصة إذا تواترت كلمتهم علىٰ أمر، فإنَّ مخالفتك لهم قد تخدش قدرك عند من لا يعرفك منهم، ويعلم الله كم أشفق علىٰ من هذا حاله عندما أقرأ في المسائل المتنازع عليها في الكتب الأمهات، وأرىٰ نقاشًا في مسائل محصورةٍ قد يتجاوز عرضها مجلدًا كبيرًا، وأنت تتنقل بمشاعرك من قولٍ لآخر، فما أن تقتنع بحجةِ فريق حتىٰ يردها الفريق الآخر، وتبقىٰ أعصابك مشدودةً بين هذا وذاك لا تكاد تستقرُّ علىٰ أمر، ثم تنتهي من الكتاب وما تقدر أن تحسم المسألة بعد، ثم تلقىٰ مبتدئًا يتعصب لقولٍ غاية التعصب، ويرد مخالفه غاية الرد، ويهاجم أصحابه بأشد

عبارات الذم والقدح، متسلحًا بطرفٍ من دليل، وما اطلع علىٰ جمهور الأدلة الأخرىٰ.

وهذا السلوك الشائن لا يحتاج لاستكثارٍ من العلم والحجج فحسب؛ بل يحتاج إلىٰ أدبٍ وخلقٍ حسن، ومن لم يصنه أدبه لم ينفعه علمه.

وإلا فكيف يُظن السوء بأهل العلم وهم ما يقولون قولًا إلا بحجة، ولا يتركون دليلًا إلا لموجب، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلىٰ ذلك فقال: «وليعلم أنه ليس أحدٌ من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيءٍ من سنته؛ دقيق ولا جليل؛ فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًّا علىٰ وجوب اتباع الرسول، وعلىٰ أنَّ كلَّ أحدٍ من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديثٌ صحيحٌ بخلافه.. فلا بد له من عذر في تركه، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف: أحدها: عدم اعتقاده أنَّ النبي ﷺ قاله. والثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول. والثالث: اعتقاده أنَّ ذلك الحكم منسوخ»[1].

ثم هب أنك المصيبُ من غير نزاعٍ ولا خلاف.. فلماذا لا تعامل مخالفيك كما يُعامل الأب أولاده، ما داموا يلتزمون الأصول العامة للإسلام والسُّنَّةِ والمعتقد؟ تضمهم إليك لا أن تطردهم عنك.

وحتىٰ لو كانوا علىٰ غير ذلك فلماذا لا تترفق بهم في الدعوة ترفقًا يحملهم علىٰ العودة إلىٰ الحق كما كان رسول الله ﷺ يفعل؟ فكيف وأهل هذا الزمان لا يصلحهم إلا الرفق كما قال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ!.

ولو احتجت إلىٰ الحزم أو الشدة فليكن في مواضعه، لا أصلًا مطَّردًا.

والرسالة التي تبثها كلمات هذا المطلب:

تباطأ في صناعة المفاهيم؛ لئلا تتخذ من قناعاتك قواعد، ثم ترد من خالفها وتحتار في كيفية التعامل مع المستثنيات الخارجة عنها، وإذا سمعت ما هو غريبٌ

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢٠/ ٢٣٢).

عنك فلا تجعل من القول الشائع معيارًا للقبول والرد؛ فقد يكون على وجاهةٍ وقوة، ودونك هذه القصة أحسن قراءتها والاستفادة منها.

أخرج عبد الرزاق في مصنفه بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: قدم على عمر رجلٌ فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال يا أمير المؤمنين: قد قرأ منهم القرآن كذا وكذا فقال ابن عباس: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة، قال: فزبرني عمر ثم قال: مه!؛ أي: اكفف وتوقف.

قال: فانطلقت إلى أهلي مكتئبًا حزينًا، فقلت: قد كنت نزلت من هذا الرجل منزلة فلا أراني إلا قد سقطت من نفسه، فرجعت إلى منزلي فاضطجعت على فراشي حتى عادني نسوة أهلي وما بي وجعٌ، وما هو إلا الذي تَقَبَّلَنِي به عمر.

فبينا أنا على ذلك أتاني رجل فقال: أجب أمير المؤمنين، قال: خرجت فإذا هو قائمٌ ينتظرني قال: فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفًا؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن كنت أسأت فإني استغفر الله وأتوب إليه وأنزل حيث أحببت.

قال: لتحدثني بالذي كرهت مما قال الرجل، فقلت: يا أمير المؤمنين متى ما تسارعوا هذه المسارعة.. يحتقوا[1]، ومتى ما يحتقوا.. يختصموا، ومتى ما يختصموا.. يختلفوا، ومتى ما يختلفوا.. يقتتلوا! فقال عمر: لله أبوك، لقد كنت أكاتمها الناس حتى جئت بها![2].

---

(١) يحتقوا أي: يختصموا، يقول كلُّ واحدٍ منهم: الحق في يدي ومعي فيما قرأت، وذلك أنَّ المسارعة تجعل القارئ يتعجل فهم الآية على ما تبادر إلى ذهنه، فيقع الاختلاف والخصومة، بخلاف ما لو دُرِسَ القرآن بأناةٍ وفكر وتحقيق نظر. انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ٤١٤)، تهذيب اللغة (٣/ ٣٧٨)، وقد تصحفت الكلمة في المُصَنَّفِ إلى «ويحيفوا»، وكتب المحقق أنَّ الكلمة مشتبهة في إحدى النسخ.

(٢) مصنف عبد الرزاق، رقم الأثر: (٢٠٣٦٨)، وعبد الرزاق يرويه عن معمر بن راشد، وقد بلغني أنَّ جامع معمر طُبِع مستقلًا ورأى النور، فيمكن الرواية منه؛ طلبًا لعلو الإسناد، وقد كان من قبل ملحقًا بمصنف عبد الرزاق من روايته عنه، وذلك في الجزأين الأخيرين منه.

المطلب الرابع
محاكاة الآخرين دون مقتض

من دلائل الفقه عند المتفقه أن يعلم أنَّ الله جعل بين كل طالبِ علمٍ وبين علمٍ من العلوم أخوةً وصلة رحم، بحيث يتفوق فيه بأدنىٰ جهد، ولا يتفوق في غيره مثله إلا ببذل أقصىٰ الجهد، والطالب الفقيه لا يُخالف ما أودعه الله فيه إلا لحاجةٍ تفرضها حوادث الزمان أو دواعي المكان.

وقد أشار أبو الفرج ابن الجوزي إلىٰ هذه القضية فقال: «**إنَّ الله لما أراد بقاء العلم؛ لأنه الدليل عليه.. جعل بين طباع الناس وأصناف العلم مناسبةً جوهرية، وعلاقةً خفية، فينجذب كلُّ طالبِ علمٍ إلىٰ ما يناسب جوهريته؛ لينحفظ بجملتهم العلم**»(١).

إذا عُلِم هذا؛ فلا ينبغي لطالب العلم أن يُغيِّر مسارَهُ واهتماماته من أجل محاكاة قرينٍ له أو عالمٍ يأخذ عنه؛ فإنه قد يفتح لإنسانٍ في الحفظ ولثانٍ في الفهم ولثالثٍ في الخطابة ولرابعٍ في الكتابة ولخامسٍ في حسن الصوت، فأن يحملك حبك لما آتىٰ الله غيرك أنْ تُغيِّر موقعك الذي آتاه الله لك.. فإنَّ هذا فضلًا عن أنه ليس رشادًا في الرأي إلا أنه يتعبك؛ لأنه يخالف طبيعتك، وربما أدىٰ لنتائج كارثية تنزل بك، فما يصلح لغيرك قد لا يصلح لك، ولهذا ارض بما قسم الله لك، وأحسن فيه وتقدم، وكن أنتَ أنت.

---

(١) آفة أصحاب الحديث لابن الجوزي ص (٦-٧).

وذكر الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه كان معجبًا بشخص، تسحره كلماته، وتزهيه توجيهاته لكنه راح يقول: كان يسرني أن أنجح مثله في حسن البيان وقوة التأثير، ولكنني لم أحاول التشبه به أو متابعته علىٰ طريقته، وأحسبني لو حاولت لفشلت؛ لأنَّ طبيعتي تغلبني.

إنني أسير وفق خصائصي النفسية كما يسير القطار علىٰ قضبانه، عندما أخرج عنها أتوقف لفوري.

وقد عرفت جمًّا من أصحابي يقلدون الرجل فيما دقَّ أو جلَّ من شأنه كله، ويحبون في التقرب إليه أن يكونوا صورًا متشابهة من أعماله وأحواله.

لماذا لا ينمو الرجال علىٰ فطرتهم التي خلقهم الله بها كما تنمو أنواع النبات في مغارسها، لا النخيل تتحول أعنابًا، ولا الثمار تحاكي غيرها في طعم أو لون!.

إنَّ خروج الإنسان عن سجاياه، وانفصاله عن طباعه العقلية والنفسية التي لا عوج فيها أمرٌ يفسد علىٰ الإنسان حياته، ويثير الاضطراب في سلوكه، وقد علمت قصة الغراب الذي راقه المشي علىٰ الأرض، فلا هو استطاع الخطو كما يبغي، ولا هو استطاع الطيران كما خُلِق، إنه عسيرٌ جدًّا علىٰ الإنسان مهما حاول أن يكون غيره[1].

وهذا الكلام من علائم الفقه.

علىٰ أنَّ الإنسان يُحمد لو استفاد من الناس أشياء متناثرة، ثم كوَّنَ بها شكلَهُ الذي يستأثر به، ومن هنا قال الشيخ سليمان العبودي: ليتذكر السالك أن أول الإبداع محاكاة، ثم ينفرد الإنسان بعد حين بزيه الخاص، وطريقته التي جمعت المتفرق في الجميع، فهو تقليدٌ منظم لعدد من المبدعين، وجمعٌ جاد لمُتَفَرِّقٍ في الآخرين، ثم بعدها تكون خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

---

(١) جدد حياتك لمحمد الغزالي ص (١٢٣-١٢٦) بتصرف.



أما التقليد المحض فإنه يسرق منك شخصيتك ولن يجعلك الشخص الذي تقلد، فالخسارة وقعت عليك أنت، فضلًا أن التقليد ممجوجٌ عند الناس ولو أبدوا إعجابهم به أول مرة.

أخي يا طالب العلم:

إذا تقرر لديك أنه لا ينبغي للسائر في هذه السبيل أن يُغَيِّر مساره واهتماماته أو يخرج عن سجيته وطبيعته من أجل محاكاة شخصٍ.. فاعلم أيضًا أنه ما ينبغي له أن يغير آراءه وقناعاته من أجل محاكاة شخصٍ أو جماعةٍ أو ثقافة بيئة رائجة؛ إيثارًا للسلامة من سطوةٍ محتملةٍ عند الصدح بالقناعات.

والحق الذي لا حيدة عنه أنَّ المشتغل بالعلم عليه أن يربي نفسه تربيةً متينةً قويةً محكمةً علىٰ الصدح بالحق، والجهر بالقناعات، وأن يجعل سره وجهره سواء، فيبوح بما يعتقد أنه الذي يبلغه رضوان الله، ولكن مع حسنٍ في الأداء، وفقهٍ في الطرح، وحكمةٍ في الدعوة؛ لأنَّ غايته بثُّ الخير الذي يعتقده، فلا داعي إذن للدخول في جدليَّات أو افتعال خصومات.

وقد اعتنىٰ الشيخ محمد الغزالي بتقرير هذه المسألة، وأطال الكلام عليها، وأنتقي هنا من كلامه جملًا متفرقة، ومن ذلك قوله:

إنَّ المحاكاة وذوبان الشخصية وتمثيل الأكابر عللٌ لا تذم في مجالٍ قدر ما تذم في المجال الديني، حيث لا يبلغ أحدٌ درجة التقوىٰ إلا إذا استقامت خلائقه وطابت سجاياه، وكل تظاهر مع فقدان هذا الأساس لا يزيد المرء إلا مسخًا.

وقد قلت يومًا لبعض هؤلاء المقلدين: ما هكذا كان يعامل أصحاب محمد محمدًا ﷺ، وهو المثل الأعلىٰ للخليقة، فإنه عندما استشار أصحابه في أسرىٰ بدر انطلق كلٌّ علىٰ سجيته يبدي ما عنده كما يعتقده، وقد عقب رسول الله ﷺ

علىٰ مشورة صاحبيه بأن شبه أبا بكر رضي الله عنه الذي رأىٰ العفو عنهم وأخذ الفداء منهم بإبراهيم عليه السلام الذي قال لقومه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وشبه عمر رضي الله عنه الذي رأىٰ قتلهم بنوح عليه السلام الذي قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وبهذا الضرب من الشمائل النظيفة والسجايا الأبية النقية التف حول رسول الله ﷺ أناسٌ لا يرىٰ أحدهم مانعًا البتة من أن يطلب إليه تغيير منزله في ميدان القتال لأنه الأفضل، ويرىٰ رسول الله ﷺ الصواب في مشورة صاحبه فيأخذ بها.

ألا ليت الزعماء يعرفون هذه الحقيقة؛ إنهم يؤثرون من يذيب نفسه فيهم ويؤخرون أصحاب الطبائع الحرة، وهذه هي الطامة الكبرىٰ.

وبلغني أن الزعيم الروسي ستالين فصل أحد كبار الموظفين عنده لأنه ما استشاره في أمرٍ إلا أشار عليه بما يظنه أقرب إلىٰ مرضاته، ومثل هذا لا يُرجىٰ منه نفع، ولا يؤتمن علىٰ مصلحة، ولو كان في ربوع الشرق لبقي في موضع الرعاية حتىٰ الممات.

وقال «ديل كارنيجي»: سألت مدير المستخدمين في شركة «سوكوني فاكوم» عن الغلطة الكبرىٰ التي يرتكبها طلاب العمل في شركتهم فأجاب: إنَّ أكبرَ غلطةٍ أنهم لا ينطلقون علىٰ سجاياهم، فبدلًا أن يصارحوك بحقيقة أفكارهم وآرائهم يحاولون أن يجيبوا علىٰ أسئلتك بما يظنونه الجواب الذي تريده أنت.

وبناء علىٰ ذلك؛ فإنَّ العِلمَ باختلافِ الناس في خصائص الفكر ونواتج العقل ينبغي أن يصبح أمرًا شائعًا، وأن يعقله كل ذي ولاية، وترسم العلاقات ومعاملات الناس ونقاشاتهم علىٰ ذلك، ما دام ذلك لا يخدش أدلة الشريعة

وقواعدها المقررة.

قال الغزالي: وذلك أنَّ الناس ليسوا نسخًا واحدة مكررة متماثلة في ملامح النفس ومشابه البدن؛ فهم من حيث القالبُ الحسيُّ مختلفون طولًا وقصرًا ونحافةً وغِلظًا وقوة وضعفًا وصحة ومرضًا، وفي صفة الأنف والعين والفم والجبهة وسائر ملامح الوجه، أي أنَّ أبدانهم ووجوههم ليست مصبوبة في قوالب متماثلة، بل إنَّ الاختلاف ليذهب في تلك الناحية الحسية حتىٰ يشمل الأمور الدقيقة التي لا يكاد يلتفت إليها؛ كتغاير آثار البنان في البصمات المختلفة لملايين البشر.

وهذا الاختلاف المعجز العجيب الذي يدل علىٰ قدرة الخالق سبحانه يقابله اختلافٌ آخر في ملامح النفس، وتسوية الطبع، وتقدير الغرائز، وخصائص الفكر والعاطفة.. فكما يختلف الناس في التقاسيم الحسيَّة الظاهرة يختلفون في الملامح النفسيَّة الباطنة، فلكل إنسان قالبه البدني الذي لا يماثله فيه أحد، وكيانه المعنوي الباطن الذي يتميز به عمن سواه.

ولهذا عاد «كارنيجي» من جديد لينصحك قائلًا: يجب أن تعلم أنك شيءٌ فريدٌ في هذا العالم، إنك نسيج وحدك، فلا الأرض منذ خلقت رأت شخصًا يشبهك تمام الشبه، ولا هي في العصور المقبلة سوف ترىٰ شخصًا يشبهك تمام الشبه، فاغبط نفسك علىٰ هذا، واعمل علىٰ الاستزادة مما ركبت عليه من المواهب والصفات[1].

فالتقط الرسالة، والله يتولاك ويرعاك.



(١) جدد حياتك لمحمد الغزالي ص (١٢٣-١٢٨) بتصرف.

المطلب الخامس

علمانية العلماء

من الآفات في حياة بعض المشتغلين بالعلم والدعوة اعتيادُ السباحةِ في المساحة الآمنة؛ كالكلام في العبادات والتوبة من السيئات ومكارم الأخلاق ومحاسن العادات، أما الكلام في نبذ الطغيان ومقاومته وإنكار المنكر ومناوأته.. فإنه ليس من قاموس مفرداته وجدول أعماله.

وقد تقدم أنَّ العالِمَ بمنزلة المجاهد في سبيل الله، وأنَّ هذه الأمة يحميها رجلان: فارسٌ بسيفه وعالِمٌ بلسانه، وإذا كان المجاهد يستعد أن ينفق نفسه في سبيل الله.. فإنَّ العالِمَ الذي غرس العلمُ اليقينَ بما عند الله في صدره بهذا أولىٰ.

وإنه والله لا بد أن تتعارض المصالح مع المبادئ يومًا، وإنَّ العالِمَ هو حارس المبادئ والعقائد والقيم، فإذا سكت عن المساحة التي ينصر ببيانها الحق ويرد الباطل لبَّس علىٰ الناس دينهم، وشوش عليهم عقيدتهم.

ومن هنا قال الشيخ عبد العزيز الطريفي فرج الله عنه: إذا سكت العالم التبس الحق بالباطل، وإنَّ سكوتَ العالم عن المنكر مع قدرته علىٰ إنكاره شبيهٌ بالتأييد المنطوق، فقد ذم الله أحبار اليهود علىٰ السماع والسكوت فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة: ٤٢].

ولهذا المعنىٰ أخذ الإمام أحمد بن حنبل موقفًا فاصلًا تجاه علماء بغداد الذين أجابوا في فتنة القول بخلق القرآن، فهجرهم، مع أنَّ الرخصة قد تسعهم، وما ذلك إلا لأنَّ أعينَ الناس معقودةٌ بهم، وإنَّ سكوتَهم يُوقِعُ الناسَ في غياهب

الشبهات والشكوك، فلو كانوا قد وقفوا وقفةَ رجلٍ واحدٍ لقُتلت الفتنةُ في مهدها.

أما الشكل الورديُّ لجهد بعض الدعاة والعلماء بأن يتنقل من محاضرةٍ إلىٰ أخرىٰ أو من كتابٍ إلىٰ آخر وما يتجاوز في ذلك المساحة الآمنة التي لا يمسه فيها سوء.. فإنه تبليغٌ مجتزأ لدين الله، وسوء عرضٍ لكلمة الله.

بل ربما كان يجتهد ألا يستعديَ أحدًا في الغرب أو الشرق، عبر حصر نفسه في دائرة الآداب والأخلاق، لكن بدل أن يكون منزعه العقل أو أثارةً من حكمةٍ تنسب للكتب السابقة.. فإنه يستدل للمعنىٰ المتفق عليه بين الأمم من الكتاب والسنة، ويبقىٰ في ذهولٍ عن وظيفةِ العالِم التي أخذ الله الميثاق علىٰ أهل العلم بأدائها وسط كلمات الثناء التي تنهمر عليه من الجماهير؛ لأنه ما اقترب من الخطوط الحمراء لأي أحد.

وأشار الشيخ عبد العزيز الطريفي إلىٰ هذا الصنف فقال عاتبًا: «**لا يحفظ الإسلام عالمٌ ترك بيان الأمر والنهي واشتغل بفضائل الإسلام كالذكر والأدب، استأمنه الله علىٰ حماية الدين، فحرس نوافذه وترك أبوابه**».

وبهذا الذي تقرر تعلم أنَّ المساحةَ الآمنةَ هي الجسر الذي يتردىٰ عبره المشتغل بالعلم والدعوة ليهوي في قاع العلمانية، وقد أحسن الأستاذ وائل الشيخ أمين إذ قال:

إنَّ العلمانية هي إقصاء الدين عن الحياة العامة، أو جعله خادمًا لأهواء البشر وآرائهم لا حاكمًا عليها، ولذلك عندما تسمع من يقول لك: فلانٌ عالمٌ لا دخل له بالسياسة.. فاعلم أنها علمانية علماء.

وإذا رأيت عالمًا له مئات الساعات من المحاضرات، وله عشرات الكتب، وهو في كل ما يقول ويكتب بعيدٌ عن شئون الناس العامة وهمومهم ومشاكلهم.. فاعلم أنها علمانيةُ علماء.

وإذا رأيت العالم يسير وفق رغبات الناس أو أهواء السلاطين.. فاعلم أنها علمانية علماء.

وإذا رأيت من يُقيِّمُ العالم بناءً على إتقانه لعلمه الشرعي، ولا يطلب منه أي مشاركةٍ في الحياة العامة.. فاعلم أنها علمانية علماء.

وإذا رأيت مدرسةً أو جامعةً إسلامية تعلم طلابها مواد الدين التراثية، ولا تعلمهم شيئًا من فهم الواقع وأدواته.. فاعلم أنها علمانيةُ علماء.

علمانيةُ العلماء ظاهرةٌ خطيرةٌ جدًّا؛ لأنَّ العالِمَ رمزٌ وقدوةٌ للكثيرين، واهتماماته ستنعكس على اهتمامات أتباعه، مما يجعل المتدينين بعيدين عن السياسة والأمور العامة، فتحققت بذلك العلمانية في الواقع بشكل ربما لا يستطيع دعاةُ العلمانية المجاهرون بها أن يحققوه. ا. هـ.

ولا يعني هذا أبدًا ألا نستفيد من هؤلاء الأفاضل، أو أن نرضى بالنيل منهم، كلا ثم كلا؛ بل نأخذ عنهم، ونحفظ لهم حرمتهم، ونداقع عنهم، ونلتمس لهم العذر بعد العذر، وندعو الله أن يرفع قدرهم ويحفظ لهم جهدهم، ويتقبل منهم؛ فإنا لا نعالج خطأهم بخطأ، وإن الكلام هنا عن المنهج لا عن حامله، وإنا والله لنشتهي أن لو تصدوا لنصرة الحق كما تصدوا لتبليغ العلم والهدى؛ لشدة التبعات التي تنتج عن تلك الظاهرة المقيتة.

فما القصد هنا إلا حفظ الحق ولو عاتبنا بعض حملته، وقد أحسن الشيخ سليمان بن ناصر العبودي إذ قال: لا يجوز أن تضيع الحقائق العلمية باسم الحفاظ على مكانة الرجال؛ فالأمانة التي ترثها الأجيال القادمة منا هي الحقائق العلمية وليست جثامين حملتها.

ثم إنَّ فرض الكلام فيمن يحسن الكلام في ذلك، أما من لا يحسنه وكان قائمًا على ثغرٍ حسنٍ.. فجهده مبرور وسعيه مشكور، والأمر فيه أهون، ولكن

ينبغي له أن يتعاطىٰ الأسباب التي تؤهله للقيام بأمر الله؛ لأن أثر الظاهرة شديد.

وقد جادت قريحة الشيخ عبد العزيز الطريفي برزمةٍ من التغريدات في التعقيب علىٰ هذه الآفة، ومن ذلك قوله:

«ظهر الاضطراب في الأمة يوم أن اعتقد السلطان أنَّ العلمَ لا يعنيه، واعتقد العالم أنَّ السلطةَ لا تعنيه، فاختل معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩].

«مهمة العالم ليست لحفظ العبادة ونشرها فحسب؛ بل لحفظ الدين وإصلاح الدنيا؛ فشعيب جاء لإصلاح ظلم الأموال، ولوط جاء لإصلاح الفطرة والأخلاق».

«مهمة العالم إصلاح دين الناس ودنياهم، وإلا فهو قاصر، قال ابن عبد الهادي: العامة تحب ابن تيمية؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا بلسانه وقلمه».

وتكلم عن نفس الآفة ومن يروج لها مقتنعًا بأفكارها فقال:

«نشأ فصل الدين عن السياسة في الغرب؛ لأنَّ دينَهم فاسدٌ وسيفسد السياسة، ونشأ الفصل في الشرق؛ لأنَّ السياسيَّ فاسدٌ والدين يفسد عليه سياسته».

من يقول: لا علاقة للدين بالسياسة يعبد إلٰهين: واحدًا في السماء، وواحدًا في الأرض، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

«خلق الله الإنسان ودنياه ثم يقول لربه: لا يدخل دينك في دنيانا، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل: ٤].



أما ما يتعلق بضريبة بيان الحق والخشية من سطوة سلطانية قاسية بعده؛ فقد تناولها برزمةٍ أخرىٰ من التغريدات، ومن ذلك قوله:

«أيها المصلح: أراد الله أن يحفظ دينه بك لا أن يحفظ دنياك بدينه، فإن ضاع شيء من دنياك في سبيل دينك فهذا هو عقدك مع ربك؛ فقد اشترىٰ نفسك منك».

«البحث عن سلامة النفس مبدأً خاطئ، والصواب البحث عن سلامة المبدأ، فإن سلمت النفس بعد ذلك فذلك نعمة، وإن لم تسلم فذلك ابتلاء».

«في المحن والشدائد يطلب الكثير منهج السلامة بينما يطلب الصفوة سلامة المنهج، وبهذه الصفوة يحفظ الدين وتنصر الملة».

«الصادق لا يضره من رجع من أتباعه خلفه، ولا من سقط من متبوعيه أمامه؛ لأنَّ بصرَهُ إلىٰ السماء ليس إليهم».

«أكثر الناكصين عن الحق اعترض البلاء طريقهم فغيروا مسارهم، فقدموا سلامة النفس علىٰ سلامة الحق، ثم سموا مسارهم الجديد تصحيحًا ومراجعة».

ومن هنا فإنَّ من السخافة والعار أن يقضي المرءُ عمرَهُ في الدعوة أو العلم ثم يغيِّرُ جِلدَه إن غيَّر الكبراء مواقعهم وجارىٰ أهواءهم، ثم يأخذ في تبرير صنائع الظلمة، ولا يكتفي بذلك بل يعتذر عما أداه سلفًا من الدعوة والعلم والبلاغ.

أين الغيرة علىٰ الدين؟ ولماذا التلبيس علىٰ المسلمين؟ وأين شكر نعمة الله إذ جعل القلوب تنعقد علىٰ حبهم وما عليهم إلا البلاغ المبين!.

هل جهل العالمُ دوره في الأمة، وموقعَهُ في نصرة الشريعة؟ أم اكتفىٰ بما يأتي به سبيلُ العلم من الثناء والجاه والمكانة؟![1].

---

(١) أوصي بتكرير السماع للحلقة الحوارية مع الشيخ عبد العزيز الطريفي بعنوان: «دور العالم في الأمة» وهي منشورةٌ علىٰ الشبكة بعنوان: لقاء الجمعة مع الطريفي.

فإن قيل: إنَّ الرخصة الشرعية تتسع لهؤلاء في أزمنة الاستبداد ومواطن الشدة؟ قلت: هذا صحيح، لكنَّ السطوة المحتملة إن أجازت السكوت عن الحق فلا تجيز النطق بالباطل، فضلًا عن أنه لا يجوز أن يتواتر علماء البلد علىٰ السكوت عن الحق، فيجب أن يبقىٰ من يبين للناس أمر دينهم، ولا يغشهم أو يدلس عليهم، ويتكلم بالعبارات الموهمة.

خذ هذه الجرعة المركزة في بيان هذه المسألة وما يحتف بها ويتممها من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه قال:

«فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه؛ ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فبقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه؛ إما أن يُظهِرَ دينَهُ وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم علىٰ دينهم كله؛ بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقًا لهم علىٰ جميع دينهم ولا كان يكذب ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه؛ بل كان يكتم إيمانه، وكتمان الدين شيءٌ، وإظهار الدين الباطل شيءٌ آخر، فهذا لم يبحه الله قط إلا لمن أكره بحيث أبيح له النطق بكلمة الكفر»[1].

واعلم أنَّ الصدح بالحق لا يعني الإخلال بفقه الدعوة؛ بحيث لا ينتصر للحق إلا بالشدة علىٰ المخالف والقدح فيه، والتنصيص علىٰ اسمه والتشهير به، كلا؛ فإنَّ الغايةَ بيانُ الحق، والنبي ﷺ عالج أمر أقوام دون أن يسميهم، وقد يلزم شيءٌ من ذلك في مواطن، لكن الذي يبقىٰ معتَمدًا فقهُ الطرح، وتحليه بالحُجَّةِ ومشاعر الشفقة وقواعد الحكمة ومكارم الأدب.

فهذا الإمام الشافعي يولد في جوف دائرة الخلاف بين مدرسة الحديث ومدرسة أهل الرأي، ويعيش في أجواء معارك شرسةٍ بين رجال المدرستين، وما

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٦/ ٢٩٨).

زال الناس يحفظون بعض معالمها إلىٰ اليوم، وتربىٰ الشافعي في مدرسة الحديث وتأهل ثم خاض المعركة، وناظر أكابر الرجال، ولم يكتف بالمساحة الآمنة، بل دخل المواطن المخوفة، لكن هدفه لم يكن القضاء علىٰ خصومه؛ وإنما تعظيمهم في الذي أحسنوا فيه، وأخذه عنهم، وتقريبهم للحق الذي يرىٰ، بالحكمة والموعظة الحسنة.

وبدأ مشروعه الإصلاحي بتصنيف كتابه «الرسالة»، الذي قرَّب به مدرسة الرأي من الحديث، ومدرسة الحديث من الرأي، وعالج به اضطراب مرجعية الاستدلال والاحتجاج عند الفريقين، والتي كانت تتسبب في عدم تحرير محل النزاع في المسائل، عبر تدوين القواعد الأصولية التي شاء الله فيما بعد أن تُحمَىٰ بها النصوصُ من هجمات اللصوص.

ولما زار العراق أخذ عن إمامها الأكبر محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، وبدأ يأخذ عنهم ويرد عليهم!، وشرع في سلسلةٍ من الردود فيما بعد.

فكتب كتابه «الرد علىٰ محمد بن الحسن» ذكر فيه المسائل التي اختلف فيها معه، في مناظراتٍ علمية قويةٍ تعتبر أقدم ما وصل إلىٰ زماننا في الفقه المقارن.

وكتب كتابه «إبطال الاستحسان» ردًّا علىٰ أهل الرأي الذي يأخذون به.

وجمع المسائل التي خالف فيها فقهاء العراق عامة وفقهاء الحنفية خاصة عليَّ بن أبي طالب وابن مسعود، وهما المرجع الأعلىٰ للفقه العراقي، وكتب كتابه «اختلاف عليٍّ وابن مسعود».

وكتب كتابه «اختلاف العراقيَين» وكان أصله من تصنيف أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة، ذكر فيه المسائل التي اختلف فيها مع شيخه، فجاء الشافعي وأعاد التصنيف وقرر اجتهاده ورجَّح.

وألف كتابه «سير الأوزاعي»، وأصله أنَّ أبا حنيفة كتب كتابًا في الجهاد،



فاستدرك عليه الأوزاعي في كتاب، فانتصر أبو يوسف لشيخه أبي حنيفة وردَّ عليه بكتاب، فجاء الشافعي وناقش اجتهادات الثلاثة، وقرر رأيه بالدليل، وانتصر للأوزاعي في أكثر المسائل.

ولما ذهب إلىٰ مصر وجد من الظروف ما حمله أن يتتبع المسائل التي حصل فيها اضطرابٌ عند الإمام مالك في الاستدلال بالأحاديث والاحتجاج بها، فكتب كتابه «اختلاف مالك والشافعي»، مع أنه التلميذ الأشهر للإمام مالك.

ولعلَّ القارئَ يعجب من هذا الاقتحام المتكرر للشافعي في ظروفٍ حرجةٍ من الخلاف الشرس بين رجال المذاهب، مع أن المستفيض من سمعة الإمام الشافعي تحليه باللطف والأدب، لكن الشافعي كان من النوع الذي لو اضطر إلىٰ أقسىٰ قول.. فإنه يعرضه بألطف طرح، مع أدبٍ وحكمةٍ وحجةٍ وشفقةٍ وتعظيمٍ لقائله، وعندئذٍ يقع كلامه موقع التسليم.

فمن نظر إلىٰ عناوين كتبه والباعث عليها ثم وجده يقول: «الناس في الفقه عيالٌ علىٰ أبي حنيفة»، و«إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمن علي من مالك بن أنس»، و إني لأعرف الأستاذية عليَّ لمالكٍ ثم لمحمد بن الحسن، وقد حملت عن محمد بن الحسن وِقْرَ بعير ليس عليه إلا سماعي منه».. عرف لم ساد الشافعي في زمانه وبعد مماته!.

وقبل أن نوقف مداد القلم في خطِّ هذا المطلب الذي عنوانه «علمانية العلماء» أراني أنصح لك نصحًا خاصًّا ليس علىٰ سبيل الإلزام؛ ولكن علىٰ سبيل التأكد الشديد الذي لا يفصله عن الإلزام والوجوب إلا شعرة؛ وهو أنك لا تستفد من أحدٍ من الأمراء والكبراء والجماعات مالًا هبةً ولو قل.

وسبب هذا بقلم الشيخ الطريفي: أنه ما من إحسان علىٰ الإنسان إلا وله ثمنٌ لا بد أن يؤديه ولو آجلًا، فينبغي للعلماء الحذر من عطاء من لا يرجو الله،

ولن يستطيع أحدٌ كبح نفسه عن دفع ثمن الباطل إلا أولو العزم وأشباههم من العلماء؛ ففرعون طالب موسىٰ بثمن إحسانه القديم، فأمره أن يترك الحق، قال تعالىٰ علىٰ لسان فرعون لموسىٰ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء: ١٨]، ربوه أربعين سنة ولكن أبىٰ أن يدفع ثمنها السكوت عن الحق، فضلًا عن دخول في الباطل.

فالتقط الإشارة؛ لئلا يقال لك يومًا: ألم نربك فينا وليدًا!.

المطلب السادس
التشتت

إنَّ التشتتَ آفةٌ فتاكةٌ لكنها خفيةٌ لا أنيابَ لها؛ لأنَّ صاحبَها لن يعدم تبريرًا لما هو فيه، ولكن إذا أخذنا نُفَتِّشُ في ملف الإنجاز ظهرت الكآبة على الوجوه، وارتد البصر خاسئًا وهو حسير.

وقد تَقَدَّمت بعضُ جرعاتِ علاج هذه الآفة عند الحديث عن التركيز آنفًا في غير موضع، ونركز الآن على طرفٍ من مظاهر الآفة مقترنًا ذلك بعلاجٍ مقترح، ومن ذلك الأربعة الآتية:

أولًا: تشتت البال لكثرة الأشغال، والمبتلى بذلك ينبغي أن يعي أنه لا يتم له حفظٌ ولا ضبطٌ ولا إنتاجٌ معرفي إلا بتجريد الفكر في جهة الطلب[1]، وجمع الهم على تحصيل المرام، ولهذا لما سُئِلَ أبو حنيفة: بم يستعان على الفقه حتى يُحفظ؟ قال: بجمع الهم[2].

ويمكن الاستعانة على توفير الهم بأن تجعل وقت الأوراد خالصًا لها، لا يزاحمها فيه شيء، ومتى أراد قُطَّاعُ الطرقِ أن يفرقوا دم وقتك بين القبائل والشواغل.. تفننت في التفلت منهم.

ثانيًا: إدمان النظر في وسائل التواصل الاجتماعي، والتردد على المجالس الجدلية أو الخالية من فائدةٍ معرفية؛ فإن ذلك يسرق صفاء العقل وجمع الفكر،

(١) البرهان في أصول الفقه للجويني (١/ ١٢١).
(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٤٤٦).

وقد حلف ابن الجوزي علىٰ ذلك فقال: «والله لا يجتمع الهم والعين تنظر إلىٰ الناس، والسمع يسمع حديثهم، واللسان يخاطبهم، والقلب متوزعٌ في تحصيل ما لا بد منه»[1].

واعلم أنَّ هذه الظاهرة لا تحتاج إلىٰ كثير إفادةٍ بقدر ما تحتاج إلىٰ قرارٍ فوريٍّ حازمٍ منك، كأن تقرر ألا تحضر مجلسًا إلا حيث انتفعت به، وإن اضطررت لما لا كثير نفع فيه.. فقلل تفاعلك فيه.

واجعل لك ساعةً معلومةً في يومٍ معلومٍ أو يومين من كل أسبوع لمتابعة الأخبار ووسائل التواصل، خاصة أنَّ البرامج الهاتفية الحديثة تُجمِّع لك عامة الرسائل في موضعٍ واحد، فيسهل النظر فيها في وقتٍ قليل، كما في برنامج الواتس والتليغرام.

فإن قيل: إنَّ طالبَ العلم مطالبٌ بفهم واقع الناس.. قلت: هذا صحيح، ومن القصور المنهجي الخطير ظن الطالب أنَّ أوراد الطلب تكفيه في معالجة نوائب الناس، لكنَّ الذي نوصي به ألا تُنفِقَ من الوقت إلا ما تحتاجه في تحصيل ذلك الغرض، مع حسن اختيارٍ للمجالس والمواقع التي يتحقق بها ذلك.

علىٰ أنك إذا كنت معتنيًّا بذلك فيمكن أن تُحصِّل إشارات تنفعك بقليلٍ من الجهد، وذلك عبر مجالسة أهل الاختصاص في كل جانبٍ وثغر.

ومما مرَّ بي من ذلك أني دُعيت لمحاضرةٍ في السجن المركزي فسألت المدير عن خلاصة تصوره لحياة أصحاب الجنايات، فقدم لي سطرًا دقيقًا ما أظن أني كنت أبلغه بعشرين جلسة مع الناس.

وجالست مدير دوائر الإصلاح بين الناس فأفادني بدقائق من أحوال الناس في باب المشاحنات والخصومات، وأشهر القضايا التي ترشح علىٰ السطح.

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص (١٢٠).

وكنت في معالجةٍ منبرية لأمر يتعلق بباب الأحوال الشخصية فاتصلت بدار القضاء وسألتهم عن عدد حالات الزواج والطلاق في المدينة التي أسكن، وتحقق المقصود.

وسألت أحد المختصين أن يزودني بالإفادات التي أدلىٰ بها من حاول الانتحار؛ للوقوف علىٰ الأسباب الحقيقية التي تؤزهم علىٰ ذلك، فيتيسر عندئذٍ العلاج ويجود الطرح.

وغير ذلك مما يُمكن أن تُحَصِّلَه في وقتٍ يسير، وهو وإن لم يكن كمن عايش الناس إلا أنه إذا انضمَّ للحالات المحدودة التي تقف عليها بنفسك يهب إضاءاتٍ تُبْصِر بها ما تشتد الحاجة إليه في الطريق.

ثالثًا: فتح عدة جبهات في آنٍ واحد، وهذا مآله التوقف والتقهقر، شئت هذا أو أبيت، برَّرتَ له أو اقتنعت، وإن لم تستدرك الآن بالتركيز علىٰ جبهةٍ أو جبهتين.. فإنك ستخرج كرهًا لا طوعًا، وستذكر هذا الكلام حين تنفر نفسك من جبهةٍ بعد أخرىٰ، وتصير تعجب من رغبة النفس عن الشيء بعد فرط رغبتها فيه.

ولهذا إذا ولجت جبهةً فلا تغمد سيفك إلا وقد أنهيت علىٰ المقصود، ولا يتبعثر جهدك بين الجبهات، فإذا بدأت كتابًا فأتممه، وإذا افتتحت مشروعًا فلا تقطعه؛ فإن التنقل من مقامٍ إلىٰ آخر يمرض النفس ويورث الضجر واليأس، أما الإنجاز فإنه من خير الوسائل الفعالة لاستعادة فاعلية النفس وإقبالها واندفاعها إلىٰ الكمالات والفضائل.

رابعًا: أن يشعر المتفقه أنه تائه لا يعرف أين يقف ولا من أين يبدأ ولا إلىٰ أين سيذهب؟.

وهذا شعورٌ لو طال يقود إلىٰ اليأس، وأهم صفةٍ في العلاج الانغماس في العمل وعدم الوقوف كثيرًا عند التشخيص والخطط، أما مادة العلاج فينظر:

إذا كان الطالب قد حدَّد تخصصه ولكن أربكته البرامج أو تشوشت الرؤية لديه.. فإنَّ الأسلم له -وإن كان قاسيًا عليه أن يسمعه- أن يبدأ من الصفر، فيذهب إلىٰ المعراج العلمي للفن الذي يريد الإمامة فيه، وينظر في خطة مراحله الثلاث، ويبدأ القراءة الجردية الأولىٰ لعامة كتب المراحل، دون قفزٍ أو إخلال أو انحراف، مع موازاة ذلك بحفظ متنٍ فيه، والتركيز علىٰ أهم كتابٍ في المرحلة الأولىٰ فيحفظ ثلاث مسائل منه في كل يوم، فتكون له ثلاثة أوراد في هذا الفن.

أما برنامج التلقي في العلوم الأخرىٰ؛ فإنه يبدأ برزمةٍ من الكتب تعد مدخلًا عامًّا إلىٰ العلوم الشرعية، وسيأتي تفصيلها في الفصل القادم تحت عنوان: الحقيبة التمهيدية.

فإذا أنجزها أخذ يدرس أهم كتابٍ في المرحلة الأولىٰ من كل فن، وسيأتي تفصيل هذه الكتب والتنصيص عليها في الفصل القادم تحت عنوان: الحقيبة التأسيسية.

وبهذا تكون مجمل أوراده أربعة: الأول: لحفظ المتن، والثاني: لاستظهار الكتاب الأهم في المرحلة الأولىٰ وضبطه، والثالث: للقراءة الجردية لمعراج الفن كاملًا، والرابع: لكتب الحقيبة التمهيدية، يُتبِعُهَا بكتب الحقيبة التأسيسية.

وإذا لم يكن الطالب قد حدد تخصصه؛ فإنه ينجز ما استطاع من كتب الحقيبة التمهيدية ثم الحقيبة التأسيسية، ثم عليه أن يقف ويحدد، فإن بقيت الرؤية ضبابيةً عنده لم يطل الوقوف وأقبل علىٰ كل فنٍّ يكمله حتىٰ مرحلته الثانية أو الثالثة، مبتدئًا من علوم الآلة ما استطاع؛ وذلك لأنَّ طالبَ العلم لا بد وأن يهضم عامة العلوم الشرعية واللغوية بمراحلها الثلاث، فلا ضرر عندئذٍ من سيره هذا.

وإذا اتضحت الرؤية أثناء المسير وحدَّد التخصص.. جعل وقته علىٰ شطرين: شطر للعناية بتخصصه والتبحر فيه، وشطرٌ للعناية بالعلوم الأخرىٰ علىٰ التعاقب، كلما أنجز علمًا قصد الذي يليه.

علىٰ أنه في ترتيب خروجه من الارتباك في الأوراد والتشتت فيها ينبغي أن يوازن بين خطته الشخصية ودروس أهل العلم في بلده، فيجتهد ألا يزيد من الدروس علىٰ حساب حُسنِ الفهم وجودة الضبط، وقد يحتاج إلىٰ الانتساب إلىٰ دروسٍ جديدة تفرضها الخطة، أو الانسحاب من دروس قائمة.

وحذار من كثرة الاستشارة والنظر في المنهجيات والخطط؛ فإنَّ هذه الأمور اجتهادية بين المشتغلين بالعلم، وجُلُّهَا يُبَلِّغُ الغاية، ولو أنك أخذت بكل منهجيةٍ تُقترح لك.. لاجتمعت عليك البرامج ومباني الخطط، فنفرت ولم تقبل أو تفعل.

ولهذا إذا وعيت ما تقرر، فابدأ في خطِّ خطةٍ لك، بإمرار النظر في هذا الكتاب وما علىٰ شاكلته، لتحدد أورادك، وتطلع علىٰ منهج الحفظ والقراءة، فإذا تمت خُطَّتُك أقبلت علىٰ التنفيذ وهجرت النظر في الخطط.

وليكن همك الأكبر هو الضبط، ومنهجك الأعظم هو التركيز، ومن انقطع إلىٰ شيءٍ ضبطه، وإذا اجتمع صفاءُ القلب مع صفاءِ العقل فثمة الإبداع.

فإن وجدت نفسك عقب هذا كله ما زلت في اضطرابٍ وفتورٍ.. فاشحن نفسك بالقراءة في كتب التراجم وسير الأئمة، والزم باب ربك وألح عليه أن يفتح عليك، واقصد رجلًا عارفًا بمدارج الطلب؛ ليخط لك برنامج السفر في رحلة الطلب.

والله يتولاك ويرعاك.

أسأل الله جل جلاله بعزته وجلاله وعظمته وكماله وبأسمائه الحسنىٰ وصفاته الفضلىٰ أن يفتح لك الأبواب والسبل، وأن يمن عليك بغيث التوفيق، وأن يهبك علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملًا متقبلًا، وأن يهديك للتي هي أقوم، في العلم والعمل والدعوة والتعبد والجهاد، وأن يجعلك من أئمة الدين، ونَصَرةِ المستضعفين، وأن يجمع لك وفيك من الفضائل والفواضل ما تفرق في غيرك من

الأفاضل، وأن يثبتك ويقوي قلبك وعزمك ويرزقك اليقين ويحميك من الدنيا وزينتها وآفاتها، ويجعلك من حراس الشريعة في الأرض، وأن يعافيك من أدواء القلوب وأمراض الأبدان، إنَّ الله علىٰ كل شيءٍ قدير، وبالإجابة جدير.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.





إضاءات منثورة

بعد أن توقف القلم عند نهاية المادة النظرية من هذا الكتاب.. كانت رزمةٌ من الكلمات والأفكار قد تجمعَّت عندي، فرددت بعضها إلىٰ مواضعه من الكتاب، وآثرت سرد الباقي دون ردِّهِ وإن لم يجمعه موضوعٌ واحد، وهاك سَطْرَه بين يديك:

قال ابن القيم: إنَّ السعادةَ الحقيقية هي سعادةُ العلم النافع، وهي سعادةٌ روحيةٌ قلبيةٌ نفسانية، وإنها الباقية علىٰ تقلب الأحوال، والمصاحبة للعبد في جميع الأسفار، وفي دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وبها يترقىٰ في معارج الفضل ودرجات الكمال.

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها.. لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّت بحجابٍ من المكاره، وحُجِبوا عنها بأسوارٍ من الجهل؛ ليختص الله بها من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم[1].

* * *

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: كم أماتت رغبةُ الكمال إنجازَ كثيرٍ من جليل الأعمال، كما أمات التراخي والتسويف كثيرًا من فرائد التأليف![2].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٠٨-١٠٩). بتصرف يسير.
(٢) الرسول المعلم وأساليبه في التعليم لعبد الفتاح أبو غدة ص (٦).

أنشد الإمام ابن حزم الأندلسي قائلًا:

مُنَايَ مِنَ الدُّنْيَا عُلُومٌ أَبُثُّهَا ... وَأَنْشُرُهَا فِي كُلِّ بَادٍ وَحَاضِرِ

دُعَاءٌ إِلَى القُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... تَنَاسَى رِجَالٌ ذِكْرُهَا فِي المَحَاضِرِ

وَأَلْزَمُ أَطْرَافَ الثُّغُورِ مُجَاهِدًا ... إِذَا هَيْعَةٌ ثَارَتْ فَأَوَّلُ نَافِرِ

لأَلْقَى حِمَامِي مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرِ ... بِسُمْرِ العَوَالِي وَالرِّقَاقِ البَوَاتِرِ

كِفَاحًا مَعَ الكُفَّارِ فِي حَوْمَةِ الوَغَى ... وَأَكْرَمُ مَوْتٍ لِلفَتَى قَتْلُ كَافِرِ

فَيَا رَبِّ لا تَجْعَلْ حِمَامِي بِغَيْرِهَا ... وَلا تَجْعَلَنِّي مِنْ قَطِينِ المَقَابِرِ(١)

* * *

يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي فرَّج الله كربه:

رأيت شابًّا جاهلًا في أول طلبه يقصد صاحب هوىٰ يريد الانتفاع به، فحذرته منه، فقال: إنه إناءٌ مليءٌ علمًا، فقلت له: صدقت، هو فنجان، وأنت نملة فتراه كجبل أحد، ولو كبرت علمًا رأيته كما هو، ولكنك لصغرك وضعفك ترىٰ كبره وقوته عليك لا في العلم والمعرفة!(٢).

* * *

المخلص لربه كالماشي علىٰ الرمل، لا تسمع خطواته ولكن ترىٰ آثاره.

* * *

يقول الشيخ فيصل المنصور في جملةٍ من التغريدات:

متىٰ وجدت أن نهمك في شِرَىٰ الكتب أشدُّ من نهمك في قراءتها والانتفاع

---

(١) الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي ص (١٧).

(٢) المغربية في شرح العقيدة القيروانية للطريفي ص (٢٨١).

بها.. فاعلم أنك قد بدأت تنحرف عن جادة العلم إلى هواية الجمع والمفاخرة.

لا بد لطالب العلم مهما بلغ فهمه وقوي عزمه من صاحبٍ معين، وقد ذُكر أنَّ سيبويه قال لصاحبٍ له بعد موت الخليل: تعال نتعاون على إحياء علم الخليل.

قال عيسى بن عمر شيخ سيبويه [ت: ١٤٩ هـ]: ما زلت أكتب حتى انقطع سوائي؛ أي وسطي، وبمثلِ ذلك صاروا علماء!.

إن استغلقت عليك اليوم مسألة فلا تيئس من معاودتها؛ فلعلها تُفتح لك غدًا، يقول ابن جني: راجعت أبا علي -أي: الفارسي- نيفًا وعشرين سنة في مسألة حتى تبينت لي!. قلت: هذا في مسألة؛ فكيف في المفاهيم التي يندرج تحتها ما لا يحصى من المسائل والتطبيقات!.

الاستغراق في بحث المسائل الدقيقة يجعل المرء أعلمَ الناس بها، ولكنه قد يصبح مع ذلك أجهلَ الناس بكل ما سواها.

المذاكرة للاختبارات تكشف عن عجيب قدرة الإنسان على القراءة والحفظ متى ما صحَّ منه العزم؛! ذلك بأنَّ كثيرًا من الطلاب يستطيع أن يستظهر في ليلة الامتحان عشرات الصفحات، وربما مئاتها! فكيف لو استمرَّ على ذلك عامّة دهره؟!»".

* * *

من أقوال الشيخ سليمان بن ناصر العبودي التي ذكرها في كتابه «المِرقاة»:

حين تمتلك الأرضية العلمية لعلمٍ ما تستطيع أن تبني فوقها بنيانًا من المعارف بيسرٍ وسهولة.

الفوارق بين الناس فيما يتعلق بضبط المعرفة تتعلق غالبًا بمدى تهيئة الأرضية العلمية، وليست متعلقة بالفوارق العقلية، فعلى طالب العلم أن يجتهد

في فتح الخزانة قبل جمع الثروة.

من نعم الله على الطالبين أن جعل في كل حقلٍ معرفيٍّ قواعد جامعةً تطوق أطرافه وتلم شعثه.

الضوابط والقواعد لا تقتصر مطلقًا على ما يسميه العلماء قواعد كالقواعد الفقهية وقواعد الصفات؛ وإنما لا تنتثر حبات الفروع في أي حقلٍ إلا من خيط قاعدةٍ كلية.

الإشارة إلى اتحاد النبع مع اختلاف الأُكل معنىً ثابتٌ في الوحي، وهو مستقرٌّ في بدائه العقول، ومتناثرة في كلام أهل العلم.

لو رأى الأئمة والعلماء الذين تركوا خلفهم تراثًا هائلًا ما انهمك فيه المُلَحيُّون من نتاجهم لارتفعت حواجب دهشتهم، فهم كمن بنى قصرًا مشيدًا لقوم فوجدهم قد افترشوا عتبة بابه.

كثيرًا ما ينسى المدافع عن المُحكَمَات طبيعة عمله، ويُذهل عن حقيقة كونه مجرد ساعي بريد لرسالةٍ لم يكتبها، فيمسي سمسارًا يخفض ويزيد في السلعة وثمنها ملتمسًا رضا الزبائن!.

كان صبيغ بن عسل لافتًا على الساحة الثقافية في القرن الأول، وكان يلقي أحجارًا في مياهٍ راكدة، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعيد الركود بالدرة لتلك المياه التي حرَّكها صبيغ.

السنة الماضية أنه حيثما تمددت (الأنا) على أديم قلبٍ بشريٍّ انكمشت فيه ضراعة الاهتداء والائتساء[1].

* * *

(١) هذا قليل من كثير من الأقوال المنتخبة من الكتاب، منشورة على موقع صيد الفوائد بعنوان: «خلاصاتٌ منتخبة من كتاب المرقاة»، وهذا رابطها: https://www.saaid.net/Doat/wadah/٨٨.htm

قال ابن حزم: لقد بقينا سنين كثيرة لا نعرف الاستدلال ولا وجوهه، ونحن ولله الحمد في غاية اليقين بدين الإسلام، وكل ما جاء به محمد ﷺ، نجد أنفسنا في غاية السكون إليه، وفي غاية النفار عن كل ما يعترض فيه بشك.

ولقد كانت تخطر في قلوبنا خطرات سوء في خلال ذلك ينبذها الشيطان، فنكاد لشدة نفارنا عنها أن نسمع خفقان قلوبنا استبشاعًا لها كما أخبر رسول الله ﷺ إذ سُئِلَ عن ذلك فقالوا له: إنَّ أحدنا ليحدث نفسه بالشيء ما أنه يقدم فتضرب عنقه أحب إليه أن يتكلم به فأخبر رسول الله ﷺ بأنَّ ذلك محض الإيمان، وأخبر أنه من وسوسة الشيطان، وأمر ﷺ في ذلك بما أمر به من التعوذ والقراءة والتفل عن اليسار.

ثم تعلمنا طرق الاستدلال وأحكمناها ولله تعالىٰ الحمد، فما زادنا يقينًا علىٰ ما كنا، بل عرفنا أننا كنا ميسرين للحق، وصرنا كمن عرف وقد أيقن بأنَّ الفيل موجود سماعًا ولم يره ثم رآه، فلم يزدد يقينًا بصحة نيته أصلًا، لكن أرانا صحيح الاستدلال»[(١)].

* * *

قال عبد الرحمن بن مهدي: «لا يكون إمامًا في العلم من يُحدث بكل ما سمع، ولا يكون إمامًا في العلم من يحدث بالشاذِّ من العلم»[(٢)].

* * *

كان إسماعيل بن رجاء يجمع صبيان الكُتَّاب يحدثهم؛ يتحفظ بذاك[(٣)].

* * *

قال ابن القيم: «للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها؛ ثلاثة سافلة وثلاثة عالية.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤/ ٣١).

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٩٢).

(٣) سنن الدارمي، رقم الأثر: (٦٢٩).

فالسافلة: دنيا تزين له، ونفس تحدثه، وعدوٌّ يوسوس له، فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها.

والثلاثة العالية: علمٌ يتبين له، وعقلٌ يرشده، وإلهٌ يعبده»[1].

* * *

قال الإمام جمال الدين القاسمي: المكسال شيخ في شبابه؛ لأن دقيقة البطالة أطول من ساعة العمل.

* * *

اجعل لك وردًا في قراءة كتب السنة كما لك وردٌ في قراءة القرآن الكريم.

* * *

للمتخصص فضلٌ علىٰ المتفنن بضبط العلم وتحقيقه، وللمتفنن فضلٌ علىٰ المتخصص بفهم الإسلام الشامل، والخير في الموازنة بين التخصص والتفنن قدر الوسع.

* * *

لا بد وأن يعترض سبيل طالب العلم بعض الأبواب الصعبة من العلم؛ كقنطرةٍ تميز الصادق فيه من الدخيل عليه.

* * *

لحكمةٍ يريدها الله قل أن تجد طالبًا إلا وتعنىٰ في مبادئ الطلب ثم فُتِح له.

* * *

(١) الفوائد ص (٩٩).

أفاد ابن عاشور أن أطوار دراسة أي علم أربعة:

الأول: ضبط مسائله والتسليم بها.

الثاني: ربط المسائل ببعضها، وربط العلم نفسه بالعلوم الأخرىٰ.

الثالث: البحث في الأسرار والعلل.

الرابع: تحقيق مسائل العلم وتحريرها[١].

* * *

قال الدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ:

«المنكر ذو طبيعةٍ متعدية، فإن لم تغيِّره.. غيَّرك»[٢].

* * *

من أهم مرتكزات تحصيل الرسوخ العلمي فهمُ المعلومات وحفظها وتبليغها واستثمارها والتوثق من مصدرها.

ويؤصل لهذه المرتكزات الخمسة ما روىٰ ابن ماجه وغيره عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ بَلَّغَهَا عَنِّي فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[٣].

وعند الترمذي: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا..**».

فقوله: «سمع مقالتي» يدل علىٰ معرفة مصادر المعلومات، وطريق التلقي، فأصل هذا العلم الكتاب والسنة، مع نقله بالسماع والأسانيد.

وقوله: «فوعاها» يدل علىٰ فهم المعلومات.

---

(١) أليس الصبح بقريب ص (١٥١-١٥٢) بتصرف.

(٢) الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب ص (٥٦).

(٣) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٣٦)، وصححه الألباني.



وقوله في حديث الترمذي: «وحفظها» يدل على حفظ المعلومات.

وقوله: «ثم بلغها» يدل على تداول المعلومات ونشرها.

وقوله: «ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» يدل على استثمار المعلومات وإنتاج المعرفة منها.

* * *

قال الأستاذ عصام العطار:

إننا لا نكتب بالمداد؛ ولكن بدم القلب، فمعذرة إذا ظهر في سطورنا أثر الجراح.

* * *

قال الشيخ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله:

ما القواعد والمناهج، ولا القضايا والإشكالات إلا آبار العلم، وإنما المصطلحات دلاؤها وهل من سبيل إلى الماء الغور بغير دلاء!.

وإذا كان من العلم ما هو من صلب العلم ومنه ما هو من مُلَح العلم.. فإن المصطلحات هي فقرات ذلك الصلب![1].

* * *

قال الدكتور علي العمران:

اجعل الزيادة من العلم والإدمان على القراءة مشعلك الذي يبدد الظلام ويضيء لك الطريق[2].

* * *

---

(١) المصطلح الأصولي عند الإمام الشاطبي لفريد الأنصاري ص (١١)، والجملة الثانية بتصرف يسير، وفي صدر الكتاب مقدمة ضافية عن أهمية المصطلحات في العلوم.

(٢) اقرأ وارتق لعلي العمران ص (٩٩).

قال الربيع: لم أر الشافعي آكلًا بنهارٍ ولا نائمًا بليل؛ لاهتمامه بالتصنيف، ولا يحمل نفسه ما لا تطيق مخافة الملل[(١)].

* * *

قال الشيخ كمال المرزوقي:

إنَّ أكبرَ مقاتل طلاب العلم تربيتُهم علىٰ النقد قبل التحصيل العلمي المثمر، فهو فوق كونه تعويدًا لكل أحد علىٰ الانتهاض لمجرد الاعتراض الذي هو من جملة الأمراض.. ففيه تضييعٌ معرفيٌّ خطيرٌ جدًّا لقيمة النقد، وتكثيرٌ لأمثلة النقد الخطأ التي يتعلق بها الفارون من النقد العلمي الصحيح القائم بالعلم والعدل والحكم.

* * *

يقول الشيخ الدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«اجتنب رفقاء الجدل؛ فإنهم فتانون، وإنه لا أحدَ أفسدُ للإخلاص بقلب طالب العلم منهم، فلا هم يَصِلون في طريق العلم إلىٰ غاية، ولا هم يتركون سواهم يَصِل، فهؤلاء هم شياطين العلم علىٰ غرار شياطين الصلاة، فاحذرهم أن يفتنوك عما أنت فيه من الخير»[(٢)].

* * *

قال الإمام الغزالي:

تصرف العلماء بلفظ الفقه بتخصيصه بمعرفة الفروع والفتاوىٰ، والوقوف علىٰ دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان

---

(١) المجموع للنووي (١/ ٣٨).

(٢) مفهوم العالمية من الكتاب إلىٰ الربانية ص (١٨٨).

أشد تعمقًا فيها وأكثر اشتغالًا بها يقال هو الأفقه.

ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقًا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذارٌ ولا تخويفٌ، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب، وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له.

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى، وقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١٣] فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه، فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من علوم الآخرة!(١).

* * *

قال الإمام الماوردي:

الشروط التي يتوفر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب، مع ما يلاحظ به من التوفيق، ويمد به من المعونة تسعة شروط:

أحدها: العقل الذي يدرك به حقائق الأمور.

والثاني: الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم.

والثالث: الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه.

والرابع: الشهوة التي يدوم بها الطلب، ولا يسرع إليه الملل.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٣٢) بتصرف يسير.

والخامس: الاكتفاء بمادةٍ تغنيه عن كُلَفِ الطلب.

والسادس: الفراغ الذي يكون معه التوفر، ويحصل به الاستكثار.

والسابع: عدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض.

والثامن: طول العمر واتساع المدة لينتهي بالاستكثار إلىٰ مراتب الكمال.

والتاسع: الظفر بعالمٍ سَمْحٍ بعلمه متأنٍّ في تعليمه.

فإذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم[١].

قلت: وأما ما كان منها مما ليس الأمر فيه إليه فليتق الله فيه ما استطاع، وليتدبر فيه الحال بحسب الوسع، وليتأس بمن كان يدعو: اللهم لا تعقني عن العلم بعائق، ولا تحلني عنه بحائل.

* * *

قال الأستاذ ولي الله سيدي أبو العباس ابن العريف:

مـن لـم يشـافه عالمـًا بأصولـه	فيقينـه في المشـكلات ظنـون
ومـن أنكـر الأشـياء دون تـيقن	وتثبـت فمعانـد مفتـون

* * *

قال الجاحظ:

«الإنسان بالتعلم والتكلف وبطول الاختلاف إلىٰ العلماء ومدارسة كتب الحكماء يجود لفظه ويحسن أدبه، وهو لا يحتاج في الجهل إلىٰ أكثر من ترك التعلم، وفي فساد البيان إلىٰ أكثر من ترك التخير»[٢].

* * *

---

(١) آداب الدين والدنيا للماوردي ص (٧٤).

(٢) البيان والتبين للجاحظ ص (٦٠).

قال ابن مفلح:

روىٰ الخلال في أخلاق الإمام أحمد عن إبراهيم قال: كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلىٰ صلاته وإلىٰ سمته، وإلىٰ هيئته، ثم يأخذون عنه.

وعن الأعمش قال: كانوا يتعلمون من الفقيه كل شيء حتىٰ لباسه ونعليه.

وقيل لابن المبارك: أين تريد؟ قال: إلىٰ البصرة، فقيل له: من بقي؟ فقال: ابن عَوْنٍ آخذ منه أخلاقه، آخذ من آدابه[1].

* * *

قال الشيخ إبراهيم السكران:

غاية الخِذلان أن يحبك الناس لدينك، فتستثمر حبهم لدنياك.

* * *

قال ابن الصلاح:

بلغنا عمن سمع سحنون بن سعيد أنه قال: إني لأسأل عن المسألة فأعرفها وأعرف في أي كتاب هي، وفي أي ورقة، وفي أي صفحة، وعلىٰ كم بنيت من السطور، فما يمنعني من الجواب فيها إلا كراهة الجرأة بعدي علىٰ الفتوىٰ!.

وبلغنا عن الخليل بن أحمد أنه كان يقول: إنَّ الرجل ليسأل عن المسألة ويعجل في الجواب فيصيب فأذمه، ويسأل عن مسألة فيتثبت في الجواب فيخطئ فأحمده![2].

* * *

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٣٧).

(٢) فتاوىٰ ابن الصلاح (١/ ١٦).

قال الأستاذ محمد قطب:

إن القدوة ذات تأثير هائل في عملية التربية، والله الذي خلق النفس البشرية يعلم سبحانه أن الموعظة وحدها لا تكفي، مهما يكن من بلاغتها وقوتها، ما لم يحملها قلب بشر يتمثلها ويترجمها واقعًا مشهودًا أمام الناس، ثم يدعو الناس إلىٰ اتباعها وقد بين لهم بالقدوة العملية كيف يكون الاتباع.

وقد كان الله قادرًا ﷻ أن ينزل القرآن مكتوبًا في قراطيس، ثم يلهم العرب الأميين أن يقرأوه، ولكنه يعلم وهو اللطيف الخبير أن النفوس لا تتقبل الأمر علىٰ هذه الصورة، ولا تتأثر به التأثر المطلوب الذي يحول الأمر إلىٰ حركة واقعية ذات قوة وانطلاق، إنما أنزله علىٰ قلب بشر تمثله تمثلًا كاملًا، وترجمه واقعًا يراه الناس»(١).

* * *

لا تصنع المكتبةُ الشاملةُ طالبَ علمٍ، وإنما هي وسيلةٌ عظيمةٌ تُعِينُ الباحثَ في كتابة الأبحاث وتصنيف الرسائل، أما تحقيق المسائل وضبط الأبواب فلا يغني فيه إلا البحث في الكتب، صحيحٌ أنَّ المتفقه يتعنىٰ في إدراك المسألة التي يريد.. لكنه يحظىٰ بغيثٍ منهمرٍ من الفوائد في طريقه لتحصيل المراد، وبهذا تستدرجه مسائل البحث ليصبح غزيرَ العلم واسعَ النظر.

* * *

قال الأستاذ محمد إلهامي:

الواجبات كثيرة والأوقات قليلة، والهمم ضعيفة والأجساد سقيمة، والأمة مستضعفةٌ، والحرب ضروس، ونحن في موقع الضحايا.

---

(١) كيف ندعو الناس؟ لمحمد قطب ص (١٣).

يحار المرءُ بين واجبات علمٍ ضروريٍّ يجب تحصيله لفهم الدين ولفهم العالم ولإبصار الطريق، وبين واجبات عملٍ ضروريٍّ لإقامة المعاش، والقيام بشأن الأهل والأولاد، وبين واجبات علاقاتٍ ضروريةٍ من أهلٍ وأقارب وأصدقاء ومشايخ، وأناس ظنوا بالعبد الفقير خيرًا، فألحوا أن ينفعهم بشيء، وبين واجبات متابعةٍ ضروريةٍ لأحوال أمة الإسلام التي تنهمر قضاياها وجراحها انهمارًا يعجز عن فهم كثيرٍ منه إلا من تفرغ له.

كل واجبٍ من هذه الواجبات كفيلٌ أن يأكل عمرًا وحده فكيف إذا اجتمعت؟!.

ثم كيف إذا اجتمعت في وقت استضعافٍ وحربٍ ضروس؟!.

يا رب هب لنا من لدنك علمًا وفهمًا وقوة ورحمة، بارك في الأوقات والأعمار والهمم والعقول والأجساد، قو ظهورنا وأعنا على أنفسنا وشهواتنا، وذلل لنا العوائق والسبل، وافتح لنا القلوب والأبواب، واصرف عنا أهل الشر والسوء، اصرف عنا عقولهم وقلوبهم وأبصارهم يا رب العالمين.



الخاتمة
مسرد لوامع أفكار المعارج

آثرتُ أن أجعلَ خاتمةَ الكتابِ انتقاءً لطائفةٍ من الأفكار والوصايا الواردة فيه، فتكون تذكرةً لمن قرأ الكتاب، ووجبةً خفيفةً لمن لم يقرأه.

وبعض هذه الأفكار نقلته من الكتاب بنصه، والأكثر هذبته أو لخصته، وربما تضمن بعضها زيادةً يسيرةً عما ورد فيه، وقد أعدت ترتيبها وتقسيمها بحسب محاور الكتاب، فخذ بأحسنها والله يتولاك ويرعاك.

ودونك سردها في أحد عشر محورًا:

أولًا: مدخل

اعلم أنَّ قضية التفقه ليست قضيةَ معرفةٍ وبيان؛ وإنما قضية توفيق وحرمان، فاتق الله واشدد العزم وأخلص في الطلب؛ فما كل صدرٍ يأتمنه الله على وحيه، وعسى أن يتقبلك ربك ويدفع بك انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين؛ فإنَّ الله لا يترك دينه بأرض ذلٍّ وهوان.

* * *

قال الشيخ عبد الله عزام رحمه الله: إن خير رجال الأمة من يَخُطُّون تاريخها بخطين: خط أسود؛ وهو مداد العلماء، وخط أحمر؛ وهو مداد الشهداء، وما أجمل أن يكون الدم والمداد واحدًا، والريشة واحدة؛ لتكون يد العالم التي تبذل

المداد وتحرك القلم هي اليد نفسها التي تبذل الدماء وتحرك الأمم.

* * *

العالم حارسٌ للشريعة بعلمه كما أنَّ المجاهدَ حارسٌ لها وللعباد بعتاده، وإذا كان المجاهد يترقب الشهادة في ساحة المعركة.. فإنَّ العالم ينبغي أن يربي نفسه علىٰ تحمل الأذىٰ وترقب الشهادة في ساحة القيام بأمر الله؛ أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

ثانيًا: خارطة العلوم

العلوم دينية ودنيوية، والدينية غاياتٌ وآلات، وعلوم الغاية خمسة: تزكية النفس والعقيدة والفقه والتفسير والحديث، وعلوم الآلة أَعَمُّهَا أربعة: اللغة وأصول الفقه والمنطق ومصطلح الحديث، والعلوم الدنيوية كثيرة أهمها للمتفقه العلوم الإنسانية، والجاهل بها يسيء لمقصود الشريعة من عمارة الأرض من حيث يحسب أنه يحسن.

* * *

عدة العلوم اللازمة للمتفقه بضعة وثمانون تفصيلًا؛ فاللغة اثنا عشر والتفسير تسعة عشر والسنة أربعة عشر والفقه ثلاثة عشر وأصول الفقه ستة والعقيدة تسعة، والعلوم الإنسانية تسعة، أضف إليها تزكية الأنفس والمنطق والفكر.

والذي يتحتم علىٰ طالب العلم قريبٌ من شطرها، فاشدد العزم واستعن بالله ولا تعجز، فالعلم ميسر، ومن استطال الطريق ضعف سعيه، وأنا زعيمٌ بإمامةِ طالبٍ تفرغ للعلم سبع سنين سار فيها في الطلب بمنهجٍ قويم وسعيٍ متين.

* * *

العلوم الإنسانية ذاتُ دورٍ فعَّال في عمارة الأرض، وفهم ظواهر المجتمع وقوانينه والقدرة علىٰ إدارته، والإسلام دعوةٌ ودولة، والدعوة تقام بالعلوم الشرعية، والدولة تبنىٰ بها وبالعلوم الإنسانية، وقد قصر المسلمون اليوم في هذا الجانب حتىٰ أسيء تمثيل الإسلام عند وصول حملته إلىٰ الحكم، وتلك العلوم هي أهم عُدَّةٍ عدوِّنا لإفشالنا والتحكم بنا، ولن نكسر شوكته إلا إذا استعنا بالله وعاديناه بنفس الأسلحة التي يعادينا بها.

ثالثا: منهج التلقي

الشريعة كصرحٍ عظيم، وكل علمٍ منها بمنزلة حجرةٍ فيه أو بابٍ أو جناح، فمن قضىٰ عمره في علمٍ استطاع أن يبين لك تفاصيله، لكنه لم يلتقط صورةً وافيةً عن الشريعة التي يحمل، فينقص تصورُهُ عن الدين بقدر النقص الحاصل عنده، والجادة أن تجعل شطر وقتك للإلمام بعامة العلوم إجمالًا، والشطر الآخر للإحاطة بتخصصك تفصيلًا.

* * *

طالب العلم محتَكَمٌ لمنهج التلقي لا حاكمٌ عليه بأن يأخذ منه ما يشتهي ويدع ما لا يشتهي، نظير المجاهد الذي لا يختار من التدريبات ما يهوىٰ؛ وإنما ما تتطلبه المعارك.

ومن العلوم التي يلزم ضبطها لكل طالبِ علمٍ من غير نظرٍ إلىٰ تخصصه: علم اللغة وأصول الفقه والسيرة النبوية وطرفٌ من العلوم الإنسانية.

* * *

من لوامع الوصايا التي بقيت دهرًا لا أعي قدرها وخطرها ما وصىٰ به يحيىٰ بن خالد بن برمك قائلًا: «يا بني؛ خذ من كل علم بحظٍّ وافر؛ فإنك إن لم تفعل جهلت، وإن جهلت شيئًا من العلم عاديته، وعزيزٌ عليَّ أن تعادي شيئًا من العلم».

* * *

لا يبدع العلماء إلا بضبط علوم الآلة، ولكنَّ إنتاجهم يظهر في علوم الغاية، وكأنَّ بوابةَ الفتوح تفتح ومفتاح الرسوخ يُمنح ساعة إحكام علوم الآلة.

* * *

أفاد الطاهر بن عاشور أنَّ أطوار دراسة أي علم أربعة:

الأول: ضبط مسائله والتسليم بها.

والثاني: ربط المسائل ببعضها، وربط العلم نفسه بالعلوم الأخرىٰ.

والثالث: البحث في الأسرار والعلل.

والرابع: تحقيق مسائل العلم وتحريرها.

قلت: من قرأ تخصصه مرة بعد مرة بملاحظة هذه الأطوار وصل، وأخشىٰ علىٰ من يتعجل الشيء قبل أوانه أن يعاقب بحرمانه.

* * *

التخصص الجامعي إذا اكتُفِي به هزلٌ علمي، والجادة في التخصص أن يكون عالمًا موسوعيًّا في فن، ويقطع شوطًا كافيًا في كل فن، أما العلم بواحدٍ والجهل بغيره.. فهذا يُنتِج فكرًا مشوهًا عن الشريعة؛ لأنَّ علومَ الشريعة مترابطةٌ كأعضاء الجسد، ولهذا تتميز كليات الطب عن الكليات الشرعية بتدريس الطالب عامة التخصصات في بضع سنين، ثم يتخصص في واحدٍ منها لا أن يتخصص من أول يوم.

* * *

جعل الله بين كل طالب علمٍ وبين علمٍ من العلوم أخوةً وصلة رحم، بحيث يتفوق فيه بأدنىٰ جهد، ولا يتفوق في غيره مثله إلا بأقصىٰ الجهد، والعاقل لا يخالف ما أودعه الله فيه إلا لحاجةٍ تفرضها حوادث الزمان أو دواعي المكان.

وقد أشار ابن الجوزي إلىٰ ذلك فقال: «إنَّ الله لما أراد بقاء العلم؛ لأنه الدليل عليه.. جعل بين طباع الناس وأصناف العلم مناسبةً جوهرية، وعلاقةً خفية، فينجذب كُلُّ طالبِ علمٍ إلىٰ ما يناسب جوهريته؛ لينحفظ بجملتهم العلم».

* * *

الوقوف عند المختصرات أو البدء بالمطولات لا يُخرِّج عالمًا، والصواب أن ترسم خطًّا يربط كتب المبتدئ بكتب المنتهي، ولا تنحرف في الطريق إلا لضرورةٍ يمليها فقه التحصيل، مع الالتزام بخطةٍ زمنيةٍ معلومة؛ لئلا تذهلك مغريات الطريق عن إكمال المسير.

* * *

أركان التأسيس ثلاثة: حسن التصور لمسائل المرحلة الأولىٰ من العلم، وحفظ متنٍ جيدٍ فيه، واستظهار شرحه وتكراره بضع مرات، ومن أهمل واحدًا منها قضىٰ في الطلب سنواتٍ ولم يُحصِّل.

* * *

العلم مفاهيم وتصورات لا مجرد مسائل ومعلومات، والفقيه هو الذي ينظم المسائل الجزئية كخرزاتٍ في عِقْدِ المفاهيم الكلية، ولهذا من أدرك المفاهيم الكلية.. كثر علمه ولو قلت معلوماته، ومن لم يلتقطها.. قل علمه ولو كثرت معلوماته.

* * *

أركان الطلب ثلاثة: شيخٌ متقن، ومنهجٌ مُحكمٌ، وطالبٌ جادٌّ مستعد.

* * *

أنصح المبتدئ في الطلب أو الذي يريد ترتيب أوراق الطلب من جديد أن ينهي المرحلة الأولىٰ من مهمات العلوم، فإذا فرغ منها جعل له ثلاثة أوراد: وردٌ لتخصصه، ويعطيه شطر الوقت، ووردٌ لمراجعة كتب المرحلة الأولىٰ، كلما انتهىٰ منها عاد يقرؤها من جديد، ويعطيه ربع الوقت، ووردٌ يبدأ فيه بدراسة العلوم واحدٍ بعد آخر، من أوله إلىٰ تمام المرحلة الثالثة، ويعطيه الربع الباقي، وبهذا يجمع بين قوة التخصص وشمول الطلب ومتانة التأسيس.

* * *

اجعل ثلثي يومك لطلب العلم، وثلثه لعامة شأنك، وبهذا يتهادىٰ إليك الإبداع والتوازن معًا.

* * *

كلمةُ السِّرِّ في حياة الأئمة والناجحين هي التركيز، وإنَّ سنةً واحدةً من التركيز تعدل عمر إنسانٍ في الفوضىٰ، إذا وعيت هذا؛ فلا تزد عن علمين في الطلب في آنٍ واحدٍ، وفي كل علم علىٰ كتابٍ واحدٍ منه، وفي الكتاب علىٰ مسائل معدودة منه تُحكِمُهَا وتحسن تصورها.

* * *

إذا بدأت في وردك فأبعد الهاتف عنك، وأغلق وسائل التواصل، وتشبه بإمامنا الخليل بن أحمد إذ قال: إني لأغلقُ عليَّ بابي فما يجاوزه همِّي!.

* * *

صناعة العالم تتوزع بين أوراده الفردية وثني الركب بين يدي أهل العلم، فالأوراد الفردية لا تُبَلِّغ وحدها، والدروس لا تصنع عالمًا وحدها، وإنما تعطيك مفتاح رياض العلم، ثم تتجول فيها بنفسك.

* * *

إذا كنت ملتحقًا بالجامعة فاجعل المساقات من وِردك، واعتنِ بها؛ فإنَّ العلم هو العلم، سواء كان في الجامعة أو الجامع، لكنَّ الخللَ في الجامعات منهجي؛ فقد تعطيك كتب المنتهي وأنت في أول عتبات الطلب، وعندئذٍ فاستدرك علىٰ نفسك بقراءة ما تقدم علىٰ المنهج المقرر من كتب، وتعنَّ في ضبطها، فتصبح الجامعة من وِردِك لا أجنبيةً عنه، وبهذا لا يضيع وقتك.

* * *

إذا كنت من طلبة الدراسات العليا أو لك همةٌ في القراءة والبحث.. فاعتمد منهج إمامنا النووي؛ إذ كان يجعل تحصيله تصنيفًا وتصنيفه تحصيلًا.

رابعًا: القراءة

القراءة أنواع أهمها الأربعة الآتية:

أولها: القراءة التحليلية: وبها يتأمل نص الكتاب ويدقق فيه، ويدرك مراميه، وهذا النوع تقرأ به عُمَدُ الكتبِ في كل فن.

وثانيها: القراءة الجردية: وبها يقرأ عامة الكتاب، ولكن يتخفف في التدقيق، وربما أهمل مواضع منه أو لم يعتن بحل مشكلاته، وهذا النوع تُقرأ به المطولات، وعبره ينهمر غيثُ المعلومات، وتتفجر عيونُ الأفكار والتصورات.

وثالثها: القراءة التصويرية: وهنا يمر علىٰ الكتاب سريعًا، ولا يقف عند كل

فقرة، ومقصد هذا النوع معرفةُ محاور الكتاب ومهمات مسائله ومنهج مؤلفه ومعرفة مظان العلم، وينتفع بهذا النوع الباحثُ الذي يتصيد مادةً لبحثه، والمتخصص الذي يريد قراءة عامة الكتب في تخصصه.

ورابعها: القراءة الاستكشافية: وهنا لا يقرأ نص الكتاب؛ وإنما يقلب أوراقه، وربما ختم المجلد الضخم في نحو ساعةٍ أو أقل، وغرض هذا النوع معرفة طبيعة الكتاب، ومحاوره وخارطة مسائله ودرجة أهميته، والطالب الجاد يقرأ بهذا النوع عامة الكتب في مكتبته، ومن منافعه اكتشاف التصورات الخاطئة عن بعض الكتب عنده.

* * *

يقرأ الكتاب الجيد ثلاث مرات: الأولى لهضم معلوماته، والثانية بعقل مؤلفه وقصد العمل به، والثالثة بنية صناعة المعرفة؛ فتولد من الفكرةِ فكرةً بل ومن الكتاب كتابًا.

ولتمام الإفادة منه ترسم خارطته، وتلخص مهمات مقاصده ولوامع مفاهيمه في نحو خمس صفحات، تصبح لك كالمتن تنظر فيه مرة بعد مرة.

* * *

يقول الشيخ إبراهيم السكران: أثبتت التجربة أنَّ التصورات العامة للكتاب ليست موجودةً في المفردات؛ بل في الروابط بينها، وهذه الروابط لا تتضح للذهن إلا إذا تم وصلها بسرعة، فأما مع الانفصال الزمني بينها فإنَّ الذهن يشرد. قلت: أو ينشغل بالتفاصيل الجزئية عن التصورات الكلية.

* * *

قال الشيخ فيصل المنصور: «آفات القراءة خمس: ضعف التأمل، وإغفال الحفظ للمهم، وترك التقييد للنادر، وعدم المراجعة للمحفوظ والمقيد، وقلة تكرار الكتاب الجيد».

خامسًا: ضبط العلم

شروط ضبط العلم أربعة:

أولها: أن يكون عارفًا بأصوله وما ينبني عليه ذلك العلم، ولهذا قال ابن عبد البر: «وخير العلوم ما ضبط أصله واستذكر فرعه، وقاد إلىٰ الله تعالىٰ ودل علىٰ ما يرضاه»، وأصول العلم: رؤوس المسائل، والدليل الذي عليه مدار الباب، والقاعدة الكلية، والأصل المقيس عليه، وما يحتاجه من علم الآلة.

وثانيها: أن يكون قادرًا علىٰ التعبير عن مقصوده فيه؛ بأن يعيد إنتاج العلم بلسانه وتراكيبه.

وثالثها: أن يكون عارفًا بما يلزم عنه.

ورابعها: أن يكون قادرًا علىٰ دفع الشُّبَهِ الواردة عليه فيه، سواء تعلقت بالعلم كله أو بمسائل معينةٍ منه أو بشيءٍ فيه.

* * *

لا ضبط للعلم ولا نماء فيه ولا إنتاج إلا بالتخصص، ولا دقة في الفهم ولا اكتمال في المفاهيم والتصورات إلا بسعة الاطلاع، والجمع بينهما يكون بتقسيم الوقت إلىٰ شطرين لا يتغول أحدهما علىٰ الآخر؛ واحد للتخصص والتبحر فيه، والآخر لدراسة علمٍ بعد آخر، مع تخصيص وقتٍ منه لإحكام أهم كتب المرحلة الأولىٰ من كل علم.

* * *

من لوازم التخصص أن يطلع صاحبه على جُلِّ كتبه، فلا يغني كتابٌ فيه عن كتاب، ولكن من الكتب ما حقه القراءة التحليلية، ومنها ما حقه القراءة الجردية أو التصويرية أو الاستكشافية.

* * *

اختيار التخصص إنما يكون بحسب ميول الشخص وحاجة الواقع، لا بضغط الأهل أو تأثير المجتمع، وقد يفرض عليه الواقع التحول عن موقعه إلى العناية بعلمٍ آخر؛ نظير المجاهد؛ فقد يغير موقعه بحسب متطلبات إدارة المعركة، ولو كان الذي تحول عنه أحب لديه من الذي صار إليه، فأنت هنا سهمٌ من سهام الإسلام يحركك واجب الوقت لا رغبة النفس.

* * *

لا يثبت العلمُ عندك إلا إذا أمددت به غيرك، ولهذا يتفق المشتغلون بالعلم أنَّ التدريس والتأليف والمذاكرة من أوتاد ترسيخ العلم في الصدور.

* * *

المتون أوعية المسائل، فمن أحكم ضبطها استطاع أن يُثورها لتتفجر بالعلم إذا تقدَّم في الطلب.

* * *

المتون كأعمدة بيتٍ، والمبسوطات كسقفه، فلا ينعم بالمأوى في البيت إلا بالسقف، ولا قيام للسقف إلا بالأعمدة، ومساحة السقف أضعاف مساحة الأعمدة، وهذه هي المتون؛ فإنها قليلة لكنها قواعد متينة، تحمل ما لا يحصى من المسائل من غير إرهاقٍ لعقل الطالب، ووظيفة المدرس غرس الأعمدة وترك مهمة البناء له، فالعالم الحق هو من يُؤصلك ويُوصِلُك لا من يُعَلِّمك ويلقنك.

* * *



من وسائل التمكن من ناصية العلم الذي تخصصت فيه: حفظ متنٍ جامعٍ فيه، وإحكام قواعده ومسائله الكلية؛ فإنَّ إحكامَ الكليات معينٌ علىٰ هضم الجزئيات وتثوير الفرعيات.

* * *

لا ينحصر ضبط العلم في حفظ مسائله؛ وإنما يشمل إحكامه وحسن فهمه وجودة تصور مسائله، ومن وسائله: المدارسة والتدريس والمراجعة والتصنيف والتأمل والتلخيص.

* * *

قال الشيخ فيصل المنصور: أفضل الطُّرُق لإتقانِ علمٍ ما أو مسألةٍ ما هي علىٰ الترتيب: التأليف فيه، وتدريسه، وتلخيصه.

* * *

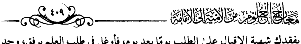
من منافع إدمان النظر في الكتب: إحكام العلم ودقة الفهم، وجودة الاستنباط وبناء العقل، وتكوين الملكة وإنتاج المعرفة، ومن وعىٰ ذلك علم أنَّ طالب العلم أحوج إلىٰ الصبر علىٰ القليل من تفريق العزم علىٰ الكثير.

* * *

استوصيت شيخنا خيار الناس الشنقيطي فقال: أوصيك أن تلزم كتابًا في كل علمٍ وتستظهره، وتدمن النظر فيه؛ فإنك تبلغ بذلك.

* * *

الالتحاق بعددٍ وافرٍ من مجالس العلم بهجةٌ في الحال وخسارةٌ في المآل؛ لأنَّ بعثرة الجهد في عددٍ كبيرٍ مع تزايد الأعباء وحلول العوارض والأزمات



يفقدك شهية الإقبال على الطلب يومًا بعد يوم، فأوغل في طلب العلم برفق، وحد ذلك أن تجعل شطر أسبوعك خالصًا لأورادك الفردية، ومراجعة ما حصّلت.

* * *

من ثمرات المذاكرة: كشف الثغرات ودقة النظر وإعمال العقل، واستنباط الدلائل وتفتيق المسائل وترسيخ العلم وتكوين الملكة، ولهذا حرضك النووي عليها فقال: «ومذاكرةُ حاذقٍ في الفنِّ ساعةً أنفعُ من المطالعةِ والحفظِ ساعاتٍ بل أيامًا».

* * *

لا تغادر الباب من العلم حتى ترهقه تأملًا؛ فإنَّ ذلك من معارج الضبط وبناء العقل، ولما كان ابن دقيق العيد يتأمل الأبواب قدر أن يقول: ما خرجت من بابٍ من أبواب الفقه واحتجتُ أن أعودَ إليه!.

* * *

من لذائذ التلقي اكتشاف الإشكالات الدقيقة، ولهذا لم يبالغ الإمام القرافي حين قال: «إنَّ معرفةَ الإشكالِ علمٌ في نفسه وفتحٌ من الله تعالى».

سادسًا: حفظ العلم

قال الشيخ عبد العزيز الطريفي فرَّج الله عنه: «العلم حفظٌ وفهم، فالحفظ بلا فهم جهلٌ وغرور، والفهم بلا حفظٍ ضعفٌ وقصور».

* * *

الحفظ حرفيٌّ ومعنوي، والحرفي أن تؤدي النص بلفظه لا تخرم منه حرفًا، وساحته: القرآن ونصوص السنة والمتون العلمية والقواعد الكلية والتعريفات

المهمة وأضراب ذلك.

والمعنوي أن تؤدي النص بمعناه بأي لفظٍ اتفق، وساحته: حفظ خارطة العلم ومهمات المسائل وأسبابِ الخلاف وأقوال العلماء والأدلة سوىٰ الكتاب والسنة وأضراب ذلك.

ومن شق عليه الحفظ الحرفي أسعفه الحفظ المعنوي، ورتبته تداني الحفظ الحرفي؛ فإنَّ خير العلم ما وعيته بقلبك وأديته بلسانك.

* * *

من فقه المتفقه: اعتناؤه بالضبط أكثر من الجمع، وإحكامُ المرحلة الأولىٰ من كل علم، وعدمُ الكلام في الدين أو الجدال في المسائل قبل أن يتأهل.

* * *

لولا النسيان لهُجر العلمُ والقرآن؛ إذ لو كان الذي يحفظ القرآن أو شيئًا من العلم لا ينساه.. فلن ينظر فيه لسهولة استدعائه عند الحاجة، ولكن صار بالنسيان يدمن النظر فيه، حتىٰ أصبح بذلك تقيًّا عابدًا، ومن لم يصبر علىٰ ذلك فإنه يطرد عنه، فصار تكرار النظر في كتب العلم محطةَ فلترةٍ تُمَيِّزُ الصالحَ لحمل العلم من الدخيل عليه.

* * *

للعلم شهوة، فإذا سمع الإنسان علمًا جديدًا ابتهج به، أما ضبطه فإنه تثبيتٌ لما حَصَلَت البهجة به فيثقل عليه، ولهذا تظهر العبودية في الضبط والمراجعة ما لا تظهر في أصل الحفظ والمطالعة، وإذا كان أصل الحفظ والقراءة حظَّ العبد.. فإنَّ الضبطَ حقُّ الشرع، فلا ينبغي للمتفقه أن يُغَلِّبَ مُرادَهُ من الشريعة بما يُغَذِّي به شهوته علىٰ مراد الشريعة منه بما يُعِدُّهُ ويُؤَصِّلُه ويؤهله.

* * *

لا ينحصر الحفظ في استظهار المتون؛ بل يشمل حفظ خارطة العلم ومهمات المسائل وأقوال العلماء والأدلة ولوامع المناقشات وأسماء الأعلام وتاريخ الوفيات وغير ذلك.

* * *

قال الشيخ فيصل المنصور: لن يبقىٰ لك من قراءتك إلا ما كرَّرته فحفظته، أو كتبته فراجعته، أو لخَّصته فدرَسته أو درَّسته.

* * *

العلم القليل مع الحفظ أفضل من العلم الكثير مع النسيان، كان علم الأصمعي في قِمَطر إلا أنه كان حفظًا، ولهذا هاتفك أبو هلال العسكري فقال: «إذا كان ما جمعته من العلم قليلًا وكان حفظًا.. كثرت المنفعة به، وإذا كان كثيرًا غير محفوظٍ.. قلت منفعته».

* * *

طريقة الحفظ الشائعة في حلقات التحفيظ تصويرٌ أوليٌّ للصفحة لا حفظٌ علىٰ الحقيقة، ولهذا تبدأ في التلاشي من أول يوم، والجادة أن تُنشِئَ الحفظ قويًّا ثم تكرر مائة مرة أو نصفها عند الضعف، وهذا هو المسلك الوحيد للضبط، وهي طريقة الشناقطة.

* * *

خطوات الحفظ: أن تسمع ما تريد حفظه صوتيًّا، ثم تُقَسِّم الصفحة أو القدر إلىٰ قطع، كل قطعة ثلاثة أبياتٍ أو أسطر، وتقرأ القطعة عشرًا بالنظر، ثم تحفظها وتعيدها عشرًا غيبًا، ثم تحفظ القطعة التي بعدها كذلك، ثم تربطهما ثلاثًا، وهكذا حتىٰ تنتهي، ثم تكرر ما حفظت مائة مرة علىٰ مجالس متفرقة، ثم

تراجع المحفوظ كل أسبوعٍ مرة.

* * *

من فقه حفظ المتون: تقديم الوحي كتابًا وسنة، وأن يكون المتن واضحًا مصححًا محل عناية العلماء بالشرح، وحفظ متنٍ مختصرٍ في الفن ولو أراد حفظ مطولٍ فيه، ويحفظ القدر القليل مع التكرار الكثير؛ فإن الحفظ السريع مآله النسيان السريع والفشل الذريع.

سابعًا: إنتاج العلم

إمامة الطالب في فنٍّ منوطةٌ بتحصيل الملكة فيه، وهي أن يصير العلم سجيةً للمتعلم لا يحتاج إلىٰ استذكارٍ للنصوص والقواعد، وسبيل ذلك: بالاستعداد الفطري، ومجاهدة النفس لتكون علىٰ طبيعةٍ معتدلة، والعناية بقواعد العلم وكلياته، وإحكام منهج التلقي، ووجود المدرس الحاذق، وإدمان النظر في عُمَد الكتب.

* * *

من وسائل تكوين الملكة العلمية: الاستعداد الجيد لمجلس الطلب، وحضور المحاضرات المنهجية والمؤتمرات العلمية، والقراءة للمتقدمين، والتيقظ أثناء ذلك لمسالك النظر والاستدلال وتمحيص الآراء والأقوال، وتنوع مصادر التلقي، والعمل بالعلم، وإعمال الفكر في مسائله ومذاكرته وتدريسه والتأليف فيه، ومخالطة الناس، والدراية بالواقع والمستجدات.

* * *

فقه التدريس مداره على تكميل الطالب، فبناء الطالب فيه أصل، وبناء الشيخ فيه تبع، جاء في ترجمة أبي الحسن الجِلاوي أنه كان مجتهدًا في تكميل الطالب.

* * *

من سمات الطريقة المثلى في التدريس: حسن التصوير للمسائل، والعناية بالتأصيل والتقعيد والتمثيل، والتدرج بتدريس صغار العلم قبل كباره، وعدم الاستطراد، وعدم تطويل المدة في شرح المختصرات، مع تخصيص مساحةٍ من الدرس للمباحثة وتفتيق الأذهان بإلقاء الأسئلة ومناقشة الأجوبة، والمدرس الفذ هو من يُوصلك ويُوصِلُك لا من يُعَلِّمك ويلقنك.

* * *

جَعْلُ الدَّرسِ مَجْمَعًا للعلوم.. نافعٌ للمنتهي ضارٌّ بالمبتدي، وكم فَوَّتَ الحرصُ على مُلَحِ العلم ولطائفه من جليل العلم ومقاصده!.

* * *

من فقه اختيار كتب التدريس إنجاز المختصرات ثم الاشتغال بنفس المطولات، أشتهي أن يوجد من يُقَدِّمَ صفوة تفسير الطبري وفتح الباري وموافقات الشاطبي وخصائص ابن جني، وأضراب ذلك.

* * *

العلم بستانٌ وسيع والدرس مفتاحه، والمدرس الحاذق يعطي الطالب المفتاح ويدخله البستان، وما وراء ذلك فالطالب هو الماكينة الحقيقية للطلب، وقد نبه الشيخ الطريفي على ذلك فقال: «أكثر العلوم يتحصلها الإنسان من قراءة الكتب ودوام النظر فيها حفظًا وفهمًا، وأما العلماء والمدرسون فيعطون مفاتيح العلوم ويرسمون الطريق إليها».

* * *

من فقه المدرس العناية بالدارس لا بالدرس فقط، فيعامله معاملةً أبوية، ويحرص أن يُوجِدَ الكفاءات ثم يرعاها وينميها حتىٰ تبلغ، وإنَّ تأليف الرجال قد يتفوق علىٰ تأليف الكتب.

* * *

من فقه حضور مجالس الطلب: إيثار الشيخ الحاذق في البناء المنهجي ولو لم يكن كبيرًا ولا مشهورًا، والدنو منه وسؤاله عما يحتاج إليه، وقلة الكلام بين يديه، واستظهار الدرس قبل الحضور إليه، ومذاكرته بعده.

* * *

الفقيه من طلبة العلم لا يهمه النتيجة التي وصل إليها العالم؛ وإنما نظره إلىٰ الطريق التي خاضها حتىٰ وصل.

* * *

من آفات الدرس العلمي: سلب حرية النقد العلمي، وإهمال المباحثة، وإغفال قواعد بناء العقل وتكوين الملكة، وعروه عن مادة الأدب وتزكية النفس.

* * *

من حسنات التأليف: تنمية ملكة الكتابة والتفكير والبحث والتحليل، وسعة الاطلاع وعلاج المشكلات، وتنضيج التصورات وإنتاج المفاهيم، والدربة علىٰ حسن العرض والتفهيم، وترويض النفس علىٰ الأناة والتثبت والإنصاف واتباع الدليل وعدم المجازفة في القول، وتوظيف عامة المعارف في تقرير ما يكتب من المسائل.

* * *

من فقه التأليف: أن يجعل الكتاب فكرةً مترابطةً متكاملة، وأن يجعل تصنيفه تحصيلًا وتحصيله تصنيفًا، وألا يكتب إلا فيما يعتني به؛ فعلىٰ قدر العناية ينطلق القلم، وأن يأخذ جولة اطلاعٍ واسعةٍ في الموضوع قبله، ثم يكتب خُطَّتَهُ الأَوَّلِيَّة، ثم يجمع المادة كلها، ويوزعها علىٰ الخطة، ويعيد كتابتها، ثم يكتب الكتاب مختصرًا في نحو خمسين صفحة، ويجمع ثلةً من المختصين لإثرائه ومناقشته، ثم يتفرغ لكتابته، وحبذا لو قرن ذلك بالتدريس، وأتبعه بدفعه لأهل العلم للمراجعة والتمحيص.

* * *

ينبغي أن يُنْتَجَ لأهل كل زمنٍ من العلم علىٰ أصول كل فنٍّ ما يلبي حوائجهم ويتناول مستجداتهم ونوازلهم.

ثامنًا: صناعة المعرفة

رحلة الاشتغال بأي علمٍ ثلاث مراحل: تلقي مسائله وفهمها، ثم معرفة أصلها وآلية صناعتها، ثم صناعة مثلها وإنتاج نظائرها، وأحسن شيخنا الددو الشنقيطي إذ قال: هذه الكتب فيها أماكن تبقىٰ مصونة، وأرزاق تبقىٰ مدخرة لبعض المتأخرين، يفتح الله لهم فيها ما كان مسدودًا علىٰ من سواهم.

* * *

مقدمات إنتاج العلم وصناعة المعرفة: ضبط مفاتيح العلم، وسعة الاطلاع، والتربية علىٰ قراءة المصادر، والانقطاع للمعرفة، والتركيز، ودراسة نماذج صُنَّاع المعرفة؛ كالشافعي والخليل بن أحمد وابن فارس، مع التأمل في بواكير منتجات التجارب الصناعية الناجحة؛ كإرث المدرسة البصرية والكوفية في النحو، والمذاهب الأربعة في الفقه.

* * *

من المهارات الآلية لصناعة المعرفة: هواجس الإنتاج؛ فالأفكار التي تُداخل عقلك وتساكن قلبك تُدِرُّ عليك من العلم المستنبط بحسبها، والربط بين العلوم؛ فإذا تلاقت أفرادها انصهرت وخرجت بمنتجٍ جديد، وطول التأمل، والأخذ في تكوين منهج نظر؛ فإنَّه الماكينة التي تنتج العلم، لكنه وظيفة العمر، ويُتحصَّل عبر تفاعل القراءة مع التأمل والمباحثة وتنوع مصادر التلقي وإدمان النظر في عُمَد الكتب.

* * *

من الوسائل المعينة علىٰ تحصيل التركيز في الصناعات المعرفية: حصر الجهد في دائرةٍ محددة، والاغتسال الثقافي بتخليص العقل من الشعث الفكري إلا من العلم الذي يريد الإنتاج فيه، وتفريغ البال من الأشغال، واستثمار وقت الذروة النفسية والعقلية، وعدم إغماد سيف المشاريع حتىٰ النهاية منها.

* * *

طول التأمل صنعة الكبار، ويكون في كلية العلم أو بابٍ منه أو مسألة، ومن ثمراته: تفتيق المسائل وفهم الأدلة وصناعة المعرفة وكشف المواطن المشكلة، وصناعة عقل يُحسن الاستنباطَ والنَّظر، لكن إياك أن تجزم بنواتج التأمل حتىٰ تقتل المسائل بحثًا وتمحيصًا.

تاسعًا: تزكية النفس

مسائل العلم كجواهر الذهب، ولا يودع الذهب إلا في أوعيةٍ كريمة، فمن لم يَسْعَ في تطهير قلبه من نجاسة الشهوات أبىٰ العلم أن يُسَاكِنَه، ومن هنا قال سهل بن عبد الله: «حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يشم رائحة اليقين وفيه سكونٌ إلىٰ غير الله، وحرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخله النور وفيه شيءٌ مما يكرهه الله تبارك وتعالى».

* * *



سمعت شيخنا الدكتور صلاح سلطان فرّج الله عنه يقول: قوام التربية الإيمانية: حجةٌ علمية وخشيةٌ قلبيةٌ وحركةٌ دعوية.

* * *

من علائم فقه الطالب وتوفيق الله له عنايته بالتربية الإيمانية اعتناءه بالأوراد العلمية، ومن علائم الجهل والحرمان واتباع الهوىٰ هجره للأوراد التعبدية بحجة الانشغال بالأعباء العلمية والدعوية، وأحسن الطريفي إذ قال: «لا يصدق الأمة إلا عالمٌ جمع مع العلم الديانة وقوة إيمان؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، والعالم بلا إيمانٍ يقود أمته إلىٰ هواه وهواها».

* * *

لا يقوم العلم إلا علىٰ عمود التزكية والإيمان، وقد أقسم الله علىٰ تزكية النفس أحد عشر قسمًا متتاليًا في صدر سورة الشمس، ثم تجد إهمالًا لمادة التزكية في برامج الطلب الفردية والرسمية، وربما اشتغل المتفقه بما لا يحتاج إليه في العام أو العمر سوىٰ مرة، وتَرَكَ ما يحتاج إليه من الأخلاق وأعمال القلوب مراتٍ في كلِّ يومٍ وليلة.

* * *

إذا انفتح لك بابٌ من علمٍ.. فلا تغلق به بابًا من عمل، وارتق إلىٰ الله درجةً بعد درجةٍ ولا تكثر؛ فإنَّ الشيء القليل متىٰ لزمه الإنسان صار أكثر من الكثير الذي ينقطع عنه، فلا تنظر إلىٰ نتيجة كل يوم؛ ولكن إلىٰ حصيلة كل سنة، وهل السيل إلا اجتماع النقط!.

* * *

من عزائم التعبد أن تلزم نفسك بأورادٍ ثابتة وسياسةٍ واضحةٍ، وتجعل الاقتراب منها خطًا أحمر، وما أحسنَ نصح الشريف الزيدي لو أصغيت إليه وهو يقول: «اجعل النوافل كالفرائض، والمعاصي كالكفر، والشهوات كالسم، ومخالطة الناس كالنار، والغذاء كالدواء»!.

* * *

تفضيل العلم على التعبد يعني اختصاصه بمزيد عناية، أما الانكباب على أوراد العلم وترك أوراد التعبد.. فمنهجٌ سائدٌ عند فئامٍ من الخلف وإن كان أمرًا فاحشًا ونقيصةً عند جمهور السلف.

* * *

يقوى المتفقه قويًا عظيمًا ما تسلح بقوة الإيمان، واعتصم بحصن العمل، وتحاشى منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء، وتخفف من آثام القلوب والجوارح، وأكثر من التوبة والحسنات الماحية عند كل زلل، وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك»، وقد رُوي عن الإمام مالك أنه قال: «ليس الفقه بكثرة المسائل؛ ولكن الفقه يؤتيه الله من يشاء من خلقه».

* * *

لا يقوم العلم إلا على عمود الإيمان، ومن سقطت عدته من الإيمان لم يبق شيءٌ يحمله فَهَوَىٰ لمَّا اتبع الهوى، وأحسن الطريفي إذ قال: «العلم ثقيل الحمل على صاحبه لا يقوى على أمانته إلا من ثبتت أقدامه بالعبادة، فبقدر العبادة يثبت وبقدرها يزيغ».

* * *

يقول الشيخ الطريفي: «قليل العلم مع عمل أفضل من كثير العلم بلا عمل؛ فالعبادة تسدد رأي العالم فيصيب الحق ولو بدليلٍ واحد، وإن قلت عبادته حرم السداد ولو جمع الأدلة».

* * *

عمدة الأوراد طولُ التهجد، وهو أصلُ العملية التربوية، ومتىٰ اهتز اضطرب الإيمان، وحاجة المتفقه إليه كحاجة السمك إلىٰ الماء، ومن قارن بين فقه الأئمة الأربعة وحظهم من التهجد والتعبد الذي رصدته كتب التراجم.. عرف طريق الرسوخ في العلم وكيف بلغ القوم الإمامة في الدين.

* * *

إذا عانيت من ضعف الإيمان.. فأعد تقليب النظر في الأوراد، ورسم خريطة الأولويات حتىٰ يتدانىٰ ورد التعبد من ورد الطلب، واعلم أنَّ قضيةَ التعبد قضيةُ توفيقٍ وحرمان لا معرفةٍ وبيان.

* * *

احرس علمك بسياج التعبد، فهب أنَّ الله لم يتقبل منك علمك لآفاتٍ أفسدته؛ فعسىٰ العمل أن يحملك، ولهذا فاتْلُ وتصدق وصل الرحم وجاهد وتهجد وقف بالباب واسجد واقترب واسأل الله من فضله؛ فإنَّ الله ذو فضلٍ عظيم.

* * *

أخلص لله في الطلب؛ فإن «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا.. لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه أبو داود وصححه الألباني.

* * *



عالم الشريعة ما ينبغي أن يقصد أن يقتات منها، ويصل إلىٰ المناصب وأصحاب الجاه من خلالها؛ وإنما يدرس هذا العلم ليجاهد به في سبيل الله عبر ثغر البيان، والحجة والبرهان، وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء.. فإنَّ العالم ينبغي أن يقول كما كان الواحد من الأنبياء يقول من قبل: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ﴾ [هود: ٥١]، أما ما يأتي بعد ذلك من الحظوظ.. فإنه بمنزلة الغنيمة التي تأتي للمجاهد، تحل له، لكن لا يطلبها لذاتها ولم يخرج في تحصيلها.

* * *

يقول الشيخ الطريفي: «الناس في حاجة إلىٰ عالمٍ متجرد، لا إلىٰ متجردٍ جاهل، ولا إلىٰ عالمٍ يخاف ويطمع، فالعالم بلا تجرد يعطل الأمة بإحجامه، والمتجرد بلا علم يهلك الأمة بإقدامه، وأعظم الشرور تأتي إذا قاد الناس جاهلٌ غير متجرد».

* * *

من الوسائل المعينة علىٰ الإخلاص: أن تجعل عملَكَ في السِّرِّ أكثر منه في العلانية، وأن تعلم أنَّ وجاهتك هناك في السماء، فلو كنت ذهبًا وَعَدَّكَ الناسُ نُحَاسًا.. لم يضرك، ولو كنت نحاسًا وَعَدَّكَ الناسُ ذهبًا.. لم ينفعك، وأن تستشعر شراسة المعركة بين الحق والباطل، وإنَّ في ساحتها من النزال والأهوال ما يذهلك عن الأمجاد الشخصية.

* * *

لا يشغلنك الطلب عن العناية بمسالك الأدب؛ فإنَّ استفادة الناس من أدب العالم لا تقل عن استفادتهم من علمه، ويا لله كم أظهرت الأخلاق من فضيلة



وسترت من نقيصة!، وقد أحسن رويم بن أحمد البغدادي النصح لولده إذ قال له: يا بني؛ اجعل علمك ملحًا وأدبك دقيقًا!.

* * *

سمعت شيخنا عبد الهادي الخَضِر السوداني يقول: خلافنا مع المخالف خلاف حجةٍ لا خلاف قلوب.

* * *

التحلي بالأدب شيءٌ صعب، لا سيما إذا تعارض مع الطبائع التي ابتلاك الله بها، فجاهد نفسك واستعن بالله ولا تعجز، واعلم أنَّ الله علىٰ كل شيءٍ قدير، وَمِن أَولَىٰ مواضع التجمل بالأدب تحريه مع والديك، ومع من عَلَّمَك، وفي مواطن الخصومة والجدل.

عاشرًا: مقومات النبوغ

عَزم الطالب هو عمدة أركان الطلب، وصدق الشيخ إبراهيم السكران إذ قال: إن أخطر مشكلة تهدد التربية الدعوية نقص الجدية، في بيئة يغلب عليها ضجيج اللهو وخفة المرح وقهقهة الفكاهة أتراها يمكن أن تُنتج مسندًا أو مدونةً أو معلمةً أو معجمًا!.

خططنا في شواهق الجبال وما زالت أقدامنا غضةً طرية، نتوهم أنه في يومٍ من الأيام ستهبط النتائج بدون مقدمات!.

* * *

يمكن للطالب أن ينبغ مبكرًا متىٰ تمكن من علوم الآلة وضبط المراحل التأسيسية في العلم، قال الزهري لابن الماجشون وأقارب له: لا تحقروا أنفسكم

لحداثة أسنانكم؛ فإنَّ عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم؛ يبتغي حدة عقولهم.

* * *

إنَّ تَشَعُّبَ العلوم وتَعَدُّدَ جوانب التلقي من درسٍ وحفظٍ وضبطٍ ومذاكرةٍ وقراءةٍ وتعبدٍ وغير ذلك لا يمكن إنجازه على وجهه من غير خطةٍ وسياسة، ومن لم يخطط لأمله.... فقد خطط لفشله، ولهذا حَدِّدْ الشكلَ النهائي لشخصيتك، واكتب خطتك بناء عليه، وأحسن إدارة وقتك(١)، والله يتولاك ويرعاك.

* * *

إذا كثرت أشغالك فاجعل الوقت الذي تنفقه في الطلب خالصًا له لا يتعكر فيه صفوك بشيء، ومن لوازم ذلك تصميتُ الهاتف وإغلاق وسائل التواصل وعدم عقد أشغالٍ فيه.

* * *

في تخصصك اعتنِ بجليل العلم ودقيقه، وفي غيره اعتن بجليله دون دقيقه؛ فلا وقت للمبالغة في ملاحقة الفوائد والمُلَح، وعلى هذا يُحمل نهي بعض السلف عن تتبع المسائل الدقيقة إذ قالوا: لا تشرب بأقداحٍ صغار؛ فقد ضاق الزمان.

* * *

القليل من العلم مع كثيرٍ من التدريب والممارسة والخبرة أنفعُ من كثيرٍ من العلم مع قليلٍ من ذلك، وكثيرةٌ هي المهارات التي تحتاج إلى تدريبٍ ورياضة مثل تحرير

---

(١) تكلمت عن كيفية كتابة الخطة والشكل النهائي للشخصية وإدارة الوقت في كتاب «فقه الاستدراك» وهو منشورٌ على الشبكة، وقد أشرت إليه قبلُ.

المسائل والتأليف والخطابة والتدريس، ومن أهمل ذلك تعب كثيرًا وأنتج قليلًا ولم يسعفه علمه عند الحاجة إليه.

حادي عشر: آفات ومعالجات

اجتمع الحق في شخص النبي ﷺ حصرًا وتوزع في أمته نثرًا كما قال الشيخ الشعراوي، وعليه؛ فاتبع الحق ولو كان عند من تكره، واترك الباطل ولو كان عند من تحب، واعتن بالقول لا بالقائل، ومن ابتلي بالتهويل لمن يحب ابتلي بالتهوين لمن يكره، ومن هذا شأنه فقد بَعُدَ فلاحه.

* * *

من أخطر الثغرات التي يسقط عندها العالم حب الرياسة والوجاهة، وعبر هذه الثغرة تسلل الشيطان ليغوي آدم قائلًا له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠] حتى هبط إلى الأرض، ولهذا دعك من منزلتك في الأرض، وصوب نظرك إلى السماء، فوجاهتك هناك، ولا تبتئس بعد ذلك ولو أوذيت، ولك في قول الله سلوى وعظة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

* * *

فر من مجالس الجدل حول الأشخاص والجماعات والمواقف السياسية، وحيث شهدتها مضطرًّا فكن حاضرًا غائبًا إلا من حاجة تمليها قواعد الحكمة، وعندئذٍ اشتغل بتقرير الأفكار أكثر من نقد الهيئات والأشخاص، وليس بالضرورة أن يكون لك رأيٌ في كل مسألة، ولو كان فليس بالضرورة أن تبثه في كل مجلسٍ ومع كل شخص، ومن إجلال العلم ألا تبثه لمن يرده.

* * *

لقد منَّ الله على المسلمين بسوء أخلاق كثير من طلبة العلم ورداءة أفهامهم؛ ليحرموا بذلك من الإمامة في الدين، وإلا فلو حسنت أخلاقهم وساءت أفهامهم.. لكانوا فتنةً على الناس في الدين.

* * *

حيث تجلى لك الحق فاتبعه، وأظهر لمخالفك أنَّك استفدت منه، وحيث تعارض عندك كلام المعاصرين فارجع إلى إرث المتقدمين؛ ففيه الحجة والفقه واليقين والسلامة من أكثر الأدواء المعاصرة.

* * *

التصدر قبل التأهل ليس كلمةً تقال؛ بل عمر يُهدر ونفسٌ تقتل، ومن آفاته: التعجل في بناء المفاهيم، والتسور على الفتيا، والإعاقة عن التحصيل، وكثرة الحساد، والتشغيب على أهل العلم، وإشغال الناس وفتنتهم بالطرح النَّيِّء.

واعلم أن قرار التصدر سهل، أما قرار الانسحاب منه فصعب، فإذا كنت لم تتصدر أو في البداية.. فتمهل حتى تتأهل، وإذا تصدرت واستطعت أن تنسحب.. فافعل، وإلا فاجعل شطر أسبوعك خالصًا للطلب، وشطره الآخر للدعوة وغير ذلك ولا تتوسع، وقد نصحتك.

* * *

من إجلال العلم ترك مكالمة الدخيل عليه إلا لحاجةٍ، وأحسن الشيخ الطريفي إذ قال: «علم الرد على الجُهَّال علمٌ حادث، لا يعرفه العلماء السابقون؛ لأنَّ جهالهم لا يعرفون الكتابة، وجهال اليوم يكتبون كل شيء، نرى جهلًا لم نقرأ عنه من قبل».

وقال: أمر الله بتعليم الجاهل ونهى عن جداله؛ فالجدال إقرارٌ بعلمه، وإن

تُرك بعدها اعتقد أنه انتصر فيزداد تمسكًا بجهله، ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

* * *

يقول الشيخ فيصل المنصور: «لا يبني الناسُ غالبَ آرائهم في عامّة القضايا علىٰ النظر المجرَّد المنصف إلىٰ أدلتها؛ وإنما يبنونها علىٰ الحدس أو الإِلْف أو الاستحسان، ثم يطوِّعون الأدلة لذلك».

فيا طالب العلم؛ استعذ بالله أن تتصيدك شباك هذه الآفة الفتاكة.

* * *

تباطأ في تكوين المفاهيم، واشتغل بتنضيجها علىٰ مهل؛ لئلا تتخذ من قناعاتك قواعد تجعلها معيارًا علىٰ الحق، توالي عليها وتعادي عليها، ثم تحتار في المستثنيات الخارجة عنها، التقيت بغير طالبِ علمٍ فوجدته لا يدعي الاجتهاد؛ ولكن يُنَصِّبُ نفسه حاكمًا علىٰ المجتهدين، نعوذ بالله من الخِذلان.

* * *

المساحة الآمنة هي الجسر الذي يتردىٰ عبره المشتغل بالعلم في قاع العلمانية، فيجتهد في الوعظ والدعوة ويترك أحوال السياسة وشئون الدولة وأحوال الأمة، لا يتأذىٰ به صاحب منكر قريب، ولا يخشاه عدو في الشرق أو الغرب البعيد.

وصدق الطريفي إذ قال: «ظهر الاضطراب في الأمة يوم أن اعتقد السلطان أنَّ العلمَ لا يعنيه، واعتقد العالم أنَّ السلطةَ لا تعنيه، فاختل معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩]».

وقال: «مهمة العالم ليست لحفظ العبادة ونشرها فحسب؛ بل لحفظ الدين

وإصلاح الدنيا؛ فشعيب جاء لإصلاح ظلم الأموال، ولوط جاء لإصلاح الفطرة والأخلاق».

* * *

لا يُبيَّنُ الحقُّ بوقوف العالم في المساحة الآمنة فحسب؛ بل باقتحام المعركة حِراسةً للمبادئ من تغول المصالح، وأحسن الطريفي إذ قال: «لا يحفظ الإسلام عالمٌ ترك بيان الأمر والنهي واشتغل بفضائل الإسلام كالذكر والأدب، استأمنه الله علىٰ حماية الدين، فحرس نوافذه وترك أبوابه».

* * *

يقول الشيخ الطريفي: «أيها المصلح: أراد الله أن يحفظ دينه بك لا أن يحفظ دنياك بدينه، فإن ضاع شيء من دنياك في سبيل دينك.. فهذا هو عقدك مع ربك؛ فقد اشترىٰ نفسك منك».

* * *

انتصر للحقِّ بدون تشغيب؛ بل بقوة الحجة وحسن الأدب ووفور الشفقة، وأكثرُ ضجرِ المُنكَر عليهم إنما هو لسقوطِ ركنٍ من هذه الثلاثة.

* * *

حَذارِ من التشتت؛ فإنه آفةٌ فتاكةٌ بدون أنياب، ومن أعراضها: تبعثر البال لكثرة الأشغال والشعور بالتيه، والتأثر بموجاتٍ من اليأس والاكتئاب، وقد رقمت علاج ذلك في الكتاب.

* * *

يقول الشيخ فيصل المنصور: «الاستغراق في بحث المسائل الدقيقة يجعل المرء أعلمَ الناس بها، ولكنه قد يصبح مع ذلك أجهلَ الناس بكل ما سواها».

* * *

لا بد وأن يعترض سبيل طالب العلم بعض الأبواب الصعبة من العلم؛ كقنطرةٌ تميز الصادق فيه من الدخيل عليه؛ ليختص الله به من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

لحكمةٍ يريدها الله قلَّ أن تجد طالبَ علم فُتِحَ له إلا وقد تعنىٰ في مبادئ الطلب!، صدق من قال: ليست العبرة بنقص البدايات؛ وإنما بكمال النهايات.

* * *

قد يضطر العَالِمُ إلىٰ كتمان الحق، لكن لا يجوز له إظهار الباطل أو موافقته أو الإقرار به، ومتىٰ تخلىٰ الرجل عن المال والمنصب وهانت عليه نفسه في ذات الله.. ملك كلمته، وانطلق يجاهد بها في سبيل الله، يرتل قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].





الفصل الخامس
معارج الطلب التفصيلية

يتولىٰ هذا الفصل اقتراحَ منهجٍ تفصيليٍّ لكل علمٍ من العلوم وما يتفرع عنه؛ إعانةً لطالب العلم في بناء خطَّتِه، وسعيًا في حسر ظاهرة التشتت خاصةً بعد أن ازدحمت المكتبة الإسلامية بآلاف المؤلفات في أكثر العلوم.

وقد آوىٰ هذا المبحث إليه ثلاثةً من المباحث:

الأول: للحقائب العلمية التمهيدية والتأسيسية.

والثاني: لأشهر علوم الآلة؛ اللغة والمنطق وأصول الفقه، أما مصطلح الحديث فجعلته في معراج علوم السنة؛ لأنه أشد مناسبةً، وكذلك العلوم الفرعية التي يصدق عليها بأنها علومُ آلة جعلتها في أبوابها.

والثالث: لعلوم الغاية؛ تزكية النفس والعقيدة والتفسير والحديث والفقه.

وقبل سرد البرامج أنبه علىٰ عشرة أمور بالغةِ الأهمية:

أولًا: هذا المعراجُ العلميُّ اجتهاديٌّ محض، ولولا حالة التشتت والسؤال المتكرر: من أين أبدأ؟ وماذا أقرأ؟ وكيف أصل؟.. ما تقدمت للكتابة؛ فلست بالعالم الذي بلغ، لكني كنت أخط معارج لنفسي، وأنظر في جملةٍ من البرامج المقترحة، ولما كنت أتحدث عنها صار إخواني يطلبون مني أن أخطها مسطورةً بين أيديهم، ثم شاء الله أن تتمدد حتىٰ كان هذا الكتاب.

وقد اتكأت في عددٍ منها علىٰ تجربتي اليسيرة، ولما بدأت أسطر معارج كل

علم دوَّنت ما عندي وطالعت بعض الكتب، وجالست بعض المتخصصين في كل علم، وراسلت عددًا من علماء العالم الإسلامي أعرض عليهم ما كتبت، كلٌّ بحسب تخصصه، وتلقيت ردودًا كريمةً في كل علم، حتىٰ استوت علىٰ سوقها، وذلك حرصًا أن تخرج بعقلٍ جماعي قدر الطاقة.

وقد اجتهدت في الاستفادة من عامة المدارس، مع التأكيد المهم أن هذا الباب يتحمل وجهات النظر، وقد أقدِّمُ شيئًا أو أؤخر أو أثبت أو أمحو لمعنىً عندي، لكن تفسير البواعث سيطيل الكتاب فأعرضت عنه.

وبعض الفضلاء لما اقترحوا عليَّ أشياء في بعض الخطط، وبينت المراد عندي قبلوا ذلك وجعلوه علىٰ حاله، فلا داعي للتعجل في النقد، والأمر مع ذلك اجتهاديٌّ لا تثريبَ فيه.

ومن أكرمه الله بشيخٍ متقنٍ مدركٍ لمناهج الطلب، أو مدرسةٍ علميةٍ منضبطة.. فليتبعها، وليستفد من هذا الكتاب شذراتٍ تتمم له خطة مسيره، والعبرة عندي بما تقدم في الكتاب من أصول القراءة والحفظ والضبط ومنهج التلقي، والله المستعان.

ثانيًا: غرض هذه المعارج أن يكون المتفقه ذا أهليةٍ في العلم، ولهذا يمكن تقسيم الخطة إلىٰ طورين: طور التَّأَهُّلِ وطور التخصص.

أما طور التأهل ففيه ثلاث مراحل: مرحلة للمبتدئ وثانيةٌ للمتوسط وثالثةٌ للمنتهي، وأما طور التخصص فهو التبحر في العلم الذي يدرسه الطالب والتوسع فيه، ونطاق هذه المعارج طور التأهل؛ لأنَّ من بلغ درجة المنتهي يعرف كيف يكمل الطريق.

وقد أزيد أحيانًا في كتب المرحلة الثالثة أو غيرها لأهمية الكتب الذي تُثْبت فيها، علىٰ أنَّ كتاب «السبل المرضية» للشيخ أحمد سالم خاض غمار طور

التخصص، فيمكن الاستفادة منه.

وفي بعض العلوم قد أكتفي بمرحلتين أو مرحلة؛ لحصول الكفاية بذلك، وربما أضفت مرحلة رابعة في بعضها على قلة؛ لحاجتها إلى ذلك، وربما سردت الكتب سردًا لمعنىً أردته.

ثالثًا: قامت ساقُ كل مرحلةٍ من المراحل الثلاث على كتبٍ محدودة؛ لئلا يتضخم السلم التعليمي فيُعزَفُ عنه، فالرسوخ في العلم سبيله بلوغ مرحلة المنتهي مع ضبط عُمَد كتب المعراج، ثم إدمان النظر فيها مع القراءة الجردية لبقية كتب الفن لمن تخصص فيه.

وقد وضعت كتبًا متينةً وأخرى سهلة، وراعيت التدرج، بحيث يترقى المتفقه من كتابٍ إلى الذي فوقه في الأسلوب أو الحجم من غير قفزةٍ تُنَفِّرُ من إكمال المسير.

ولهذا ربما ذكرت شرحًا معاصرًا سهلًا لمتنٍ بين يدي شرحٍ متين، لا لأنَّ الشرحَ المتين لا يكفي؛ ولكن لأنه بحاجةٍ إلى كتابٍ قبله ييسره، لكن بعد ذلك يعتمد مهمات الكتب لإدمان النظر فيها ولا يرجع إلى غيرها إلا عند الحاجة.

على أنَّ أنفع الكتب ما وعيتَ أكثره وعاندك في بعضه؛ لأن معرفة الاستشكال فتحٌ من الله، أما ما وعيته كله أو استغلق عليك كله أو جله.. فليس مناسبًا لك، والجادة أن تتمهد لهذا بكتابٍ أو كتابين قبله.

وقد جعلت من برامج الطلب استماع السلاسل الصوتية والمرئية، وكذلك المحاضرات المُفردة في موضوعاتٍ محددة؛ احترَاسًا من عدم وجود شيخٍ متفرغٍ للتدريس، أو كانت الدروس متباعدة، أو كان الطالب متغربًا أو فارًّا بدينه ونفسه أو في بلدٍ لا يتهيأ له فيها ثني الركب في مجالس العلم.

رابعًا: ينبغي أن يُعلم أنَّ البرامجَ المقترحةَ إنما تُحَدِّدُ الطريقَ في جملته،

وإلا فإنَّ نفس المسير في سبيل العلم يُظهر حوائج المتفقه من الكتب التي ربما لم تذكر، أو قامت له موجبات استبدال كتابٍ بآخر، فضلًا أنَّ بعض الكتب قد تدلك على أخرى.

ولهذا يقول الشيخ مشاري الشثري: التكوين العلمي الراشد ليس محتاجًا لإجاباتٍ مفصلةٍ جاهزةٍ عن سؤال الوسائل، وهو يتأبى على أن تكتب نهاياته في خطةٍ علميةٍ يرسمها مبتدئٌ في العلم أو يوصي بها متقدمٌ فيه؛ فإنَّ الحوائجَ العلمية تتجدد كلما ترقَّىٰ في سلم التحصيل، ومن هنا ينبغي عليه أن يطمس من قاموس سؤالاته كل سؤال يتعدىٰ مرحلته الراهنة؛ لأن السبيل ستسبين له مع كل ترق، فليست الخطة العلمية مما يكتب بمداد الحبر؛ بل إنما تتخلق بعرق الإنجاز.

خامسًا: التعامل مع كتب معراج كل فن إنما هو بحسب أصول الطلب الواردة في هذا الكتاب، ولهذا أكتفي بسرد الكتب اتكالًا على أن طالب العلم وعىٰ مادة الكتاب جيدًا، ولا أنبه إلا على ما اشتدت أهميته.

سادسًا: تضمن معراج كل فنٍّ العلومَ المندرجةَ تحته، ولا ينبغي أن يفزع الطالب من عدد هذه العلوم؛ لأنَّ رأس العلم قد يوازي عامة العلوم المتفرعة عنه من حيث مدة الإنجاز، ولكنَّ درايةَ الطالبِ بذلك من أول يومٍ يريحه في رسم خطته؛ لئلا يتضخم عنده الاشتغال بعلمٍ واحدٍ فيقضي فيه سنواتٍ مع الذهول عن غيره.

على أنَّ جلَّ هذه العلوم تقوم بأذهان أكثر الطلبة، لكنَّ القلة من المتفقهة التي تشتغل بعدِّها وربطها ببعضها، فالعلم هو العلم، ولكن لوازم بناء البرامج يحمل على إفراد كل علمٍ بخطةٍ يترقىٰ فيها من مرحلةٍ إلىٰ أخرىٰ؛ ضمانًا لعدم الذهول عن علمٍ منها أو الاشتغال بطرفٍ منه دون وعيه على وجهه.

وبعض المشايخ الأبرار الذين عرضت عليهم ما كتبت كلٌّ في تخصصه كانوا يقترحون اختصار السُّلَّم ليكون في وسع كل أحد، وقد عملت بالنصيحة إلىٰ آخر حدٍّ، غير أنَّ الاقتراح قد يصل ليكون سُلَّم الفنِّ صفحةً واحدةً أو صفحات قليلة محدودة، وعندما تطلب تفصيلًا لذلك تجده يكاد ينحصر في العلم الأصلي في الفن، مع انتقاء كتابٍ أو كتابين من كلِّ علمٍ متفرع، وهذا ليس بجادةٍ من الرأي، ولئن ناسب الرجل الذي طحنته الأعباء الدعوية والعلمية.. فإنه لا ينبي الطالب الذي يقدر أن يخصص بضع ساعات من يومه للتلقي والطلب، ولم يتعجل التصدر بعدُ.

وإنَّ العلوم المتفرعة علومٌ مستقلةٌ بنفسها، فلو نظرنا إلىٰ سلم الفقه مثلًا.. لوجدنا علم آيات الأحكام وأحاديث الأحكام والقواعد الفقهية والسياسة الشرعية والاقتصاد الإسلامي وغير ذلك مما لا يقوم بكلٍّ منها كتابٌ واحد ولا كتابان، بل حقه أن يفرد بسلمٍ متكامل يصلح للمتخصص فيه، ثم ينتخب المثقف المهتم ما يحتاجه من كتب المرحلة الأولىٰ.

وكذلك يقال في سلم الأصول وما ينطوي عليه من علم التخريج ومقاصد الشريعة والجدل، وفي سلم السنة وما ينطوي عليه من علم المصطلح والشروح والجرح والتعديل والعلل والطبقات والرجال والتخريج والسيرة وغير ذلك، وفي سلم اللغة وما ينطوي عليه من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ وأدبٍ ومعاجم وغير ذلك.

بل ربما زدت في الكتب في بعض العلوم والمراحل؛ لأنَّ مادتها لا تجتمع في كتبٍ قليلة، وربما كان أكثرها مما يُقرأ في أيام معدودات، أو للدلالة علىٰ مهمات الكتب في الفن لا أنَّ الكلَّ مطلوب.

وهذا ما وسعني اجتهادي فيه، وقد كتبته من واقع التجربة، والشعور بالمشكلة، فإن أصبت.. فهذا فضلُ الله، وإن أخطأت.. فأستغفر الله وأتوب إليه، والخيرَ أردت.

سابعًا: إنَّ الدراية بالعلوم الإنسانية عمدةٌ في الطلب، لا يمكن الاستغناء عنها بحال، وقد نظَّرت لذلك في موضعه من الكتاب، لكني تركت معارج هذه العلوم مع فرط أهميتها.

وذلك أني كنت عندما أقرأ في بعض هذه الكتب أجد اختلاط الغث بالسمين، والطيب بالخبيث، والعسل بالسم، والحلال بالحرام، وأخشىٰ أن يظن بعض من ينظر في هذا الكتاب أن إثباتها فيه يحمل تزكيةً مطلقةً لها، أو يكون مبتدئًا لا يميز بين ذلك فيتمكن منه الباطل قبل أن يرىٰ أنوار الحق، فأقع فيما لا تحمد عقباه، ولم أهتدِ إلىٰ سبيلٍ بعدُ للنجاة من ذلك، وعسىٰ إن وجدت أن أستدرك ذلك بإثباتها في طبعةٍ لاحقةٍ إن شاء الله.

ومع ذلك؛ فإني أحيل الحريص علىٰ ما كتبه الشيخ أحمد سالم في كتابه «السبل المرضية»، وعلىٰ القوائم المقترحة التي نشرها علىٰ قناته التلغرام، وكذلك علىٰ الاقتراحات الحسنة التي يبثها بعض الكرماء الثقات علىٰ مواقع الشبكة، والتي تُدرك بالبحث.

وقد جالست بعض المختصين في هذه العلوم وسألتهم عن جهودٍ علميةٍ تَوَقَّتْ ذلك فلم أجد شيئًا متكاملًا بعد، وبلغني أنَّ بعض الكرماء اجتهد في ذلك، لكن ليس بين يدي شيءٌ منه، ومن يجد فليراسلني جزاه الله خيرًا.

ثامنًا: لم أنصص علىٰ الطبعة الجيدة للكتاب إلا إذا غلَّبْتُ الظنَّ عدم وجود أفضل منها، خاصة بعد ازدحام المكتبات بالتحقيقات التي تطل علينا كل يوم، وفي بعضها جودةٌ، وليجتهد المتفقه في البحث عبر الشبكة عن أفضل الطبعات قبل أن يقتني أي كتاب؛ فإنَّ الطبعة ذات التحقيق الدقيق والتعليق العميق قد لا تقل منزلةً وأهميةً عن الكتاب نفسه.

علىٰ أني قد أذكر طبعة بعض الكتب لا لأنها أحسن الطبعات؛ فإنه قد لا يوجد طبعةٌ أخرىٰ للكتاب؛ ولكن للدلالة علىٰ دار النشر؛ تيسيرًا للوصول إلىٰ الكتاب.

تاسعًا: لم ألتزم منهجًا في ذكر أسماء المؤلفين؛ فمرة أذكر المؤلف بلقبه أو كنيته أو درجته ومرة أترك، وإنما راعيت الشهرة في ذلك أو ما جرئ به القلم، وإني لأحفظ لكل عالمٍ علمَهُ وجهده ودرجته ومنزلته، وأرجو الله أن يجزيهم خير الجزاء، ويعظم لهم أجزل العطاء، ويجعلهم من سادات أهل العلم والحق يوم القيامة.

عاشرًا: أسرد معراج كلِّ علمٍ وما يتفرع عنه من علومٍ تندرج تحته، وأُبيِّنُ في ختام ذلك الترتيب المقترح لدراسةِ هذه العلوم؛ ليعرف الطالب مسيرة التلقي في هذه العلوم.

وآن الآن أوانُ الدخول في المقصود، فنشرع فيه بعون الرب المعبود:

المبحث الأول
الحقائب التمهيدية والتأسيسية

في هذا المبحث حقيبتان تمهيديتان وحقيبتان تأسيسيتان بمثابة المدخل العام لدراسة العلوم الشرعية.

أما الحقيبة التمهيدية الأولىٰ؛ فإنها تتضمن طائفةً من الكتب يستفتح بها القارئ حياته العلمية، وتناسب العامي والمهتم ومن لم يسبق له نظرٌ في كتب العلم، أو قرأ شيئًا لكنه يشتهي إعادة ترتيب أوراق الطلب من جديد.

وأما الحقيبة التمهيدية الثانية؛ فإنها آوت عددًا أكبر من الكتب، وأكثر عمقًا في الأفكار، ورصانةً في الأسلوب، وتتفاوت نفسها في ذلك، لكن الحقيبة الأولىٰ تبسط المهاد جيدًا لها، علىٰ أن القراءة في جلِّها أمرٌ ممكن.

ولا يلزم في هذه الحقيبة والتي قبلها أن ينتهي منهما أولًا ثم يشرع في قراءة العلوم، لكن لو فعل هذا فقد أحسن، وإلا فليجعل لهذه الحقائب وردًا ثابتًا؛ فإنَّ لها أهمية في فهم الدين عامة، وقد يُحجب عن كثير من مهمات المفاهيم عند الانغماس في العلم الذي يشتغل به.

وأما الحقيبة التأسيسية الأولىٰ؛ فقد لبَّت رغبة من يسأل عن مهمات الكتب الشرعية من أجل فهم دينه، ويريد أن يقتصر علىٰ كتابٍ واحدٍ من كل علمٍ من العلوم الشرعية، وهذا يعين طلبة الجامعات من غير الكليات الشرعية، ويلبي حاجة العامة المهتمين وأضرابهم.

وأما الحقيبة التأسيسية الثانية؛ فهي حقيبةٌ مختصةٌ بطالب العلم الشرعي، وهي تأخذ أهم كتابٍ من المرحلة الأولىٰ من كل علمٍ، وذلك إما أن يفتتح بها الطلب بعد المدخل التمهيدي فيدرسها علىٰ التوالي، فيكون قد اطلع علىٰ طرفٍ من كل فن، أو أن يتقدم في كل فن بما تيسر له، لكنه يجمع هذه الحقيبة لغرض استحضار مهمات العلم طيلة مدة طلبه.

ووجه ذلك: أنَّ هذه الكتب جمعت أمهات المسائل في كل علم ورؤوسها التي يقبح بطالبٍ ينتسب إلىٰ العلم الشرعي أن يكون جاهلًا بها، ولو أنه راح يخوض في كل علمٍ وامتد به الزمان في ذلك.. فإنه سيكون جاهلًا بأصول كل علم في الوقت الذي يسبح فيه في دقائق العلم الذي يشتغل به، فتكون وظيفة هذه الحقيبة أن تجعله مستحضرًا لأصول عامة مسائل العلوم الشرعية علىٰ الدوام.

وسبيل ذلك بأن يفرد ساعةً من وقته علىٰ الأقل في كل يوم لقراءة هذه الكتب، فيرتبها بحسب الأهمية، وكلما انتهىٰ منها شرع في قراءتها من جديد، ويبقىٰ كذلك حتىٰ يحكمها غاية الإحكام، ولا ينقطع عن النظر فيها ولو بلغ ما بلغ من الضبط والعلم.

ودونك عرض الحقائب الأربع في أربعة مطالب فيها هدايةٌ للطالب:

المطلب الأول
الحقيبة التمهيدية الأولى

وقد تضمنت اثنتي عشرة مادةً هذا سردها:

١- لأنك الله للشيخ علي الفَيفي.

٢- صفقات رابحة للشيخ خالد أبو شادي فرَّج الله عنه.

٣- الطريق إلىٰ القرآن للشيخ إبراهيم السكران.

٤- فقه الاستدراك «كيف تصحح المسير، وتستدرك ما فات في العمر الطويل في زمن قصير؟» لمحمد بن محمد الأسطل.

٥- الخطة البراقة لذي النفس التواقة للدكتور صلاح الخالدي.

٦- صفة صلاة النبي ﷺ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ولو أتبعها بسماع محاضرة الشيخ عبد العزيز الطريفي في ذلك.. فخير، وهي منشورةٌ عبر الشبكة، وقد أخرجها في كتاب.

٧- أول مرة أصلي وكان للصلاة طعمٌ آخر للشيخ خالد أبو شادي فرج الله عنه.

٨- من أدب الإسلام للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وهي رسالةٌ صغيرة.

٩- إلىٰ الجيل الصاعد لأحمد السيد.

١٠- شرح الأربعين النووية لابن عثيمين.

١١- المشوق إلى القراءة وطلب العلم للدكتور علي العمران. ط. دار الصميعي.

١٢- سماع ما طاب لك من محاضرات الشيخ عبد الرحيم الطحان، والشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي والشيخ محمد راتب النابلسي وغيرهم من العلماء والدعاة.

المطلب الثاني

الحقيبة التمهيدية الثانية

وقد تضمنت سبعًا وعشرين مادة، علمًا بأنَّ بعضها مذكورٌ في معارج بعض العلوم، لكن أهميته تُقَدِّمُهُ إلىٰ المداخل التمهيدية، لا سيما إذا تعلق الأمر بالمثقف أو المهتم الذي لا يريد التوغل في العلوم.

وهذه المواد والتي قبلها لا يلزم الانتهاء منها قبل الدخول في دراسة علوم الآلة أو الغاية كما مر، وإنما يقرأ ما تيسر منها، وأثناء قراءته في تلك العلوم يجعل له وردًا منتظمًا فيها، وهذا سردها:

١- تعليقات علىٰ كتاب تعظيم العلم للشيخ صالح العصيمي، وهي ثلاث محاضرات صوتية ومُفرَّغة.

٢- مسلكيات للشيخ إبراهيم السكران.

٣- معارج العلوم.. من الأمية إلىٰ الإمامة لمحمد بن محمد الأسطل، وهو هذا الكتاب.

٤- اقرأ وارتق للدكتور علي العمران. ط. دار الصميعي.

٥- حضور اللقاء الحواري مع الشيخ عبد العزيز الطريفي فرج الله عنه بعنوان: «دور العالم في الأمة»، ومدته ساعةٌ ونصف، وهو منشور علىٰ اليوتيوب بعنوان: «لقاء الجمعة»، ومن الخير لو أعدت سماعه مرة بعد مرة.

٦- شرح حلية طالب العلم لابن عثيمين.

٧- حضور سلسلة سؤال الثقافة، وهي سلسلة حوارية مع الشيخ محمَّد محمد أبو موسىٰ، ومنشورةٌ عبر الشبكة، وقد أشرت علىٰ أحد الكرام أن يفرغها ففعل وأعدتُ ترتيبها، وعسىٰ أن يتيسر نشرها قريبًا إن شاء الله، ولا يغني قراءة تفريغها عن سماعها.

٨- صفحات من صبر العلماء علىٰ شدائد العلم والتحصيل للشيخ عبد الفتاح أبو غدة. ط. دار السلام.

٩- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة.

١٠- أذكار الصباح والمساء رواية ودراية للشيخ عبد العزيز الطريفي[1].

١١- الماجريات للشيخ إبراهيم السكران.

١٢- النبأ العظيم.. نظراتٌ جديدة في القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز، وهو من أفضل ما ألف في بابه في عصرنا الحاضر.

١٣- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبي الحسن الندوي.

١٤- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس لمحمد عرسان الكيلاني.

١٥- سلطة الثقافة الغالبة للشيخ إبراهيم السكران.

١٦- سابغات لأحمد السيد.

١٧- شبهات حول الإسلام للأستاذ محمد قطب.

١٨- زخرف القول للدكتور فهد العجلان والشيخ عبد الله العجيري.

١٩- معركة النص للدكتور فهد العجلان.

---

(١) ومن المهم التركيز علىٰ أذكار الصلاة ومعانيها، وقد فصلت هذا في كتاب «دليل المعتكف» وهو منشور علىٰ الشبكة، وهو بالاشتراك مع أخي الشيخ بلال جميل مطاوع وفقه الله.

٢٠- ينبوع الغواية الفكرية للشيخ عبد الله العجيري.

٢١- في الطريق إلىٰ ثقافتنا للعلامة محمود شاكر.

٢٢- صيد الخاطر لابن الجوزي.

٢٣- صناعة الحياة للأستاذ محمد أحمد الراشد.

٢٤- خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي.

٢٥- في فقه الأولويات للشيخ يوسف القرضاوي.

٢٦- الفوائد لابن القيم.

٢٧- الفصل بين النفس والعقل للشيخ عبد العزيز الطريفي، وهو نفيسٌ جدًّا.

٢٨- شرح أسماء الله الحسنىٰ وصفاته الفضلىٰ للشيخ محمد راتب النابلسي، وأصله شروح صوتيةٌ ومرئيةٌ منشورة.

٢٩- شرح رياض الصالحين لابن عثيمين.

المطلب الثالث
الحقيبة التأسيسية العامة

وتضمنت ستة بنود دونك عدَّها:

١- المختصر في التفسير الصادر عن مركز تفسير للدراسات القرآنية، أو كتاب صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، أو كتاب المعين على تدبر الكتاب المبين للشيخ مجد مكي.

٢- سلسلة العقيدة للشيخ عمر الأشقر، ومن ضاق وقته وأراد وجبةً سريعة فيقرأ العقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة للشيخ أحمد القاضي، فهو كتاب صغير لكنه فذ، ولمؤلفه شرحٌ له في حلقات مرئية منشورةٍ عبر الشبكة.

٣- الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي للشيخ مصطفى البغا وآخرين، أو الفقه الميسر، أو فقه السنة للشيخ سيد سابق.

٤- شرح الأربعين النووية لابن عثيمين.

٥- الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري، وسماع سلسلة «السيرة النبوية» للشيخ طارق سويدان أو سلسلة الشيخ راغب السرجاني، أو سلسلة الشيخ حازم أبو إسماعيل، وللعبد الفقير سلسلة متجددة، تم الانتهاء من زيادةٍ عن شطرها.

٦- الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي لمجموعة من الباحثين بتقديم د. راغب السرجاني، وتقع في مجلدين.

المطلب الرابع
الحقيبة التأسيسية الخاصة

وهذه الحقيبة فيها انتقاءٌ لكتابٍ واحدٍ من بعض العلوم، مما ينبغي إدمان النظر فيه كما تقدم، وقد آوت عشرة كتب تضيف إليها ما تشاء وتحذف منها أو تستبدل ما تشاء:

١- العقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة للشيخ أحمد القاضي، أو كتاب المغربية للشيخ عبد العزيز الطريفي.

٢- شرح مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير للشيخ مساعد الطيار.

٣- المختصر في التفسير، أو عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير للشيخ العلامة أحمد شاكر.

٤- القول المختصر شرح نخبة الفكر للدكتور عمر المقبل.

٥- شرح ابن قاسمٍ الغزي علىٰ متن أبي شجاع، ولي حاشية عليه أشتغل بها، يسَّر الله إتمامها وطباعتها.

٦- شرح الورقات في أصول الفقه للشيخ عبد الله الفوزان.

٧- التحفة السنية شرح المقدمة الآجرومية لمحمد محيي الدين عبد الحميد.

٨- حصول المسرة بتسهيل لامية الأفعال بزيادة بحرق والاحمرار والطرة للشيخ صلاح البدير، والأحسن أن يقرأ كتاب «متعة الطرف في شرح شذا العرف» لنسيم بلعيد؛ لأنه مستوعبٌ لأبواب الصرف.

٩- التبيان في شرح مائة المعاني والبيان لابن الشحنة للشيخ محمد نصيف.

١٠- فقه اللغة للدكتور إبراهيم نجا، الجزء الأول.

١١- شرح الدمنهوري على السلم المنورق.

بقي التنبيه في ختام هذا المبحث أن الترتيب بين كتب الحقائب التمهيدية والتأسيسية ليس متحتمًا، ولو أخذ به لكان أولىٰ؛ لأني راعيت التدرج في جل ما سطرت، كما أنه لا يجب التقيد بها أو قراءتها جميعًا، لكنه أولىٰ وأنفع، والله يتولاك ويرعاك.

المبحث الثاني
معارج علوم الآلة

تقدم أنَّ ألمع علوم الآلة أربعة: اللغة والمنطق وأصول الفقه ومصطلح الحديث، وفي هذا المبحث بيان معارج هذه العلوم إلا مصطلح الحديث؛ فإن معراجه في علوم السنة؛ لشدة مناسبته هناك.

ودونك عرض معارج العلوم الثلاثة في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول
معراج اللغة العربية

ويتضمن اثني عشر علمًا، ودونك البيان:

أولًا: تاريخ النحو والمدخل إلى دراسته

١- حضور سلسلة «مدخل إلىٰ علم اللغة» للدكتور محمد العمري، وتقع في ست محاضرات منشورةً عبر الشبكة.

٢- تكوين الملكة اللغوية للشيخ البشير عصام المراكشي.

٣- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة للشيخ محمد الطنطاوي، ويمكن أن

يقدمه بسماع محاضرة الشيخ محمد رشيد التي لخَّص فيها مهمات الكتاب، وهي منشورةٌ عبر الشبكة، ونبه فيها علىٰ جملةٍ من التنبيهات النافعة.

٤- مراحل تطور الدرس النحوي لعبد الله بن حمد الخثران.

٥- المدارس النحوية لشوقي ضيف.

وأنصح كل دارسٍ للعلم الشرعي أن يقرأ كتاب «حاجة العلوم الإسلامية إلىٰ علم العربية» للدكتور حسن يشو، ط. وزارة الأوقاف القطرية؛ فإنه مهم ويكثر من تطبيقات علم العربية في مختلف العلوم الشرعية، ولا يلزم البدء به، لكن الاطلاع عليه فضيلة.

ثانيًا: النحو

وهذا عمدة علوم العربية الذي يُبدأ به، ثم ينطلق طالب العلم إلىٰ غيره، وأثره حاضرٌ في عامة العلوم وكذلك الصرف، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الكريم العماد:

النحو مفتاح العلوم وفهمه ... يكفي العقول مشقة وعناء

فافهمه واحرص أن تنال زمامه ... يجعل طريقك للعلوم ضياء

ودونك مراحل دراسته الثلاث:

المرحلة الأولىٰ:

١- حضور سلسلة مهارات التحليل النحوي للدكتور محمد العمري، وهي منشورةٌ علىٰ اليوتيوب، وهي من أفضل ما يستفتح به طالب العلم دراسة النحو، وتقضي هذه السلسلة علىٰ هاجس الصعوبة تجاه علم النحو.

٢- التحفة السنية شرح المقدمة الآجرومية للشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ويقرأ بالتوازي معه شرح ابن عثيمين على الآجرومية؛ لأنه مبسط العبارة والمعاني، ويستمع لشرح متن الآجرومية للشيخ محمد رشيد، ويقع في سبعة عشر درسًا، ولو استغلق عليه شيءٌ من كتاب التحفة فيستعين بكتاب «الحلل الذهبية شرح التحفة السنية» لمحمد الصغير المقطري.

٣- حفظ متن الآجرومية، ويمكن حفظ نظم عبيد ربه الشنقيطي له لمن آثر النظم، وحيث اعتمده فيسمع شرحه المختصر للشيخ البشير عصام المراكشي.

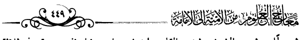
ويمكن لمن أراد التوسع هنا أن يقرأ شرح الشيخ حسن الكفراوي على المقدمة الآجرومية، وهذا يمكن تجاوزه لكن الوصية به؛ لأنَّه يضبط لطالب العلم أصول الإعراب، وكثيرٌ من الطلبة يعاني ضعف ملكة الإعراب، فيعينه هذا الكتاب إعانةً حسنة، لكن لا يقفز إليه قبل إنجاز ما تقدمه.

المرحلة الثانية:

١- يبدأ هذه المرحلة بالاستماع لمحاضرتي الشيخ محمد رشيد بعنوان: «ما يستشهد به في اللغة والنحو والصرف»، يشرح فيهما إحدى مقدمات كتاب «خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي»، وفيه يبين أصول أدلة النحو حتى لا تأخذ أحكام النحو وأنت لا تدري من أين جاءت.

٢- شرح قطر الندى لابن هشام بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، وأفضل طبعة لهذا الكتاب طبعةُ مؤسسة الرسالة بتحقيق نسيم بلعيد؛ فقد صحح فيها ما فات الشيخ محمد محيي الدين وأثبت تعليقاته.

ويقرأ قبله أو بالتوازي معه شرح الشيخ عبد الله الفوزان على قطر الندى، ويستمع لشرح الدكتور سليمان العيوني على قطر الندى، ويقع في ستة وعشرين



شريطًا، وشرح الشيخ رشدي القلم على شرح ابن هشام نفسه، ويقع في ثلاثة وأربعين شريطًا.

المرحلة الثالثة:

١- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ويستمع بالتوازي إلى الشرح الصوتي للدكتور سليمان العيوني للألفية، وهو شرح نفيس، ويعتمد كثيرًا على شرح المرادي وابن عقيل، ويمكن الاستفادة من شرح الشيخ عبد الله الفوزان «دليل السالك» عند الحاجة.

٢- حفظ ألفية ابن مالك.

٣- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ولا يغني عنه شرح ابن عقيل، لكن قراءة ابن عقيل يمكن أن تصاحب حفظ المنظومة وسماع شرح العيوني؛ وذلك أنَّ تعليقات الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد نفيسةٌ لا ينبغي أن تفوت، وهي زاخرةٌ بالعلة النحوية، وإذا استغلق من الكتاب شيءٌ فيستعان بكتاب الشيخ خالد الأزهري «التصريح على التوضيح»، وما أذكر أني احتجت شيئًا إلا وجدت بغيتي فيه.

المرحلة الرابعة:

وهذه المرحلة لمن أراد التوسع وعظمت عنايته بالنحو، فيقرأ الآتي من غير لزومٍ للترتيب:

١- شرح موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب لابن هشام للشيخ خالد الأزهري، ويمكن أن يُقَدِّمَ بين يديه كتاب «الإعراب عن نظم قواعد الإعراب» للشيخ عبد الله الفوزان، ط. دار ابن الجوزي، والنظم هو لابن ظهيرة الشافعي.

٢- معاني النحو للشيخ فاضل سامرائي، وهو كتابٌ نفيسٌ يُثوِّر النحو ومعانيه في ساحة التطبيق والاستنباط والتمثيل من كلام الوحي، مع التنبيه علىٰ أن الكتاب يتخلله اجتهادات قد لا يوافق عليها.

٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام تحقيق وشرح الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

٤- «الكواكب الدرية شرح المقدمة الآجرومية» للإمام الأهدل، وهذا الكتاب يعتني بكثرة التقسيمات والعلل النحوية والتمثيل الإعرابي، وهو كالشارح لكتاب الفواكه الجنية شرح متممة الآجرومية للإمام الفاكهي، لكنَّ كتابَ الفاكهيّ دقيق العبارة، فيستعان عليه بشرح الشيخ رشدي القلم له في مائة درس، وما سمعت شرحًا للشيخ رشدي القلم في النحو أحسن منه.

٥- شرح الأشموني علىٰ الألفية؛ فإنه شرحٌ بالغُ النفاسة.

٦- احمرار ابن بونا علىٰ الألفية؛ لأنه استدرك الأبواب التي لم تُذكر فيها، وهذا من اهتمامات السادة الشناقطة.

ثالثًا: الصرف

المرحلة الأولى:

١- الأساس في الصرف لخالد الزاهدي، وهو شرحٌ مبسَّطٌ سهل لمتن البناء، ويستمع بالتوازي إلىٰ شرح متن البناء والأساس للشيخ محمد رشيد، ويقع في تسعة دروس.

ويمكن إذا أراد التوسع أن يعقبه بكتاب «تلخيص الأساس شرح متن البناء والأساس» لعلي بن عثمان، أو شرح الكفوي علىٰ متن البناء.

٢- مُحَنِّكُ الأطفال من لُبَانِ معاني لامية الأفعال للعلامة محمد الأمين الهرري ط. دار المنهاج ودار طوق النجاة، وأسهل منه فتح أقفال لامية الأفعال لعلال نوريم، ويستمع مع ذلك إلى الشرح الصوتي للّامية للشيخ العلامة محمد بن علي آدم الأثيوبي، ويقع في ثلاثة دروس، وهو منشورٌ مفرَّغ في شبكة الإمام الآجري، وهو شرحٌ ميسرٌ حسن.

٣- حفظ لامية الأفعال.

٤- مختصر الخطيب في علم التصريف للدكتور عبد اللطيف الخطيب.

المرحلة الثانية:

١- حصول المسرة بتسهيل لامية الأفعال بزيادة بُحْرق والاحمرار والطرة للشيخ صلاح البدير ط. مكتبة دار المنهاج بالرياض.

٢- الطرة توشيح لامية الأفعال للحسن ولد زين الشنقيطي بخياطة وترشيح شيخ شيوخنا محمد سالم ولد عدود، ط. دار الكتب العلمية بتحقيق الشيخ عبد الحميد محمد الأنصاري، ويستمع بالتوازي لشرح الشيخ محمد محمود الشنقيطي، وهو مبثوثٌ مرئيًّا في ثلاثين درسًا، وهذه المحطة تعد قفزةً كريمةً في هذا العلم.

٣- شرح تصريف العزي للإمام التَّفتازاني ط. دار المنهاج، ويستمع بالتوازي لشرح الشيخ فوزي كوناتي على المتن، أو شرح الشيخ عبد الرشيد المولوي الهندي، وهما شرحان نافعان مبثوثان على الشبكة.

أو يقرأ بدلًا من ذلك كتاب شذا العرف في فن الصرف للشيخ أحمد الحملاوي، ويستمع بالتوازي لشرح الشيخ عبد الغني عبد الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويقع في اثنين وخمسين شريطًا.



والذي أعتقده أنَّ هذا الكتاب دقيق، وليس سهلًا كما يُرَوَّج لذلك، وإن كان حسن الترتيب، ولذلك فإنه يحتاج لشارحٍ متقن، ويمكن أن يستعين طالب العلم بكتاب «تكحيل الطرف بشرح وتحقيق شذا العرف» لمحمد خلف يوسف، لكنه كان قوي الهمة في أوله دون آخره، والأحسن منه أن يقرأ كتاب «متعة الطرف في شرح شذا العرف» لنسيم بلعيد، ويقع في مجلدين، وهو كتابٌ محررٌ نفيس.

٤- معاني الأبنية في العربية للشيخ فاضل سامرائي، وهو كتابٌ نفيس يُنَوِّرُ المباني الصرفية في ساحة التطبيق، ويكثر من التمثيل من كلام الوحي، وتأخيره ليس بلازم؛ بل يمكن أن يجعل في ختام المرحلة الأولىٰ أو صدر الثانية.

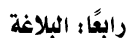
المرحلة الثالثة:

١- قراءة أبواب الصرف من شرح ابن عقيل وأوضح المسالك علىٰ الألفية، وإن سبق له قراءتها، وتبلغ أبيات الصرف نحوًا من ثلاثمائة بيتٍ من آخر المتن.

٢- شرح الرَّضِيِّ علىٰ الشافية بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد نور الحسن ومحمد الزفزاف، وهذا الكتاب عمدة المتأخرين، أو يقرأ شرح الشافية للخضر اليزدي، دراسة وتحقيق الدكتور حسن العثمان؛ فإنه دقيقٌ وقد تَعَقَّبَ الرضي وغيره، ولعله أفضل من شرح الرضي.

وإذا أراد التوسع فإنه يقرأ المستقصىٰ في علم التصريف للدكتور عبد اللطيف الخطيب، و«فتح الأقفال وحل الإشكال بشرح لامية الأفعال» المشهور بالشرح الكبير للعلامة بُحْرُق الحضرمي، ط. المكتبة العصرية - بيروت، ويقع في مجلدٍ واحد، وعامة شروح اللامية وما أضيف إليها عالةٌ عليه، وكتاب «الممتع في التصريف» لابن عصفور، أو قسم التصريف من كتاب «ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب» لأبي حيان الأندلسي، وليس لهذا الكتاب طبعةٌ خاليةٌ من الأخطاء إلىٰ الآن.

رابعًا: البلاغة



المرحلة الأولى:

١- الاستماع لمحاضرتي الشيخ محمد رشيد اللتين شرح فيهما مقدمة الإمام الزمخشري لتفسيره الكشاف، وبيَّن فيهما خطورة علمي المعاني والبيان.

٢- شرح بغية المبتدي في الفنون الثلاثة للشيخ محمد رشيد، والمتن من وضع الشارح وفقه الله، ولخص فيه كتاب التلخيص للقزويني بأسلوبٍ سهلٍ ميسر يناسب المبتدئ، وللشيخ شرح مرئيٌّ على المتن يقع في ثمانية دروس منشورٌ عبر الشبكة.

٣- التبيان في شرح مائة المعاني والبيان لابن الشحنة للشيخ محمد نصيف، ويمكن الاستماع إلى شرح الشيخ أحمد الحازمي على المتن، وهو شرحٌ صوتيٌّ مفرغ منشور على موقعه.

٤- حفظ منظومة مائة المعاني والبيان.

المرحلة الثانية:

١- حلية اللب المصون شرح الجوهر المكنون للدمنهوري، ويستمع بالتوازي للشرح الصوتي للشيخ البشير عصام المراكشي على الجوهر المكنون، ويقع في ثلاثين درسًا، وهو شرحٌ مبثوثٌ على الشبكة، وقد نُشِر تفريغه من مُدَّة، مع حفظ المتن لمن لم يحفظ مائة المعاني والبيان، ولا حاجة لحفظ المتنين.

٢- المنهاج الواضح في البلاغة لحامد عوني، وهو شرح نفيس.

٣- البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف.

المرحلة الثالثة:

١- عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي.

٢- سلسلة علوم البلاغة للشيخ فضل عباس، وهي زاخرةٌ بالتمثيل القرآني، وهذه ميزةٌ حسنة؛ إذ لا يخفىٰ أنَّ علم البلاغة وُلِد من رحم علوم القرآن.

٣- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، وعليه شرحٌ مقتضبٌ للدكتور محمد إبراهيم شادي، ط. دار اليقين، ويستمع للشرح المرئي المتجدد عليه للشيخ الدكتور محمد محمد أبو موسىٰ، وهو زيادة عن مائة درس.

٤- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، ويستمع لما تم شرحه من الشيخ الدكتور محمد محمد أبو موسىٰ، وهو منشورٌ عبر الشبكة.

ولمن أراد التوسع يقرأ شرح السيوطي علىٰ ألفية عقود الجمان، ولا أنصح بحفظها، ولكن يصرف الهمة لتحصيل الملكة البلاغية عبر إدمان النظر في كتب التفاسير التي اعتنت بذلك؛ كتفسير الكشاف للزمخشري والتحرير والتنوير لابن عاشور، وكذلك كتب الأدب مثل ديوان المعاني لأبي هلال العسكري والوساطة بين المتنبي وخصومه للإمام عبد القاهر الجرجاني والمثل السائر لابن الأثير وأضراب ذلك.

وليكن له عناية حسنة بكتب شيخ البلاغيين الدكتور محمَّد محمد أبو موسىٰ مثل: التصوير البياني.. دراسة تحليلية لمسائل البيان، والإعجاز البلاغي.. دراسةٌ تحليلية لتراث أهل العلم، ودلالات التراكيب.. دراسةٌ بلاغية، وخصائص التراكيب، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، دراسةٌ في البلاغة والشعر، وغير ذلك.

خامسًا: فقه اللغة

المرحلة الأولى:

١- دراسات في فقه اللغة لصبحي صالح.

٢- فقه اللغة العربية لإبراهيم نجا، وهو من جزأين صغيرين، ويمكن الاكتفاء بالأول.

٣- فصولٌ في فقه اللغة لرمضان عبد التواب.

٤- فقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي.

المرحلة الثانية:

١- الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس.

٢- في فقه اللغة العربية للدكتور محمد بن يعقوب التركستاني، صدر عن دار الميمنة، وهو كتابٌ فذ.

٣- الميسر في فقه اللغة المطور لمحمد محمد يونس علي.

٤- اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان.

المرحلة الثالثة:

١- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للإمام السيوطي.

٢- الخصائص لأبي الفتح ابن جني.

سادسًا: المعاجم ومتن اللغة

هذا العلم لا بد أن يتقدمه إنجاز علم الصرف، ولو المرحلة الأولىٰ منه.

المرحلة الأولى:

١- الاستمتاع لدورة «فقه اللغة» للدكتور خالد فهمي، وتقع في ثماني محاضرات، وهي منشورةٌ مرئيًّا عبر الشبكة، وتحدث فيها باستفاضة عن المعاجم، وهي نفيسةٌ جدًّا.

٢- المعجم العربي.. نشأته وتطوره للدكتور حسين نصار.

٣- شرح نظم مثلث قطرب لعمار بن خميسي. ط. دار ابن حزم.

٤- المصباح المنير للفيومي، أو مختار الصحاح للرازي، والأول أشهر عند الشافعية وأنفع للفقهاء، والثاني أشهر عند الحنفية وأنفع للغويين، وحيث قرأ المصباح المنير فيقدمه بقراءة مقال: «نظرات في اصطلاح المصباح المنير للفيومي» لأبي مالك العوضي، والاستماع لمحاضراته «شرح المنتقىٰ من المصباح المنير»، ويمكن الاستفادة من «معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير» للدكتور رجب عبد الجواد إبراهيم.

٥- ومن أراد الحفظ فيحفظ نظم كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابي لشهاب الدين الخُوَيِّي، تحقيق عبد الحميد الدرويش، ط. دار النوادر اللبنانية، ومن لم يرد حفظه فليكثر النظر فيه.

المرحلة الثانية:

١- مقاييس اللغة لابن فارس.

٢- معجم الأخطاء الشائعة لمحمد العدناني.

المرحلة الثالثة:

١- القاموس المحيط للفيروز آبادي.

٢- ومن أراد التوسع قرأ «تهذيب اللغة» للأزهري، أو المعجم الموسوعي الذي يناسبه؛ لأنَّ المعاجم متفاوتةٌ في المنهج والمادة التي تقدمها من حيث الفصاحة والترتيب والتأصيل والتفريع والتمييز بين الحقيقة والمجاز وتمييز الضبط والشكل واستيعاب الألفاظ المولدة وغير ذلك[١].

سابعًا: الاشتقاق

١- الاشتقاق لعبد الله أمين.

٢- مقاييس اللغة لابن فارس.

٣- المعجم الاشتقاقي المؤصَّل لمحمد حسن جبَل.

ثامنًا: الدلالة اللغوية

١- علم الدلالة لفايز الداية أو لأحمد مختار عمر أو لفريد حيدر، ويمكن حضور بعض المحاضرات أو الدورات عبر اليوتيوب التي تكلمت عن علم الدلالة.

٢- مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب لمحمد محمد يونس علي.

---

(١) ينظر في ذلك للمقال الذي كتبه أبو مالك العوضي جوابًا عن سؤال: ما أفضل المعاجم؟ وهو منشور على موقع الألوكة.

٣- المعنىٰ اللغوي لمحمد حسن جبل.

٤- التطور اللغوي لرمضان عبد الوهاب.

٥- المعجم العربي.. نشأته وتطوره للدكتور حسين نصار.

٦- الظاهرة الدلالية لصلاح الدين زرال.

٧- فهم الفهم لعادل مصطفىٰ.

تاسعًا: علم الأدب

المرحلة الأولى:

١- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب للسيد أحمد الهاشمي.

٢- شرح المعلقات السبع للزوزني، ويستمع بالتوازي لشرح الشيخ محمد رشيد علىٰ المعلقات، وإذا أراد التوسع فيستمع للشرح النفيس علىٰ شرح التبريزي للمعلقات للدكتور فخر الدين قباوة، وله تحقيقٌ له، والشرح منشورٌ عبر الشبكة.

٣- حفظ المعلقات السبع.

المرحلة الثانية:

١- المنتخب من أدب العرب، لخمسة كُتَّاب وهم: أحمد الاسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وعبد العزيز البشري وأحمد ضيف.

٢- الوسيط في الأدب العربي وتاريخه لأحمد الاسكندري ومصطفىٰ العناني.

٣- المفصل في تاريخ الأدب العربي لعلي الجارم وأصحابه.

٤- جمهرة خطب العرب وجمهرة رسائل العرب وكلاهما لأحمد زكي صفوت، وهما كتابان عظيمان في تكوين الملكة اللغوية.

٥- قراءة ما تيسر من أعمال الأديب المصري مصطفىٰ لطفي المنفلوطي؛ كالفضيلة والنظرات.

المرحلة الثالثة:

١- حضور سلسلة «أصول نقد الشعر» للشيخ محمد رشيد، وتقع في عشرة دروس، وهي دروسٌ قويةٌ تصنع أساسًا فكريًّا عميقًا لدراسة الشعر.

٢- شرح شعر عمر بن أبي ربيعة وأبي فراس الحمداني وغيرهما للشيخ محمد رشيد، ويطلع كذلك علىٰ القصائد المشهورة للمتنبي وأبي نواس وأبي تمام وأضرابهم.

٣- وحي القلم لمصطفىٰ صادق الرافعي.

٤- فيض الخاطر لأحمد أمين.

٥- البيان والتبين للجاحظ.

٦- أدب الكاتب لابن قتيبة.

المرحلة الرابعة:

١- دواوين الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري.

٢- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام لأحمد المرزوقي.

٣- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري.

ثم يقرأ ما شاء من رياض الأدب، ويستعين المتخصص بالخطة التي رسمها الشيخ محمد رشيد في محاضرةٍ له بعنوان: «بماذا أبدأ في دراسة الشعر القديم وحفظه»، وهي منشورةٌ عبر الشبكة.



ومن كان مهتمًا بتنمية ملكة الأدب ومعالجة النصوص وتحليلها فيقرأ الشعر والشعراء لابن قتيبة، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني، والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني، ونمط صعب ونمطٌ مخيف لمحمود شاكر، وقراءة في الأدب القديم للدكتور محمد أبو موسى.

عاشرًا: العروض والقوافي

المرحلة الأولى:

١- ميزان الذهب في صناعة شعر العرب للسيد الهامشي.

٢- أهدى سبيل إلى علمي الخليل لمحمود مصطفى.

٣- شفاء الغليل في علم الخليل لمحمد بن علي المحلي، وهو كتابٌ تعليميٌ نافع.

٤- كن شاعرًا للأستاذ عمر مخلوف.

المرحلة الثانية:

١- الاستماع للشرح الصوتي للشيخ عصام البشير على منظومة «مجدد العوافي من رسمي العروض والقوافي» لمحمد بن عبد الله العلوي الشنقيطي، واشتغل الشيخ بتدوين شرحٍ مكتوبٍ لها لا أدري هل تم أو لا؟.

٢- الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي، وفيه خلاصةُ علمِ من تَقَدَّمَه، ويصلح أن يكون تأصيلًا لهذا الفن.

وبعد ذلك يصرف الهمة في الدربة والتمرينات والتطبيقات.

حادي عشر: الخط والإملاء

١- قواعد الإملاء لعبد السلام هارون، وهناك شرح مرئي له منشور على الشبكة للسيد أحمد إبراهيم.

٢- علم الكتابة العربية للدكتور غانم الحمد.

٣- موسوعة قواعد الكتابة العربية للدكتور عبد اللطيف الخطيب، ويقع في مجلدين.

٤- ومن كان من الشناقطة أو ارتحل إليهم فليجتهد في أخذ هذا الفن عن شيخنا محمد يسلم غالي الشنقيطي من مشايخ مركز تكوين العلماء؛ فإنَّ له طريقةً فذةً ما رأيتها لأحدٍ في تدريس هذا الفن، وكتب في ذلك شذراتٍ ونشرها على صفحة «الفصحى» التي يديرها على الفيس بوك، وعسى أن يجود وقته لتدوين كتابٍ في ذلك أو يشرحها شرحًا مسجلًا على الأقل.

واعلم -أخي طالب العلم- أنَّ علم الإملاء يحتاج فيه الناظر إلى تأصيل، فلو قرأ شرح باب الخط من الشافية الذي في آخرها لأدرك شيئًا من ذلك، ولو نظر في كتاب المطالع النصرية للعلامة نصر الهوريني لحَصَّل خيرًا؛ فإنه لخص آراء المتقدمين من شرح الهمع وغيره، وهو كافٍ في تصور قواعد هذا العلم.

مع التنويه أن هذا العلم لا يكفي فيه قراءة الكتب؛ بل يحتاج إلى صحبة أستاذ عارفٍ به، وهو مهمٌّ لا ينبغي أن يهمله طالب العلم؛ لكثرة الحاجة إليه.

ثاني عشر: علم الأصوات

ينبغي أن يُعلم أنَّ هذا العلم معدودٌ في المكملات عند أكثر المُحْدثين، أما في القديم فإنه بابٌ من أبواب كتاب سيبويه ومن بعده، وخصه ابن جني بكتاب «سر صناعة الإعراب»، وفائدة هذا العلم تظهر في معرفة الطالب لأصول علم التجويد عند المتأخرين، والإلمام بأصل الكلام العربي وهو الصوت، وما يتعلق به من صفاتٍ وأحوال.

ودونك معراج هذا العلم:

١- المدخل إلىٰ علم أصوات العربية للدكتور غانم قدوري الحمد.

٢- علم الأصوات للدكتور كمال بشر.

٣- شرح المقدمة الجزرية في التجويد «الشرح الكبير» للدكتور غانم الحمد، فقد جمع فيه بين التجويد والأصوات.

٤- جهد المقل للمرعشي تحقيق د. سالم قدوري الحمد، فقد تطرق لمباحث فيه، وهو كتابٌ نفيسٌ يخدم طالب علم الصرف وطالب علم القراءات.

٥- سر صناعة الإعراب لابن جني.

بقي التنبيه في ختام هذا المعراج أنَّ من أهم وسائل تكوين الملكة اللغوية عمومًا إدمان النظر في كتاب الله تعالىٰ ومتون السنة النبوية، وصدق من قال: «القرآن معجم الفقراء»، وأعظ المهتم بكثرة التأمل في التراكيب القرآنية، والاطلاع المتكرر لمفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني.

أما ترتيب التلقي في علوم العربية فيبدأ بسلسلة «مدخل إلىٰ علم اللغة» للدكتور محمد العمري، ثم يدرس النحو ثم الصرف ثم البلاغة، وما وراء ذلك فالأمر سهل.

وينبغي إنجاز تتمة معراج تاريخ النحو والمدخل إلىٰ دراسته بعد دراسة المرحلة الأولىٰ من علم النحو، وأستحبُّ النظرَ في كتابٍ أو كتابين من كتب فقه اللغة أثناء دراسته للنحو والصرف.

ولا بأس بإنجاز المرحلة الأولىٰ من كل علم ثم الرجوع إلىٰ كل علم وإتمامه حتىٰ المرحلة الثالثة، أو بإكمال معراج كل علمٍ بتمامه ثم التحول إلىٰ غيره.

المطلب الثاني
معراج علم المنطق

علم المنطق من العلوم الآلية المهمة، وقد اشتد النزاع بين أهل العلم في حكم تعلمه؛ لأنه لما تُرجم عن اليونان وجدوه مشتملًا علىٰ جانبٍ من الحق في طرائق الإثبات، وعلىٰ جانب من الباطل في ذلك، خاصة في باب النفي، فكان اشتماله لجانب الحق باعثًا لبعض أهل العلم علىٰ قبوله مع تصفيته، وكان اشتماله لجانب الباطل باعثًا لآخرين علىٰ رده وإنكاره.

وقد خلَّصه أهل العلم من الشوائب التي خالطته، بعد أن اشتدت الحاجة إليه؛ إذ لما كثرت الشبهات ووُجِدَ المُضِلُّون الذين يجادلون بمقدمات سوفسطائية تقريرًا لشبهٍ فلسفية، وصاروا لشدة تمرنهم علىٰ تلك الحجج الباطلة كثيرًا ما يظهرون الحق في صورة الباطل، ويعرضون الباطل في صورة الحق، ويفحمون كثيرًا من طلبة العلم الذين لا يملكون نفس السلاح.. لزم النظر فيه لِرَدِّ حجج المبطلين بجنس ما استدلوا به، وإظهار مواضع الغلط فيها، ونصرة المذهب الحق بإقامة الأدلة المقنعة علىٰ صحته؛ فهذا أدعىٰ لإلزامهم بالحق، وقطع حجتهم إن تأبوا عليه[1].

هذا فضلًا عما يستفاد من هذا العلم من إعانته الظاهرة علىٰ دقة الفهم وصحة التفكير وتفسير الوقائع وإقامة الحجة وحاسة النقد العلمي، وتحرير محل

---

(١) للتوسع انظر الجواب المنشور في موقع «الإسلام سؤالٌ وجواب» عن سؤال: لماذا لا يدرس المنطق مع كتب أهل العلم؟.



النزاع بدقةٍ عند الاختلاف؛ حسمًا لمادة المراء، والمنع من المغالطات المنطقية التي قلما يخلو منها نقاشٌ تراه اليوم.

وأضف إلىٰ كل ذلك أنَّ كتب أصول الفقه والاعتقاد والرد علىٰ الشبهات أصبحت مشحونةً بالجمل المنطقية، فصار درسُهُ آلةً لفهم كتب أهل العلم ولو لم يرد المتفقه الرد علىٰ أهل الباطل، أو الدخول في ساحة المناظرات العلمية.

والحمد لله أنه علمٌ محدودُ المباحث يمكن إنجازه في وقتٍ يسير، فهذا العلم قليلٌ في كمِّه كبيرٌ في مضمونه، لكني أوصي أخي طالب العلم أن تبقىٰ عينه مسلطةً علىٰ الواقع وهو يدرس مباحثه؛ ليعرف القيمة العلمية للمبحث الذي يدرسه، ويدرك منافعه عليه.

وهذا معراجه بين يديك:

المرحلة الأولىٰ:

١- الاستماع لمحاضرة «فهم المنطق» للدكتور جاسم سلطان، مع ملاحظات يسيرة تؤخذ علىٰ بعض ما ورد في المحاضرة.

٢- إيضاح المبهم في معاني السلم للدمنهوري أو كتاب الضوء المشرق علىٰ سلم المنطق للشيخ العلامة محمد بن محفوظ الشنقيطي، مع حفظ المتن، ويستمع بالتوازي للشرح الصوتي للشيخ إبراهيم رفيق علىٰ السلم المنورق، ويقع في سبعة عشر درسًا، علمًا بأن له كتابًا حسنًا سماه «عون المبتدي علىٰ سلم الأخضري»، ويمكن الاستفادة من تشجير متن السُّلَّم للشيخ عبد الله العمراني، واسمه «سُلَّم السُّلَّم»، وقد أثراه بإضافاتٍ مهمةٍ.

وإذا أراد التوسع فيستمع لشرح لشيخنا العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي علىٰ السلم المنورق، ويقع في سبعة وعشرين درسًا، ويقرأ شرح

الملوي على السلم وحاشية الصبان عليه، وكتاب الكوكب المشرق في سماء علم المنطق على السلم المنورق للعلامة محمد الأمين الأثيوبي الهرري ط. دار المنهاج، وكتاب فصول في التفكير الموضوعي للدكتور عبد الكريم بكار، وهذا الكتاب مدخلٌ عام وليس استعراضًا لأبواب المنطق، لكنه نافع في تهيئة الذهن لمسائل هذا العلم.

ويمكن الاستفادة من كتاب التفكير النقدي للأستاذ عمرو صالح يس، واجتهد المؤلف أن ييسر مسائل هذا العلم عبر جعله حوارًا بينه وبين أستاذه الدكتور جاسم سلطان الذي أشرف عليه في كتابة هذا الكتاب، وكذلك من كتاب خلاصة المنطق لعبد الهادي الفضلي، وهو كتابٌ جيد في تلخيص مسائل هذا العلم.

المرحلة الثانية:

١- المغالطات المنطقية لعادل مصطفى، وهناك مختصرٌ لطيفٌ له أعده الدكتور مرضي العنزي، وهو منشورٌ على الشبكة.

٢- رفع الأعلام على سلم الأخضري وتوشيح عبد السلام لمحمد محفوظ بن الشيخ بن فحف، أو تسهيل المرام ورفع الإبهام على نظم السلم المنورق وتوشيحات عبد السلام لمشتاق صالح المشاعلي، وتوشيح عبد السلام أكمل فيه المسائل التي لم يتناولها متن السُّلَّم، وهو محل عناية السادة الشناقطة، ويمكن تجاوز هذه المحطة إلى كتب المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة:

١- شرح الخبيصي على تهذيب المنطق للتفتازاني.

٢- شرح قطب الدين الرازي على متن الشمسية في المنطق، أو شرح التفتازاني على متن الشمسية بتحقيق جاد الله بسام صالح.

٣- معيار العلم في المنطق لأبي حامد الغزالي.

٤- محك النظر لأبي حامد الغزالي.

٥- التقريب لحد المنطق لابن حزم.

٦- الرد على المنطقيين لابن تيمية.

وبعد إنجاز المرحلة الأولى أو أكثر من ذلك يقرأ ما يتعلق بأصول الاستدلال والمناظرة وآدابها، ودونك خمسة كتب:

١- أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة للدكتور حمد العثمان. ط. دار ابن حزم.

٢- آداب البحث والمناظرة للعلامة محمد الأمين الشنقيطي.

٣- طرق الاستدلال ومقدماتها عند المناطقة والأصوليين للدكتور يعقوب الباحسين.

٤- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ط. دار القلم، علمًا بأن هذا الكتاب من الكتب الأصول في علم المنطق، فيمكن تقديم قراءته في المرحلة الأولى من دراسة علم المنطق.

٥- الحجاج والمغالطة لرشيد الراضي، وموضع قراءته بعد دراسة أصول المناظرة وآدابها.



المطلب الثالث

معراج أصول الفقه

أكتفي ببيان معراج أصول الفقه علىٰ المذهب الشافعي، وكذلك أفعل في معراج الفقه؛ لأنه المتداول في بلادنا وما حولها، ولأنَّ عِدَّة علوم الفقه وأصوله تسعة عشر علمًا، وكل علمٍ تضمن ثلاث مراحل، وسَطْرُ سُلَّمٍ لكلِّ مذهبٍ سيحتل مساحةً كبيرةً من الكتاب.

لكنَّ أتباع كل مذهبٍ يمكنهم الاستفادة من منهج العرض وطريقة التقسيم؛ لينسجوا علىٰ منواله، وكذلك من بعض الكتب التي وردت فيه من غيره؛ لأني آويت كتبًا ذات نفاسة في غير سلم الفقه المذهبي وأصوله مما ينبغي لأتباع كل مذهبٍ أن يطلعوا عليها، كما أنَّ ثمة علومًا تتقارب فيها معارج الطلب علىٰ أيِّ مذهبٍ دُرِسَت؛ كعلم المقاصد وتاريخ أصول الفقه والسياسة الشرعية والفقه المقارن والفقه المعاصر.

وقد ألفيت الشيخ أحمد سالم أثبت خطةً لكل مذهبٍ في كتابه «السبل المرضية»، وهي من وضع علماء كرام، فأحيل عليه.

وأشرع الآن في سرد معراج الأصول وجملة ما تضمنه ستة علوم دونك بيانها:



أولًا: تاريخ علم أصول الفقه والمدخل إلى دراسته

١- الاستماع لمحاضرة «المنهجية في دراسة أصول الفقه» للشيخ العلامة مولود السريري، ثم محاضرة «خارطة علم أصول الفقه» للدكتور عامر بهجت.

٢- أصول الفقه.. النشأة والتطور للدكتور يعقوب الباحسين.

٣- تاريخ علم أصول الفقه للدكتور محمود عبد الرحمن، صدر عن دار اليُسر.

٤- تطور علم أصول الفقه وتجدده وتأثره بالمباحث الكلامية للدكتور عبد السلام بلاجي، ط. دار ابن حزم، وهذا كتابٌ مهم.

٥- أصول الفقه.. تاريخه ورجاله لشعبان محمد إسماعيل.

٦- المدخل إلىٰ أصول الإمام الشافعي، للدكتور مرتضىٰ الداغستاني، ويمكن تقديمه.

٧- الفكر الأصولي.. دراسةٌ تحليليةٌ نقدية للدكتور عبد الوهاب أبو سليمان.

٨- منهجية الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه وأصوله.. تأصيل وتحليل للدكتور عبد الوهاب أبو سليمان.

٩- منهج البحث في أصول الفقه للدكتور عبد الوهاب أبو سليمان. ط. دار ابن حزم والمكتبة المكية.

١٠- علم أصول الفقه من التدوين إلىٰ القرن الرابع للضويحي.

١١- الاستماع أثناء ذلك لجملة من المحاضرات التمهيدية لهذا العلم والدورات المتخصصة فيه، منها: «مدخل إلىٰ دراسة علم أصول الفقه» للدكتور

عياض السلمي، و «منهجية القراءة في كتب أصول الفقه» للدكتور يعقوب الباحسين، و «التعريف بعلم أصول الفقه» للشيخ فريد الأنصاري، ودورة «المدخل لدراسة أصول الفقه» للشيخ حسن البخاري، وتقع في أربع عشرة محاضرة صوتية، والسلسلة نافعة لكل طالب علم من غير نظرٍ إلىٰ مذهبه، ودورة «المدخل إلىٰ أصول الفقه» للدكتور عامر بهجت، وتقع في تسعة دروس، منشورةٌ عبر الشبكة ومفرغة.

ثانيًا: مسائل أصول الفقه

المرحلة الأولى:

١- الإملاء علىٰ شرح المحلي للورقات للدكتور أمجد رشيد، وهو منشور علىٰ الشبكة، أو يقرأ شرح الورقات للشيخ عبد الله الفوزان، ويستمع بالتوازي للشرح المرئي للشيخ حسن بخاري علىٰ متن الورقات[1].

ولو ثنىٰ بشرح الشيخ حسام لطفي.. فهذا خير، ويقع في ثلاثة عشر درسًا، ومن كان ذا همة فليستمع لشرح الشيخ العلامة مولود السريري، ويقع في تسعة عشر درسًا.

ويمكن الاستفادة من «التدريبات علىٰ الورقات في أصول الفقه» للدكتور عامر بهجت، ط. دار طيبة الخضراء، وهو كتاب يحتوي علىٰ تمرينات وتشجيرات لأبواب الأصول.

٢- حفظ متن الورقات.

---

(١) ويمكن أن يجعل بدلًا من هذا أن يستمع لشرح الشيخ حسن بخاري علىٰ رسالة «الأصول من علم الأصول» لابن عثيمين، ويقع في خمسة عشر درسًا، لا ليعتمده في السلم الأصولي الشافعي؛ ولكن لأن الشرح مشحونٌ بالمفاهيم الأصولية التي ينبغي للمبتدئ أن يكون ملمًا بها من أول يوم، والشرح منشورٌ ومفرغ، ومن الشروح النافعة جدًا علىٰ رسالة ابن عثيمين كذلك كتاب تقريب الحصول للدكتور غازي العتيبي.

المرحلة الثانية:

١- الوجيز في أصول التشريع الإسلامي للدكتور محمد حسن هيتو، ويستمع بالتوازي لشرح الشيخ نفسه للكتاب، ويقع في ثلاثة وخمسين درسًا، علىٰ أنَّ الشرح أشبه بقراءةٍ للكتاب، والشيخ ضابطٌ متقن، أو يقرأ بغية المشتاق إلىٰ لمع أبي إسحاق لأبي الفيض الفاداني، تحقيق أحمد درويش، دار ابن كثير، ويستمع لأحد الشروح الصوتية علىٰ اللمع، لكني أنصح بالوجيز، وهو أيسر، وأحسب أن باب الأصول يفتح للطالب به.

وإذا أراد التوسع قرأ أصول الفقه الإسلامي للدكتور وهبة الزحيلي، أو الأساس في أصول الفقه للدكتور محمود عبد الرحمن، صادر عن دار اليسر، أو رياضة العقول في إيضاح غاية الوصول لزكريا الأنصاري من إعداد الشيخ آصف عبد القادر جيلاني الأندونيسي، وهذا كتاب فذ ما ينبغي أن يفوت، ويوافق المعتمد في المذهب.

٢- ويستمع بعد ذلك أو أثناء دراسته لهذه المرحلة وما بعدها لما تيسر من المحاضرات التي تثري النظر الأصولي مثل: «طرق اكتساب الملكة في أصول الفقه» للشيخ مولود السريري، و «فقه علم أصول الفقه» للشيخ فريد الأنصاري، و «مصادر أصول الفقه وروافدها» لعبد الرحمن القرني، و «التجديد في أصول الفقه» لأحمد المباركي وعياض السلمي، و «نظريات أصول الفقه» لعلي جمعة، و«علاقة أصول الفقه بالعلوم الأخرىٰ» لعبد العزيز العويد، والعبقرية الأصولية ليوسف بن عمر، و «كيف نستفيد من علم أصول الفقه»؟ لأحمد بن حميد، و «طرق الاستذكار الأصولي» ليحيىٰ الظلمي، و «العلاقة بين أصول الفقه وعلم الكلام» لخالد العروسي، ومهارات في التعامل مع المسائل الكلامية في أصول الفقه للدكتور محمد الكلثم، وغير ذلك.

المرحلة الثالثة:

١- البدر الطالع شرح جمع الجوامع للإمام المحلي بشرح وتعليق مرتضىٰ الداغستاني ط. مؤسسة الرسالة، مع العناية بحاشية العطار والبناني، مع تقرير الشربيني فإنه نفيس، ويستمع أثناء ذلك للشرح الصوتي علىٰ جمع الجوامع للشيخ د. حسن بخاري، وهو شرحٌ بديع ما ينبغي أن يفوت بحال، ويقع في ثلاثة وستين درسًا، وقد أعلنت دار فارس أنه سيصدر عنها محررًا مكتوبًا قريبًا.

ويمكن الاستفادة من الحقيبة التعليمية لمتن جمع الجوامع.. تشجيرات وتدريبات، والتمرينات التطبيقات من إعداد الدكتور عامر بهجت، والتشجيرات والأسئلة من إعداد وعد بنت عبد الله الفهد، وقد صدرت الحقيبة في أربعة مجلدات عن دار طيبة الخضراء، علىٰ أنَّ التشجير منشور علىٰ الشبكة مفردًا عن الحقيبة.

ويمكن الاستفادة كذلك من الشرح المرئي للشيخ العلامة أبي الطيب مولود السريري علىٰ جمع الجوامع، وهو شرح مبسوط، ويمكن الاعتناء البالغ به لالتقاط العقل الأصولي في النظر إلىٰ المسائل، فليس القصد هنا نيل المعلومة فحسب؛ بل شيء فوق ذلك، والشيخ إمامٌ في النظر الأصولي والتأصيل الفقهي.

٢- أو يعتمد بدلًا من شروح جمع الجوامع شروح منهاج البيضاوي، والشرح المفصل هو نهاية السول للإمام الإسنوي بحاشية المطيعي، ويستمع للشرح المرئي عليه للشيخ محمد السيد الحنبلي، ولم يكتمل، ويحرص أن يستمع لأحد شروح متن منهاج البيضاوي، ومن الشروح الصوتية المبثوثة علىٰ الشبكة: شرح الشيخ محمد حسن هيتو، لكنه لم يكتمل، وشرح الشيخ سعد الشثري، وهو مفرغ.

وحيث اعتمد منهاج البيضاوي وشرح الإسنوي عليه.. فإني أنصح أن يقدمه بسماع شرح الشيخ د. حسن بخاري علىٰ جمع الجوامع؛ لأنه يحسن عرض المفاهيم الأصولية وتصوير المسائل، علىٰ أن المادة في المتنين متقاربة.

ومما يمكن أن يعينه علىٰ فهم نهاية السول كتاب أصول الفقه لأبي النور زهير، فقد هذب الكتاب ويسر العبارة، وهو من أفضل كتب الأصول المعاصرة، وإني لأحسب أنَّ من جمع بين نهاية السول وكتاب أبي النور زهير وشرح الشيخ د. حسن بخاري.. قد أتىٰ علىٰ الخير من أطرافه.

ويجتهد أن يحفظ جمع الجوامع أو منهاج البيضاوي إن كان علىٰ همةٍ وطموح، وإلا فيكثر من النظر في المتن الذي يعتمده، وحيث اختار جمع الجوامع وآثر النظم.. فيحفظ الكوكب الساطع نظم الجمع الجوامع للإمام السيوطي، ويفك ألفاظه بكتاب «الجليس الصالح النافع بتوضيح معاني الكوكب الساطع» للعلامة محمد بن علي آدم الأثيوبي، ط. دار ابن الجوزي، وقد شرح الشيخ أحمد الحازمي جزءًا من النظم، وهو منشورٌ علىٰ موقعه ومفرغ.

٣- تأصيل القواعد الأصولية المختلف فيها بين الحنفية والشافعية لصلاح عبد العيساوي.

٤- مقاصد أصول الفقه ومبانيه للدكتور أحمد حلمي حرب، وهذا الكتاب نفيس، ولولا أني أسرد كتب المسائل لجعلته في خاتمة المرحلة الثانية أو صدر المرحلة الثالثة فقدمه إذا شئت.

ومن أراد التوسع فإنه يقرأ ما احتاج من الكتب الآتية:

١- اللباب في أصول الفقه للشيخ صفوان داوودي، ط. دار القلم، فإنه أكثر من الأمثلة، وهي ميزةٌ لها وزنها في دراسة الأصول.

٢- معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة للجيزاني.

٣- ترتيب الأدلة الإجمالية من حيث الحجية لمحمد منصور.

٤- علاقة علم المنطق بأصول الفقه لوائل الحارثي.

٥- مدرسة المتكلمين في أصول الفقه لمسعود فلوسي.

٦- المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي للدكتور فتحي الدريني، وهذا كتاب فذ، وهو صادرٌ عن مؤسسة الرسالة.

٧- تفسير النصوص لمحمد أديب صالح.

٨- آراء المعتزلة الأصولية لعلي الضويحي.

٩- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي.

١٠- البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي.

١١- الموافقات للشاطبي بتحقيق الحسين آيت سعيد، من منشورات البشير بنعطية، فاس- المغرب، وقامت وزارة الأوقاف القطرية بطباعته وتوزيعه، وهو أفضل تحقيق للكتاب، مع العناية بتعليقات الشيخ عبد الله دراز، وهذا كتاب فذ يُقطع بخسارة طالب العلم إن لم يدمن النظر فيه، والاقتيات عليه.

١٢- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، ومادته لا تنحصر في علم الأصول.

١٣- شرح التلويح على التوضيح للتفتازاني.

١٤- مجرد مقالات الشافعي في الأصول للشيخ مشاري الشثري، ط. مركز البيان للبحوث والدراسات.

١٥- الرسالة للشافعي بتحقيق أحمد شاكر، وهناك طبعة جديدة حسنة صدرت عن دار ابن الجوزي تقع في ثلاثة مجلدات، وهي من تحقيق وتعليق الدكتور علي ونيس، وكتاب الرسالة لا بد من المرور عليه والعناية به، ويمكن

تقديمه إلىٰ المرحلة الثالثة في دراسة الأصول.

علىٰ أنه ينبغي استحضار أن علم أصول الفقه علم آلة، فلا ينبغي الإغراق في الاستكثار من الكتب علىٰ حساب التأصيل والتطبيق، ولهذا يحرص المتفقه أن يخوض غمار كتب شروح السنة وأبواب الفقه بقراءةٍ أصولية هادئة، وأن يصل إلىٰ الكتب الكبار المؤسسة في هذا العلم؛ كالتلخيص والبرهان للجويني، والمستصفىٰ للغزالي وقواطع الأدلة للسمعاني وأضراب ذلك.

ثالثًا: القواعد الأصولية

١- القواعد الأصولية في كتاب الرسالة لمحسن خلف سليمان.

٢- القواعد التأصيلية دليل المتفقهين إلىٰ ضبط المعارف الفقهية لأحمد العتيبي.

٣- المدخل إلىٰ أصول الإمام الشافعي أو تخريج القواعد الأصولية من تحفة المحتاج بشرح المنهاج للدكتور مرتضىٰ الداغستاني.

٤- القواعد الأصولية عند الشافعية في مباحث الإجماع لمحمد المسعودي.

٥- قواطع الأدلة في الأصول للإمام السمعاني، فله عنايةٌ حسنةٌ بالقواعد الأصولية، وهو كتاب فذ في الجملة، ولم يرهق القارئ بالخوض في مسائل الكلام.

رابعًا: مقاصد الشريعة

المرحلة الأولى:

١- مدخل إلىٰ مقاصد الشريعة للشيخ أحمد الريسوني.

٢- المختصر الوجيز إلىٰ مقاصد التشريع للشيخ عوض القرني.

٣- مقاصد الشريعة.. دليل المبتدئين للدكتور جاسم عودة.

٤- علم مقاصد الشريعة للدكتور نور الدين الخادمي.

٥- المحرر في مقاصد الشريعة الإسلامية للدكتور نعمان جغيم، صادر عن دار النفائس، ولعله أجود المؤلفات المعاصرة في علم المقاصد، ويمكن تقديمه.

٦- علم مقاصد الشارع للدكتور عبد العزيز الربيعة.

٧- مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية للدكتور محمد اليوبي.

٨- مقاصد المقاصد للدكتور أحمد الريسوني.

٩- أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثرها في فهم النص واستنباط الحكم للدكتور سميح الجندي.

١٠- الاستماع للمحاضرات الأربع للشيخ عبد العجيري بعنوان: «إشكالية التوظيف الحداثي لنظرية المقاصد».

المرحلة الثانية:

١- مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، تحقيق الدكتور محمد الزحيلي.

٢- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها لعلال الفاسي.

٣- نحو تفعيل مقاصد الشريعة للدكتور جمال عطية.

٤- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة للدكتور عبد المجيد النجار.

٥- المقاصد الجزئية للدكتور وصفي أبو زيد.

٦- الاستماع لبعض المحاضرات في هذا العلم مثل: «تقريب مقاصد الشريعة» للشيخ أحمد الريسوني، وهناك مقالٌ مطولٌ له في ذلك.

المرحلة الثالثة:

١- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي للشيخ أحمد الريسوني.

٢- مقاصد الموافقات «التسهيل لكتاب المقاصد من الموافقات» للدكتور محمد أحمين، دار المقاصد للطباعة والنشر والتوزيع.

٣- الموافقات للإمام الشاطبي تحقيق الحسين أيت سعيد، ويحرص على قراءته كاملًا، وليس الاقتصار على قسم المقاصد منه؛ لوفرة الملامح المقاصدية في مباحث الكتاب، ويستعين بكتاب «تيسير الموافقات للشاطبي» للدكتور نعمان جغيم، فقد فتح مغاليق الكتاب مع محافظته على كلام الإمام الشاطبي، ويقرأ بعده «تهذيب الموافقات» للجيزاني.

٤- مشاهد من المقاصد للشيخ عبد الله بن بيه، وهو كتابٌ نفيسٌ حسن، وله محاضرة حوله منشورة على الشبكة بعنوان: علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه، ويمكن تقديم قراءة الكتاب ثم إعادة قراءته في هذه المرحلة.

٥- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للإمام العز بن عبد السلام.

٦- تكوين ملكة المقاصد.. دراسةٌ نظرية لتكوين العقل المقاصدي للدكتور يوسف حميتو.

٧- إشكالية التأصيل في مقاصد الشريعة للدكتور عراك الشلال.

٨- العناية بقواعد المقاصد، ومن الكتب المهمة في ذلك: قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي للدكتور عبد الرحمن الكيلاني، وقواعد المقاصد للدكتور أحمد الريسوني، وما ورد في معلمة زايد من ذلك، مما يزيد عن ١٣٠ قاعدة.

٩- طرق الكشف عن مقاصد الشارع للدكتور نعمان جغيم، صادر عن دار النفائس.

١٠- ضوابط اعتبار المقاصد في مجال الاجتهاد وأثرها الفقهي لعبد القادر بن حرز الله، صادر عن مكتبة الرشد.

١١- بعد القراءة في فقه السياسة الشرعية يقرأ كتاب «الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية» للدكتور عبد الرحمن العضراوي.

خامسًا: علم الجدل

١- علم الجدل والمناظرة للدكتور سعد الشثري.

٢- تاريخ الجدل لمحمد أبو زهرة.

٣- المعونة في الجدل للإمام الشيرازي.

٤- الملخص في الجدل للإمام الشيرازي.

٥- المنهاج في ترتيب الحجاج لأبي الوليد الباجي.

٦- الكافية في الجدل للإمام الجويني.

٧- عَلَم الجذل في علم الجدل للإمام نجم الدين الطوفي الحنبلي.

٨- شرح الفصول في علم الجدل للإمام النسفي الحنفي، تحقيق: شريفة الحوشاني.

سادسًا: تخريج الفروع على الأصول

١- علم تخريج الفروع على الأصول.. نظريةً وتطبيقًا للدكتور فيصل تليلاني، وصدر عن دار ابن حزم، وهو كتابٌ نفيس.

٢- التخريج عند الفقهاء والأصوليين.. دراسة نظرية تطبيقية تأصيلية للدكتور يعقوب الباحسين. ط. مكتبة الرشد.

٣- تخريج الفروع على الأصول.. دراسة تاريخية ومنهجية تطبيقية لعثمان شوشان.

٤- التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للإمام الإسنوي بتحقيق وتعليق الشيخ محمد حسن هيتو ط. الرسالة.

٥- تخريج الفروع على الأصول للإمام الزنجاني.

٦- أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء للدكتور مصطفى سعيد الخن.

٧- أثر الأدلة المختلف فيها في الفقه الإسلامي للدكتور مصطفى البغا. ط. دار المصطفى.

٨- الأصول والفروع.. حقيقتهما والفرق بينهما والأحكام المتعلقة بهما للدكتور سعد الشثري.



المبحث الثالث
معارج علوم الغاية

تقدم أنَّ علومَ الغاية خمسة: تزكية النفس والتفسير والحديث والعقيدة والفقه، وهذا رَقْمُ معارجها كلٌّ واحدٍ في مطلب:

المطلب الأول
معراج تزكية النفس

إنَّ حاجةَ طالب العلم إلىٰ تزكية نفسه كحاجة بدنه إلىٰ الماء، ولما كانت الفتن متعددة والعوارض كثيرة.. لزم أن يكون ورد التزكية في حياة طالب العلم ثابتًا؛ لأنه بمثابة الوقود الذي يُبقي فيه حيوية الإيمان ويجعله يمارس أعباءه التعبدية والدعوية والجهادية بإقبالٍ ودافعيةٍ، ولهذا سأزيد من كتبه إن شاء الله، وأنت تنتقي منها ما تيسر وتوفر.

ودونك سرد معراجه:

المرحلة الأولى:

١- الطريق إلىٰ القرآن للشيخ إبراهيم السكران.

٢- فتح الرزاق بشرح تائية أبي إسحاق المعروفة بمنظومة الإلبيري في الآداب، شرح وتعليق الدكتور أمير الشيشي، ويستمع لشرحها الصوتي للشيخ

عبد العزيز الطريفي، وكذلك لشرح الشيخ سعيد الكملي، إلا أنه بقي منه قطعةٌ لم يشرحها.

٣- صفقات رابحة للشيخ خالد أبو شادي.

٤- رُدَّ إليَّ روحي، بأي قلب نلقاه؟ ثم جرعات الدواء للشيخ خالد أبو شادي فرج الله عنه.

٥- التحفة العراقية في الأعمال القلبية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٦- جمالية الدين، معارج القلب إلىٰ حياة الروح للشيخ فريد الأنصاري.

٧- من عاش علىٰ شيءٍ مات عليه لمحمد بن محمد الأسطل.

٨- الرقائق للأستاذ محمد أحمد الراشد.

٩- رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٠- رحلة إلىٰ الدار الآخرة للشيخ محمود المصري.

١١- تعطير الأنفاس في حديث الإخلاص للشيخ سيد عفاني.

١٢- تحصيل المرام في علاج الشهوات والنظر الحرام لمحمد بن محمد الأسطل.

١٣- الداء والدواء لابن القيم.

١٤- الوابل الصيب لابن القيم.

١٥- الجزء الأول من موسوعة أسماء الله الحسنىٰ وصفاته الفضلىٰ من الكتاب والسنة للشيخ محمد راتب النابلسي، وأصله محاضراتٌ مرئية منشورةٌ عبر الشبكة.

١٦- ويستمع أثناء اشتغاله بذلك لبعض المحاضرات والدورات المبثوثة في هذا الجانب مثل: دروس الشيخ محمد راتب النابلسي والشيخ

محمد بن محمد المختار الشنقيطي والشيخ عبد الرحيم الطحان، والسلسلة الصوتية «منازل الإيمان» للشيخ فريد الأنصاري.

المرحلة الثانية:

١- من كتم داءه قتله لأديب الصانع، وهي في أصلها مقالات تم جمعها في كتاب.

٢- فضائح الفتن لمحمد أحمد الراشد، وهو رسالةٌ صغيرة مركزة.

٣- سراج الغرباء إلىٰ منازل السعداء لمحمد بن محمد الأسطل.

٤- الحكم العطائية، وهناك عدة شروح عليها لكن جلَّها لا يخلو من شطحات، فيمكن الاكتفاء بالمتن، ويمكن الاستماع لشرحها الصوتي للشيخ محمد سعيد البوطي، وشرحه مطول.

٥- بداية الهداية للإمام الغزالي.

٦- منهاج العابدين للإمام الغزالي ط. دار المنهاج.

٧- المستخلص في تزكية الأنفس للشيخ سعيد حوىٰ.

٨- الفوائد لابن القيم.

٩- تهذيب مدارج السالكين للشيخ عبد المنعم صالح العزي، ويستمع بالتوازي للشرح الصوتي علىٰ المدارج للشيخ محمد سيد حاج، وهو شرحٌ نفيس منشورٌ عبر الشبكة.

١٠- الجزء الثاني من موسوعة أسماء الله الحسنىٰ وصفاته الفضلىٰ من الكتاب والسنة للشيخ محمد راتب النابلسي.

المرحلة الثالثة:

١-قراءة مقدمة تفسير الظلال لسيد قطب، وتفسير سورة البقرة منه، وتفسير سورة يوسف، وتفسير الآيات التي تكلمت عن غزوة أحد في سورة آل عمران، وتبدأ من الآية [١٢١].

٢- التذكرة للإمام القرطبي، وأجود طبعاتها طبعة مكتبة دار المنهاج بالرياض.

٣- أعمال القلوب للدكتور خالد السبت، وإذا أراد التوسع استَمَعَ لسلسلة أعمال القلوب للدكتور محمد صالح المنجد، وطَالَعَ كتاب الإكسير، وهو خلاصة أعمال القلوب من مدارج السالكين لابن القيم، من إعداد مجموعةٍ من الباحثين.

٤- الجزءان الثالث والرابع من موسوعة أسماء الله الحسنىٰ وصفاته الفضلىٰ من الكتاب والسنة للشيخ محمد راتب النابلسي.

٥- آيات الله في الأنفس للشيخ محمد راتب النابلسي.

٦- آيات الله في الآفاق للشيخ محمد راتب النابلسي.

٧- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي د. دار المنهاج، ويمكن الاكتفاء بتهذيب الشيخ صالح الشامي له في مجلدين، وهو من مفاخر المؤلفات الإسلامية في هذا الباب، وقد خلَّصه الشيخ الشامي من الملاحظات التي تؤخذ عليه.

بقيت الإشارة إلىٰ أنَّ علمَ التزكية كامنٌ في كثيرٍ من العلوم؛ كالتفسير والأبواب المعقودة لذلك في متون السنة، وبعض كتب السيرة، فيتتبعه الحريص علىٰ ذلك، بالإضافة للدور الفعال لسماع القرآن وطول التهجد به في تطهير النفس وتزكيتها.



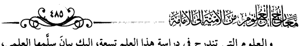
المطلب الثاني

معراج علم العقيدة

أنبه إلىٰ أنَّ كثيرًا من البرامج المتداولة اليوم في دراسة العقيدة تركز علىٰ توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ومناقشة المخالفين في ذلك، أما توحيد الربوبية ومعاني أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ وأثرهما علىٰ العبد، وكذلك بقية أركان الإيمان وملحقات علم العقيدة؛ كمسائل الإمامة والصحابة والكرامات والسلوك والأخلاق.. فلم تأخذ حقَّها عند كثيرٍ من طلبة العلم والمشتغلين به تحت زحمة العناية بالمعالجات المتعلقة بتوحيد الألوهية والأسماء والصفات مع كثرة المصنفات فيها وتركيز العلماء عليها.

هذا مع أنَّ الجانب الذي ضعفت العناية به له دورٌ فعَّال في ربط العبد بالله، وجعله منشرح الصدر طيب النفس، يعرف كيف يواجه نوائب الحياة وكثرة همومها وتشعب أشغالها، وتجعله يدرك سنة الله في التعامل مع العباد، فلا يحبط أو ييأس وهو يرىٰ تمكن أهل الباطل وضعف أهل الحق، وفشل كثيرٍ من الجهود الإصلاحية في العالم الإسلامي، فلا ينحدر في دينه أو يهتز يقينه بالله تعالىٰ.

ثم إنَّه لا يحسن أن نناقش عقائد المخالفين قبل تقرير عقيدة أهل السنة والتشبع من معاني الإيمان، عبر التركيز علىٰ عامة الأركان، خاصة توحيد الربوبية ومعاني أسماء الله وصفاته، والإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشره، وقد راعيت ذلك كله أثناء كتابة هذا المعراج.



والعلوم التي تندرج في دراسة هذا العلم تسعة، إليك بيانَ سلَّمِها العلمي، والله يتولاك ويرعاك:

أولًا: مدخل إلى دراسة علم العقيدة

١-قانون التأسيس العقدي.. مقدمات منهجية ومداخل تأصيلية لدراسة علم العقيدة للدكتور سلطان العميري، وقد صدر عن مركز تكوين.

٢- مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية للدكتور عثمان ضميرية. ط. مكتبة السوادي.

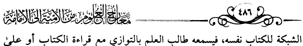
٣- تاريخ تدوين العقيدة السلفية للدكتور عبد السلام العبد الكريم، وفيه سردٌ لكتب العقيدة. ط. دار المنهاج ودار التوحيد بالمغرب.

ثانيًا: أركان الإيمان

المرحلة الأولى:

١-العقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة للدكتور أحمد القاضي، ط. مركز البيان للبحوث والدراسات.

وهذا الكتاب من أحكم الكتب التي رأيتها تُحسِنُ عرضَ أبواب علم العقيدة؛ فقد ذكر المؤلف أركان الإيمان الستة، وجعل تحت كل أصلٍ منها ما يتضمنه من مفردات، وبيان من ضل في ذلك الباب من الفرق، وأسهبَ في ذكر الأدلة من الكتاب والسنة، ثم ذكر ملحقات علم العقيدة كالكلام في الإمامة والصحابة والأولياء وغير ذلك، فَجُلُّ خريطة هذا العلم توفرت في مادة هذا الكتاب، وجاء كل ذلك في مائة صفحةٍ فقط، وللشيخ شرحٌ مرئيٌ منشورٌ على



الشبكة للكتاب نفسه، فيسمعه طالب العلم بالتوازي مع قراءة الكتاب أو على التعاقب.

٢- تعليقات الشيخ صالح العصيمي على متن ثلاثة الأصول وأدلتها، النسخة الخامسة، وفيها دمج لستة تعليقات، وأصلها محاضرة مطولة، فيستمع المحاضرة ويقرأ المادة.

٣- العقيدة في ضوء الكتاب والسنة للدكتور عمر الأشقر، ط. وزارة الأوقاف القطرية، وتقع في ثلاثة مجلدات، أو ط. دار النفائس، وتقع في ثمانية أجزاء صغيرة.

وهذا الكتاب له دورٌ مهمٌّ في غرس مادة الإيمان وبيان عقيدة أهل السنة، وقراءته مهمة قبل الدخول في مناقشة المخالفين والتوسع في مسائل هذا العلم، والكتاب سهل العبارة فيمكن إنجازه في مدةٍ يسيرة.

المرحلة الثانية:

١-شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة للشيخ صالح آل الشيخ.

٢- المغربية في شرح العقيدة القيروانية للشيخ عبد العزيز الطريفي، وهو كتابٌ فذ.

٣- الاستماع لتعليقات الشيخ صالح العصيمي على كتاب «التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتقع في سبع محاضرات صوتية منشورةٌ ومفرغة، ويكتفي بها الطالب، وإذا أراد التوسع فيقرأ شرح الشيخ صالح آل الشيخ «التمهيد شرح كتاب التوحيد»، وفيه بعض المواضع التي يحتاج طالب العلم أن يكون دارسًا لعلم النحو لإدراكها على وجهها، على أنه إذا أخذ يتقدم في علم العقيدة

أدرك تحتم ضبطه لعلم اللغة؛ لارتباط جمهرةٍ من مسائله به.

٤- شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين.

٥- العقود الذهبية على مقاصد العقيدة الواسطية للدكتور سلطان العميري، وبالتزامن يستمع للشرح المرئي للشيخ نفسه للعقيدة الواسطية التي أخرجها فيما بعدُ في هذا الكتاب، وهو شرحٌ فذٌّ.

المرحلة الثالثة:

١-شرح العقيدة الطحاوية للشيخ عبد الرحمن البراك، وإذا أراد التوسع فيقرأ شرح الدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس والذي شرح فيه شرح ابن أبي العز على الطحاوية، وليعتن الطالب بتعليقات الشيخ عبد العزيز عبد اللطيف على الطحاوية، فهي بمثابة شرح إجمالي لشرح ابن أبي العز.

٢- الخراسانية في شرح عقيدة الرازيين للشيخ عبد العزيز الطريفي. ط. مكتبة دار المنهاج.

٣- شرح العقيدة التدمرية للدكتور محمد عبد الرحمن الخميس، ط. دار أطلس الخضراء، ويستمع للشرح الصوتي على التدمرية للشيخ يوسف الغفيص، وهو منشورٌ مفرَّغ، ولا يغني تفريغه عن سماعه، ويمكن أن يقرأ قبل شرح التدمرية كتاب «تقريب التدمرية» لابن عثيمين. ط. دار ابن الجوزي - القاهرة.

وإذا أراد التوسع قرأ شرح التدمرية للشيخ عبد الرحمن البراك بعناية وإعداد السديس، ط. دار التدمرية، ثم شرحها للشيخ فخر الدين المحسي، ثم شرحها للشيخ أحمد العبد اللطيف، وله شرحٌ صوتيٌّ عليها منشورٌ، ثم الانتصار للتدمرية للشيخ ماهر أمير، على هذا الترتيب.

لكن يلزمه لدراسة التدمرية أن يكون دارسًا لعلم المنطق ولو المرحلة الأولىٰ منه، فإن لم يكن قد درسه فإنه يقرأ شرح المحسي أو شرح الخميس ولو فاتته بعض الأشياء، ثم يعود إلىٰ ضبطه بعد اكتمال الأدوات.

٤- الأصول التي بنىٰ عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات للدكتور عبد القادر صوفي، ط. مكتبة الغرباء الأثرية، وهذا كتابٌ بالغ النفاسة، ويعين علىٰ فهم التدمرية وغيرها، وإذا استطعت تقديمه علىٰ دراسة التدمرية فافعل، ويقع في ثلاثة مجلدات، واعلم أنه لا ينال العلم براحة الجسم.

المرحلة الرابعة:

لا بد هنا من مرحلةٍ رابعة؛ لا لأنَّ هذا العلم يتطلب ذلك؛ وإنما مرد ذلك أنَّ كتب المرحلة الثانية والثالثة لم تستوعب الكلام علىٰ أركان الإيمان؛ وإنما ركزت علىٰ جل ما يتعلق بالإيمان بالله وبعض الأبواب من الأركان الأخرىٰ؛ لظروفٍ احتفت بكتابتها، بخلاف الحال في كتب الفقه مثلًا؛ فنفس أبواب المختصرات هي نفس أبواب المطولات، ولأجل ذلك لزم إضافة مرحلة ننتقي فيها أهم الكتب التي تتمم الكلام علىٰ كل ركنٍ من أركان الإيمان أو ملحقاته أو مسائل مهمة فيه، ولا يكاد يُستغنىٰ عن كتابٍ منها، ودونك سرد ذلك:

١-أصول المخالفين لأهل السنة في الإيمان.. دراسةٌ تحليليةٌ نقدية للدكتور عبد الله القرني.

٢-قواعد الأسماء والأحكام عند شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ محمد السفياني.

٣- أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين للدكتور سليمان الدبيخي. ط. مكتبة دار المنهاج.

٤- أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين للدكتور سليمان الدبيخي.

٥- ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة للدكتور عبد الله القرني. ط. مؤسسة الرسالة، ويستمع لبعض المحاضرات المتعلقة بالموضوع للشيخ إبراهيم الرحيلي، وهي منشورةٌ على الشبكة، وله فيه كتابٌ قيمٌ وعليه استدراكاتٌ يسيرة.

٦- إشكالية الإعذار بالجهل في البحث العقدي.. الاتجاهات، البنية الاستدلالية، الأصول المنهجية للدكتور سلطان العميري. ط. مركز نماء للبحوث والدراسات.

٧- شرح قواعد الأسماء والصفات للشيخ أحمد النجار، وكذلك القواعد والضوابط السلفية في أسماء وصفات رب البرية، فقد عرض قواعد هذا الباب وبين آراء المخالفين بشكل حسن.

٨- المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للدكتورة كاملة الكواري.

٩- فقه الأسماء الحسنى للشيخ عبد الرزاق البدر، ومن أراد التوسع فيقرأ «موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى» للشيخ محمد راتب النابلسي، ولها أثرٌ عجيبٌ فعالٌ في غرس الإيمان في القلب، وربط الإنسان بالله تعالى.

١٠- الولاء والبراء في الإسلام للدكتور محمد سعيد القحطاني، وهو رسالة ماجستير في الأصل.

١١- قواعد معرفة البدع للشيخ محمد الجيزاني. ط. دار ابن الجوزي.

١٢- معتقد فرق المسلمين واليهود والنصارى والفلاسفة والوثنيين في الملائكة المقربين للدكتور محمد العقيل.

١٣- الكتب السماوية وشروط صحتها للشيخ عبد الوهاب عبد السلام

طويلة. ط. دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن.

١٤- كتاب النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق الدكتور عبد العزيز الطويان.

١٥- الخلاف العقدي في باب القدر.. دراسةٌ تحليليةٌ نقديةٌ لأصول القدرية والجبرية في أفعال العباد للدكتور عبد الله القرني.

١٦- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم.

١٧- الروح لابن القيم.

١٨- وفي هذه المرحلة ينبغي العناية بكتب العقيدة التي آوت مادة هذا العلم عبر الروايات المسندة، فإن لها أثرًا حسنًا في تقرير الإيمان، ومن ذلك كتاب شرح أصول أهل السنة والجماعة للالكائي، والسنة للخلال والشريعة للآجري.

ولا يلزم الترتيب بين كتب هذه المرحلة.

ومن أراد التوسع في هذا العلم والتخصص فيه.. فينظر الخطة التي رسمها الشيخ حسين عبد الرازق، وكذلك الخطة التي رسمها الشيخ ماهر أمير، وكلتاهما منشورةٌ على الشبكة، بالإضافة لمطالعة كتاب «السبل المرضية»؛ فإنه أطال النفس في خطة هذا العلم، ويمكن للباحث الاستفادة من كتاب «دليل المكتبة العقدية.. معجمٌ موضوعيٌّ للكتب والرسائل والبحوث في العقيدة» للشيخ محمد بن عبد العزيز الشايع.

والوصية لطالب هذا العلم بكثرة التلاوة لكتاب الله، خاصةً في التهجد، مع التيقظ لمنهج القرآن الكريم في تقرير الإيمان في قلب العبد، وطريقته في مناقشة أصحاب العقائد الباطلة، فضلًا عما يورثه ذلك من قوة الإيمان وتزكية النفس وتهذيب السلوك.





ثالثا: ملحقات علم العقيدة

من أهم ملحقات علم العقيدة الأربعة الآتية:

أولاً: باب الإمامة:

ويكفي في هذا الباب قراءة كتاب الإمامة العظمىٰ عند أهل السنة والجماعة لعبد الله الدميجي. ط. دار طيبة.

وللباب تعلقٌ بما تقدم في كتب السياسة الشرعية فانظرها إن شئت.

ثانيًا: باب الصحابة رضي الله عنهم:

١-عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام للدكتور ناصر الشيخ، وأصله رسالة دكتوراه، وهذا يكفي في فهم هذا الباب، والكتابان الآتيان لمن رام التوسع.

٢- العقيدة في آل البيت بين الإفراط والتفريط للدكتور السحيمي. ط. مكتبة الإمام البخاري.

٣- موسوعة الدفاع عن الصحابة وموقف الشيعة الاثني عشرية من صحابة رسول الله ﷺ للدكتور عبد القادر صوفي.

ثالثًا: باب الكرامات:

١-كرامات الأولياء.. دراسة عقدية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة للدكتور عبد الله العنقري. ط. دار التوحيد.

٢- قاعدة في المعجزات والكرامات لابن تيمية، تحقيق حماد سلامة.



رابعًا: باب الأخلاق:

١- خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي.

٢- موسوعة الأخلاق الصادرة عن القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية بإشراف الشيخ علوي السقاف، وتقع في أربعة أجزاء، ط. وزارة الأوقاف القطرية.

٣- الآداب الشرعية لابن مفلح، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعمر القيام. ط. وزارة الأوقاف القطرية.

رابعًا: علم الفرق

علم الفرق ينزع إلىٰ علم المقالات، ويمكن تصنيف مادة هذا العلم إلىٰ ثلاثة علوم:

الأول: علم الفرق، وهذا يتناول مقالات الإسلاميين في العقائد.

والثاني: علم الأديان المسمىٰ بعلم الملل، وهذا يتناول مقالات غير الإسلاميين في العقائد.

والثالث: علم المذاهب الفكرية المعاصرة، وهذا يتولىٰ دراسة أهم المذاهب العقدية والتصورات الفكرية المعاصرة، سواءً كانت داخل الدائرة الإسلامية أو خارجها.

وهذا التقسيم أشار إليه الدكتور محمد بن خليفة التميمي في كتابه «مقدمات في علم مقالات الفرق»، وهو الذي نعتمده في هذا المعراج، علىٰ أن أمر التقسيم اجتهادي، ويتعدد فيه النظر.

وهنا نذكر خطة علم الفرق، ونذكر بعده علم الأديان ثم المذاهب المعاصرة إن شاء الله، وبين يدي ذلك أنبه علىٰ أربعة تنبيهات تتعلق بعلم المقالات عمومًا:

الأول: لا يدرس هذا العلم إلا بعد دراسة مسائل علم العقيدة، اللهم إلا إذا اكتفىٰ الطالب بالمرحلة الأولىٰ من علم الفرق؛ لأنها جاءت كالتمهيد للعلوم الثلاثة، وأما ما وراء ذلك فيحتاج القارئ إلىٰ إتمام سلم العقيدة وإحكامه؛ ليقدر علىٰ النقد المنهجي، ولئلا توافق الأفكار التي يقرؤها عقلًا فارغًا فتتمكن منه الشبهة، والمرء يدافع عادةً عن أول فكرةٍ داخلت عقله.

الثاني: قد تجد تداخلًا في مادة الكتب، وسبب ذلك أنَّ إفراد كل علمٍ بالتصنيف إنما حصل متأخرًا، أما التصانيف المبكرة فإنها تذكر الفرق والملل والنحل ونحو ذلك جنبًا إلىٰ جنب.

الثالث: معارج هذه العلوم تتضمن كتب الردود علىٰ الشبهات، وكان من شأن بعض المشتغلين بالعلم أن يفرد كتب الشبهات والرد عليها في ركنٍ مستقل، لكن الصواب أنَّ كتب الردود ليست علمًا مستقلًّا في ذاتها، وإنما تُذكر هذه الكتب ضمن معراج كل فنٍّ بحسبها.

علىٰ أنَّ العناية بها أمرٌ مهم، خاصة مع موجة التشكيك في كلام الوحي وكتب التراث، وهو أمرٌ متوقع؛ لوجود المتشابه والمشكل، وأحسن الشيخ عبد الرحمن المعلمي إذ قال: «ووجود النصوص التي يستشكل ظاهرها لم يقع في الكتاب والسنة عفوًا؛ وإنما هو أمرٌ مقصودٌ شرعًا؛ ليبلو الله تعالىٰ ما في النفوس، ويمتحن ما في الصدور، وييسر للعلماء أبوابًا من الجهاد يرفعهم الله به درجات»[1].

الرابع: ينبغي العناية بالمرحلة الأولىٰ من سلم علم الفرق؛ لأنها تقرر مهمات الأصول لفهم هذا الباب، وتضع الخارطة الذهنية لمسائله، كما أنها تنفع

---

(١) الأنوار الكاشفة للمعلمي ص (٢٣٧).

غير المتخصص لو أراد الاكتفاء بها، إلا ما يتعلق بالمعالجات الفكرية للمذاهب المعاصرة.

ودونك الآن خطة هذا المعراج:

المرحلة الأولى:

١-مقدمات في علم مقالات الفرق للدكتور محمد بن خليفة التميمي، وهو رسالةٌ صغيرة.

٢- تعليقات الشيخ يوسف الغفيص علىٰ شرح حديث الافتراق لابن تيمية، وتقع في تسعة دروس، وهي منشورةٌ مفرغة.

٣- دراسات في الأهواء والفرق والبدع للدكتور ناصر العقل. ط. دار إشبيليا، وهذا كتابٌ فذ.

٤- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة الدكتور مانع الجهني، نشر الندوة العالمية، وهذا كتابٌ شاملٌ للفرق والأديان والمذاهب الفكرية المعاصرة، وهو كتابٌ نافع، ويُقَدِّم تصورًا عامًّا جيدًا قبل الدخول في التفاصيل والمناقشات، ولمن أراد التوسع يقرأ «فرق معاصرة تنتسب إلىٰ الإسلام وبيان موقف الإسلام منها» للدكتور غالب عواجي.

المرحلة الثانية:

١-أصول وتاريخ الفرق الإسلامية للشيخ مصطفىٰ بن محمد مصطفىٰ.

٢- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم للإمام عبد القاهر البغدادي، تحقيق محمد عثمان الخُشْت. ط. مكتبة ابن سينا.

٣- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، ويمكن أن يتجاوزه إلىٰ المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة:

هذه المرحلة تُفرِدُ القولَ في أهم الفرق التي تشتد الحاجة إلىٰ الدراية بها في زماننا، ودونك سرد كتبها، ولا يلزم الترتيب في قراءتها لكنه أولى.

١- دراسة عن الفرق الدينية في تاريخ المسلمين.. الخوارج والشيعة للدكتور أحمد جلي.

٢- الخوارج.. نشأتهم، فرقهم، صفاتهم، الرد علىٰ أبرز عقائدهم للدكتور سليمان الغصن. ط. دار كنوز إشبيليا.

٣- الخوارج.. أول الفرق في تاريخ الإسلام.. مناهجهم وأصولهم وسماتهم قديمًا وحديثًا وموقف السلف منهم للدكتور ناصر العقل. ط. دار إشبيليا.

٤- التشيع.. نشأته ومراحل تكوينه للدكتور أحمد الغامدي. ط. دار ابن رجب.

٥- الوشيعة في كشف شنائع وكفريات الشيعة لشيخنا الدكتور صالح الرقب.

٦- مختصر منهاج السنة النبوية لابن تيمية اختصار الشيخ عبد الله الغنيمان. ط. دار أنوار الخبير.

٧- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي للدكتور سفر الحوالي فرج الله عنه. ط. مكتب الطيب.

٨- المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للشيخ عواد المعتق. ط. مكتبة الرشد.

٩- موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبد الرحمن المحمود. ط. مكتبة

الرشد، أو كتاب عقيدة الأشاعرة.. دراسةٌ نقديةٌ لمنظومة جوهرة التوحيد لحسان الرُّدَيعان.

١٠- الفكـر الصـوفي في ضـوء الكتـاب والسـنة للشـيخ عبـد الـرحمن عبد الخالق.

المرحلة الرابعة:

هنا تخصيص الكلام علىٰ بعض المقالات التي كثر حضورها في النقاش العقدي، وأكتفي بأربعٍ منها، ومن أراد التوسع بحث عما يحتاج إليه.

١-مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها للدكتور جابر إدريس. ط. أضواء السلف، ويقع في ثلاثة أجزاء.

٢- مقالة التفويض بين السلف والمتكلمين للدكتور محمد آل خضير.

٣-مقالة التعطيل والجعد بن درهم للدكتور محمد بن خليفة التميمي. ط. أضواء السلف.

٤- مقالات الجهم بن صفوان وأثرها في الفرق الإسلامية لياسر قاضي. ط. أضواء السلف.

خامسًا: علم الأديان

ويسمىٰ علم الملل، وهذه خطته:

١-مدخل لدراسة الأديان للدكتور عبد الله سمك.

٢- قراءة القدر المتعلق بالأديان من كتاب «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» الصادر عن الندوة العالمية الذي تقدم ذِكرُه.

٣- دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية للدكتور سعود الخلف. ط. أضواء السلف.

٤- محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة، وهي تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارىٰ وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفي فرقهم.

٥- الديانات القديمة للشيخ محمد أبو زهرة.

٦- الملل والنحل لأبي الفتح الشهرستاني، تصحيح وتعليق الأستاذ أحمد فهمي محمد، وهذا الكتاب من أمهات كتب هذا الفن، وتطرق للفرق والأديان.

٧- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، وهذا الكتاب من أمهات كتب هذا الفن أيضًا، وتطرق للفرق والأديان.

ومن أراد التوسع فيمكن أن يقرأ: إظهار الحق للعلامة الهندي، وهو كتابٌ نفيس، واليهودية واليهود.. بحثٌ في ديانة اليهود وتاريخهم ونظامهم الاجتماعي والاقتصادي للدكتور علي عبد الواحد وافي، وتأثر اليهودية بالأديان الوثنية للدكتور فتحي الزغبي، ودعوة التقريب بين الأديان.. دراسةٌ نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية للدكتور أحمد القاضي، وأصله رسالة دكتوراه، وهي رسالة ضخمة. ط. دار ابن الجوزي.

سادسًا: علم المذاهب المعاصرة

هذا العلم ينبغي لكل طالب علمٍ أن يعتني به غاية الاعتناء أيًّا كان **تخصصه**؛ لفرط الحاجة إليه في زماننا، بعد سيول الشبهات التي تنهمر علىٰ شباب **الأمة** صباح مساء، ولا يكفي اتهام الجيل الصاعد بقلة الفهم وحثه علىٰ **طلب العلم** دون تقديم إجابات شافية لسيل الأسئلة الواردة، وإليك تدوين خطة **التلقي فيه:**

المرحلة الأولى:

١-الاستماع للمادة المرئية بعنوان: «المذاهب الفكرية» للدكتور فهد العجلان، وهي منشورة على الشبكة.

٢- دليل العقول الحائرة في كشف المذاهب المعاصرة للشيخ حامد العلي، وهو رسالةٌ صغيرة.

٣-كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني. ط. دار القلم.

٤- مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب.

٥- المذاهب الفكرية المعاصرة للدكتور غالب عواجي.

٦- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.. التبشير- الاستشراق- الاستعمار للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني.

ومن أراد التوسع في مذهبٍ معين.. فيرجع إلى موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ علي بن نايف الشحود.

المرحلة الثانية:

١-سابغات.. كيف نتعامل مع الشبهات الفكرية المعاصرة؟ للشيخ أحمد السيد. ط. مركز تكوين.

٢- كامل الصورة.. لتعزيز اليقين وتثبيت الثوابت للشيخ أحمد السيد. ط. مركز تكوين.

٣- ظاهرة نقد الدين في الفلسفة الحديثة.. دراسةٌ نقدية للدكتور سلطان العميري.



المرحلة الثالثة:

هنا انتقاء لأهم المذاهب والأفكار التي تحتاج درايةً بها، وردًّا عليها، ولهذا تختلط كتب تقرير المذاهب بكتب الرد، ودونك البيان في محاور:

أولا: العلمانية:

١-العالمانية طاعون العصر، كشف المصطلح وفضح الدلالة للدكتور سامي عامري. ط. مركز تكوين.

٢- العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة للدكتور سفر الحوالي فرج الله عنه.

ثانيًا: الليبرالية:

١-ينبوع الغواية الفكرية.. غلبة المزاج الليبرالي وأثره في تشكيل الفكر والتصورات للشيخ عبد الله العجيري. ط. مجلة البيان.

٢- نقد الليبرالية للدكتور الطيب بو عزة.

٣- حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها للدكتور عبد الرحيم السلمي.

٤- العقلية الليبرالية.. في رصف العقل ووصف النقل للشيخ عبد العزيز الطريفي فرج الله عنه، دار طيبة، وللشيخ عدة محاضرات في هذا الموضوع، وهي منشورةٌ علىٰ الشبكة.

ثالثًا: ما يتعلق بالمدارس العقلية عامة بما فيها الليبرالية:

١-سلطة الثقافة الغالبة للشيخ إبراهيم السكران.

٢- مآلات الخطاب المدني للشيخ إبراهيم السكران.

٣- التأويل الحداثي للتراث للشيخ إبراهيم السكران.

٤- الاتجاهات العقلانية الحديثة للدكتور ناصر العقل. ط. دار الفضيلة.

٥- العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب لمحمد حامد الناصر. ط. دار أنوار الخبير، وهذا كتابٌ قيم.

٦- زخرف القول.. معالجة لأبرز المقولات المؤسسة للانحراف الفكري المعاصر للدكتور فهد العجلان والشيخ عبد الله العجيري. ط. مركز تكوين.

٧- النظريات العلمية الحديثة، مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها للدكتور حسن الأسمري.

ومن أراد التوسع فينظر ما يصدر عن برنامج صناعة المحاور من مواد صوتية ومكتوبة؛ فإنهم اعتنوا بهذا الباب عناية حسنة، وكذلك الكتب الصادرة عن مركز دلائل.

رابعًا: الإلحاد:

١- ميليشيا الإلحاد.. مدخل لفهم الإلحاد الجديد للشيخ عبد الله العجيري.

٢- شموع النهار.. إطلالةٌ علىٰ الجدل الديني الإلحادي المعاصر في مسألة الوجود الإلهي للشيخ عبد الله العجيري. ط. مركز تكوين.

٣- لا أعلم هويتي.. حوار بين متشكك ومتيقن للدكتور حسام الدين حامد.

٤- السلسلة المرئية «رحلة اليقين» للدكتور إياد قنيبي، وقد تضمنت حلقات نفيسة في معالجة هذا الموضوع.

خامسًا: الرد علىٰ الشبهات المتعلقة بالكتاب والسنة:

١- النبأ العظيم.. نظراتٌ جديدة في القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز، وأنصح بقراءة هذا الكتاب لكل طالب علم، سواء احتاج للرد علىٰ الشبهات أو لا، وأجود الطبعات التي اعتنىٰ بها عبد الحميد الدَّخاخني.

٢- وحي الله.. حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة، نقض مزاعم المستشرقين للدكتور حسن ضياء عتر.

٣- أفي السنة شك! للشيخ أحمد السيد. ط. مركز الفكر المعاصر، وكذلك كتاب «تثبيت حجية السنة ونقض أصول المنكرين» له أيضًا.

سابعًا: مناهج الاستدلال وتقرير المسائل

هذا العلم والعلمان الآتيان بعده من العلوم الخادمة لعلم المعتقد، ولا يستغني طالب هذا العلم عنها بحال، بالإضافة لعلم المنطق، لكن تقدم له معراجٌ مستقلٌ في مبحث علوم الآلة.

وإليك البرنامج المقترح لتلقي هذا العلم:

١- منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة للشيخ أحمد الصويان.

٢- منهج الاستدلال علىٰ مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة للشيخ عثمان علي حسن، ط. مكتبة الرشد، وهذا كتابٌ نفيس.

٣- الأدلة العقلية النقلية علىٰ أصول الاعتقاد للشيخ سعود العريفي. ط. دار عالم الفوائد.

٤- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة.. عرضًا ونقدًا لسليمان الغصن. ط. دار العاصمة. وهذا كتاب فذ.

٥- موقف السلف والمتكلمين من موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في ذلك للشيخ جابر إدريس أمير. ط. أضواء السلف.

٦- قراءة ما يتعلق بذلك من كتاب «صناعة التفكير العقدي»، والكتاب



لمجموعة من الباحثين بتحرير الدكتور سلطان العميري. ط. مركز تكوين.

ومن المسائل المهمة للناظر في هذا العلم الدراية الجيدة بنظرية المعرفة، وموضعها علم الفلسفة، وهو العلم الآتي.

ثامنًا: الفلسفة

قراءة ما تيسر من الكتب الآتية:

١-دراسات في الفلسفة اليونانية والإسلامية لشيخنا الدكتور صالح الرقب.

٢- أقدم لك الفلسفة لديف روبنسون وجودئ جروفز، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام.

٣- دروس الفلسفة ليوسف كرم وإبراهيم مدكور. ط. دار عالم الأدب.

٤- الفلسفة الأسس لنيغيل واربورتون. ط. الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

٥- مدخل إلىٰ الفلسفة لأزفلد كولبه ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي

٦- قصة الفلسفة اليونانية لأحمد أمين وزكي نجيب محمود.

٧- قصة الفلسفة الحديثة لزكي نجيب محمود وأحمد أمين.

٨- أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل.

٩- نقد الفلسفة لسعود عبد العزيز العريفي.

١٠- مدخل إلىٰ نظرية المعرفة لأحمد الكرساوي. ط. مركز تكوين، ويسمع محاضرة الشيخ عبد الله العجيري بنفس هذا العنوان، وهي منشورةٌ علىٰ الشبكة ومفرغة.

١١- المعرفة في الإسلام.. مصادرها ومجالاتها للدكتور عبد الله القرني.

ويمكن تقديم دراسة ما يتعلق بنظرية المعرفة؛ لشدة الحاجة إليها في درس الاستدلال العقدي.

ومن أراد التوسع فيرجع إلىٰ كتبٍ منها: سلسلة تاريخ الفلسفة ليوسف كرم، ودراسات في الفلسفة المعاصرة للدكتور زكريا إبراهيم، وفلسفتنا لمحمد باقر الصدر، والفلسفة.. أنواعها ومشكلاتها لهنتر ميد، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، وموسوعة الفلسفة لعبد الرحمن بدوي، ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ونظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين للدكتور محمود زيدان. ط. مكتبة المتنبي، ونظرية المعرفة والموقف الطبيعي للدكتور فؤاد زكريا، وما المعرفة لدنكن، وما يتعلق بهذه الأبواب مما صدر عن بعض المشايخ المحاضرين ببرنامج صناعة المحاور.

بقي التنويه أن كثيرًا من كتب الفلسفة تقدم المفهوم الغربي، ولهذا لا بد من القراءة بنَفَس التحليل والنقد، ومن إجراءات السلامة العناية بالكتب التي كتبها علماؤنا الكرام أولًا.

تاسعًا: قواعد المناظرة
وأصول التعامل مع المخالف

المرحلة الأولىٰ:

هذه المرحلة خُصِّصت لما ينبغي استحضاره عند المناظرة والجدل من القواعد والآداب، وكتبها سهلة المبنىٰ حسنة المعنىٰ، يمكن أن تُطوىٰ في أيامٍ قلائل، وهاكَ سردَها:

١- فقه الرد علىٰ المخالف للشيخ خالد السبت. ط. مركز المصادر.

٢- أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة للدكتور حمد العثمان. ط. دار ابن حزم.

٣- أصول نقد المخالف للشيخ فتحي الموصلي، ويمكن الاكتفاء باختصار الشيخ فارس المصري له في ورقاتٍ قليلة.

المرحلة الثانية:

١- قراءة ما يتعلق بذلك من كتاب «صناعة التفكير العقدي»، والكتاب لمجموعة من الباحثين بتحرير الدكتور سلطان العميري. ط. مركز تكوين.

٢- حسن المحاورة في آداب البحث والمناظرة للدكتور عبد المالك السعدي، وهو رسالةٌ لطيفةٌ استلها المؤلف من رسالة العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد، لكنه أعاد ترتيبها وعرضها، وأثبتها في نهاية كتابه «الشرح الواضح المنسق لمتن السلم المنورق».

٣- منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد للدكتور عثمان علي حسن. ط. دار إشبيليا، وهذا كتابٌ قيم وأكثر فيه المؤلف من الأمثلة.

٤- آداب البحث والمناظرة للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق سعود العريفي. ط. عالم الفوائد.

٥- تاريخ الجدل للشيخ محمد أبو زهرة، وهذا كتابٌ شيق، وأكثر فيه المؤلف من الأمثلة، ويمكن تشرب قواعد هذا العلم بكثرة التأمل في المناظرات المُدَوَّنَة، ويستفاد في تحقيق هذا المعنىٰ من كتاب «مناهج الجدل في القرآن الكريم» للدكتور زاهر الألمعي.

وهذا القدر يكفي المتفقه، ومن ابتغىٰ التوسع فيرجع إلىٰ كتبٍ منها: فن آداب البحث والمناظرة للشيخ هارون عبد الرزاق، وهو متنٌ في الباب، وتمويه

الرجل العاقل علىٰ تمويه الجدل الباطل لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي العمران ومحمد شمس. ط. عالم الفوائد، والأبواب المتعلقة بالمناظرة من كتاب «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» للميداني. ط. دار القلم.

بقيت الإشارة في الختام إلىٰ أنَّ البدايةَ في دراسة هذا العلم هي بأركان الإيمان ثم ملحقات العقيدة، ويشتغل أثناء ذلك بقراءة كتب المدخل إلىٰ هذا العلم، ثم يقرأ كتب مناهج الاستدلال، والأمر واسع فيما وراء ذلك.

المطلب الثالث

معراج علم التفسير وعلوم القرآن

ينبغي التنبيه أنَّ طالب التفسير متىٰ تجاوز المرحلة الأولىٰ من كتب هذا العلم فإنَّهُ لن يُحسِنَ السباحةَ فيه إلا بإنجاز علم اللغة وأصول الفقه، وإلا فإنه سيتعب كثيرًا ويُحَصِّلُ قليلًا، ومتىٰ تمكن منهما تعب قليلًا وحصَّل كثيرًا.

وجملة علوم هذا المعراج تسعة عشر، علمًا بأنَّ علماء هذا الفن علىٰ مشارب شتىٰ في تقسيم علومه، وهذا ما هدانا الله إليه.

ودونك البيان:

أولًا: فضائل القرآن وآداب حملته

١- مختصر أخلاق حملة القرآن للإمام الآجري للشيخ خالد السبت.

٢- التبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي.

٣- فضائل القرآن لأبي عبيد. ط. المغربية.

٤- شرح كتاب فضائل القرآن من صحيح البخاري، ويمكن الاطلاع علىٰ كتاب فضائل القرآن لابن كثير.

ثانيًا: تاريخ علم التفسير والمدخل إلى دراسته

١-علم التفسير للدكتور محمد حسين الذهبي.

٢- أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم للدكتور مساعد الطيار. ط. دار ابن الجوزي.

٣- علم التفسير.. أصوله وقواعده للدكتور خليل الكبيسي، القسم الأول من الكتاب.

٤- الاستماع لدورة «المنتقى من كتب الدراسات القرآنية» للشيخ عبد الرحمن الشهري، وهي دورةٌ نفيسة، وهي منشورة مرئيًّا عبر الشبكة.

٥- مختصر التفسير والمفسرون للدكتور محمد أبو زيد، ومن علت همته.. قرأ الأصل «التفسير والمفسرون» للدكتور محمد حسين الذهبي.

٦- ويستمع أثناء ذلك إلى جملةٍ من المحاضرات والدورات ومن ذلك: محاضرات دورة بداية المفسر لعام ١٤٢٩ هـ وعام ١٤٣٠ هـ، ودروس التفسير ومنهجية تلقيه وبناء ملكته للشيخ صالح العصيمي، وتقع في ستة دروس، ودورة الطريق إلى صناعة المفسر للدكتور مساعد الطيار، والمحاضرات المفردة الآتية: المنهجية العلمية لدراسة التفسير، وبداية المفسر، وتاريخ القرآن، وتاريخ التفسير، والتعريف بكتب التفسير، وكلها للدكتور مساعد الطيار أيضًا.

ثالثًا: كتب التفسير

المرحلة الأولى:

١-المختصر في تفسير القرآن الكريم الصادر عن مركز تفسير للدراسات القرآنية، أو التفسير الميسر الصادر عن مجمع الملك فهد، أو صفوة التفاسير

للشيخ محمد علي الصابوني، وهو أكبر من سابِقِه لكنه نافع، ويكفي تفسيرٌ واحد لتدلف إلىٰ ما بعده، وتقرأ بالتوازي كتابًا في غريب القرآن.

٢- عمدة التفسير اختصار تفسير ابن كثير للعلامة أحمد شاكر، وهو من أنفس مختصرات تفسير ابن كثير، ويمكن تجاوزه للمرحلة الثانية.

المرحلة الثانية:

١-تفسير الوسيط للشيخ محمد سيد الطنطاوي بالاشتراك مع العلامة أحمد السيد الكومي، وهذا الكتاب عظيم النفع؛ لأنَّ صاحبيه انتقياه من عيون أمهات التفاسير، وهو غزيرٌ بالفائدة، سهل العبارة، مرتب العرض، ولو أراد غير المتخصص أن يكتفي بتفسيرٍ واحدٍ.. لنصحته به.

٢- ويمكن في هذه المرحلة الاستماع لبعض دروس شرح تفسير الإمام البيضاوي للشيخ عبد الرحمن الشهري، وهو شرحٌ متجدد لم يتم، ولا أقصد بهذا اعتماد تفسير الإمام البيضاوي هنا؛ فإنه تفسيرٌ دقيقُ العبارة، وإنما أقصد الاستماع لتفسير سورةٍ أو بعضها مع التأمل والتفكر؛ لمصلحة التمرن علىٰ دقة النظر وجودة الاستنباط، ومعرفة ما يلزم من علم اللغة في ساحته التطبيقية.

المرحلة الثالثة:

١-تفسير الطبري المسمىٰ بجامع البيان في تأويل القرآن، ط. دار هجر، تحقيق الشيخ عبد الله التركي، ويحرص علىٰ الاستفادة من ط. دار المعارف بتحقيق الأخوين محمود شاكر وأحمد شاكر، لكنه لم يكتمل، وللدكتور صلاح الخالدي تهذيبٌ لتفسير الطبري في ثمانية مجلدات، لكنَّ الوصيةَ بالأصل، وهو أفضل كتب التفسير.

٢- وأثناء قراءة هذا الكتاب وكتب المرحلة السابقة يمكن أن يقرأ الكتب التالية: الإجماع في التفسير للدكتور محمد الخضيري، أو الإجماع في التفسير لعمار الجماعي ط. دار ابن الجوزي، والأقوال الشاذة في التفسير للشيخ عبد الرحمن المدهش، وأسباب الخطأ في التفسير للدكتور طاهر يعقوب، وأصله رسالة دكتوراه، وتصويبات في فهم بعض الآيات للدكتور صلاح الخالدي، وبدع التفاسير لأبي الفضل عبد الله الغماري، وتكوين ملكة المفسر للشريف حاتم العوني.

المرحلة الرابعة:

١-زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ط. المكتب الإسلامي، وينبغي إدمان النظر فيه وفي عمدة التفسير مختصر ابن كثير حتىٰ يبقىٰ مستحضرًا المعنىٰ الإجمالي للآيات والأقوال فيها.

٢- تفسير ابن عطية المسمىٰ بالمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ط. وزارة الأوقاف القطرية، وهذا التفسير يجمع الأقوال، وهو نافعٌ في إعمال أصول التفسير والاعتناء باللغة والقراءات وتوجيهها.

٣- في ظلال القرآن لسيد قطب، وهذا التفسير موضوعي، يتعامل مع كل سورة كأنها شخصيةٌ مستقلة، وله عناية بالمناسبات والمعاني التربوية وبث الروح العقدية.

ثم يتوسع طالب العلم كما يشاء، ويمكن أن يركز علىٰ التفاسير التي توافق اهتمامه أو تخصصه.

☒ فمن التفاسير الجامعة: تفسير ابن كثير والألوسي والبسيط للواحدي والتفسير المأمون علىٰ منهج التنزيل والصحيح المسنون للدكتور مأمون حموش، وهو تفسيرٌ معاصرٌ سهل، وحدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للعلامة محمد الأمين الهرري.

☒ ومن التفاسير التي اعتنت بالفقه: تفسير القرطبي، وهذا تفسيرٌ عظيم النفع، بالإضافة لكتب أحكام القرآن؛ ككتاب الإمام الشافعي وكذلك الطحاوي وابن العربي والجصاص.

☒ ومن التفاسير التي اعتنت بالنحو: تفسير أبي حيان والدر المصون للسمين الحلبي، ويخدم هنا كتاب دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عبد الخالق عضيمة، وهو أول دراسة تقوم علىٰ استقراء أسلوب القرآن الكريم في جميع رواياته، ويخدم كذلك في علم الصرف ومتن اللغة.

☒ ومن التفاسير التي اعتنت بالبلاغة: الكشاف للزمخشري[1]، وتفسير أبي السعود والتحرير والتنوير لابن عاشور وبدرجة أقل تفسير الشعراوي، وهو تفسيرٌ نفيس من عيون التفاسير المعاصرة، وإن كان النَّفَس التأصيلي فيه ليس بذاك؛ لأنَّه في أصله دروسٌ عامةٌ للعامة والمهتمين تم تفريغها.

ويحرص طالب التفسير عامة والمعتني باللغة خاصة أن يقرأ كتاب التفسير اللغوي للقرآن الكريم للشيخ مساعد الطيار.

وتُقرأ هنا بعض الكتب التي تكلمت عن إعجاز القرآن وبلاغته وأسلوبه مثل: النبأ العظيم للشيخ محمد عبد الله دراز، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي، وإعجاز القرآن للدكتور فضل عباس، وإعجاز القرآن لمصطفىٰ الرافعي، وإعجاز القرآن للباقلاني، ومن بلاغة القرآن الكريم للدكتور أحمد بدوي، والتصوير الفني في القرآن لسيد قطب، وفيه ما يُستدرك عليه.

☒ ومن التفاسير التي اعتنت بالمأثور: الدر المنثور للإمام السيوطي، والتفسير الصحيح «موسوعة التفسير المسبور من التفسير بالمأثور» للدكتور

(١) مع التيقظ لآرائه الاعتزالية، وهناك غير كتابٍ وبحث أفرد الكلام في المسائل الاعتزالية الكامنة فيه.

حكمت ياسين، وموسوعة التفسير المأثور من نشر دار ابن حزم، وقد شارك فيها أكثر من ثلاثين باحثًا، ويُقرأ هنا كتاب أسانيد التفسير للشيخ عبد العزيز الطريفي فرَّج الله عنه، وكتاب «التفسير النبوي.. مقدمةٌ تأصيلية مع دراسةٍ حديثية لأحاديث التفسير النبوي الصحيح» للدكتور خالد الباتلي. ط. دار كنوز إشبيليا.

☒ **ومن التفاسير التي اعتنت بالمأثور والرأي معًا:** تفسير الإمام الطبري وفتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية للإمام الشوكاني.

☒ **ومن التفاسير التي اعتنت بتفسير القرآن بالقرآن:** تفسير ابن كثير وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ويمكن أن يكتفي الطالب بقراءة «تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان» للدكتور سيد محمد ساداتي الشنقيطي ط. دار الفضيلة، ويُقرأ هنا كتاب «تفسير القرآن بالقرآن.. تأصيل وتقويم» للدكتور محسن المطيري.

☒ **ومن التفاسير التي اعتنت بالتفسير الموضوعي:** في ظلال القرآن لسيد قطب والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لنخبة من العلماء بإشراف الدكتور مصطفىٰ مسلم، وموسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم إشراف وتحرير مركز تفسير للدراسات القرآنية، وهو دراسة موضوعية لـ (٣٥٤) موضوعًا قرآنيًّا، ويقع في ستة وثلاثين مجلدًا، والأساس في التفسير لسعيد حوىٰ، وتفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان لعبد الحميد الفراهي علامة الهند، و«نحو تفسيرٍ موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي، وهذا الكتاب لا يذكر الآيات ويعقب عليها؛ وإنما يستعرض قضايا السورة والروابط الخفية بينها، وهو مدخلٌ حسن لهذا العلم.

وتقرأ هنا بعض الكتب النظرية في التفسير الموضوعي مثل: مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفىٰ مسلم، والتفسير الموضوعي بين النظرية

والتطبيق للدكتور صلاح الخالدي، ومنهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للدكتور سامر رشواني، والتفسير الموضوعي.. التأصيل والتمثيل للدكتور زيد عبد الله.

☒ **ومن التفاسير التي اعتنت بذكر أقوال العلماء في التأويل:** زاد المسير لابن الجوزي والنكت والعيون للإمام الماوردي، علىٰ أنه أورد بعض أقوال المعتزلة وسلم من ذلك ابن الجوزي، والناظر في هذه الكتب عليه أن يكون مطلعًا علىٰ كتب أصول التفسير وقواعده.

☒ **ومن التفاسير التي اعتنت بالمناسبات:** نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي، وتفسير الفخر الرازي، والسراج المنير للخطيب الشربيني، والتحرير والتنوير لابن عاشور، والظلال لسيد قطب، والبحر المحيط لأبي حيان، وروح المعاني للإمام الألوسي، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي، ونظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للعلامة الهندي عبد الحميد الفراهي، وحاول أن يجعل من المناسبة علمًا مستقلًّا ضمن نظام القرآن، وأتىٰ في كتابه بما لم يسبق إليه.

☒ **ومن التفاسير التي اعتنت بالتربية والرقائق والقضايا الاجتماعية:** تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، وتفسير الشعراوي، والقرآن تدبرٌ وعمل، ويكن الاستفادة من تفسير النابلسي، علىٰ أنَّه أشبه بخواطر إيمانية وتربوية قوية في ظلال الآيات، لا أنه تفسيرٌ بالمعنىٰ العلمي، بالإضافة إلىٰ عدم سلامته من الأحاديث المردودة.

☒ **ومن التفاسير التي اعتنت بالقراءات:** تفسير أبي حيان والدر المصون للسمين الحلبي تلميذ أبي حيان، وتفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر وهو تفسيرٌ صادرٌ عن الجامعة الإسلامية بغزة ورابطة علماء فلسطين بإشراف الدكتور

مروان أبو راس، وأصله رسائل ماجستير، ويقع في ثلاثة عشر مجلدًا، ومن كان معتنيًا بالباب فيمكن أن يطلع على كتاب «اختلاف القراءات وأثره في التفسير واستنباط الأحكام» للدكتور عبد الهادي حميتو، وكتاب «أثر اختلاف القراءات الأربعة عشر في مباحث العقيدة والفقه» للشيخ وليد المنيسي.

رابعًا: غريب القرآن

المرحلة الأولى:

١-السراج في بيان غريب القرآن للدكتور محمد الخضيري فك الله قيده، ط. دار المنهاج أو البيان.

٢- تفسير المشكل من غريب القرآن للإمام مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق الدكتور علي البواب.

٣- نزهة القلوب شرح غريب ألفاظ القرآن الكريم لأبي بكر السجستاني، وهذا كتابٌ نفيس.

٤- وجه النهار الكاشف عن معاني كلام الواحد القهار للدكتور عبد العزيز الحربي. ط. دار ابن حزم.

وكتب الغريب متقاربةٌ في الجملة، ولا يلزم قراءة كل هذه الكتب، بل يكفي واحدٌ أو اثنان، ويعتمد الطالب ما تيسر له، أو ما انتخبه مشايخه.

المرحلة الثانية:

١-عناية علماء التفسير ببيان غريب القرآن ومناهجهم في ذلك لمحمد جبران صالح.

٢- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، ط. دار القلم، وهذا الكتاب نفيسٌ للغاية، ويمكن الاستفادة من كتاب «كلمات القرآن من مقاييس ابن فارس» لعبد الرحمن اليحيا وعبد المحسن فضل إلهي.

المرحلة الثالثة:

١-عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ «معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم» للسمين الحلبي.

٢- المعجم الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم.. مؤصل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها للدكتور محمد حسن جبل. ط. مكتبة الآداب.

خامسًا: معاني القرآن

١-معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، تحقيق محمد علي الصابوني.

٢- معاني القرآن للإمام الزجاج، شرح وتحقيق الدكتور عبد الجليل شلبي. ط. دار عالم الكتب.

٣- ويمكن الاستفادة من «القاموس الوجيز لمعاني كلمات القرآن الكريم» لميرزا محسن آل عصفور، وهو قاموس صغيرٌ جدًّا.

سادسًا: علوم القرآن

المرحلة الأولى:

١-علوم القرآن.. تاريخه وتصنيف أنواعه للدكتور مساعد الطيار.

٢- مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان.

٣- المقدمات الأساسية في علوم القرآن للشيخ عبد الله الجُدَيع.

٤- ويستمع أثناء ذلك لبعض المحاضرات في هذا الجانب ومن ذلك: محاضرة الدكتور عبد الرحمن الشهري بعنوان: الغايات الكبرى من علوم القرآن، ودورة علوم القرآن للدكتور محمد الخضيري، وهي منشورةٌ عبر الشبكة.

المرحلة الثانية:

١-دراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي.

٢- دراسات في علوم القرآن للشيخ محمد بكر إسماعيل.

٣- رغبة التيسير في شرح منظومة الزمزمي في التفسير للشيخ عبد الكريم الخضير، وأصله دروسٌ ألقيت، ثم اعتنت بها مؤسسة معالم السنن وأخرجتها محررةً في كتاب، وللشيخ مساعد الطيار شرحٌ صوتيٌّ جيدٌ عليها، ويقع في ستة دروس، وهو منشورٌ ومفرغ.

٤- الآيات المنسوخة في القرآن الكريم للدكتور عبد الله بن محمد الأمين الشنقيطي.

المرحلة الثالثة:

١-الإتقان للسيوطي، وهو من طباعة الرسالة ناشرون، بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، وللشيخ مساعد الطيار شرحٌ صوتيٌّ عليه منشور، ويقع في أربعة وتسعين درسًا، وللشيخ مصطفى البحياوي بعض الدروس المرئية المنشورة عليه، وهي مفيدة، وقام الشيخ محمد بازمول بترتيب وتهذيب كتاب الإتقان، فيمكن الإفادة منه، وقام الشيخ صلاح الدين أرقه دان باختصاره والتعليق عليه، واسمه: مختصر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. ط. دار النفائس.

٢- البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي.

وجمع الدكتور فضل عباس بينهما في كتابه «إتقان البرهان في علوم القرآن»، وجمع بينهما كذلك الشيخ حازم حيدر في كتابه «علوم القرآن بين البرهان والإتقان»، وأثبت في هذا الكتاب زبدة هذا العلم، وما انفرد به كل منهما وما اتفقا عليه، وهو كتابٌ نفيس.

٣- مناهل العرفان في علوم القرآن للإمام الزرقاني.

٤- ويقرأ بعد ذلك أو أثناء قراءته في كتب هذا العلم ما أفرد لبعض علوم القرآن، ومن ذلك: الأمثال في القرآن لابن القيم، والأمثال في القرآن الكريم للدكتور محمد جابر الفياض، وقصص القرآن الكريم للشيخ فضل عباس والمستفاد من قصص القرآن للدكتور عبد الكريم زيدان، ومناهج البحث والتأليف في القصص القرآني للدكتور أحمد نوفل، وغير ذلك كثير.

سابعًا: مشكل القرآن ومتشابهه

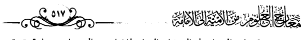
١- مشكل القرآن الكريم.. بحثٌ حول استشكال المفسرين لآيات القرآن الكريم.. أسبابه وأنواعه وطرق دفعه للدكتور حمد المنصور. ط. دار ابن الجوزي.

٢- تأويل مشكل القرآن للإمام ابن قتيبة.

٣- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للعلامة محمد الأمين الشنقيطي.

٤- تفسير آياتٍ أشكلت على كثيرٍ من العلماء لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٥- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان «أسرار التكرار في القرآن» للإمام الكرماني.



٦- كشف المعاني في المتشابه المثاني للإمام بدر الدين ابن جماعة، تحقيق ناصر القطامي، وأحسن منه كتاب «أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل» للإمام زين الدين الرازي الحنفي.

ثامنًا: أصول التفسير وقواعده

المرحلة الأولى:

١-شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية للدكتور مساعد الطيار، ويمكن أن يقرأ قبلها شرح الشيخ ابن عثيمين.

٢- شرح أصول في التفسير لابن عثيمين، وهو شرحٌ لمتنٍ من وضع الشيخ نفسه.

المرحلة الثانية:

١-التحرير في أصول التفسير للدكتور مساعد الطيار، ويمكن سماع تعليقه الصوتي على كتاب «الفوز الكبير في أصول التفسير» للإمام ولي الله الدهلوي، ويقع في ستة دروس.

٢- اختلاف المفسرين.. أسبابه وآثاره للدكتور سعود الفنيسان.

٣- شرح القواعد الحسان في تفسير القرآن للسعدي للشيخ ابن عثيمين.

المرحلة الثالثة:

١-قواعد الترجيح بين المفسرين للدكتور حسين الحربي، وقد اختصره اختصارًا لعله يغني عن الأصل. ط. دار ابن الجوزي، وهو كتابٌ نفيس.

٢- قواعد التفسير.. جمعًا ودراسة للشيخ خالد السبت. ط. دار البن القيم

ودار ابن عفان.

٣- أصول التفسير وقواعده للشيخ خالد العك، وللشيخ عنايةٌ بالدلالات الأصولية، وما قبله يغني عنه، ولا يخلو كتابٌ من فائدة.

تاسعًا: أسباب النزول

١-الاستماع لدورة «أسباب النزول» للشيخ عبد العزيز الطريفي، وتقع في أربع محاضرات، وهي منشورةٌ مفرغة، ولا يستغني عنها طالبُ علم.

٢- أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص.. دراسة مقارنة بين أصول التفسير وأصول الفقه للدكتور عماد الدين الرشيد، وهذا كتابٌ نافعٌ مفيد.

٣- المحرر في أسباب النزول «من خلال الكتب التسعة» للدكتور خالد المزيني. ط. دار ابن الجوزي، وأصل الكتاب رسالة دكتوراه، ومقدمته نافعة.

٤- أسباب نزول القرآن للإمام الواحدي رواية الأرغياني، تحقيق الدكتور ماهر ياسين الفحل. ط. دار الميمان.

٥- الصحيح من أسباب النزول للدكتور عصام الحميدان، وهو كتابٌ قيمٌ نفيسٌ تحرىٰ مؤلفه توثيق الروايات المقبولة.

٦- الاستيعاب في بيان الأسباب لسليم الهلالي ومحمد موسىٰ آل نصر، وتميز الكتاب باستيعاب عامة المرويات ما صح منها وما لم يصح، والحكم عليها حديثيًّا، وهو أول موسوعة علمية محققة في أسباب النزول. ط. دار ابن الجوزي.

ولا يلزم قراءة كل هذه الكتب، بل ما تيسر منها، وكلما اتسعت انتفعت.

عاشرًا: علم المناسبات

١-علم المناسبات في السور والآيات للدكتور محمد بازمول.

٢- علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه للدكتور نور الدين عتر.

٣- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع.. بحثٌ في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها للإمام السيوطي. ط. مكتبة دار المنهاج.

٤- تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي.

٥- البرهان في تناسب سور القرآن للإمام الثقفي، تحقيق سعيد الفلاح. ط. دار ابن الجوزي.

٦- الإعجاز البياني في ترتيب سور القرآن لمحمد أحمد القاسم، وهذا كتابٌ نفيسٌ.

وبعد ذلك يعتني بالتفاسير التي اعتنت بعلم المناسبات، وتقدم ذِكْرُها عقب المرحلة الرابعة من معراج كتب التفسير، وهذا العلم يجري مجرىٰ الفتوح من الله تعالىٰ علىٰ العبد، وينبغي العناية به أثناء دراسة التفسير الموضوعي.

حادي عشر: مقاصد السور والوحدة الموضوعية فيها

١-الاستماع لمحاضرة «مقاصد السور وأثر ذلك في فهم التفسير» للشيخ صالح آل الشيخ.

٢- أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاته.

٣- مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور للإمام البقاعي، تحقيق

وتعليق عبد السميع حسنين. ط. مكتبة المعارف.

٤- مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته وخصائص سوره وفوائدها لعبد الله التليدي.

٥- قبس من نور القرآن الكريم، دراسة تحليلية موسعة لأهداف ومقاصد السور الكريمة لمحمد علي الصابوني.

٦- أول مرة أتدبر القرآن لعادل محمد خليل، فإنه ذكر فيه موضوعات كل سورة في القرآن الكريم بشكلٍ موجز، وهو كتابٌ موجهٌ للطلبة وغيرهم.

وبعد ذلك يقرأ في التفاسير التي اعتنت بإظهار جانب المقاصد مثل المختصر في التفسير، والتفسير الموضوعي، ومقدمة كل سورة في تفسير الظلال، وكذلك التحرير والتنوير لابن عاشور، بالإضافة إلىٰ الكتب التي اعتنت بالنظر إلىٰ القرآن الكريم جملةً مثل: المحاور الخمسة للقرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي، ومقاصد القرآن الكريم للأستاذة حنان اللحام، وأمهات مقاصد القرآن وطرق معرفتها ومقاصدها للدكتور عز الدين الجزائري.

وهذا العلم يُدرس مع التفسير الموضوعي، وهو كعلم المناسبات يجري مجرىٰ الفتوح من الله تعالىٰ، فهو لصيق الصلة به، ويحتاج إلىٰ طول تأملٍ ونظر.

ثاني عشر: مناهج المفسرين

المرحلة الأولىٰ:

١- القول المختصر المبين في مناهج المفسرين للشيخ محمد محمود النجدي.

٢- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين للدكتور صلاح الخالدي.

٣- ويستمع الطالب أثناء ذلك إلىٰ المحاضرات المبثوثة في هذا الجانب

مثل: مناهج واتجاهات المفسرين للدكتور مساعد الطيار، ومناهج المفسرين للشيخ صالح آل الشيخ.

المرحلة الثانية:

١- مناهج المفسرين من العصر الأول إلىٰ العصر الحديث للدكتور محمود النقراشي.

وإذا أراد التوسع قرأ: بهجة الناظرين في مناهج المفسرين للدكتور توفيق علوان، ومناهج المفسرين للشيخ خليل رجب حمدان الكبيسي.

٢- التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي.

المرحلة الثالثة:

١- المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات للغمراوي.

٢- **العناية ببعض الموضوعات المتصلة بهذا العلم،** ومن ذلك: التفسير المقارن.. دراسة تأصيلية للدكتور مصطفىٰ المشني، وهو بحثٌ منشورٌ عبر الشبكة، والدخيل في التفسير للشيخ إبراهيم عبد الرحمن خليفة، والاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم.. دوافعها ودفعها للدكتور محمد حسين الذهبي، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد أبو شهبة.

ثالث عشر: الوجوه والنظائر والكليات

١- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للدكتور سليمان القرعاوي، وهو بحثٌ موجزٌ مفيد، تحدث فيه عن معنىٰ الوجوه والنظائر والفرق بينهما وتاريخ هذا العلم.

٢- فتح المنان في شرح حسن البيان في نظم مشتركات القرآن» للدكتور وليد المنيسي، مع حفظ المتن.

٣- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم لأبي هلال العسكري، وتميز هذا الكتاب ببيان الأصل اللغوي للكلمة التي تجتمع عليه المعاني، وهو كتابٌ نفيس.

وإذا أراد التوسع قرأ: الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز للإمام الدامغاني، ونزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي، ولعل ما سبق يغني عنه.

٤- ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد للإمام المبرد.

رابع عشر: فقه التدبر

إنَّ تدبر الكتاب لا ينقطع؛ فالقرآن يُخَاطِبُ به أهلُ العصر خطابَ من أنزل عليهم أول مرة، وهذا الباب يجري مجرىٰ الفتوح من الله، وقد ذكرت عددًا وافرًا من الكتب المؤلفة في هذا الفن؛ لأنَّ معظمها كتبٌ صغيرة تنجز في وقتٍ يسير، وعسىٰ ألا يخلو كتابٌ منها من فائدةٍ ذات قدر، ولا يلزم قراءتها جميعًا، وإن كنت أشتهي أن يجمعها أحد الباحثين في كتابٍ واحدٍ يأخذ خلاصتها ويغني عن مجموعها.

ودونك كتب هذا المعراج:

١-مفاتيح للتعامل مع القرآن الكريم للدكتور صلاح الخالدي.

٢- أبرز أسس التعامل مع القرآن للدكتور عيادة الكبيسي.

٣-الاستماع للمحاضرة المرئية التي بعنوان: منهجياتٌ في تدبر آيات الكتاب لمحمد بن محمد الأسطل، وهي منشورةٌ عبر الشبكة.

٤- مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة «عشرة مفاتيح لتحقيق التدبر الأمثل» للدكتور خالد اللاحم. ط. مكتبة دار المنهاج.

٥- مبادئ في علم التدبر للشيخ عبد المحسن المطيري.

٦- أفلا يتدبرون القرآن.. معالم منهجية في التدبر والتدبير للدكتور طه جابر العلواني.

٧- التدبر.. مفهومه وأركانه وأنواعه للشيخ خالد السبت.

٨- تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري في المجتمعات الإسلامية للدكتور فؤاد البنا.

٩- تدبر القرآن الكريم للشيخ عبد اللطيف التويجري.

١٠- الخارطة الذهنية للقرآن الكريم.. سورة البقرة أنموذجًا، الطريق الأسهل للحفظ والتدبر معًا للدكتور إبراهيم الدويش.

١١- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر للدكتور مساعد الطيار.

١٢- ضوابط أصولية في تدبر القرآن للدكتور يوسف البدوي، وهو بحثٌ منشور.

١٣- تدبر القرآن الكريم.. دراسة تأصيلية للدكتور محمد الصاوي، وأصله رسالة دكتوراه.

١٤- منهج الاستنباط في القرآن الكريم للشيخ فهد الوهبي، وهو كتاب حسن.

ومن أراد التوسع فأحيله علىٰ المقالة التي بعنوان: «دليل الكتب والمؤلفات في تدبر القرآن الكريم» من إعداد اللجنة العلمية في الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وهي منشورةٌ علىٰ موقع الهيئة.

وينبغي النظر في التفاسير التي ظهرت فيها ثمرة التدبر، ومن أغناها عند

المعاصرين: التحرير والتنوير لابن عاشور، وتفسير الشعراوي، والتفسير البياني للقرآن الكريم لبنت الشاطئ، وكتب الدكتور فاضل السامرائي ككتابه المشهور «لمسات بيانية في نصوصٍ من التنزيل»، وكذلك كتاب حدائق الروح والريحان للهرري ففيه بعض اللطائف، وغير ذلك.

خامس عشر: طبقات المفسرين

١- طبقات المفسرين للإمام السيوطي.
٢- طبقات المفسرين للإمام الداوودي.
٣- طبقات المفسرين للإمام الأدنوي.
٤- معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتىٰ العصر الحاضر لعادل نويهض.

سادس عشر: أحكام التلاوة والتجويد

إنَّ جل مادة معراج أحكام التلاوة والتجويد وعلم القراءات مأخوذٌ من كتاب «السبل المرضية» للشيخ أحمد سالم، وهو من وضع الشيخ ضيف الله الشمراني وفقه الله، وقد أضفت إليه أشياء يسيرة، وتمت النعمة بإثراءٍ نافعٍ متينٍ من شيخنا الدكتور حازم حيدر لمواضع متفرقة من المعراج.

وبين يدي سَطْرِ مادة هذا المعراج أنبه علىٰ أن ما تم تدوينه هنا هو خاصٌّ بطالب هذا العلم، ممن يريد التأصيل والتدقيق والبناء المنهجي في علم التلاوة والتجويد وكذلك القراءات، وما يتشقق عن ذلك من علوم.

أما الذي يعنيه أن يتقن التلاوة ويضبط الأداء ويتعرف علىٰ القراءات من غير توغلٍ في المادة العلمية نفسها.. فهذا لا أحدد له سُلَّمًا؛ لأن اتكاءه الكامل إنما

هو علىٰ شيخه حينئذٍ؛ إذ المدار في هذا العلم علىٰ المصاحبة والمشافهة والتلقي المباشر، وما يقرره الشيخ هو المتبع، ولا يشوش علىٰ نفسه.

وقد نبهت علىٰ هذا؛ لئلا يتسرب إلىٰ ذهن القارئ أن هذا العلم مستغلق، وأنه لا بد من المرور علىٰ هذه القائمة الطويلة من الكتب حتىٰ يتمكن من ضبط الأداء وجمع القراءات.

ودونك الآن سرد مادة المعراج:

المرحلة الأولىٰ:

١- تحقيق المنال بشرح تحفة الأطفال للشيخ سليمان الحربي.

٢- التجويد الميسر الصادر عن مجمع الملك فهد، وهو من إعداد جماعةٍ من العلماء

واعلم أنه لا بد من تلقي أحكام التجويد علىٰ شيخٍ متقن، بالإضافة إلىٰ كثرة الاستماع للمصاحف المرتلة، وأوصي بالسماع للشيخ الحصري والمنشاوي ومحمد أيوب.

المرحلة الثانية:

١- شرح المقدمة الجزرية للدكتور غانم قدوري الحمد، أو الفوائد التجويدية في شرح المقدمة الجزرية لموسىٰ عبد الرازق.

٢- الاستماع لدروس أحكام التلاوة والتجويد للشيخ أيمن سويد، وهي منشورةٌ عبر الشبكة.

٣- غاية المريد في علم التجويد لعطية قابل صقر، أو المغني في علم التجويد للدكتور عبد الرحمن الجمل.

٤- التنبيه على اللحن الخفي واللحن الجلي للإمام السعيدي، تحقيق غانم قدوري الحمد.

٥- بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء للإمام ابن البَنّاء الحنبلي، تحقيق الدكتور غانم قدوري الحمد.

٦- اللحن في قراءة القرآن الكريم للشيخ علي بن سعد الغامدي.

وإذا أراد التوسع قرأ التمهيد في علم التجويد للإمام ابن الجزري، تحقيق الدكتور غانم قدوري الحمد، والعميد في علم التجويد للشيخ محمود بن علي بسّة المصري.

المرحلة الثالثة:

١- شرح رائية الخاقاني للإمام أبي عمرو الداني، تحقيق غازي العَمْري.

٢- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة للإمام مكي بن أبي طالب، تحقيق الدكتور أحمد فرحات.

٣- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري للشيخ عبد الفتاح المَرْصَفِي، وهو كتاب نفيس لا يستغني عنه طالب هذا الفن.

٤- التحديد في الإتقان والتجويد للإمام الداني، تحقيق غانم قدوري الحمد.

٥- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد للدكتور غانم قدوري الحمد.

٦- جهد المُقِل للإمام المرعشي، وهذا الكتاب نافعٌ أيضًا لطلبة علم القراءات وعلم اللغة.

سابع عشر: علم القراءات

المرحلة الأولى:

١-مقدمات في علم القراءات للشيخ القضاة وآخرين.

٢- القراءات القرآنية.. تاريخها، ثبوتها، حجيتها، وأحكامها للدكتور عبد الحليم قابة.

٣- المدخل إلىٰ التعريف بالمصحف الشريف للدكتور حازم سعيد حيدر.

٤- الوافي في شرح الشاطبية للشيخ عبد الفتاح القاضي، ومن الشروح النفيسة علىٰ الشاطبية: فتح الوصيد للسخاوي والدرة الفريدة للهمذاني واللآلئ الفريدة للفاسي.

٥- بعد دراسة الشاطبية يبدأ الطالب بعرض ختمةٍ كاملةٍ بالقراءات السبع علىٰ شيخٍ متقنٍ مدققٍ مجاز، ومن الكتب المعينة علىٰ القراءة بجمع القراءات السبع من طريق الشاطبية: غيث النفع للصفاقسي، والبدور الزاهرة للشيخ عبد الفتاح القاضي، وقطر من غيث النفع في أصول وكلمات القراءات السبع للدكتور محمد نبهان مصري، والمنح الإلهية في جمع القراءات السبع من طريق الشاطبية للشيخ خالد الحافظ، والتحفة المرضية للشيخ محمد إبراهيم محمد سالم.

المرحلة الثانية:

١-الإيضاح لمتن الدرة في القراءات الثلاث المتممة للقراءات العشر للإمام ابن الجزري تأليف الشيخ عبد الفتاح القاضي، تحقيق عبد القيوم السندي، ومن الشروح: شرح الزبيدي وشرح النُّوَيري وشرح الشيخ المرصفي.

٢- بعد دراسة الطالب للدرة يبدأ بعرض ختمةٍ كاملةٍ بالقراءات الثلاث علىٰ شيخٍ متقنٍ مدققٍ مجاز، وإن تيسر له أن يقرأ بعد ذلك ختمة بالعشر الصغرىٰ فحسنٌ جدًّا، ومن الكتب المعينة علىٰ القراءة بجمع القراءات الثلاث من طريق الدرة: عبير من التحبير للشيخ محمد نبهان مصري.

المرحلة الثالثة:

١-حلية السفرة البررة فيما زادته الطيبة علىٰ الشاطبية والدرة للشيخ مؤمن السكندري.

٢- شرح طيبة النشر في القراءات العشر للإمام أحمد ابن الجزري «ابن الناظم»، تحقيق الشيخ عادل الرفاعي.

٣- النشر في القراءات العشر لابن الجزري ط. مجمع الملك فهد، تحقيق السالم الجكني، ويدمن النظر فيه، ويقرؤه مرةً بعد مرة.

٤- بعد دراسة الطالب للطيبة يبدأ بعرض ختمةٍ كاملةٍ بالقراءات العشر الكبرىٰ علىٰ شيخٍ متقنٍ مدققٍ مجاز، ومن الكتب المعينة علىٰ القراءة بجمع القراءات العشر من طريق طيبة النشر: البشرىٰ في تيسير القراءات العشر الكبرىٰ للدكتور محمد نبهان مصري، وفريدة الدهر في جمع وتأصيل القراءات العشر للشيخ محمد إبراهيم محمد سالم.

٥- القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب للشيخ عبد الفتاح القاضي.

٦- موارد البررة علىٰ الفوائد المعتبرة في الأحرف الأربعة الزائدة علىٰ العشرة للإمام محمد بن أحمد المتولي، تحقيق علي بن سعد الغامدي.

ويندرج في علم القراءات بعض العلوم المتفرعة عنه، وهي:

أولًا: علم أسانيد القراءات:

١-أسانيد القراءات ومنهج القراء في دراستها للدكتور أحمد بن سعد المطيري.

٢- جامع أسانيد ابن الجزري، وفيه بيان أهمية الإسناد وقيمته والرحلة في طلب الأسانيد وغير ذلك.

ثانيًا: علم طبقات القراء وتراجمهم:

١-معرفة القراء الكبار للإمام الذهبي.

٢- غاية النهاية للإمام ابن الجزري.

ثالثًا: علم الوقف والابتداء:

١-الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنىٰ في القرآن الكريم لعبد الكريم صالح.

٢- الاختلاف في وقوف القرآن الكريم للشيخ عادل السنيد.

٣- منار الهدىٰ في بيان الوقف والابتداء للعلامة الأشموني.

٤- الوقف والابتداء في القرآن الكريم وصلته برسم المصحف والقراءات والإعراب للدكتور ياسين جاسم المحيمد. ط. وزارة الأوقاف القطرية.

رابعًا: علم التحريرات:

١-تأملات حول تحريرات العلماء للقراءات المتواترة للشيخ عبد الرازق بن علي موسىٰ.

٢- مختصر بلوغ الأمنية في شرح إتحاف البرية بتحريرات الشاطبية للشيخ علي الضباع.

٣- الفتح الرحماني للشيخ الجمزوري، تحقيق عبد الرازق علي موسىٰ.

٤- حل المشكلات وتوضيح التحريرات في القراءات للشيخ محمد الخليجي.

٥- شرح تنقيح فتح الكريم في تحرير أوجه القرآن العظيم للشيخ أحمد الزيات.

٦- الروض النضير في تحرير أوجه الكتاب المنير للإمام محمد بن أحمد المتولي، تحقيق خالد أبو الجود.

٧- بدائع البرهان علىٰ عمدة العرفان في تحرير أوجه القرآن للإمام الإزميري.

٨- شرح مقرب التحرير للنشر والتحبير للعلامة الخليجي، تحقيق عبد الغفار الدروبي.

خامسًا: توجيه القراءات:

١-قلائد الفكر في توجيه القراءات العشر للشيخين محمد الصادق قمحاوي وقاسم الدجوي.

٢- المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة للدكتور محمد سالم محيسن.

٣- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها للإمام مكي بن أبي طالب القيسي تحقيق محيي الدين رمضان.

٤- توجيه مشكل القراءات العشرية الفرشية لغةً وتفسيرًا وإعرابًا للشيخ عبد العزيز الحربي.

٥- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية للدكتور أحمد سعد محمد.

٦- الأصول النحوية والصرفية في الحجة لأبي علي الفارسي للدكتور محمد عبد الله قاسم.

٧- حجة القراءات لابن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني.

٨- المحتسب للإمام ابن جني، تحقيق علي النجدي ناصف وزميليه.

٩- المُوضَح في وجوه القراءات وعللها للإمام نصر بن علي الشيرازي، تحقيق الدكتور عمر الكبيسي، وهذا الكتاب وكتاب الكشف للقيسي هما عمدة كتب هذا العلم، فتحصل الكفاية بهما.

١٠- ويقرأ في الدر المصون للسمين الحلبي؛ فإنَّ له عنايةً وافيةً بالتوجيه خاصة اللغوي.

ثامن عشر: الرسم والضبط

المرحلة الأولى:

١-الميسر في علم رسم المصحف وضبطه للدكتور غانم قَدُّوري الحَمَد، وللشيخ دورةٌ مرئيةٌ في شرح الكتاب في عشرين درسًا، وهي منشورةٌ علىٰ الشبكة.

٢- سفير العالمين في إيضاح وتحرير وتحبير سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين للدكتور أشرف محمد فؤاد طلعت.

المرحلة الثانية:

١- تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد في شرح عقيلة أتراب القصائد في علم الرسم القرآني للشاطبي لابن القاصح، وللشيخ أيمن سويد شرحٌ صوتيٌّ عليه، ويمكن أن يقدم هذا الكتاب إلىٰ المرحلة الأولىٰ.

٢- أصول الضبط وكيفيته على جهة الاختصار للإمام أبي داود سليمان بن نجاح، تحقيق أحمد شرشال.

٣- إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة لمحمد شملول، ط. دار السلام.

المرحلة الثالثة:

١- دليل الحيران على مورد الظمآن في فني الرسم والضبط للإمام المارغني، ويمكن أن يقدم هذا الكتاب إلى المرحلة الثانية، أو لطائف البيان في رسم القرآن شرح مورد الظمآن للشيخ أحمد أبو زيتحار.

٢- مختصر التبيين لهجاء التنزيل للإمام أبي داود سليمان بن نجاح، تحقيق أحمد شرشال.

بقي أن يشار إلى أن هناك علمًا يجعله بعض العلماء من متعلقات علم الرسم والضبط، وإن كان الأقرب أنه مستقلٌّ في نفسه؛ وهو **علم الفواصل القرآنية أو علم عد آيات الكتاب**، وهو مفيدٌ في معرفة عدد الآيات والخلاف بين المصاحف فيه وارتباطه بعلم الوقف والابتداء، وضبط هذا يفيد في فهم معاني الآيات، ومن كتبه:

١- النسائح الحسان في عد آي القرآن للشيخ محمد أبو الخير.

٢- فواصل الآيات القرآنية للدكتور كمال الدين المرسي.

٣- فواصل الآيات القرآنية.. دراسة بلاغية دلالية للدكتور السيد خضر.

٤- ناظمة الزهر في علم الفواصل للإمام الشاطبي، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، وعلى النظم شرح للعلامة المخللاتي اسمه: «القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز على ناظمة الزهر»، تحقيق عبد الرازق موسى.

أما الكتب المتعلقة بمتشابهات القرآن لمن رام حفظه.. فأشهرها: مصحف التبيان في متشابهات القرآن، دار التقوىٰ، والزهراوان في متشابهات القرآن، وهو مطبوعٌ بجانب المصحف، وعلامات.. موسوعةٌ جامعةٌ في ضبط المتشابهات للدكتور سعيد أبو العلا حمزة، وهذا الكتاب نفيسٌ ذو قدر، ودليل الآيات متشابهة الألفاظ للدكتور سراج صالح ملائكة، والضبط بالتقعيد للمتشابه اللفظي في القرآن المجيد للدكتور فواز الحنين.

وظاهرٌ أنه لا يلزم كل هذه الكتب، فواحدٌ منها يكفي، وإنما يعتمد الحافظ ما ينتخبه له مشايخه، ولو كنت ناصحًا بواحدٍ.. فليكن بكتاب «وعلامات».

تنبيهات:

١- البدء بدراسة علم القراءات يكون بعد إنهاء المرحلة الثانية من دراسة علم التجويد، أما علم التحريرات فيدرس مع علم القراءات، وأما كتب الضبط فتدرس بعد كتب الرسم، وأما علم توجيه القراءات فيدرس بعد قراءةٍ متقنةٍ لكتابٍ متوسطٍ في النحو ومختصرٍ في الصرف والبلاغة والتفسير.

٢- من الخلل المنهجي الشروع في طلب علم القراءات قبل إتقان حفظ روايةٍ واحدة.

٣- يلزم الطالب بحفظ المتون في هذه العلوم؛ إعانةً علىٰ الضبط.

٤- ولا ينسىٰ الغائص في هذه العلوم حظه من علوم الغاية: تزكية النفس والتفسير والحديث والعقيدة والفقه؛ فإني رأيت عددًا من المنهمكين في دقائق القراءات والإقراء في ذهولٍ شبه تام عن معاني الآيات ورسائلها، وهي في المنزلة أعظم والحاجة إليها ألزم.

تاسع عشر: إعراب القرآن الكريم

١-الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه لمحمود صافي.

٢- إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيي الدين درويش.

٣- إعراب القرآن الكريم لمحمود سليمان ياقوت.

٤- الإعراب المفصل لكلام الله المرتل لبهجت عبد الواحد صالح.

٥- التفصيل في إعراب آيات التنزيل لعبد اللطيف الخطيب وسعد مصلوح ورجب العلوش، وهذا الكتاب عظيم النفع.

ولا يخفىٰ أنَّ الطالب لا يحتاج كل هذه الكتب، ويكفيه أن يقتني كتابًا واحدًا منها، أما عن الأفضلية.. فلعل أيسرها الجدول، وأوسعها التفصيل، وأنفعها إعراب ياقوت، علىٰ أنَّ القراءة في هذه الكتب ليست للمبتدئ؛ وإنما للذي تقدم شيئًا في الطلب، فتكون عونًا له في تحرير الألفاظ وتحصيل المعاني.

ومن التممات المرتبطة بعلم التفسير الرد علىٰ الشبهات، ومن الكتب المؤلفة في ذلك:

١-تنزيه القرآن الكريم عن دعاوىٰ المبطلين للدكتور منقذ السقار.

٢- القرآن ونقض مطاعن الرهبان للدكتور صلاح الخالدي.

٣- النظر في المجلدين الأولين من موسوعة بيان الإسلام الرد علىٰ الافتراءات والشبهات، والمجلد الأول فيه ذِكْرُ الشبهات التي تولىٰ القرآن الرد عليها، والثاني فيه ذكر الشبهات حول ما تُوُهِّم من أخطاء لغوية في القرآن الكريم، والموسوعة كاملة تقع في ٢٤ مجلدًا، وهي من إعداد نخبة من كبار العلماء.

وفي ختام معراج علم التفسير أنبه أنَّ البداية:

تكون بقراءة كتابٍ مختصرٍ في التفسير، وليكن «المختصر في التفسير»، ويشتغل أثناء ذلك بدراسة طرفٍ من تاريخ علم التفسير والمدخل إلىٰ دراسته.

وبعد الانتهاء من المختصر يبدأ الطالب بمعرفة كليات الألفاظ في التفسير، فيقرأ كتاب «فتح المنان في شرح حسن البيان في نظم مشتركات القرآن» للدكتور وليد المنيسي.

ثم يدرس غريب القرآن، ثم الوجوه والنظائر، ثم مقاصد السور، ولا يلزم استيعاب كتب هذه العلوم، فلو قرأ كتابًا أو كتابين.. لكفىٰ في المرحلة الأولىٰ من التلقي.

ثم يقرأ كتب التفسير نفسها، فيعيد كتاب المختصر في التفسير ويكمل الطريق، ويشتغل أثناء قراءته في كتب التفسير بقراءة كتب علوم القرآن وأصول التفسير والمدخل إلىٰ دراسته، وما وراء ذلك فالأمر فيه واسع.

ومن الخلل المنهجي الذي نبه عليه الشيخ صالح العُصيمي أن يبدأ الطالب بكتب التفسير ويمضي فيها قبل أن يُحكِمَ الألفاظ، والفقه في الطَّلب أن يُحكِمَ كليات الألفاظ ثم معانيها ثم الوجوه والنظائر، ثم مقاصد السور لينظر إليها نظرةً جُمليةً موجزة، وبعد ذلك يشرع في كتب التفسير، ويمضي ويرجو ربه أن يفتح له.

المطلب الرابع
معراج علوم السنة النبوية

يندرج في علم السن النبوية أربعة عشر علمًا، إليك معارجها التفصيلية المقترحة، مع التنبيه أنَّ طالب علم السنة لا بد أن يتسلح بعلمي اللغة وأصول الفقه وإلا لم يقدر علىٰ التحصيل في بعض علوم هذا الفن علىٰ وجهه.

أولًا: متون السنة

ينبغي لطالب العلم أن يكون له وردٌ يوميٌّ ولو قل في قراءة متون السنة نظير ورده من تلاوة القرآن الكريم؛ فإنَّ قوة الطالب في تشبعه بنصوص الوحي، ومن أدمن النظر فيها انفتحت له آفاق فهم الشريعة.

وهنا أذكر عيون كتب السنة، وهي كثيرة، ويمكن أن تُقرأ قراءةً جرديةً في سنتين أو ثلاث، مع التنبيه أنَّ متون السنة ليست علمًا مستقلًّا في ذاتها، وبهذا تكون محاور المعراج خمسة عشر، ودونك بيانها:

المرحلة الأولىٰ:

١-الأربعون النووية للإمام النووي.

٢- رياض الصالحين للإمام النووي.

٣- الأذكار للإمام النووي.

٤- الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، وعليه

أحكام الشيخ الألباني. ط. دار البشائر.

٥- معالم السنة النبوية للشيخ صالح الشامي، وهذا كتابٌ عظيم الفكرة والنفع.

٦- السراج المنير في ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير.. رتبه وعلق عليه عصام موسىٰ هادي. ط. دار الصديق ومؤسسة الريان.

٧- عمدة الأحكام من كلام خير الأنام للإمام عبد الغني المقدسي.

٨- بلوغ المرام من أدلة الأحكام للحافظ ابن حجر.

٩- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف للحافظ المنذري، وعليه أحكام الشيخ الألباني.

١٠- السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني. ط. دار المعارف، وتقع في مجلدٍ واحد.

١١- جامع الأصول التسعة من السنة المطهرة للشيخ صالح الشامي، وهذا الكتاب جمع عامة أحاديث الكتب التسعة، وهو جهدٌ ضخم، ويخدم غير المتخصص إذا أراد أن يقتصر علىٰ كتابٍ واحد، أما المتخصص فيمكن أن يتجاوزه إلىٰ المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية:

١-صحيح البخاري، ط. دار التأصيل، من منشورات وزارة الأوقاف القطرية، وهي طبعةٌ بديعة، أو يقرأ ط. دار العلوم الإنسانية - دمشق، وهي التي قام الدكتور مصطفىٰ البغا بالتعليق اليسير علىٰ الأحاديث فيها في الحاشية، بحيث تقل حاجة النظر في الشروح أثناء قراءة المتن.

٢- صحيح مسلم. ط. دار التأصيل.

٣- سنن أبي داود. ط. دار التأصيل.

٤- جامع الترمذي. ط. دار التأصيل.

٥- سنن النسائي. ط. دار التأصيل.

٦- سنن ابن ماجه. ط. دار التأصيل.

٧- موطأ مالك.

٨- سنن الدارمي.

المرحلة الثالثة:

١- صحيح ابن خزيمة.

٢- صحيح ابن حبان.

٣- السنن الكبرى للإمام البيهقي، وهذا الكتاب من أكبر كتب أحاديث الأحكام.

٤- معرفة السنن والآثار للإمام البيهقي، وهذا كتابٌ نفيسٌ، ويعظم انتفاع طلبة الشافعية به.

٥- مسند الإمام أحمد. ط. دار المنهاج أو الرسالة.

٦- المعجم الصغير للإمام الطبراني.

٧- المعجم الأوسط للإمام الطبراني.

٨- المعجم الكبير للإمام الطبراني.

٩- البحر الزخار المعروف بمسند البزار.

١٠- سنن الدارقطني، وهذا يعظم انتفاع المتفقه به.

١١- مصنف ابن أبي شيبة.

١٢- مصنف عبد الرزاق.

والترتيب مقصود لكنه ليس بلازم، فيمكن أن تبدأ بطرفٍ يسيرٍ من المرحلة الأولىٰ ثم تشرع في قراءة الصحيحين وبقية الأصول.

أما بالنسبة للحفظ؛ فإنَّ عمومَ الطلبة والدعاة يحرصون علىٰ حفظ الأربعين النووية ورياض الصالحين، أما طالب العلم فيحفظ بعد ذلك عمدة الأحكام ثم بلوغ المرام، ثم يشرع في حفظ الكتب الستة وما بعدها وفق مشروع الشيخ يحيىٰ اليحيىٰ؛ فيحفظ الطالب المتفق عليه بين البخاري ومسلم، ثم مفردات البخاري ثم مفردات مسلم، ثم زوائد أبي داود عليهما، ثم زوائد الترمذي علىٰ ما سبق، ثم زوائد النسائي علىٰ ما سبق كله، ثم زوائد ابن ماجه علىٰ ما سبق كله، وهكذا يمضي في بقية عيون كتب السنة إذا توفرت همته[1].

ثانيًا: شروح كتب الحديث

المرحلة الأولى:

١- شرح الأربعين النووية لابن عثيمين.

٢- فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد لفضل الله الجيلاني.

المرحلة الثانية:

١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن علان الصديقي، وهذا كتابٌ نفيس.

٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير للإمام المناوي، ويكتفي به، وحيث أراد التوسع فيقرأ «التنوير شرح الجامع الصغير» للإمام الصنعاني، تحقيق الدكتور

---

(١) انظر التعريف ببرنامج حفظ السنة للشيخ ومنهجه في اختيار الأحاديث وكتبه المعتمدة عبر الشبكة.

محمد إسحاق إبراهيم.

المرحلة الثالثة:

١-منهاج المحدثين وسبيل طالبيه المحققين في شرح صحيح أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري للإمام النووي، المشهور بشرح النووي علىٰ مسلم، ط. دار المنهاج القويم، تحقيق الدكتور مازن السرساوي، أو ط. مؤسسة المختار، تحقيق رضوان رضوان.

وإذا أراد التوسع فيقرأ إكمال المُعلم شرح مسلم للقاضي عياض، أو المفهم لما أُشكِل من كتاب تلخيص مسلم لأبي العباس القرطبي، تحقيق وتعليق: محي الدين ديب مستو وآخرين، أو فتح المنعم شرح صحيح مسلم للدكتور موسىٰ شاهين، وهو كتابٌ معاصرٌ سهل، حسن الترتيب كثير الفوائد، أو البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج للعلامة محمد بن علي آدم الأثيوبي. ط. دار ابن الجوزي.

٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر، وهذا عمدة الشروح، فيكتفي به، ويمكن أن يتمهد قبله بشرح الخطابي، وهو بالغ الاختصار.

وإذا أراد التوسع في شروح الصحيح.. قرأ عمدة القاري للعيني، وهو أحسن ترتيبًا من فتح الباري، أو التوضيح لشرح الجامع الصحيح للإمام ابن الملقن، ط. وزارة الأوقاف القطرية وغير ذلك.

المرحلة الرابعة:

١-معالم السنن شرح سنن أبي داود للإمام الخطابي، ويكتفي به إذا قرأ شرح الصحيحين أو أحدهما، وحيث أراد التوسع فيقرأ شرح سنن أبي داود لابن رسلان، تحقيق: خالد الرباط وآخرين. ط. دار الفلاح، وهو شرحٌ نفيس، أو

كتاب عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي، أو حاشية ابن القيم علىٰ سنن أبي داود، أو شرح العيني، ويمكن الاكتفاء به.

٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري.

٣- حاشية السيوطي علىٰ سنن النسائي، وإذا أراد التوسع فيقرأ شرح سنن النسائي المسمىٰ بذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ للعلامة محمد بن علي آدم الأثيوبي.

٤- حاشية السيوطي علىٰ سنن ابن ماجه، وإذا أراد التوسع فيقرأ «مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه للعلامة محمد بن علي آدم الأثيوبي.

٥- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للإمام ابن عبد البر.

٦- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري، وهو كتابٌ نفيس.

وبعد هذا السرد أوصي بشرح الصحيحين، فمن ضبط شرحًا واحدًا لكلٍّ منهما حاز الخير من طرفيه، وتيسرت له بقية شروح السنة.

ولعل الله يقيض من يشرح زوائد بقية الكتب التسعة في كتابٍ واحد؛ ليتيسر الإلمام بمعاني السنة، ونجاةً من التكرار الكثير في هذه الشروح، ويمكن أن يُستفاد إحصاء ذلك من مشروع الشيخ صالح الشامي وكذلك الشيخ يحيىٰ اليحيىٰ في جمعهما للزوائد.

ثالثًا: غريب الحديث

١-غريب الحديث للإمام الخطابي.

٢- غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام.

٣- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، تحقيق أحمد الخراط، ط. وزارة الأوقاف القطرية، وهذا الكتاب يكفي طالب العلم في هذا العلم، فلا يقرأ سواه، وإذا أراد التوسع فيجعله أصلًا ويأخذ حاجته من غيره؛ كالكتابين المذكورين قبله ومثلهما كتاب غريب الحديث للإمام ابن الجوزي، والفائق في غريب الحديث والأثر للإمام الزمخشري وغير ذلك.

رابعًا: مختلف الحديث ومُشْكِله

المرحلة الأولى:

١-منهج التوفيق والترجيح بين مختلف الحديث وأثره في الفقه الإسلامي للدكتور عبد المجيد السُّوسوة. ط. دار النفائس.

٢- مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين للدكتور نافذ حماد.

٣- دراسة نقدية في علم مشكل الحديث للأستاذ إبراهيم العسعس.

المرحلة الثانية:

في هذه المرحلة يعتني طالب العلم بكتب التطبيقات التي عالجت ما يُتوهم من تعارض الأحاديث، فيدقق النظر فيها مع استحضار أصول النظر التي استفادها من كتب المرحلة الأولىٰ، ومن أبرز الكتب في ذلك:

١- اختلاف الحديث للإمام الشافعي.

٢- تأويل مختلف الحديث للإمام ابن قتيبة.

٣- مشكل الآثار للإمام الطحاوي.

٤- مختلف الحديث وأثره في أحكام الحدود والعقوبات للدكتور طارق الطواري.

٥- الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار للإمام الحازمي، ومقدمةُ هذا الكتاب نفيسة.

بقي التنبيه أنَّ النظرَ في هذا الكتاب الأخير والذي قبله خاصة وكتب علم مختلف الحديث عامة يحتاج إلىٰ ضبط مادة أصول الفقه ولو المرحلة الأولىٰ منه، مع التوسع في بابي الدلالات والتعارض والترجيح ما استطعت.

خامسًا: أسباب الورود والإيراد

١- أسباب ورود الحديث.. تحليل وتأسيس للدكتور محمد رفعت سعيد، من ساسلة كتاب الأمة.

٢- علم أسباب ورود الحديث وتطبيقاته عند المحدثين والأصوليين للدكتور طارق الأسعد، وأصله رسالة دكتوراه، وهو منشورٌ علىٰ الشبكة.

٣- اللمع في أسباب ورود الحديث للإمام السيوطي.

٤- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف لابن حمزة الحسيني.

ويكتفي الطالب بهذه الكتب، لا سيما وأن هذا العلم مُتضمَّنٌ عادةً في كتب الشروح، ومن أراد التوسع فيقرأ: الصعود بمعرفة أسباب الورود للدكتور محمد

الشطي والدكتور إبراهيم الحناوي، وهو بحثٌ منشورٌ علىٰ الشبكة، وعلم أسباب ورود الحديث للدكتور بدر عبد الحميد هميسة، وهو بحثٌ منشور علىٰ الشبكة، وعلم أسباب ورود الحديث ومكانته وأهميته في التشريع الإسلامي للدكتور رمضان أيواللي أرضروم، وأصله رسالة دكتوراه، وسبب ورود الحديث.. ضوابط ومعايير للدكتور زين العابدين محمد عصري، وأسباب ورود الحديث وأثر معرفتها في توجيه الأحكام للشيخ حسن شرقاوي، وأسباب ورود الحديث وأثره في فقه الحديث للأستاذ آسو رضا أحمد.

سادسًا: مصطلح الحديث

المرحلة الأولى:

١-القول المختصر شرح نخبة الفِكَر للدكتور عمر المقبل فرج الله عنه، ط. مكتبة دار المنهاج، وللشيخ شرحٌ صوتيٌّ عليه منشور يقع في ست محاضرات.

وإذا أراد التوسع قرأ نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر، ويستمع لشرح الشيخ الشريف حاتم العوني عليه، ويقع في تسعة وعشرين شريطًا، والوصية بذلك؛ إذ في هذا الكتاب ما لا ينبغي أن يفوت.

٢- مدخل إلىٰ علم الحديث للشيخ طارق عوض الله، وهذا كتابٌ لا غنىٰ عنه للمبتدئ، وبهذا وصفه مؤلفه، وهو كما قال.

٣- حفظ متن نخبة الفكر للحافظ ابن حجر.

المرحلة الثانية:

١-مقدمة ابن الصلاح، وعليها نكت الحافظ العراقي والحافظ ابن حجر، تحقيق الشيخ طارق عوض الله، ويستمع لزامًا للشرح الصوتي للشريف حاتم

العوني، ويقع في مائة وعشرة دروس، وسماع هذا الشرح يُمَكِّنُكَ من ناصية هذا العلم، ويغنيك عن أكثر كتب هذا الفن، ولعل الشيخ قد حرره للنشر؛ فقد أعلنت دار فارس أنه سيصدر عنها شرحٌ للشيخ على المقدمة اسمه: «التكميل والإيضاح لمقاصد كتاب ابن الصلاح».

٢- وأثناء هذه المرحلة والتي بعدها يقرأ: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي.

المرحلة الثالثة:

١-فتح المغيث شرح ألفية الحديث للإمام السخاوي. ط. دار المنهاج، ولعله أنفس كتب هذا الفن، وللشيخ الحبيب د. بسام الصفدي وفقه الله تعليق عليه يتجدد.

وإذا بلغ الطالب هذه المرحلة وانتهى من هذا الكتاب واشتهى التوسع.. فيمكن أن يتجول في بعض كتب المصطلح ليلتقط الزوائد من الفوائد؛ فيقرأ شرح الموقظة للذهبي للشريف حاتم العوني، ومنهج النقد في علم الحديث للدكتور نور الدين عتر، وتحرير علوم الحديث للشيخ عبد الله الجديع، وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للإمام السيوطي، بالإضافة للكتب المعاصرة.

على أنَّ هذا العلم إنما هو علم آلة فينبغي ألا يتوسع في كتبه النظرية على حساب التطبيقات العملية.

٢- المنهج المقترح لفهم المصطلح.. دراسةٌ تاريخية تأصيلية لمصطلح الحديث للشريف للشيخ الشريف حاتم العوني، وهو كتابٌ فذ، فيه حسٌّ نقديٌّ عالٍ.

سابعًا: التخريج

ينبغي لطالب العلم أن يعتني بهذا العلم مبكرًا، ويمكن أن يشرع فيه بعد دراسة علم المصطلح ولو لم يتمه؛ ليوازن بين النظرية والتطبيق، ويكون علىٰ درايةٍ بمناهج الأئمة في ذلك.

المرحلة الأولى:

١-أصول التخريج ودراسة الأسانيد للدكتور محمود الطحان.

٢- تيسير تخريج الأحاديث للمبتدئين، مع تمريناتٍ عمليةٍ تعين الطالب علىٰ ممارسة هذا العلم للشيخ عمرو عبد المنعم سليم. ط. دار ابن القيم ودار ابن عفان.

٣- طرق تخريج أحاديث رسول الله ﷺ للدكتور عبد المهدي عبد القادر.

٤- التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل للشيخ بكر أبو زيد. ط. دار العاصمة.

وبعد قراءة هذه الكتب يكثر النظر في كتاب الطحان، ويكفيه هذا المقدار من الدراسة النظرية في كتب هذا العلم.

المرحلة الثانية:

بعد إنجاز المرحلة الأولىٰ ينبغي توفير الهمة في كثرة النظر في كتب التخريج وإتقان مهارة التخريج عبر الحاسوب؛ لأنه أحفظ للوقت وأدق في النتائج، مع التنويه علىٰ تعين التدرب علىٰ صياغة التخريج صياغةً صحيحةً علىٰ يد شيخٍ متقن.

وأما كتب التخريج فلا يلزم قراءة كتابٍ منها؛ بل يطيل النظر فيها؛ ليقتدي بها عند الحكم ويرجع إليها عند الحاجة، ومن أشهر الكتب في ذلك:

١-تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للإمام المزي.

٢- جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ للإمام ابن الأثير.

٣- نصب الراية لأحاديث الهداية للإمام الزيلعي.

٤- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير للإمام ابن الملقن.

٥- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ ابن حجر، وهو مختصرٌ للبدر المنير وزيادةٌ عليه أو إثراءٌ له.

٦- تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق لابن عبد الهادي.

٧- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للشيخ الألباني.

٨- السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني.

٩- السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني.

ثامنًا: دراسة الأسانيد

هذا العلم كسابقه يعتني به الطالب مبكرًا؛ ليوازن بين النظرية والتطبيق؛ لاختلاف مناهج الأئمة في الحكم على الأحاديث.

المرحلة الأولى:

١-تيسير دراسة الأسانيد للمبتدئين، مع تمريناتٍ عمليةٍ تعين الطالب على ممارسة هذا العلم للشيخ عمرو عبد المنعم سليم.

٢- الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات للشيخ طارق عوض الله.

٣- الموازنة بين المتقدمين والمتأخرين في تصحيح الأحاديث وتعليلها للدكتور حمزة المليباري. ط. دار ابن حزم.

المرحلة الثانية:

بعد إنجاز المرحلة الأولىٰ يصرف الطالب همته إلىٰ النظر في الكتب التطبيقية لهذا العلم، سواءً التي تذكر خلاصة الحكم علىٰ الأحاديث؛ ليكون عالمًا بما صح من السنة وما ضعف وما تُنوزع فيه، أو التي تدرس الإسناد، ولا يلزم قراءة هذه الكتب؛ وإنما يكرر نظره فيها ليطلع علىٰ طريقة أهل العلم في الحكم علىٰ الحديث ودراسة الأسانيد، وتكون مثابته عند الحاجة، وبهذا يتشرب ملكة هذا العلم.

ومن الكتب التي تساعد علىٰ ذلك:

١-كتب التخريج التي تقدمت التي تعتني بدراسة الأسانيد.

٢- أحكام الشيخ شعيب الأرنؤوط وتعليقاته علىٰ مسند الإمام أحمد. ط. مؤسسة الرسالة.

٣- تعليقات العلامة أحمد شاكر علىٰ جامع الترمذي وعلىٰ مسند الإمام أحمد.

٤- ويمكن أن يستفيد من البرامج الحاسوبية التي تذكر الحكم علىٰ الأحاديث، وكذلك المواقع المبثوثة علىٰ الشبكة مثل موقع «حديث»؛ فإنه يذكر الحكم وأهم معلومات التخريج.

٥- ويحسن أن يقرأ مناهج بعض الأئمة في ذلك، فيقرأ مثلًا: منهج الإمام أحمد في التعليل وأثره في الجرح والتعديل من خلال كتابه العلل ومعرفة الرجال للدكتور أبو بكر بن الطيب كافي، ومنهج الإمام علي بن المديني في إعلال الحديث للدكتور نضال ثلجي. ط. دار المقتبس.

تاسعًا: الجرح والتعديل

المرحلة الأولى:

١-شرح خلاصة التأصيل في الجرح والتعديل للشريف حاتم العوني، وهو شرحٌ صوتيٌّ مُفَرَّغ.

٢- ضوابط الجرح والتعديل للدكتور عبد العزيز العبد اللطيف، وهذا أهم كتب هذه المرحلة.

٣- تحرير قواعد الجرح والتعديل وكيفية البحث في أحوال الرواة مع تدريبات عملية تعين الطالب علىٰ ممارسة هذا العلم للشيخ عمرو عبد المنعم سليم.

وإذا أراد التوسع قرأ المدخل إلىٰ علم الجرح والتعديل للشيخ حازم الشربيني، وهو كتابٌ نفيس.

المرحلة الثانية:

١-الجرح والتعديل للدكتور إبراهيم اللاحم.

٢- شفاء العليل في ألفاظ الجرح والتعديل لأبي الحسن المأربي.

٣- الرفع والتكميل في الجرح والتعديل لأبي الحسنات اللكنوي، تحقيق وتعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

وهذا القدر من الكتب يكفي وزيادة، ومن ابتغىٰ التوسع فليلتقط الزوائد من

الفوائد من مؤلفات هذا الفن مثل: المدخل إلىٰ علم الجرح والتعديل للشيخ حازم الشربيني، ودراسات في الجرح والتعديل للدكتور محمد مصطفىٰ الأعظمي، ومباحث في علم الجرح والتعديل للشيخ قاسم علي سعد، والتنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل للمعلمي اليماني.

علىٰ أنَّ الهمة في هذا العلم ينبغي إنفاقها في كثرة المراس والتطبيق العملي، والموازنة بين استعمال الأئمة لألفاظ الجرح والتعديل وبين مادة الكتب النظرية، وليعتنِ بدراسة الرواة الذين يكثر دورانهم أو الاختلاف فيهم.

عاشرًا: الطبقات والرجال

المرحلة الأولى:

١-علم الرجال.. نشأته وتطوره من القرن الأول إلىٰ نهاية القرن التاسع للدكتور محمد مطر الزهراني.

٢- علم طبقات المحدثين.. أهميته وفوائده للمهندس أسعد سالم تيم. ط. مكتبة الرشد.

٣- مدخل إلىٰ علم الطبقات عند المحدثين لأبي إبراهيم محمد إلياس الفالوذه.

٤- تعريف بأشهر الكتب المطبوعة من كتب الجرح والتعديل، للدكتور عبد العزيز العبد اللطيف، وهي مذكرةٌ قيمة تذكر أهم الكتب ومناهج الأئمة فيها.

المرحلة الثانية:

يعتني الطالب في هذه المرحلة بالكتب التي تُعنىٰ برواة الكتب الستة، ولا يلزم قراءتها، بل الذي يتحتم عليه أن يعرف هذه الكتب من حيث الإجمال وما الذي تخصصت فيه؛ ليسهل عليه الرجوع إليها عند الحاجة، وعندئذٍ لا يبحث

عن الرواة لغير الكتب الستة فيها؛ لأنها اقتصرت على رواتها، ومن أهم هذه الكتب الأربعة الآتية:

١-الكاشف في معرفة من له روايةٌ في الكتب الستة للإمام الذهبي.

٢- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر.

٣- تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر.

٤- تهذيب الكمال للإمام المزي، تحقيق الدكتور بشار معروف. ط. مؤسسة الرسالة.

المرحلة الثالثة:

كتب هذه المرحلة بمثابة المراجع التي يقصدها طالب العلم عند الحاجة، وهي تتخصص في جوانب، ومن ذلك:

١-**كتب الثقات من الرواة**، مثل: الثقات لابن حبان ومعرفة الثقات للعِجلي وتاريخ أسماء الثقات لابن شاهين، ويعتني الطالب بمعرفة منزلة النقاد من حيث الاعتدال والتشدد.

٢- **كتب الضعفاء والمجروحين**، مثل: الضعفاء الكبير للعقيلي، والكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي، والمجروحين من المحدثين لابن حبان، وطبقات المدلسين للحافظ ابن حجر، وكتب المراسيل.

٣- **التراجم العامة التي تجمع بين الثقات والضعفاء**، مثل: ميزان الاعتدال وتاريخ الإسلام، وكلاهما للإمام الذهبي، والتاريخ الكبير للإمام البخاري، وتاريخ ابن عساكر، ولسان الميزان وتعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، وكلاهما للحافظ ابن حجر، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم، وتاريخ ابن معين برواياته المختلفة.

٤- ومن أراد التوسع فليقرأ في الكتب التي أفردت الكلام في الرواة في كتبٍ مفردة مثل: قرة العينين في تلخيص تراجم رجال الصحيحين للعلامة محمد بن علي آدم الأثيوبي، وتراجم رجال الدراقطني في سننه للشيخ مقبل الوادعي، وبلغة القاصي والداني في تراجم شيوخ الطبراني للشيخ حماد الأنصاري، وغير ذلك، وليعتن الطالب كذلك بضبط أسماء مشاهير الرواة، ومن الكتب التي اعتنت بهم «معرفة الرواة المكثرين» للشيخ فهد العمار.

حادي عشر: علم العلل

المرحلة الأولى:

١- مذكرة علل الحديث من تيسير علوم الحديث للشيخ عمرو عبد المنعم سليم.

٢- شرح علل الحديث للشيخ مصطفى العدوي.

٣- علم علل الحديث ودوره في حفظ السنة للعلامة وصي الله عباس.

٤- جهود المحدثين في بيان علل الأحاديث للدكتور علي الصياح.

المرحلة الثانية:

١- العلة وأجناسها عند المحدثين لأبي سفيان مصطفى باحو. ط. دار الضياء.

٢- شرح علل الترمذي للإمام ابن رجب الحنبلي، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، ط. مكتبة الرشد، مع المقدمة الحافلة التي جاد بها الدكتور همام سعيد في صدر تحقيقه للكتاب.

٣- الجامع في العلل والفوائد للدكتور ماهر ياسين الفحل، وهو كتابٌ فذ، تعب فيه مصنفه، وانتقاه من أكثر من ألف كتاب.

المرحلة الثالثة:

هذه المرحلة تُصرف للعناية بالكتب التطبيقية لهذا العلم، فيقصدها عند الحاجة، ويجتهد في تكرار النظر فيها؛ ليتعرف علىٰ طريقة الأئمة في تعليل الأحاديث، والقرائن المستعملة في ذلك، ويستعين بكتاب «القرائن وأثرها في الترجيح عند المحدثين» للدكتور علي الصياح، ومن أهم الكتب في ذلك:

١-الإلزامات والتتبع للإمام الدراقطني، ويستعين عليه بكتاب «الأحاديث المنتقدة علىٰ الصحيحين» لأبي سفيان مصطفىٰ باحو.

٢- العلل لابن المديني.

٣- كتاب العلل لابن أبي حاتم، تحقيق فريق من الباحثين بإشراف الدكتور سعد الحميد والدكتور خالد الجريسي، مع التركيز علىٰ المقدمة العللية الحافلة التي في صدر تحقيق الكتاب.

٤- علل الدارقطني.

٥- المسند المصنف المعلل للدكتور بشار عواد معروف وآخرين. ط. دار الغرب الإسلامي – تونس.

بقي التنويه أنَّ هذا العلم لا بد فيه من ثني الركب بين يدي أهل العلم المختصين؛ لدقة مسائله ووعورة مسلكه، ولا يكفي فيه الدراسة بانفكاكٍ عن شيخٍ خبيرٍ به متقن.

ثاني عشر: مناهج المحدثين

المرحلة الأولىٰ:

١-تدوين السنة النبوية.. نشأته وتطوره من القرن الأول إلىٰ نهاية القرن التاسع للدكتور محمد مطر الزهراني. ط. مكتبة دار المنهاج.

٢- مناهج المحدثين للدكتور سعد آل حميد.

المرحلة الثانية:

١-مناهج المحدثين للدكتور محمد التركي. ط. دار العاصمة.

٢- مناهج المحدثين العامة في الرواية والتصنيف للدكتور نور الدين عتر.

٣- مناهج المحدثين العامة والخاصة الصناعية الحديثية للدكتور علي نايف بقاعي.

ويكفي هذا القدر من الكتب، ومن أراد التوسع فيقرأ كتاب «مناهج المحدثين عرض مقارن» للشيخ علي خُضير حَجِّي، وليطالع ما شاء من الرسائل العلمية والبحوث المدونة في مناهج أئمة بأعينهم، سواء لعرض منهجهم في كتابٍ معين أو قضيةٍ معينة.

ثالث عشر: السيرة النبوية

علم السيرة النبوية من أشرف العلوم على الإطلاق؛ لأنه التجربة الحية الكاملة المتكاملة لتطبيق الدين، وهي أعظم تجربة بشرية في التاريخ الإنساني، وحظيت بتزكيةٍ عظيمةٍ من الله تعالى.

ولهذا ازدحمت المكتبة الإسلامية بالمؤلفات في هذا الفن، ويكاد لا يخلو كتابٌ من فائدة، ويُحار الإنسان فيما يأخذ وما يدع.

لكني أنبه أن كثيرًا من هذه الكتب ركّزت على جانب التوحيد في المرحلة المكية وجانب الغزوات في المرحلة المدنية، مع أنَّ هذا جزءٌ يسيرٌ من السيرة وإن كان عظيمًا جدًّا في نفسه، ومن مدة وأنا أُدَرِّسُ السيرة النبوية ولم أعثر بعدُ على كتابٍ جمع عامة الجوانب التي يمكن من خلالها التقاط عقلية النبي ﷺ في بناء

الأشخاص وإدارة الأحداث وبناء المجتمعات والدول، ولكنك بمجموع ما تقرأ وملاحظة ما تريد من هذه المعاني تُحصِّل شيئًا ذا بال.

وبعد الذي تسطر إليك تدوين خطة دراسة هذا الفن:

المرحلة الأولى:

١- شرح الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية لابن أبي العز الحنفي للشيخ عبد الرزاق البدر.

٢- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.

٣- ويستمع أثناء اشتغاله بذلك إلىٰ إحدىٰ السلاسل الصوتية في السيرة، مثل: السيرة النبوية للشيخ طارق سويدان والسيرة النبوية للشيخ راغب السرجاني.

وإذا أراد التوسع قرأ: الخلاصة البهية في ترتيب السيرة النبوية للشيخ وحيد بالي، وهذا الكتاب عبارةٌ عن متن يرتب لك أحداث السيرة النبوية، ويقرأ كذلك الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو، مكتبة دار التراث ومؤسسة علوم القرآن، ومن محاسن هذا الكتاب أنه تضمن الشمائل والخصائص، وللشيخ د. بسام الصفدي تعليقٌ عليه.

المرحلة الثانية:

١- يلزم في صدر هذه المرحلة الاطلاع الجيد علىٰ ما قبل البَعْثة، والدراية بأحوال العالم عامة والعرب خاصة، ويكفي في معرفة أحوال العالم كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبي الحسن الندوي، وفي معرفة أحوال العرب كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور محمد سهيل طقوش، ومن أراد التوسع فيرجع عند الحاجة لكتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، وهو كتابٌ فذ.

٢- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.. دراسة تحليلية للدكتور مهدي رزق الله أحمد.

٣- ويستمع أثناء اشتغاله بذلك إلىٰ السلسلة المرئية «السيرة النبوية.. صياغةُ فردٍ ومجتمعٍ ودولةٍ وأمة» لمحمد بن محمد الأسطل، وقد تم الانتهاء من زيادةٍ عن الشطر إلىٰ ساعة كتابة هذه الخطة، وهي مبثوثةٌ علىٰ الشبكة.

وقد تم فيها دراسة ما قبل البَعثة جيدًا؛ فتمت دراسة الدول العظمىٰ والدول الإقليمية وكبرىٰ الممالك والقبائل المحلية التي لها تأثيرٌ في المشهد المكي، والتفصيل في عقلية العرب وأحوالهم قبل الإسلام التي ينبني عليها فهم أحداث السيرة نفسها، ثم التركيز علىٰ سياسة النبي ﷺ في تقرير الإيمان وبناء الأشخاص وتربية المجتمع وتأسيس الدول، وكيف أدار فكرة الدولة في مكة ثم تطبيقها في المدينة، في الجانب التربوي والسياسي والاقتصادي والأمني والفكري والعسكري والاجتماعي والفكري وغير ذلك.

ومن أراد التوسع قَرَأَ: السيرة النبوية الصحيحة.. محاولةٌ لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية للدكتور أكرم ضياء العمري، والسيرة النبوية.. عرض وقائع وتحليل أحداث للدكتور علي الصلابي.

واستَمَعَ لمزيد من السلاسل المسجلة، ومن أنفعها: السيرة النبوية للأستاذ وضاح خنفر، والتاريخ الحقيقي للرسول ﷺ للشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل.

المرحلة الثالثة:

١- مصادر دراسة السيرة النبوية للدكتور محمد يسري سلامة.

٢- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام للإمام السهيلي.

٣- زاد المعاد في هدىٰ خير العباد لابن القيم.

ومن أراد التوسع فيقرأ السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد الصوياني، واللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون للعازمي، وسبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد للإمام الصالحي الشامي، وقد انتخبه من ثلاثمائة كتاب، والسيرة النبوية من كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، تحقيق الشيخ الألباني، وفقه السيرة للشيخ البوطي، وفقه السيرة للدكتور زيد الزيد، والمنهج الحركي للسيرة النبوية للشيخ منير الغضبان.

والسادة الشناقطة يعتمدون قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار لعبد العزيز اللمطي، ونظم الغزوات للعلامة أحمد بن محمد البدوي الشنقيطي، ونظم عمود النسب في أنساب العرب له أيضًا، وعليها بعض الشروح لمن تتبع ذلك وأراده.

هذا بالنسبة لكتب السيرة التي تتناول الأحداث، أما بالنسبة لكتب السيرة الموضوعية التي تتفرد بالكلام علىٰ بعض الجوانب بشيءٍ من التفصيل.. **فهي** كثيرة جدًّا، ومن ذلك: الرسول القائد للواء شيت خطاب، والتخطيط في حياة الرسول ﷺ للدكتور خيري الأغا، والوفود في العهد المكي وأثرها الإعلامي للأستاذ علي رضوان الأسطل، والسلسلة النافعة «المنهج التربوي للسيرة النبوية للشيخ منير الغضبان، وتقع في أحد عشر مجلدًا؛ التربية الجهادية ثلاثة مجلدات، والتربية القيادية أربعة مجلدات، والتربية الجماعية مجلدان، والتربية السياسية مجلدان.

ومن هذا تلك المحاضرات البديعة للشيخ علي القرني، والتي يتناول في كل محاضرة جانبًا من حياة النبي ﷺ، ومن الجوانب التي تحدث فيها: حسن تصرفه ﷺ وحكمته وتواضعه ومحبته ورحمته وتعامله وصبره وجوده ووفائه، وأغلب هذه المحاضرات حولية، يستعد لها حولًا كاملًا ثم يخرجها في غاية التحرير ارتجالًا.

رابع عشر: الشمائل المحمدية

١-شرح شمائل النبي ﷺ للترمذي للشيخ عبد الرزاق البدر.

٢- جمع الوسائل في شرح الشمائل للملا علي القاري.

٣- أشرف الوسائل إلىٰ فهم الشمائل لابن حجر الهيتمي.

٤- ويستمع أثناء ذلك إلىٰ شرح الشيخ وليد المنيسي علىٰ الشمائل، أو غيره من الشروح المبثوثة علىٰ الشبكة.

ومن أراد التوسع فيقرأ: المواهب اللدنية علىٰ الشمائل المحمدية للإمام الباجوري، وشرح الشمائل المحمدية للإمام المناوي.

خامس عشر: مدخل إلى علم السنة والتدوين ودفع الشبهات عنها

المرحلة الأولى:

هذه المرحلة مدخلٌ عام لعلم السنة وتدوينها وتاريخها وكتبها وما يتعلق بذلك، ومن عيون الكتب في ذلك:

١-مدخل إلىٰ علم السنة والتدوين للدكتور محمد مطر الزهراني.

٢- بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور أكرم ضياء العمري، وهذا كتابٌ نفيس.

٣- السنة قبل التدوين للشيخ محمد عجاج الخطيب، وأصله رسالة ماجستير.

٤- دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه للدكتور محمد مصطفىٰ الأعظمي.

المرحلة الثانية:

هذه المرحلة لبيان حجية السنة ومكانتها، وتكوين الأرضية التي تدفع بها الشبهات عن السنة، ويكفي في ذلك الكتابان الآتيان:

١-حجية السنة للدكتور عبد الغني عبد الخالق، وأصله رسالة دكتوراه.

٢- السنة ومكانتها في التشريع للدكتور مصطفىٰ السباعي.

المرحلة الثالثة:

هذه المرحلة تتخصص في مناقشة الشبهات الواردة علىٰ السنة النبوية، مع تضمن كتب المرحلة الفائتة لطرفٍ من ذلك، ومواد هذه المرحلة خمس:

١-أفي السنة شك! للشيخ أحمد السيد. ط. مركز الفكر المعاصر.

٢- دفاع عن السنة ورد شُبَه المستشرقين والكُتَّاب المعاصرين للدكتور محمد بن محمد أبو شَهبة.

٣- السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام.. مناقشتها والرد عليها للدكتور عماد السيد الشربيني.

٤- قراءة ما تيسر من كتب برنامج «صناعة المحاور» التي أسهبت في الرد علىٰ طرفٍ كبيرٍ من الشبهات المعاصرة المتعلقة بالسنة وغيرها من أركان الدين بطرحٍ جيد، وكذلك الاستماع للمواد الصوتية الكثيرة الصادرة عنهم في هذا الجانب، ومن الخير الالتحاق بهذا البرنامج عبر الشبكة.

٥- ويحسن قراءة كتاب «العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين

التغريب» لمحمد حامد الناصر. ط. دار أنوار الخبير، وهذا كتابٌ نفيس يرد على الشبهات المتعلقة بالسنة وغيرها.

أما عن ترتيب أوراد التلقي لهذه العلوم؛ فإن طالب هذا العلم يجعل له وردين متوازيين: الأول للقراءة في شرح متون السنة وغريب الألفاظ، ويمضي في ذلك، والآخر: يبدأ بعلم المصطلح ثم التخريج ثم دراسة الأسانيد ثم الجرح والتعديل، والأمر واسعٌ فيما وراء ذلك.

المطلب الخامس
معراج الفقه

نبَّهت في صدر معراج أصول الفقه أني سأكتفي بمعراج الفقه الشافعي، وذكرت وجه ذلك، وأحيل طلبة المذاهب الأخرىٰ علىٰ كتاب «السبل المرضية»، مع إمكان الاستفادة من معراج الفقه هنا؛ لأنه تضمن ما ينتفع به طلبة عامة المذاهب في شذراتٍ حسنةٍ منه، لا سيما في العلوم المتفرعة.

وعلوم الفقه ثلاثة عشر علمًا، هاكَ معارجَها واحدًا بعد آخر إلا فقه القضاء؛ فإنَّ ما تضمَّنَهُ الفقهُ المذهبي والفقه المقارن كافٍ لغير المتخصص فيه.

أولًا: تاريخ الفقه والمدخل إلي دراسته

المرحلة الأولى:

١-المذاهب الفقهية الأربعة.. أئمتها، أطوارها، أصولها، آثارها تأليف وحدة البحث العلمي بإدارة الإفتاء الكويتية، وهو منشورٌ علىٰ الشبكة.

٢- الاستماع لدورة «مدخل إلىٰ علم الفقه» للشيخ محمد عبد الواحد الحنبلي، وتقع في خمس محاضرات مرئية، وهي منشورة عبر الشبكة، وهي نفيسةٌ لا ينبغي أن تفوت.

٣- المدخل إلىٰ علم الفقه لعلي جمعة.

٤- تاريخ الفقه الإسلامي للشيخ عمر الأشقر ط. دار النفائس.

٥- المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية للدكتور شعبان إسماعيل.

وإذا أراد التوسع قرأ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي، وتاريخ التشريع الإسلامي للخضري، وعما من عمدة كتب هذا العلم، ويقرأ ما كتبه الشيخ محمد أبو زهرة عن الأئمة الأربعة ومذاهبهم وأصولهم، فقد أفرد لكل إمام كتابًا في ذلك، وما كتبه كذلك عن تاريخ المذاهب الفقهية.

المرحلة الثانية:

١- المذهب عند الشافعية، وهو بحث منشور، للشيخ محمد إبراهيم أحمد علي.

٢- المذهب الشافعي.. دراسة عن أهم مصطلحاته وأشهر مصنفاته ومراتب الترجيح فيه للشيخ محمد طارق مغربية.

٣- المدخل إلىٰ مذهب الإمام الشافعي للدكتور أكرم القواسمي، واختصَّرته في نحو خمسين صفحة مع إثراءٍ لبعض أفكاره، وألقيته في خمس محاضرات صوتية منشورة علىٰ قناة التليغرام الشخصية[1].

٤- المعتمد عند الشافعية بين النظرية والتطبيق للدكتور محمد عمر الكاف.

٥- عبقرية الإمام الشافعي.. المدد والمداد للشيخ مشاري الشثري، صادر عن مركز البيان للبحوث والدراسات.

٦- مقدمة الدكتور عبد العظيم الديب علىٰ نهاية المطلب في دراية المذهب للإمام الجويني.

---

(١) وهي باسم «محمد بن محمد الأسطل».

المرحلة الثالثة:

١- الفوائد المكية فيما يحتاجه طلبة الشافعية للشيخ العلامة علوي السقاف ط. دار الفاروق، وللمؤلف نفسه اختصارٌ عليه ط. دار البشائر بتحقيق الدكتور يوسف المرعشلي.

٢- الفوائد المدنية فيمن يفتىٰ بقوله من الأئمة الشافعية للعلامة محمد بن سليمان الكردي.

٣- التمذهب.. دراسة تأصيلية للمسائل المتعلقة بالتمذهب للشيخ عبد الفتاح اليافعي.

٤- تبصرة المحتاج بما خفي من مصطلح المنهاج لعرفات عبد الرحمن المقدي.

٥- دراسة شهية لمصطلحات المذاهب الأربعة الفقهية للمليباري.

٦- المدخل الفقهي العام للشيخ مصطفىٰ الزرقا، وهو كتابٌ نفيس يخدم طالب الفقه والأصول والمعتني بالمعاملات والقانون وغير ذلك، وهو أعم مما نحن فيه؛ لأنه يعتني بنفس المسائل، لكنه نافع فيما نقصد إليه هنا.

وأنبه هنا إلىٰ أنَّ العلماء تختلف أنظارهم في جملةٍ من مسائل التمذهب، وقد أشار الشيخ محمد عبد الواحد الحنبلي إلىٰ جملةٍ من المفاهيم المهمة التي ينبغي للمتفقه أن يحيط بها في صدر نشأته العلمية، فليُحرص علىٰ سماع المحاضرات، وقد فرَّغها أحد الكرماء ورتبتها، ولعلي أنشرها قريبًا.



ثانيًا: الفقه المذهبي

المرحلة الأولى:

١- نيل الرجاء شرح سفينة النجاء للإمام الشاطري ط. دار المنهاج، ويستمع لشرح شيخنا د. لبيب نجيب عليه، ويمر على الرسالة اللطيفة الموسومة بالجواهر الثمينة في أدلة السفينة للشيخ محمود الشبلي، ويمكن الاستفادة من شرح متن السفينة لشيخنا علي القُدَيمي وكذلك شرح شيخنا د. لبيب نجيب.

٢- شرح ابن قاسم الغزي على متن أبي شجاع، ويستمع لشرحه الصوتي للشيخ رشدي القلم، ويقرأ بالتوازي أو التوالي كتاب التذهيب في أدلة متن الغاية والتقريب للدكتور مصطفى البغا. ط. دار المصطفى[١].

أو يعتمد بدلًا منه الياقوت النفيس، وعندئذٍ يقرأ كتاب مؤنس الجليس بشرح الياقوت النفيس للشيخ مصطفى عبد النبي، ويستمع بالتوازي لشرحه الصوتي على متن الياقوت والنفيس، ويستفيد من شرح محمد بن أحمد الشاطري على شرح الياقوت النفيس، ط. دار المنهاج.

٣- حفظ متن أبي شجاع أو الياقوت النفيس، وحيث آثر النظم فليحفظ صفوة الزبد لابن رسلان، ويستعين على فك ألفاظها بكتاب «إفادة السادة العُمَد

---

(١) وقد شرعت بحول الله وعونه في كتابة حاشية على شرح ابن قاسم، حرصت فيها على حسن تصوير المسائل وتحقيقها، وإيواء ما يتأسس المتفقه به، وقد أنجزت حتى هذه الساعة الثلث، يسر الله إتمامها وطباعتها، وأرجو إن تمت أن يكتفي الطالب بها عن كل ما سواها في المرحلة الأولى، إلا حفظ المتن، وفي النية شرحها وبث الدروس على الشبكة إذا يسَّر الله ومدَّ في العمر، وعلى قناة التليغرام التي تبث فيها الدروس أولًا بأول، ورابطها: (t.me/feqeh١٤٤١).

في تقرير معاني صفوة الزبد» للإمام الأهدل ط. دار المنهاج، وتقع المنظومة في ١٠٨٨ بيتًا، وتستوعب مادة متن أبي شجاع مع زياداتٍ يسيرة، وهي منظومةٌ متينةٌ سهلة.

المرحلة الثانية:

١- أنوار المسالك شرح عمدة السالك للغمراوي، ويمكن الاكتفاء بقراءة متن العمدة مع تعليقات الأستاذ ماجد الحموي لمن هضم المرحلة الأولىٰ جيدًا، ويقرأ مع ذلك بالتوازي أو التوالي تنوير المسالك بشرح وأدلة عمدة السالك للشيخ مصطفىٰ البغا، وله شرحٌ مرئيٌّ عليه منشور عبر الشبكة.

أو يعتمد بدلًا من ذلك كله كتاب الفقه المنهجي؛ فإنه كتاب سهل العبارة، حاضر الأدلة، وإنه لكتابٌ مظلوم.

أو الإقناع للشربيني لكن مع حاشية البجيرمي عليه ط. الحلبي وصدرت مصورةً عن دار النوادر، مع سماع أحد الشروح عليه.

أو كفاية الأخيار ط. دار المنهاج، مع سماع أحد الشروح عليه، وهو أيسر من الإقناع، وله عنايةٌ بالأدلة، وهو كتابٌ فذ، وهو أحب كتب هذه المرحلة إليَّ.

٢- وإذا أراد التوسع فيقرأ المنهج القويم بشرح مسائل التعليم لابن حجر ط. دار المنهاج، لكني أنصح بالتوجه لمستوىٰ المنهاج مباشرة.

٣- يستمع خلال اشتغاله بالمرحلة الأولىٰ والثانية لعددٍ من المحاضرات النافعة للمتفقه يلتقط منها ما طاب له من المفاهيم، وذلك مثل: مفاتيح علم الفقه للشيخ عبد السلام الشويعر، وكيف تقرأ كتب الفقه له أيضًا، والمنهجية في تعلم الفقه للشيخ صالح العصيمي، وكيفية دراسة كتب الفقه للشيخ صالح آل الشيخ، وطرق البحث في كتب الفقه للشيخ سليمان الماجد، وجماليات الفقه للشيخ هيثم

الرومي، ومنهاج الفقهاء الأربعة للشيخ عبد الله السلمي، ومدارج التفقه للشيخ أحمد المطرودي، ومفاتيح ضبط الفقه للشيخ عبد الله الكنهل، والطريق إلىٰ ضبط الفقه وإتقانه للشيخ سلطان العيد، وطرق الاستذكار الفقهي للشيخ عبد الله التميمي.

المرحلة الثالثة:

١-اعتماد أحد الشروح الأربعة علىٰ المنهاج: تحفة المحتاج في شرح المنهاج لابن حجر، ونهاية المحتاج للرملي، والفُتيا علىٰ هذين، ومغني المحتاج للشربيني، وكنز الراغبين للمحلي، ويستمع مع ذلك للشرح الصوتي علىٰ المنهاج للشيخ محمد حسن هيتو، ويستفيد من كتاب إفادة الراغبين شرح وأدلة منهاج الطالبين للدكتور مصطفىٰ البغا، ومن استطاع أن يحفظ المنهاج فليفعل، وإلا فليدمن النظر فيه.

والكتاب الذي يعتمد قراءته يقرأ حواشيه معه لزامًا لدقة العبارة فيها جميعًا، إلا مغني المحتاج؛ فليس له حاشية منشورة، والذي يعين علىٰ فهم عبارته أن يقرأ عبارته أولًا ثم يقرأ النجم الوهاج للدميري ثم حاشية البجيرمي علىٰ الإقناع ثم يعود إليه، وما يبقىٰ مشكلًا من المسائل.. فيطلب حله في حاشية الشرواني علىٰ التحفة، والغرر البهية شرح منظومة البهجة الوردية وعليه حاشية الشربيني والعبادي.

والحواشي نافعة علىٰ كل حال، ومهما قرأت فلتكن لك عنايةٌ بحاشية الشرواني علىٰ التحفة، وقليوبي وعميرة علىٰ شرح المحلي، والبجيرمي علىٰ الخطيب، والباجوري علىٰ ابن قاسم، والشربيني والعبادي علىٰ الغرر البهية، والحواشي الكبرىٰ للكردي علىٰ شرح المقدمة الحضرمية، فلو أردت قراءةٍ

واحدةٍ منها قراءةً جردية.. فالوصية بحاشية الشرواني. ط. الحلبي، أو الفكر، فما أعظمها لو أنَّ لها رجالًا!.

ومن الجهود التي يمكن أن يستفيد منها الدارس لمنهاج الطالبين: تحفة المحتاج إلىٰ أدلة المنهاج لابن الملقن، والقديم والجديد من أقوال الإمام الشافعي من خلال كتاب منهاج الطالبين للدكتور محمد الرستاقي.

٢- وضبطًا للمسائل التي اختلف فيها الرملي وابن حجر بالإضافة للخطيب يقرأ كتاب «المنهل النضاخ في الخلاف بين الأشياخ» للعلامة ابن القره داغي، وجمع فيه ١٨١٤ مسألة، ونبه عليها الشيخ مصطفىٰ حامد سميط في اختصاره لتحفة المحتاج في الحاشية، ويمكن الاستفادة من كتاب فتح العلي بجمع الخلاف بين ابن حجر وابن الرملي لعمر بن الحبيب الحضرمي، وإثمد العينين في بعض اختلاف الشيخين للشيخ علي باصبرين، علمًا أن حاشية الشرواني اعتنت بذلك.

٣- وإذا أراد التوسع قرأ الحواشي الثلاث للعلامة الكردي خاصة الحاشية الكبرىٰ؛ فإنها كنز فقهي يلقىٰ بين يدي طالب العلم.

٤- ويقرأ خلال المرحلة الثانية والثالثة بعض الكتب النافعة للمتفقه مثل: محاسن الشريعة في فروع الشافعية للإمام القفال، ومسرد المهارات الفقهية من إعداد نخبة من المختصين بإشراف الدكتور عبد الله الشيخ والدكتور خالد المزيني، وهو كتابٌ مهم، وصناعة التفكير الفقهي الصادر عن مركز تكوين للدراسات والأبحاث، والصناعة الفقهية لأبي الطيب مولود السريري، والتكييف الفقهي للوقائع المستجدة وتطبيقاته الفقهية للدكتور محمد عثمان شبير، ط. دار القلم، وكذلك تكوين الملكة الفقهية له أيضًا، والملكة الفقهية.. حقيقتها وشروط اكتسابها وثمراتها للدكتور عبد الله القاضي، ويمكن أن يستمع

للمحاضرات المعقودة في هذا الموضوع مثل: بناء الملكة الفقهية للشيخ عامر بهجت، والملكة الفقهية للشيخ عبد العزيز الشبل، وقواعد في تنمية الملكة الفقهية للشيخ سليمان الماجد وغير ذلك.

المرحلة الرابعة:

١-معرفة السنن والآثار للإمام البيهقي.

٢-التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ ابن حجر تعليق واعتناء أبي عاصم قطب، ط. مؤسسة قرطبة، وإن علت همة المتفقه فليقرأ أصله البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير لابن الملقن، ط. دار العاصمة، وقراءة كتاب الإمام البيهقي وأحد هذين الكتابين مما يتحتم علىٰ المتفقه علىٰ المذهب الشافعي، والذهول عنهما أو التقصير فيهما خسرانٌ مبينٌ.

وقبل الكلام عن معارج بقية علوم الفقه أنبه أنَّ جلَّها مرهونٌ بإنجاز الفقه المذهبي وضبطه علىٰ وجهه، وحينئذٍ لا نحتاج في بعضها إلا إلىٰ كتبٍ معدودة.

مع إعادة التنبيه أني في العلوم المتفرعة عن الفقه أستفيد من الجهود العلمية من غير المذهب؛ لعظيم الفائدة الكامنة فيها.

ثالثا: آيات الأحكام

١-تيسير البيان لأحكام القرآن للإمام الموزعي الشافعي، وقد صدَّره مؤلفه بمقدمةٍ أصوليةٍ لغويةٍ نفيسة.

٢- التفسير والبيان لأحكام القرآن للشيخ عبد العزيز الطريفي، وهو كتابٌ فذ.

٣- روائع البيان تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي الصابوني، وهذا أسهل الثلاثة لكنَّ الأولين أولىٰ منه.



رابعًا: أحاديث الأحكام

المرحلة الأولى:

١-تيسير العلام شرح عمدة الأحكام للشيخ البسام، أو شرح عمدة الأحكام للشيخ عبد الله الفوزان. ط. دار ابن الجوزي.

٢- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ط. دار ابن حزم، تحقيق حسن إسبر، وهذا الكتاب نفيس لكن الناظر فيه لا بد أن يتسلح بعلم أصول الفقه ولو بالمرحلة الأولىٰ والثانية منه، ويستمع لشرح الشيخ رشدي القلم عليه في مائتي درس، وحيث استغلق عليه شيء فلينظر حاشية الصنعاني عليه.

٣- حفظ عمدة الأحكام لابن قدامة المقدسي.

المرحلة الثانية:

١-منحة العلام في شرح بلوغ المرام للشيخ عبد الله الفوزان.

٢- سبل السلام شرح بلوغ المرام للإمام الصنعاني ط. دار ابن الجوزي، ولا تكمل الاستفادة منه إلا بإنجاز الفقه المذهبي وقراءة أصول الفقه.

٣- حفظ بلوغ المرام من أدلة الأحكام للحافظ ابن حجر.

المرحلة الثالثة:

١-طرح التثريب في شرح التقريب للحافظ العراقي. ط. دار ابن الجوزي.

٢- نيل الأوطار من أسرار منتقىٰ الأخبار للإمام الشوكاني. ط. دار ابن الجوزي.

ويُقرأ بعد ذلك في شروح الكتب الستة وموطأ مالك التي اعتنت بأحاديث الأحكام.

خامسًا: القواعد الفقهية

المرحلة الأولى:

١-المقدمة السنية في القواعد الفقهية لمحمد بن محمد الأسطل، وقد آوت المقدمات النظرية للقواعد والضوابط، وشرح القواعد الخمس الكبرى، وهي مأخوذةٌ من رسالتي العلمية بلبنان، وقد صدرت عن رابطة علماء فلسطين، فرع خان يونس.

٢- الجواهر العدنية شرح الدرة القديمية لشيخنا د. لبيب نجيب، وهو شرحٌ يسير مختصر لمهمات القواعد.

٣- إيضاح القواعد الفقهية للعلامة عبد الله اللحْجِي، عناية الدكتور أحمد الحداد، ط. دار الضياء، وهناك أكثر من شرحٍ صوتيٍّ عليه على الشبكة.

٤- القواعد الفقهية.. مفهومها ونشأتها وتطورها ودراسة مؤلفاتها، أدلتها، مهمتها، تطبيقاتها للشيخ علي الندوي، ويمكن أن يقدم دراسته عما سبقه.

المرحلة الثانية:

١-المواهب السنية شرح الفرائد البهية في نظم القواعد الفقهية للأهدل للإمام الجرهزي، ويستعين عليه بحاشية أبي الفيض الفاداني عليه.

٢- قواعد ابن الملقن ويسمى الأشباه والنظائر في قواعد الفقه، وهو مرتبٌ على الأبواب الفقهية، وعنايته بضوابط الأبواب حسنة.

٣- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية للإمام السيوطي ط. دار

السلام تحقيق د. محمد تامر وحافظ حافظ.

المرحلة الثالثة:

١-الاعتناء في الفرق والاستثناء للإمام البكري بتحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوَّض، ط. دار الكتب العلمية وهذا كتابٌ نفيسٌ من مفاخر المؤلفات الفقهية، ولا يغني عنه غيره، وهو مرتبٌ علىٰ الأبواب الفقهية، فيمكن دراسته بالتوازي مع كتب الفقه المذهبي، وعدم الاطلاع عليه خسارة فادحة.

٢- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للإمام العز بن عبد السلام.

ويمكن الاستفادة لمن أراد التوسع من معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية، وتقع في واحدٍ وأربعين مجلدًا.

سادسًا: الفروق الفقهية

١-الفروق الفقهية والأصولية.. مقوماتها، شروطها، نشأتها، تطورها للدكتور يعقوب الباحسين. ط. مكتبة الرشد وشركة الرياض.

٢- المعاياة في الفقه لأبي العباس الجرجاني، وهذا كتابٌ نفيس، وحُقِّق في رسائل علمية.

٣- الجمع والفرق للإمام الجويني تحقيق عبد الرحمن المزيني.

٤- الاعتناء في الفرق والاستثناء للإمام البكري، وهذا من كتب القواعد والفروق معًا.

٥- مطالع الدقائق في تحرير الجوامع والفوارق للإمام الإسنوي.

٦- الفروق «أنوار البروق في أنواء الفروق» للإمام القرافي، وهو مالكي، وهو كتابٌ نفيسٌ من عيون المؤلفات الفقهية.

سابعًا: الفقه المقارن

لا بد أن يُعلمَ أنَّ الفقه المقارن بعضه يكون داخل المذهب نفسه، وهو الخلاف النازل، وبعضه يكون مع المذاهب الأخرىٰ، وهو الخلاف العالي، والخلاف العالي إما أن يكون مع مذهبٍ أو مذهبين، وإما أن يعمَّ الأربعة وهو الغالب، وإما أن يتجاوزهم، ويكثر هذا في الكتب القديمة لا سيما كتب ابن المنذر وابن عبد البر.

والجادة في بحث المسائل علىٰ المنهج المقارن أن يُذكر تصوير المسألة ثم تحرير محل النزاع بمعرفة مواضع الإجماع والاتفاق والخلاف، وسبب الخلاف، وأدلة كل فريق ثم المناقشة بينها وصولًا إلىٰ القول الراجح مع بيان مسوغات الترجيح.

وهذا يستدعي أن تُدرس مسائل الإجماع قبل مسائل الخلاف، ولهذا سأفرد مرحلة خاصة بذلك، ثم المراحل الثلاث لمسائل الخلاف، فتكون المراحل بذلك أربعًا، وإليك البيان:

المرحلة الأولىٰ:

١-إجماعات العبادات، إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية بإشراف الشيخ علوي السقاف، الطبعة الثانية.

٢- الإجماع لابن المنذر، تحقيق الدكتور أبو حماد حنيف.

٣- الإقناع في مسائل الإجماع لابن القطان، تحقيق حسن الصعيدي.

وإذا أراد التوسع قرأ موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي للدكتور محمد نعيم ساعي.

المرحلة الثانية: «مصنفات الشافعية في الفقه المقارن»

١-الدرة المضية فيما وقع فيه الخلاف بين الشافعية والحنفية لأبي المعالي الجويني.

٢- الاصطلام في الخلاف بين الإمامين الشافعي وأبي حنيفة لأبي المظفر السمعاني، تحقيق الدكتور نايف العمري.

٣- النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة للإمام أبي إسحاق الشيرازي، وحقق بعضه في رسائل علمية.

٤- الخلافيات بين الإمام الشافعي وأبي حنيفة وأصحابه للإمام البيهقي.

٥- تحصين المآخذ في الفقه الشافعي للإمام الغزالي تحقيق د. محمد مسفر، الصادر عن أسفار.

وهذه الكتب تعلمك العقل، وترشدك إلىٰ طرق الأئمة في تقرير الخلاف الفقهي، وبدائع الاستنباط العقلي من الدليل الشرعي، وكيف يعرض الخلاف في ثوبٍ زاخرٍ بالفقه والأدب والعقل.

المرحلة الثالثة: «مصنفات مستقلة في مسائل الخلاف بين المذاهب الأربعة»

١-الإفصاح لابن هبيرة، أو رحمة الأمة في اختلاف الأئمة للدمشقي.

وإذا أراد التوسع قرأ الفقه الميسر لعبد الله الطيار وعبد الله المطلق ومحمد الموسىٰ، وهو كتابٌ في الفقه المقارن يقع في ثلاثة عشر مجلدًا صغيرًا، والمجلدات الخمسة الأخيرة في مسائل النوازل.

٢- بداية المجتهد ونهاية المقصد للإمام ابن رشد تحقق الشيخ ماجد الحموي، ويحرص المتفقه علىٰ قراءة تحقيق وتعليق الدكتور الزاحم علىٰ كتاب

الطهارة والصلاة، ولعله يتمه إن شاء الله، وصدر مؤخرًا شرحٌ عليه صادر عن دار ابن حزم اسمه: «بغية المقتصد شرح بداية المجتهد» للشيخ محمد الوائلي، ويقع في ستة عشر مجلدًا، ولم أطَّلع عليه بعد.

وكتاب بداية المجتهد هو عمود الرحىٰ الذي يدور حوله طالب هذا العلم، ومن أهم ما يميزه عنايته بتحرير سبب الخلاف في المسائل، ومتىٰ أنجز طالب العلم اللغة وأصول الفقه والفقه المذهبي أمكنه الدخول في رياضه، ولو لم يقرأ الكتب المذكورة آنفًا.

ويمكن للناظر فيه أن يقرأ كتاب «الأقوال الشاذة في بداية المجتهد» لصالح الشمراني، فقد درس المسائل التي أشار إليها ابن رشد بالشذوذ، وكتاب: «تربية ملكة الاجتهاد من خلال كتاب بداية المجتهد لابن رشد الحفيد» للشيخ محمد بولوز، وأصله رسالة دكتوراه.

ويحسن أن يقرأ هنا «أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء» للشيخ محمد عوامة ط. دار المنهاج ودار اليسر.

المرحلة الرابعة:

١- الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف لابن المنذر، تحقيق الدكتور أبو حماد حنيف.

٢- وينبغي أن يقرأ بعد ذلك كتابًا موسوعيًّا من كل مذهب اعتنىٰ بالفقه المقارن، وأقترح: بدائع الصنائع للكاساني، والتمهيد لابن عبد البر، والمجموع للنووي، والمغنىٰ لابن قدامة، والمحلىٰ لابن حزم، وهذه الكتب تثور العقل الفقهي، وتمنح قارئها عقل الكبار، وقد نصحني شيخنا الدكتور فضل مراد وفقه الله أن أقرأ كتابًا منها في كل سنة، بواقع مجلدٍ في كل شهر.

علىٰ أن المتفقه متىٰ قرأ بداية المجتهد أمكنه أن يعتمد نظام بحث المسائل التي يريد معرفة حكمها، ويستفيد من كتب الفقه المقارن ومن ذخيرة الرسائل العلمية التي تعد من منجزات هذا العصر؛ فكثيرٌ من الموضوعات تم تحرير بحثها عبر المنهج المقارن المنضبط.

ومن الكتب النافعة في ذلك غير ما ذكر: الحاوي الكبير للإمام الماوردي، وكتاب التجريد للإمام القدوري الحنفي، ط. دار السلام، وهو في الخلاف بين الشافعية والأحناف، وعرضه صاحبه علىٰ طريقة الجدل.

أما الكتب المعاصرة فأهمها وأحسنها: الموسوعة الفقهية الكويتية، والفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي، ولهذا كثيرًا ما يعتمد عليهما طلبة الدراسات العليا في أبحاثهم، ولو في التصورات الأولىٰ عن المسائل وما فيها من أقوال.

ثامنًا: الفقه المعاصر

المرحلة الأولى:

١- المدخل لدراسة النوازل الفقهية للدكتور عبد الله الرشيد.

٢- أصول النوازل للجيزاني ط. دار ابن الجوزي، وهو كتاب يتضمن ثلاثة أبحاث تأصيلية في فقه النوازل، مع الملخص العلمي لسبعمائة وثلاث وعشرين وثيقة.

٣- ويستمع أثناء اشتغاله بذلك لعددٍ من الدورات العلمية المختصرة التي عُقِدت في فقه النوازل، ومن ذلك: فقه النوازل لشيخنا د. فضل مراد، ودراسة النازلة الفقهية للدكتور فهد اليحيىٰ، وقواعد في فقه النوازل للدكتور حسن

البخاري، وثلاثتها منشورةٌ مرئيًّا عبر الشبكة، والمحاضرات المفردة في ذلك كثيرة.

المرحلة الثانية:

١-المقدمة في فقه العصر لشيخنا د. فضل مراد، ويقع في مجلدين، ومادته مركزة، وإنَّه لمن مفاخر المؤلفات، والشيخ يشتغل بتدوين شرحٍ يبسط فيه القول في المسائل.

٢- وثائق النوازل للجيزاني ط. دار ابن الجوزي، ويقع في أربعة مجلدات، ويحتوي علىٰ كافة القرارات الصادرة عن ثمانية من المجامع الفقهية في النوازل المعاصرة حتىٰ عام ١٤٣٧ هـ.

٣- مسائل النوازل التي جاءت في المجلدات الخمسة الأخيرة من كتاب الفقه الميسر الذي سبق بيانه في معراج الفقه المقارن.

المرحلة الثالثة:

١-بحوث في قضايا فقهية معاصرة لمحمد تقي العثماني. ط. وزارة الأوقاف القطرية.

٢- الموسوعة الميسرة في فقه القضايا المعاصرة إعداد مركز التميز البحثي في فقه القضايا المعاصرة، وهو كتابٌ فذ، يقع في خمسة آلاف صفحة، شمل المسائل المعاصرة في العبادات والمعاملات وفقه الأسرة والفقه الطبي وفقه الأقليات المسلمة والأطعمة واللباس والزينة والآداب والجنايات والقضاء والعلاقات الدولية.

ويقرأ بعد ذلك ما يحتاجه مستفيدًا من مواقع الفتاوىٰ والرسائل العلمية وكتب فقه النوازل وما يأتي في معراج فقه الاقتصاد، ويستفيد كذلك من الكتب

التي أعادت عرض الأبواب الفقهية بما يشمل مهمات النوازل؛ ككتاب فقه الزكاة وفقه الجهاد للشيخ يوسف القرضاوي.

مع التنبيه أنَّ معراجَ النَّوازل إنما هو لترتيب الدراسة، وإلا فيمكن للمتفقه متىٰ أنجز المدخل لدراسة فقه النوازل أن يقرأ في الكتاب الذي يريد.

تاسعًا: الفتاوى وفقه الفتوى

المرحلة الأولى:

١-الفتاوىٰ بين الانضباط والتسيب للشيخ يوسف القرضاوي.

٢- ميثاق الإفتاء المعاصر للشيخ محمد يسري إبراهيم. ط. دار اليسر.

٣-الاستماع لمحاضرة شيخنا د. محمد الزحيلي بعنوان: إشكاليات الفتوىٰ، وهي منشورةٌ عبر الشبكة.

٤- الفتيا المعاصرة.. دراسة تأصيلية تطبيقية في ضوء السياسة الشرعية للدكتور المزيني. ط. دار ابن الجوزي.

وإذا أراد التوسع قرأ الفتاوىٰ الشاذة للشيخ يوسف القرضاوي، وإرسال الشواظ علىٰ من تتبع الشواذ للشيخ صالح الشمراني، والنهج الأقوىٰ في أركان الفتوىٰ.. دراسة فقهية مقارنة لأحكام وآداب الفتوىٰ والمفتي والمستفتي للدكتور أحمد العريني. ط. دار العاصمة، وصناعة الفتوىٰ للشيخ عبد الله بن بيه.

المرحلة الثانية:

١-قراءة ما تيسر من فتاوىٰ فقهاء المذهب مثل: فتاوىٰ القاضي حسين، وفتاوىٰ البغوي، وفتاوىٰ ابن الصلاح وفتاوىٰ النووي وفتاوىٰ السبكي وفتاوىٰ البلقيني وفتاوىٰ الهيتمي وفتاوىٰ الشهاب الرملي.

٢- فتاوى الشبكة الإسلامية، وهذه كنزٌ بين يدي الطالب؛ لأنَّ فريق الفتوى اتبع منهج ذكر أقوال المذاهب وهو منضبطٌ في الترجيح، وإذا لم تأخذ بترجيحهم استفدت مظان المسائل في كتب المذاهب؛ لأنهم يوردون نصوص الفقهاء في المسألة، ويعالجون كثيرًا من المسائل المعاصرة ويُخَرِّجُونَها على فقه المذاهب.

المرحلة الثالثة:

١-القراءة في كتب فتاوى العلماء المعاصرين، خاصة فتاوى الشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ القرضاوي وصدرت بعنوان: فتاوى معاصرة، والشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ محمد أبو زهرة.

٢- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ويمكن الاقتصار على مجلدات الفقه منه، وهو غزيرٌ بالقواعد التي تهبك فهمًا عميقًا للشريعة مع كثرة الاستشهاد بالوحي والاستنباط منه، وتحقيق المسائل.

٣- ويُنَبَّهُ المتفقه هنا على أهمية ملازمة بعض المفتين ودوائر الإفتاء مدةً من الزمان؛ للاطلاع على دقائق الفتوى وأحوال الناس.

عاشرًا: السياسة الشرعية

المرحلة الأولى:

١-أضواء على السياسة الشرعية للدكتور سعد العتيبي.

٢- المدخل إلى السياسة الشرعية للشيخ عبد العال عطوة.

٣- شرح السبل المرعية في السياسة الشرعية للدكتور وليد المنيسي، وهو شرحٌ على نظم، وكلاهما من وضع المؤلف.



وإذا أراد التوسع قرأ السياسة الشرعية للشيخ يوسف القرضاوي، والسياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف، والسياسة الشرعية.. مدخل إلى تجديد الخطاب الإسلامي للدكتور عبد الله إبراهيم زيد الكيلاني، من إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

المرحلة الثانية:

١- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية، ولابن عثيمين تعليقات صوتية عليه، ويمكن الاستفادة من تلخيص الكتاب وتشجيره بطريقة الخرائط الذهنية لأحلام دريدي.

٢- خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم للدكتور فتحي الدريني. ط. دار الرسالة.

٣- فقه المتغيرات في علائق الدولة الإسلامية بغير المسلمين للدكتور سعد العتيبي.

المرحلة الثالثة:

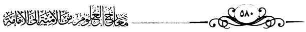
١- الأحكام السلطانية للإمام الماوردي.

٢- غياث الأمم في التياث الظلم للإمام الجويني.

٣- الأزمة الدستورية للدكتور محمد مختار الشنقيطي، وهو كتاب قوي، ولكن يقرأ قراءةً نقدية؛ ففيه ما يُستدرك عليه، وكذلك الكتاب الذي بعده.

٤- الحكم والسياسة والنظم السلطانية بين الأصول وسنن الواقع لحسن الترابي.

ويرجع عند الحاجة إلى معجم ألفاظ ومصطلحات العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي للدكتور حسن أبو غدة.



وأنبه هنا إلىٰ أنَّ بعض ما يرد في هذه الكتب محل نقاش وأخذ ورد، ولهذا ينبغي للطالب أن يكون ريانًا في فهم الشريعة والتشبع بالوحي وإنجاز الفقه المذهبي وأصول الفقه؛ ليقرأ بعقل المستفيد الناقد.

حادي عشر: الاقتصاد الإسلامي

إنَّ هذا العلم منبثقٌ عن فقه المعاملات، لكنه ترعرع وتطور حتىٰ أضحىٰ علمًا مستقلًّا ضخم المادة، وينتفع طالب الفقه عامة والمعتني بفقه المعاملات المعاصرة والاقتصاد الإسلامي خاصة، ولا يكاد يطيل النظر فيه إلا المتخصص، ولهذا سأزيد من كتبه المقترحة، وطالب العلم يقرأ حاجته منه، ودونك معراجه:

المرحلة الأولى:

١-أصول الاقتصاد الإسلامي لرفيق المصري.

٢-ما لا يسع التاجر جهله للدكتور عبد الله المصلح والدكتور صلاح الصاوي.

٣- فقه المعاملات الحديثة للدكتور عبد الوهاب أبو سليمان.

٤- رتاج المعاملات لفهد الحمود.

٥- حقيبة القره داغي الاقتصادية ط. دار النداء، وتقع في اثني عشر مجلدًا، لكنها جمعت مؤلفات الشيخ في حقيبة واحدة، ويمكن البدء بها لاستقلال موضوعاتها عن بعض، وتحدث فيها عن مدخل عام للاقتصاد الإسلامي، والمعاملات المالية والتطبيقات المعاصرة، وفقه البنوك، وفقه البنوك وفقه الزكاة وتطبيقاتها المعاصرة وغير ذلك.

٦- ويجتهد المتفقه في الاستماع لبعض المحاضرات والدورات العلمية في

هذا العلم، وهي كثيرةٌ على الشبكة، من مثل محاضرات الشيخ علي القره داغي، والشيخ علي السالوس.

المرحلة الثانية:

١-المعايير الشرعية الصادر عن هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، التي تم اعتمادها حتى صفر ١٤٣٩ هـ نوفمبر ٢٠١٧م، وللشيخ علي القره داغي شرح مرئيٌّ على بعض المعايير منشور على الشبكة، وكذلك ما تم بثه من شرح مرئي لبعض المعايير بإشراف نادي الاقتصاد الإسلامي.

٢- مستجدات المعاملات المالية للدكتور عجيل النشمي.

٣- أساسيات العمل المصرفي الإسلامي لأشرف دوابة. د. دار السلام.

٤- القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي لعلي السالوس.

٥- المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي للدكتور محمد عثمان شبير.

٦- دراسة شرعية أهم العقود المالية المستحدثة للشيخ محمد مصطفى الشنقيطي.

٧- قضايا فقهية معاصرة في المال والاقتصاد للدكتور نزيه حماد. ط. دار القلم.

المرحلة الثالثة:

١-العقود المسماة في الفقه الإسلامي «عقد البيع» للشيخ مصطفى الزرقا. ط. دار القلم.

٢- المدخل إلى نظرية الالتزام العامة في الفقه الإسلامي للشيخ مصطفى الزرقا. ط. دار القلم.

٣- الملكية ونظرية العقد للشيخ محمد أبو زهرة.

٤- فقه البيع والاستيثاق والتطبيق المعاصر للدكتور علي السالوس، ولمن أراد التوسع فيقرأ كتاب فقه البيوع على المذاهب الأربعة مع تطبيقاته المعاصرة لمحمد تقي العثماني.

٥- بيع التقسيط وأحكامه للشيخ سليمان التركي.

٦- دراسة في أصول المداينات في الفقه الإسلامي للدكتور نزيه حماد.

٧- بيع الدين وتطبيقاته المعاصرة في الفقه الإسلامي لأسامة اللاحم.

٨- الخيار وأثره في العقود للدكتور عبد الستار أبو غدة، وأصله رسالة دكتوراه.

٩- عقد الاستصناع أو عقد المقاولة في الفقه الإسلامي للدكتور كاسب البدران.

١٠- الغرر في العقود وآثاره في التطبيقات المعاصرة للدكتور الصديق الأمين الضرير، وأصله محاضرة.

١١- مبدأ الرضا في العقود للشيخ علي القره داغي.

١٢- نظرية الضمان للدكتور وهبة الزحيلي.

١٣- الجامع في أصول الربا للدكتور رفيق المصري. ط. دار القلم والدار الشامية.

١٤- الربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية للدكتور عمر المترك.

١٥- المنفعة في القرض لعبد الله العمراني.

١٦- الحيازة في العقود في الفقه الإسلامي لنزيه حماد.

١٧- الغش وأثره في العقود للدكتور عبد الله السلمي.

١٨- الميسر والقمار للدكتور رفيق المصري.

١٩- الحيل الفقهية في المعاملات المالية للشيخ محمد بن إبراهيم.

٢٠- الاستثمار أحكامه وضوابطه في الفقه الإسلامي لقطب مصطفىٰ سانو.

٢١- التورق المصرفي لرياض رشود، ط. وزارة الأوقاف القطرية.

ومن أراد المزيد فأحيله علىٰ مقالتين كتبهما الدكتور عبد العزيز الدغيثر، الأولىٰ بعنوان: أهم الكتب التأسيسية في فقه المعاملات، وهي منشورةٌ علىٰ موقع الألوكة، والأخرىٰ بعنوان: كتب تأسيسية في المعاملات المالية، وهي منشورةٌ علىٰ موقع صيد الفوائد.

ثاني عشر: طبقات الفقهاء

١- طبقات الفقهاء للإمام الشيرازي.

٢- طبقات الشافعية لابن هداية الله الحسيني.

٣- طبقات الشافعية لعبد الله الشرقاوي.

٤- طبقات الشافعية الكبرىٰ لتاج الدين السبكي.



تم الكتاب بحمد الله ومنّه وجوده وفضله

وما كان ليتم إلا بفضل الله وحده؛ فقد كانت الهمة مصروفةً لغيره، وهيّأ الله الأسباب، وقلّب القلوب والألباب.. حتىٰ أخذت في تصنيفه، ومضيت فيه أسترق التركيز وسط حشدٍ من الأعمال، وأمواج تتلاحق من الأشغال؛ ظنًّا أني أنتهي منه في ربع وقته أو أقل

والحمد لله علىٰ وافر نعمته ومحاسن قدره.

وقد انتهيت من تحبيره جوف ليلة الأربعاء

العاشر من جمادىٰ الآخرة لعام ١٤٤١ هـ، الموافق ٤/ ٢/ ٢٠٢٠م.

ثم راجعته عدة مرات، وكان انتهاء آخرها عشية يوم الأربعاء

الرابع عشر من محرم ١٤٤٢ هـ، الموافق ٢-٩-٢٠٢٠م

سائلًا الله عَزَّوَجَلَّ أن يكرمني بسرٍّ يفوق العلانية عبوديةً وإخلاصًا وجودًا

وأن يجعل ثمرة كتابي هذا عملًا مقبولًا وأثرًا محمودًا

هذا، وصلِّ اللهم وسلم وبارك علىٰ سيدنا المصطفىٰ محمد،

وعلىٰ آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين،

والحمد لله رب العالمين.



مراجع الكتاب

ترتيب الكتب في كل محور بحسب الترتيب الأبجدي، إلا أني قدمت القرآن الكريم علىٰ غيره في المحور الأول ومتون السنة في المحور الثاني.

أولًا: كتب التفسير والقرآن وعلومه:

١- القرآن الكريم.

٢- أحكام القرآن لابن العربي.

٣- التحرير والتنوير لابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع.

٤- المحاور الخمسة للقرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي.

٥- تفسير ابن عطية، تحقيق عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية.

٦- تفسير الطبري، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ.

٧- تفسير الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي.

٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي.

٩- علوم القرآن.. تاريخه وتصنيف أنواعه للدكتور مساعد الطيار.

١٠- في ظلال القرآن لسيد قطب.

١١- كيف نتعامل مع القرآن؟ للشيخ محمد الغزالي.

ثانيًا: كتب السنة وعلوم الحديث:

١٢- صحيح البخاري.

١٣- صحيح مسلم.

١٤- سنن أبي داود.

١٥- جامع الترمذي.

١٦- سنن النسائي.

١٧- سنن ابن ماجه.

١٨- سنن الدارمي.

١٩- الأدب المفرد للبخاري.

٢٠- السنن الكبرىٰ للبيهقي.

٢١- مصنف عبد الرزاق.

٢٢- آفة أصحاب الحديث لابن الجوزي.

٢٣- ألفية السيوطي في علم الحديث.

٢٤- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر، تحقيق مصطفىٰ العلوي ومحمد البكري، مؤسسة القرطبه.

٢٥- الجرح والتعديل للإمام الرازي.

٢٦- الكامل لعبد الله بن عدي.

٢٧- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب، دار الفكر - بيروت.

٢٨- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي.

٢٩- الأنوار الكاشفة للشيخ عبد الرحمن بن يحيىٰ المعلمي.

٣٠- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣١- تذكرة الحفاظ وذيوله للذهبي، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ.

٣٢- تهذيب الكمال للمزي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولىٰ.

٣٣- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان.

٣٤- شرح النووي علىٰ مسلم، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.

٣٥- شرح رياض الصالحين لابن عثيمين.

٣٦- شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد.

٣٧- شرح أحاديث من صحيح البخاري للدكتور محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة.

٣٨- فتح الباري لابن حجر، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت.

٣٩- لسان الميزان لابن حجر، تحقيق دائرة المعرف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

٤٠- مرعاة المفاتيح للرحماني المباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية بالهند، الطبعة الثالثة.

ثالثا: كتب التاريخ والسير والتراجم والطبقات ونحوها:

٤١-أبو بكر الصديق ﷺ.. شخصيته وعصره للشيخ علي الصلابي.

٤٢- أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيمري، دار عالم الكتب - بيروت.

٤٣- أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي.

٤٤- البداية والنهاية لابن كثير.

٤٥- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني.

٤٦- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي - الكويت، الطبعة الأولىٰ.

٤٧- الجواهر المضية في طبقات الحنفية لأبي الوفاء القرشي.

٤٨- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للإمام السخاوي.

٤٩- الطبقات الكبرىٰ لابن سعد، دار صادر - بيروت.

٥٠-العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لابن عبد الهادي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت.

٥١-المداخل إلىٰ آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال للشيخ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد.

٥٢-المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح، تحقيق الدكتور عبد الرحمن العثيمين، مكتبة الرشد.

٥٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولىٰ.

٥٤- المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي للسخاوي.

٥٥- الوافي بالوفيات للصفدي، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفىٰ، دار إحياء التراث - بيروت.

٥٦- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ لابن حجر، تحقيق الدكتور محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.

٥٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للإمام السيوطي، تحقيق محمد إبراهيم، المكتبة العصرية - صيدا.

٥٨- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للإمام الذهبي، تحقيق الدكتور عمر تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولىٰ.

٥٩- تاريخ الإسلام للذهبي، دار الكتاب العربي.

٦٠- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٦١- تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق محب الدين العمري، دار الفكر.

٦٢- ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض.

٦٣- ترجمة الأئمة الأربعة لأبي حمزة الشامي.

٦٤- ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام ابن تيمية والحافظ علم الدين البرزالي والحافظ جمال الدين المزي للإمام الذهبي، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، دار ابن الأثير.

٦٥- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم، دار الكتب العربي، الطبعة الرابعة.

٦٦- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب.

٦٧- سير أعلام النبلاء للذهبي.

٦٨- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية للعلامة محمد بن محمد بن عمر

بن قاسم مخلوف، تعليق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية.

٦٩- صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري والدكتور محمد قلعه جي، دار المعرفة - بيروت.

٧٠-طبقات الحنابلة لأبي الحسين ابن أبي يعلىٰ، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت.

٧١-طبقات الشافعية الكبرىٰ لتاج الدين السبكي، تحقيق الدكتور محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، الطبعة الثانية.

٧٢- كشف النقاب عن مؤلفات الأصحاب لسليمان بن عبد الرحمن بن حمدان، تحقيق عبد الإله بن عثمان الشايع، دار الصميعي للنشر والتوزيع.

٧٣-لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ لابن فهد المكي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ.

٧٤- معجم الأدباء لياقوت الحموي.

٧٥- معجم المؤلفين لعمر كحالة.

٧٦- مقدمة ابن خلدون.

٧٧- مناقب أبي حنيفة للموفق المكي.

٧٨- مناقب الشافعي للإمام البيهقي.

٧٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس.

رابعًا: كتب تتعلق بالطلب:

٨٠-ارتياض العلوم لمشاري الشثري، مركز البيان للبحوث والدراسات، الطبعة الثانية.

٨١- اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، تحقيق الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة.

٨٢- اقرأ وارتق.. ضمائم في شئون القراءة وأنواعها والكتب وتباريحها والمكتبات وما إليها للدكتور علي العمران، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ.

٨٣- الإبداع العلمي للدكتور أحمد القرني، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ.

٨٤- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف.

٨٥- الحث علىٰ طلب العلم والاجتهاد في جمعه لأبي هلال العسكري، تحقيق الدكتور مروان قباني، المكتب الإسلامي.

٨٦- الرسول المعلم وأساليبه في التعليم للشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

٨٧- السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية لأحمد سالم، مركز تفكر للبحوث والدراسات، الإصدار الثالث.

٨٨- القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم لأبي المواهب اليوسي، تحقيق وتعليق حميد حماني، مطبعة شالة الرباط، الطبعة الأولىٰ.

٨٩- القراءة المثمرة.. مفاهيم وآليات للدكتور عبد الكريم بكار، دار القلم والدار الشامية، الطبعة السادسة.

٩٠- المرقاة لسليمان العبودي. ط. دار الحضارة.

٩١- أليس الصبح بقريب.. التعليم العربي الإسلامي لابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ودار السلام، الطبعة الأولىٰ.

٩٢- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، دراسة وتحقيق أبو عبد الرحمن زمرلي، مؤسسة الريان ودار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ.

٩٣- كتاب العلم لابن عثيمين.

٩٤- كيف تحفظ القرآن الكريم.. قواعد أساسية وطرق عملية للدكتور يحيىٰ بن عبد الرزاق الغوثاني، دار نور المكتبات.

٩٥- مسلكيات للشيخ إبراهيم السكران، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ.

٩٦- معالم إرشادية لصناعة طالب العلم للشيخ محمد عوامة، دار اليسر ودار المنهاج، الطبعة الأولىٰ.

٩٧- مفهوم العالِمية من الكتاب إلىٰ الربانية للدكتور فريد الأنصاري، دار السلام.

خامسًا: كتب اللغة والأدب:

٩٨- التعريفات للجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولىٰ.

٩٩- الحيوان لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط. دار الجيل - بيروت.

١٠٠- الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري، تحقيق علي البجاوي ومحمد إبراهيم، دار المعرفة - لبنان، الطبعة الثانية.

١٠١- الكتاب لسيبويه.



١٠٢- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية.

١٠٣- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت.

١٠٤- تهذيب الأسماء واللغات للنووي، تحقيق مصطفىٰ عطا.

١٠٥- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي، تحقيق محمد طريفي واميل اليعقوب، دار الكتب العلمية.

١٠٦- ديوان الإمام الشافعي.

١٠٧- ديوان عبد الغني النابلسي.

١٠٨- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار قتيبة - دمشق، الطبعة الثانية.

١٠٩- رسائل الجاحظ.

١١٠- زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني، ط. دار الكتب العلمية.

١١١- في اللغة والأدب.. دراسات وبحوث للدكتور محمود الطناحي، دار الغرب الإسلامي.

١١٢- ملحة الإعراب للحريري، دار السلام، الطبعة الأولىٰ.

١١٣- مقامات بديع الزمان الهمذاني.

١١٤- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة لمحمد الطنطاوي.

سادسًا: كتب الفقه وأصوله:

١١٥- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل.

١١٦- الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للخطيب الشربيني، تحقيق مكتب البحوث والدراسات - دار الفكر.

١١٧- البرهان في أصول الفقه للإمام الجويني، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب، دار الوفاء، الطبعة الرابعة.

١١٨- الرسالة للشافعي تحقيق أحمد شاكر، دار العقيدة.

١١٩- الفروق مع هوامشه للقرافي، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية.

١٢٠- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي.

١٢١- المجموع شرح المهذب للإمام النووي.

١٢٢- المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران، تحقيق محمد ضناوي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ.

١٢٣- المستصفىٰ في علم الأصول للإمام الغزالي، تحقيق محمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ.

١٢٤- المصطلح الأصولي عند الشاطبي للدكتور فريد الأنصاري.

١٢٥- الملكة الفقهية.. حقيقتها وشروط اكتسابها وثمراتها لعبد الله القاضي.

١٢٦- المهمات في شرح الروضة والرافعي للإمام الإسنوي.

١٢٧- الموافقات للإمام الشاطبي، تحقيق مشهور سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولىٰ.

١٢٨-بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للإمام علاء الدين الكاساني، ط. دار الحديث.

١٢٩- بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق.

١٣٠-تكوين الملكة الفقهية للدكتور محمد عثمان شبير، كتاب الأمة.

١٣١-شرح مختصر الروضة للطوفي، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ.

١٣٢- صفة وضوء النبي ﷺ للشيخ عبد العزيز الطريفي.

١٣٣- فتاوىٰ ابن الصلاح.

١٣٤- مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه للمروزي.

١٣٥- منار السبيل في شرح الدليل لابن ضويان، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة.

١٣٦- نهاية المطلب في دراية المذهب للإمام الجويني.

سابعًا: كتب العقيدة:

١٣٧- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، الطبعة الثانية.

١٣٨- الاستقامة لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، صادر عن جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولىٰ.

١٣٩-الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، مكتبة الخانجي - القاهرة.

١٤٠- المغربية في شرح العقيدة القيروانية للطريفي.

١٤١- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية - الرياض.

١٤٢- مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، تحقيق أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة.

١٤٣- منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولىٰ.

١٤٤- موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ للشيخ علي الشحود.

١٤٥- موسوعة الرد علىٰ المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ علي الشحود.

ثامنًا: كتب الإيمانيات والرقائق:

١٤٦- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، دار المعرفة.

١٤٧- الحكم العطائية.

١٤٨- الزهد والرقائق للخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور عامر صبري، دار البشائر الإسلامية.

١٤٩- الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم، دار الكتاب العربي - بيروت، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، الطبعة الأولىٰ.

١٥٠- روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٥١- سراج الغرباء لمحمد بن محمد الأسطل، دار طيبة، الطبعة الأولىٰ.

١٥٢- قوت القلوب لأبي طالب المكي، تحقيق الدكتور عاصم الكيالي، الطبعة الثانية.

١٥٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية.

١٥٤- ميزان العمل لأبي حامد الغزالي.

تاسعًا: كتب الأخلاق والآداب:

١٥٥- آداب الدين والدنيا للإمام الماوردي.

١٥٦- أدب الطلب للإمام الشوكاني، تحقيق عبد الله السريحي، دار ابن حزم.

١٥٧- الآداب الشرعية لابن مفلح.

١٥٨- الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي، دار المشرق العربي.

١٥٩- لفتة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي.

عاشرًا: كتب متفرقة:

١٦٠- الإسلام والطاقات المعطلة للشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر، الطبعة الأولىٰ.

١٦١- التركيز.. أكثر العادات أثرًا في حياة الناجحين للدكتور مشعل الفلاحي، دار القلم، الطبعة الأولىٰ.

١٦٢- الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر، الطبعة الأولىٰ.

١٦٣- الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل لعلي الشحود.

١٦٤- الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب لفريد الأنصاري، ط. دار السلام.

١٦٥- الفصل بين النفس والعقل للشيخ عبد العزيز الطريفي مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولىٰ.

١٦٦- بدائع الفوائد لابن القيم، تحقيق هشام عطا وعادل العدوي وأشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز - مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ.

١٦٧- جدد حياتك للشيخ محمد الغزالي.

١٦٨- حبر علىٰ ورق لمارون عبود، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة - مصر.

١٦٩- رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

١٧٠- صيد الخاطر لابن الجوزي.

١٧١- فقه الاستدراك لمحمد بن محمد الأسطل، دار طيبة، الطبعة الأولىٰ.

١٧٢- فيض الخاطر للأستاذ أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٧٣- كشف الظنون لحاجي خليفة.

١٧٤- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج للتنبكتي.

١٧٥- كيف ندعو الناس للأستاذ محمد قطب، دار الشروق.

١٧٦- لقاء الباب المفتوح، وهي لقاءات للشيخ ابن عثيمين كانت تعقد في بيته كل خميس، وهي مفرغة منشورة.

١٧٧- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار الفكر - بيروت.

١٧٨- معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي، مؤسسة الكتب الثقافية.

١٧٩- مفتاح دار السعادة لابن القيم، دار الكتب العلمية.

حادي عشر: المقالات والمحاضرات والمجلات ونحوها:

١٨٠- أخبار قراء الجرد مقالة للشيخ إبراهيم السكران، منشورة علىٰ موقع صيد الفوائد.

١٨١- الخطة المنهجية لدراسة العلوم الشرعية لخلف المقدسي.

١٨٢- المنهجية في طلب العلم، محاضرة للشيخ محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي، وهي منشورة ومفرغة.

١٨٣- حوار مع الدكتور طه جابر العلواني بعنوان: مقاصد الشريعة.

١٨٤-دور العالم في الأمة، لقاء حواري مع الشيخ عبد العزيز الطريفي ضمن برنامج لقاء الجمعة، وهي منشور مرئيًّا علىٰ اليوتيوب.

١٨٥-سلسلة الثقافة لمحمد محمد أبو موسىٰ، وتقع في عشر حلقات حوارية، وهي منشورة علىٰ الشبكة.

١٨٦- فتوىٰ بعنوان: حكم فعل الطاعات بقصد الفوائد الدنيوية للشيخ محمد صالح المنجد.

١٨٧- مجلة الشهاب.

١٨٨- قراءة وتعريف بكتاب «الغرور العلمي وأثره في العقل العلمي وأبجديات الطلب» للشيخ السعيد صبحي العيسوي، موقع الدرر السنية.

١٨٩- معالم في حفظ المتون للدكتور لبيب نجيب، وهي أشبه بسلسلة مقالات.

١٩٠- مقالة بعنوان: «طالب العلم والتأمل» للشيخ مشاري الشثري.

١٩١- مقالة بعنوان: الضوابط المنهجية لفقه الأقليات المسلمة للدكتور صلاح سلطان.

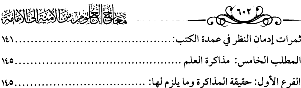
١٩٢- مقالة بعنوان: ما طبع من كتب الحافظ ابن حجر العسقلاني، وبعض الفوائد المرتبطة بها ليوسف العتيق.

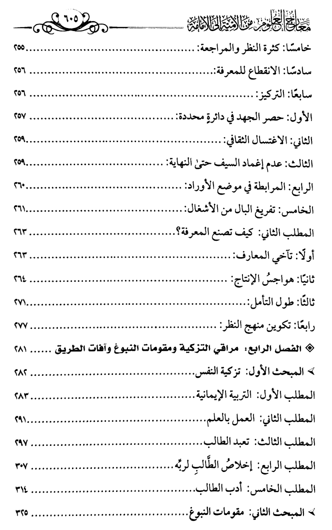
١٩٣- مقالة بعنوان: يا طالب العلم لخالد عبد العزيز أبا الخليل.

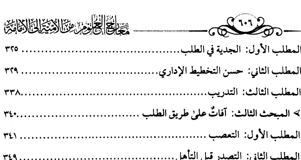
١٩٤- نصيحة تتعلق بالحفظ للشيخ سعيد الكملي، وهي عبارة عن مقطع مرئي منشور.



فهرس الموضوعات









صدر للمؤلف

①«سراج الغرباء إلى منازل السعداء»

سياحة ماتعة في روائع فقه السنن، والكتاب منشورٌ على الشبكة.

②«من عاش على شيء مات عليه»

والكتاب منشورٌ على الشبكة.

③«دليل المعتكف»

ميثاق ثباتٍ وإيمان من رمضان إلى رمضان، بالاشتراك مع أخي الشيخ بلال بن جميل محمود، والكتاب منشورٌ على الشبكة.

④«المنهاج في سعادة الزوجات والأزواج»

بالاشتراك مع أخي الشيخ محمد بن سليمان الفراء، والكتاب منشورٌ على الشبكة.

⑤«الرباط وأحكامه في الفقه الإسلامي»

دراسةٌ فقهيةٌ مقارنة.

وقريبًا يُنشر على الشبكة إن شاء الله تعالى.

⑥«المقدمة السنية في القواعد الفقهية»

⑦«تحصيل المرام في علاج مشكلة الشهوات والنظر الحرام»

والكتاب منشورٌ على الشبكة.

⑧«فقه الاستدراك»

كيف تصحح المسير، وتستدرك ما فات من العمر الطويل في زمن قصير؟ وهو منشورٌ على الشبكة